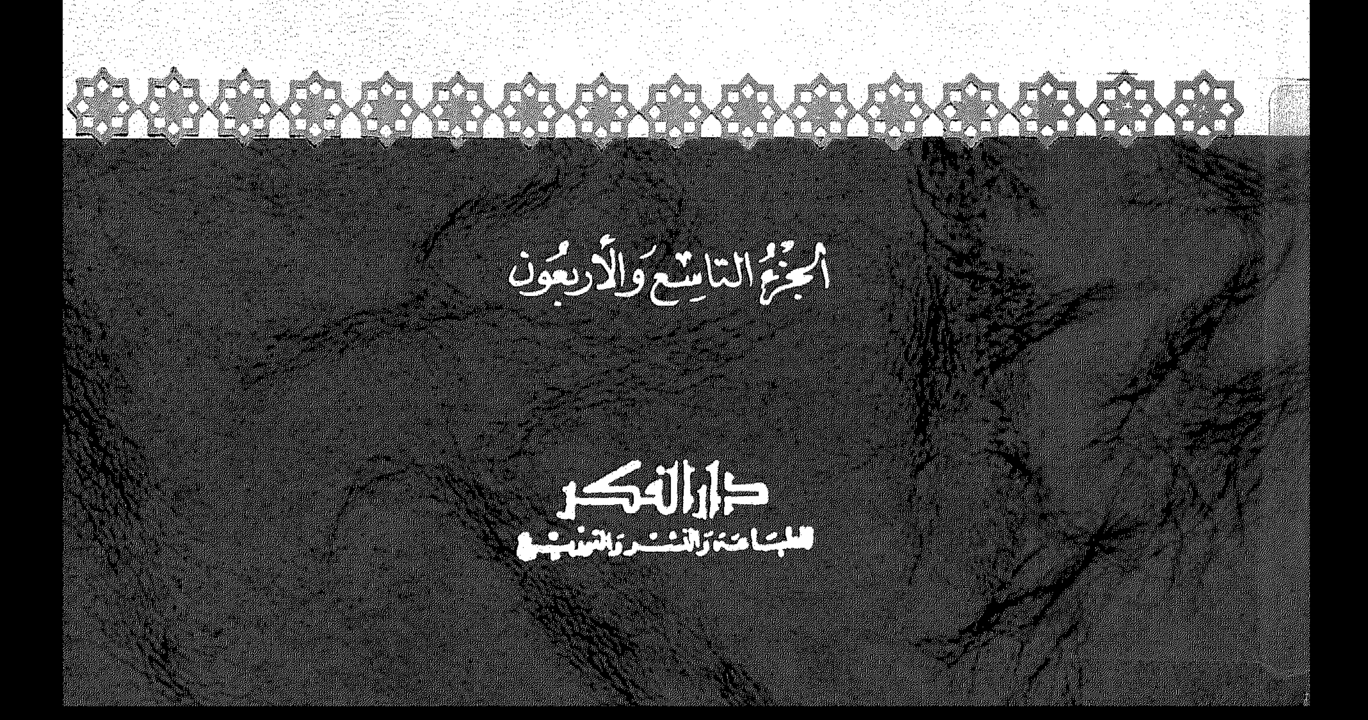
الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



«رجل عنيد، حتى في الموت لم يمكن قهرك (*)»، وكان هذا الشهيد الرائع قريباً للايرل وولتر الذي تقدم ذكره أعلاه، ونحن نعتقد أنهما يحكمان معاً بمثابة أتباع للشهداء، وحدثني بالرواية عن أمير أنطاكية هذا واحد كان حاضراً، وشاهد الواقعة بعينيه، واسمه المعلم رالف بيزاس Bezace, وكان وقتها طبيب الملك رتشارد، وصار بعد ذلك كاهناً في كنيسة القديس بولص، لأنه كان قد بعث إلى صلاح الدين من أجل اطلاق سراح ذلك الأمير، لكنه لم ينجح.

كيف جرى قطع أشجار رئيس أساقفة كانتربري

وفي حوالي الوقت نفسه، جرى قطع أشجار رئاسة الأسقفية، وبذلك نزل الناس الذين كانوا في تلك الأحراش إلى الفقر، وجرى توزيع موارد الكنائس الشاغرة، وفق رغبات الأجانب، الذين لم يكن الموزع يعرف شيئاً عن أخلاقهم وعلمهم، وهكذا بما أن الراعي كان غائباً كانت الشياه عرضة للذئاب.

حول الحرب بين أبناء وولدمار ملك الدانمارك

وتفجرت في هذا العام نفسه حرباً مقيتة بين أبناء وولدمار Waldemar, ملك الدانمارك، الذين كانوا يتصارعون من أجل تملك المملكة، وفي الوقت الذي كان فيه العالم كله يشجب مثل هذه الخلافات الأخوية، وكانت الممالك قد تمزقت بمثل هذه العداوات القذرة، قام آبل Abel الذي كان الابن الأكبر (والذي بالحري ينبغي دعوته باسم قابيل) بالتخطيط لعمل خياني ضد هنري، وعندما كان هنري ـذا على وشك الاستحمام، بعد لعبه بالنرد، انقض فجأة عليه، وذبح أخاه بشكل خياني، وبعد ذلك رمى بجسده في البحر، الذي

---

* — هذه حكاية مخترعة، فيها أصداء لقتل أرناط صاحب الكرك، وأمير أنطاكية من قبل، إثر أسره في معركة حطين، ولاعلاقة للملك رتشارد بالموضوع.

قام ثلاث مرات بقذف الجسد الميت على الشاطىء، لكن آبل اللاانساني لم يرغب بدفن هذا الجسد، فأمر به فنقل إلى مسافة بعيدة، وأغرقه بالأعماق، لكن الرب لم يكن راضياً بذلك، لهذا جرى قذف جسد الملك البريء على الشاطىء، فوق البقعة نفسها، كما كان الأمر من قبل، ولهذا قامت جماعة من الرهبان الفرنسيسكان بأخذ الجسد، وأودعوه بشكل مشرف في قبر في كنيستهم، حيث استجاب الرب لصلواتهم، فمنحهم منافع المعجزات، وللبرهنة على أن الخيانة لاتلقى الحماية من قبل أي شخص، أدان نبلاء داشيا آبل هذا القاتل لأخيه، الذي لم يسمح حتى بدفن أخيه المقتول، وحكموا عليه بالنفي الدائم، وبما أنه حاول التحرك ضدهم وتحديهم، هو نفسه قتل من قبلهم، وبموافقة عامة وضع في مكانه الأخ الثالث الأصغر، ورفع إلى العرش، وهو الآن يحكم بشكل مزدهر، وينبغي أن يكون معلوماً، أن ملوك داشيا جرى منذ القدم مسحهم، وتكريسهم، وتتويجهم، وتلقى هاكو ملك النروج منفعة التكريس، وكذلك الشرعية، من البابا، وجاء ذلك بناء على دفعه إلى البابا انوسنت الرابع مبلغ ثلاثين ألف مارك من الفضة، وتم تكريسه بوساطة لورانس، الذي كان انكليزياً من حيث المولد، وكان من طائفة السسترشيان، وهو الذي صار فيها بعد راعي دير كيركستد Kirk-stead في لنكولنشاير Lincalashire, وهو الذي ذهب إلى روما، وجعل القضية كلها تصل إلى محصلة فاعلة.

عودة سيمون إيرل ليستر إلى غسكوني

في العام نفسه، ومع اقتراب الربيع، عاد الايرل سيمون صاحب ليستر إلى غسكوني، مع قوة كبيرة، ومبلغ كبير من المال، وهناك وجد تقريباً جميع الرجال ذوي المراتب من أهل المنطقة قد تحالفوا في مؤامرة عامة ضده، وكانوا جاهزين للعصيان، ولذلك تجددت الحرب مع شدة مضاعفة، وحصل الغسكونيون على السوء من القضية.

حول البارلمان الذي عقد في لندن

وفي السابع عشر من شباط في هذا العام، عقد بارلمان عظيم في لندن، وذلك حسبما جرى الإعداد له من قبل، وفيه ظهر هنري أوف باث، لأن الملك كان يضطهده، وكان مهاجماً ومتهماً من كل جانب من قبل خصومه، وكان الملك غاضباً منه إلى أعلى الدرجات، لأنه قدم إلى هناك وهو محاط بكتلة كبيرة من الفرسان، وبأسرة زوجته والأصدقاء، وبأصدقائه الخاصين، وقدم الملك ضده تهماً أعظم ثقلاً من الآخرين جميعاً، من أنه سبب الاضطراب إلى المملكة كلها، وأثار جميع جماعة البارونات ضده، ونتيجة لذلك بات حدوث تمرد عام قريب الوقوع، وبناء عليه أمر بإعلان نداء عام بوساطة المنادين في لندن، وفي البلاط من أن أي إنسان له قضية عمل، أو شكوى ضد هنري أوف باث، عليه القدوم إلى البلاط، حيث ستعرض قضيته بحضور الملك، وبناء عليه قام عدد كبير من المتهمين ضده، حتى أن واحداً من زملائه من مسؤولي العدالة، ذهب إلى القول أنه بناء على تلقيه رشوة مؤلفة من هدايا ثمينة، قام بالسماح لرجل كان قد أدين باقتراف جريمة، وسجن من أجلها، بالمغادرة دون التعرض للعقوبة، وهذا إجراء فيه إلحاق للأذى بالملك، وتعريض للخطر ومخاطرة بزملائه المسؤولين عن العدالة، ولذلك ازدادغضب الملك التهاباً، ونهض وهو يقول: «إذا ماقام أي واحد بقتل هنري أوف باث، سوف يكون محللاً من قتله، وأنا سأعلن عنه أنه محلل من ذلك»، ثم إنه غادر مسرعاً، ولقد كان هنالك بين الموجودين عدداً كبيراً ممن ودوا الانقضاض على هنري المذكور، ومهاجمته، لولا أن حكمة جون مونسيل Maunsell واعتداله قد ضبطت عنفهم، ذلك أنه قال: «سادتي وأصدقائي ليس من الضروري أن نتصرف بناء على ماقيل بتسرع وغضب، ومن المحتمل أنه عندما تزول لحظة الغضب، سوف يكون مولانا آسفاً لأنه تفوه بمثل ذلك الكلام الغاضب، وبالاضافة إلى هذا إنكم إذا ما أقدمتم على اقتراف أي

عنف ضد هنري هذا، هاهنا أسقف لندن، مع أصدقائه الآخرين، وهؤلاء الفرسان، فالفئة الأولى سوف تتولى الانتقام روحياً، والفئة الآخرة سوف تتولى الانتقام دنيوياً»، وهكذا، استطاع إلى حد بعيد ايقاف غضبهم، وجرى منذ ذلك الوقت فصاعداً التعامل معه بلطف أكبر، وجاء ذلك بفضل وساطة الايرل رتشارد، والأسقف المذكور، ولأنه أيضاً جرى اخبار الملك، إنه سوف يكون مدهشاً إذا ما اهتم أي إنسان بخدمته، لأنه يسعى إلى قتلهم بعد تقديمهم الخدمات إليه، وبناء على وعد بدفع مبلغ من المال، تحرر هنري المذكور من جميع المخاطر على حياته، وقام بالمغادرة.

تثبيت إيثيلمار في كرسي وينكستر

وجرى في حوالي الوقت نفسه تثبيت أخي الملك لأمه ايثيلمار في كرسي وينكستر من قبل البابا، دون التقيد بصغر سنه، وبجهله بالمعرفة، وعدم كفاءته بشكل مطلق لتسلم مثل هذا المنصب الرفيع، وأن يتولى شفاء الأعداد الكبيرة من الأرواح، وقد نال رعاية كبيرة من البابا، بأنه احتفظ بالموارد التي كانت بين يديه من قبل، وقد تحقق هذا بوساطة المتابعة اليقظة للملك، ولكي يبرهن البابا أنه لم يبذر البذور على ساحل قاحل، من دون أمل من نيل منفعة من الموسم، طلب على الفور، بتجهيز ابن كونت بيرغندي، وكان مايزال طفلاً، بمنحة تخصص له تشكل مورداً له مقداره خمسمائة مارك.

وفاة وليم دي كانتيلوب

ومات في حوالي الوقت نفسه وليم دي كانتيلوب Cantelupe, وكان رجلاً صاحب مرتبة واستقامة، وصديقاً مخلصاً للملك، وقد خلفه في ميراثه ابنه وليم، الذي أبدى الملك نحوه خشونة وقسوة، قبل أن يتمكن من استحواذ ميراثه بشكل كامل، مع أن والده كان صديقاً كبيراً له، أي إلى الملك، وكان القهرمان للبيت الملكي.

اجتماع أساقفة إنكلترا في دنستيبل

مع أن رئيس الأساقفة كان في هذه الآونة يبذل قصارى جهده بكل متابعة، وبقدر ما أوتي من قوة، لابل أكثر مما أوتي من قدرة، وذلك في البلاط الروماني، ليحقق مقاصده، أي الحصول على سلطة القيام بزيارات تفقدية لجميع رجال الدين، في جميع أرجاء منطقته، وكان أساقفة انكلترا، غاضبين تجاه هذا، (بسبب أنه كان من الواضح لهم بأنه لم يكن يستهدف من وراء هذا اصلاح السلوك والدين)، ولذلك اجتمعوا في دنستيبل Dunstable, في يوم عيد القديس متثياس Matthias, للتداول حول عمل الأذى والظلم، الأمر الذي يعنيهم جميعاً ويحزنهم، ووجوب أن يقوموا بالتجهز ضد ذلك من قبلهم جميعاً، وكان هناك بين الحضور أساقفة: لنكولن، ولندن، ونورويك، وسالسبري، وإيلاي، وووركستر، ولأن أسقف شيستر لم يكن بوضع صحي جيد، لم يستطع الحضور، وبعد نقاش وتداول دقيق، أرسلوا مندوباً عنهم المعلم ج. ل إلى البلاط الروماني، ليتقدم بشكواهم حول هذه القضية ويضعها أمام البابا، ذلك أنهم عزموا على تحرير أنفسهم من عنف رئيس الأساقفة، لابل حتى إذا كان ضرورياً أن ينفقوا أربعة آلاف مارك (لأن البلاط الروماني كان جاهزاً بالعادة لمنح الحظوة إلى الذين يقدمون الهدايا)، وبناء عليه ذهب المندوب المذكور إلى ذلك البلاط، وانطلق يعمل بكل نشاط ومتابعة حول القضية التي أسندت إليه، وفي ذلك الوقت أمكن جعل البابا يفهم —ربما من قبل المندوب المذكور، أو من قبل واحد من الأعداء الآخرين لرئيس الأساقفة— لأن مظالمه قد تضاعفت يومياً، وأن رئيس الأساقفة المذكور قام في سبيل إلحاق الأذى العظيم بالكنيسة الانكليزية، فجمع سراً أكثر من أحد عشر ألف مارك، قيل كانت قد منحت إليه من قبل البابا، وبناء عليه كتب البابا جواباً لهم،

بأن عليهم أن يقدموا معلومات وافية حول التجاوز المذكور، وتمّ تجاوز اعتداءاته الهائلة في لندن،ولم يشر إليها، إما بسبب جبن المتشكين، الذين لم يتجرأوا على متابعة دعاويهم، أو أنهم كانوا غير قادرين على انفاق المال، ثم قام البابا بالاعتراف أخيراً، بأنه كان مسروراً لانتقاله من ليون، وأنه تجنب قيود السافويين، ووعد الطرفين اللذان تشكيا، بكل لطف ممكن، بأنهما سوف يحصلان على ماهو عدل، ولكن بما أن البلاط كان يسمن يومياً على ألطافهم، ظل يؤخر إعطاء القرار المحدد، لأنه غالباً ماتشكى، بأنه عندما كان مقيماً في ليون، كان مرغماً على تنفيذ رغبات رئيس أساقفة كانتربري، مع الأسقف المنتخب للنكولن، إلى حد أنه عندما جرى تعيين أحد الأشخاص في أوقاف تلك الكنيسة بموجب سلطاته، وظهر هناك، جُعل طعاماً للأسماك، حيث أغرق أثناء الليل، ولم يتجرأ هو، أي البابا، على التذمر، ولذلك بات أساقفة انكلترا أكثر هدوءاً في قرارة أنفسهم، بسبب النوايا الصالحة للبابا، ولم يخبروه عن أي شيء من تجاوزات رئيس الأساقفة، خشية من أن تعطي حشود الشكاوي مظهر الكراهية، بل تابعوا بثبات العمل في سبيل القضية الرئيسية.

الزيارة التفقدية لأسقف لنكولن

وقام في حوالي الوقت نفسه، أسقف لنكولن بزيارة تفقدية للديرة المؤسسة في أسقفيته، وإذا ما أراد إنسان أن يروي أخبار جميع أعمال الطغيان التي اقترفت من قبله أثناء تلك الزيارة التفقدية، سوف يرى به ليس قاسياً فقط بل متزمتاً وغير إنساني، لأنه بين الإجراءات التي قام بها، عندما جاء إلى رامسي Ramsey, يرافقه أعوانه المدنيين، ذهب يتجول في كل مكان من الموقع، حيث تولى شخصياً فحص الأسرة في مهجع نوم الرهبان، ودقق في كل شيء، إذا ماوجد أي شيء مغلقاً، قام بتدميره، وتولى فتح صناديقهم مثل لص، وداس

محطماً الكؤوس المزينة بأطر، والتي لها في أسفلها أقدام من الفضة، ولو أنه تصرف بشكل حكيم لأعطاها إلى الفقراء وهي سليمة، والذي هو غير مناسب ذكره، أنه ذهب أيضاً إلى ديرة النساء، وأمر بعصر أثدائهن، ليحاول أن يرى مثل طبيب، إذا كانت هناك ممارسة للفسوق فيما بينهن، كما أنه كدس شتائم مرعبة عليهن، مثلما كتب موسى على رؤوس الذين خرقوا مراسيمه، وكتبت مباركة النبي نفسه على رؤوس الذين التزموا بها، وحدث على كل حال أنه جرى في الصوم الكبير التالي تعليقه من ممارسة وظيفته الأسقفية، لأنه لم يقبل أحد الايطاليين الذي كان جاهلاً باللغة الانكليزية، لأن يتسلم إحدى المنافع الغنية في أسقفيته، لكن من المعتقد أنه فعل كل شيء ليمنع الذين كانوا رعيته من اقتراف الذنوب، ذلك أنه كان مسؤولاً عن أرواحهم.

كيف جرى اخضاع ويلز للقوانين الإنكليزية

وجرى في تلك الآونة اخضاع ويلز، التي غالباً ما ثارت ضد مملكة انكلترا، وجعلها مذعنة للقوانين الانكليزية، وعهد بالجزء المجاور لشيستر إلى ألبان دي لى زوكي Zouche, وحلّ هذا الرجل محلّ جون دي غري Grey, الذي كان قد دفع خمسمائة مارك من أجل ذلك، وجاء ذلك بدفعه ألف ومائة مارك من أجلها، وهكذا عرضت ويلز البائسة للإيجار من قبل الذين هم على استعداد لدفع المورد الأكبر.

تثبيت الأسقفين المنتخبين لوينكستر وروكستر

وجرى في الوقت نفسه أيضاً تثبيت أسقفين منتخبين هما: إيثيلمار، أخو الملك لأمه، في كرسي وينكستر، والمعلم لورانس دي سينت مارتين إلى كرسي روكستر، وقد منحا الاذن بالمحافظة لبعض السنوات المقبلة على الموارد التي كانت بين أيديهم من قبل، وهكذا

صارت المخـالفة أمراً مطبقـاً وعادة، أي أن أي واحـد يجري ترشيحه لتسلم أسقفية، يمكنه الاستمرار بمثابة أسقف منتخب، عوضاً عن أن يكون أسقفـاً، وبناء على هذا لم يعد الـراعي هو الذي يتولى الاطعـام، بل هو الذي يطعـم، ويضـاف إلى ذلك أيضـاً أنـه يستطيع الاحتفـاظ بمـوارده الماضيـة، عندما يجري تعيينـه أسقفاً، وبناء عليـه ظهـر التنين المرعب بعـدة أشكال، وأن أي أسقف جـرى ترشيحـه لتسلم كـرسي غني، يتـوجب انتقالـه إليه، وبذلك صـارت كنيسـة ما متكئاً لكنيسـة أخرى.

كيف عبر راعي دير ويستمنستر البحر

وفي هذه الآونـة أيضـاً، أي في الصـــوم الكبير، عبر راعـي دير ويستمنستر البحـر بشكل سري، بناء على رغبـة الملك، وأوامـره، وفي الحقيقـة كـان هناك بعـض الذين قـالوا بأن الملك توفـرت لديه النيـة بالسفــر بنفســه، في سبيـل أن يقـوم بالحج إلى بـونتغناك، من أجل أن يتصـالح هناك مع القـديس ادموند، لأنه اقتنـع بأنه أساء إليـه في كثير من الجوانب، وذلك بالالتـزام وقتهـا بمشـورة النائب البـابوي أوتو، وبناء عليـه آذى رئيس الأسـاقفة المذكـور وأثاره، مع أنه كـان المتلقي لاعترافاته، وأوصلـه إلى حد المرارة في الروح، وساقـه إلى المنفى، لكن الايرل رتشارد لم يقدم موافقته على مثل ذلك الحج المريب، ولم يستطع راعي الدير تأمين طريق آمن من أجل حج الملك، ولذلك شغل نفسه بقضـايا تتعلـق به، أي محاولة الحصـول على الوســائل التي يمكنه بها ارغـام رهبانه الديريين على الرضـوخ له، ومن ثم الحصبول على لقب قسيس البابا، وعندمـا سمع الملك بذلك سعى لتسبيب الاخفاق له في مسعـاه، وفقـد من ذلك الوقت حظوة الملك، التي عليهـا اعتمـد وبها وثق، وذلك حسبما ستبرهن النتيجـة بشكل كامل، وهو الذي سـوف تظهره الرواية التالية في النهاية.

حول الأوضاع البائسة لأنطاكية

وفي تلك الأونة (يؤسفني أن أكتب ذلك) باتت مدينة أنطاكية الجليلة، التي تم الحصول عليها مقابل ثمن سفك الكثير من الدماء النبيلة، عرضة لمخاوف مخزية، ومرد ذلك إلى تزايد قوة الأتراك والتركمان، وتضاعف أعدادهم، ولذلك ارتاب كثير من سكان المدينة بسلامتهم، فأخذوا يهربون، وباتت أوضاع الحكومة كلها مع الإدارة البطركية في حالة من الفوضى، لأن ذكريات انتصار السلطان، واضطراب أوضاع الملك الفرنسي، شجعت المسلمين كثيراً، وأرعبت الصليبيين إلى أعلى الدرجات.

كيف ذهب عمدة لندن إلى البلاط الروماني

وحوالي هذا الوقت نفسه، قام عمدة لندن، الذي غالباً ما تعرض للمضايقة في الدفاع عن امتيازات كنيسته، بالذهاب إلى البلاط الروماني، مع أنه كان متقدماً بالسن، وذلك في سبيل الدفاع عن حقوق كنيسته المذكورة، نتيجة للفضائح المضاعفة التي نشأت من خلال رئيس الأساقفة، ولوجود الذين أمر البابا بتحليلهم، فقام أعداؤهم، فأمروا باسم البابا بحرمانهم كنسياً لأسباب أخرى، ولذلك كان كفاحهم مصدر سخرية لدى العلمانيين، ولاعجب في ذلك.

كيف أغنى الملك الأجانب وأمطر التقدير عليهم أكثر فأكثر في كل يوم

وفي هذا الوقت فقد الملك يوماً إثر يوم عاطفته نحو رعاياه الطبيعيين، حتى أنه لم يبق الآن لديه ولادرجة، ذلك أنه اتبع بشكل مكشوف سيرة أبيه، وأثار الأجانب وجذبهم بقدر ماستطاع إلى جانبه، وأغناهم، وحرم رعاياه الانكليز الطبيعيين، وأقحم الغرباء ووضعهم مكانهم، ففي البداية كان هناك الايرل رتشارد، وبعد ذلك رئيس

الأساقفة، والآن أسقف وينكستر وإخوانه الآخرين، ثم جاء أسقف هيرفورد، وجاء أيضاً بطرس أوف سافوي، مع آخرين هو استدعاهم من جميع الجهات، وصحيح أن كثيراً من الملوك قاموا في انكلترا بالاستيلاء على العربات وعلى الخيول، وعلى المؤن، وعلى الأقمشة، وعلى كل ماهو ضروري بالفعل، فإن البواتيين أيضاً، شغلوا أنفسهم في ظلم نبلاء البلاد، وخاصة الرهبان، بآلاف الطرق، وإذا ماأراد أي واحد أن يحصي فقط الأضرار التي أنزلها وليم دي بلنسية على راعي دير القديس ألبان، ورئيس رهبان التاينهاوث، سوف يبكي بدموع من قلبه، هذا وجرى تقديم رواية حول هذه القضايا في كتاب Additaments, في سبيل اختصار مادة هذا الكتاب.

وفاة الكاردينال وليم أسقف سابينا

وفي حوالي الوقت نفسه من العام، شاهد وليم، أسقف سابينا، وكان رجلاً مقدساً، كما كان كاردينالاً للكنيسة الرومانية، وهو الذي كان قبل سنوات قليلة مضت النائب البابوي في السويد والنروج، وقد تولى تتويج هاكو ملكاً على تلك البلاد، شاهد وهو نائم في إحدى الليالي سالماً ومعافى في فراشه، رؤيا ظهر فيها الكادرينال أوتو، الذي كان قد مات قبل وقت قصير مضى، وهو جالس في نوع من أنواع المؤتمرات الذي كان فيه حشد كثيف من الناس، وذهب وليم المذكور إلى هناك، لكن ما من أحد قام لدى دخوله، أو قدم إليه مقعداً، باستثناء أوتو المذكور فقط، الذي أنهضه من كرسيه، وقال له بصوت مرتفع «تعال ياصديقي إلى الأعلى، لقد احتفظت بمكان لك لتجلس عليه»، وعندما كان أوتو حياً، كان هذان الرجلان في الحقيقة أعظم الأصدقاء، وعندما استيقظ وليم انزعج كثيراً، وأوحي إليه من عليين، بأنه سوف يغادر هذه الحياة في غضون ثلاثة أيام، ولذلك ذهب مباشرة إلى البابا، وبعدما حصل على اذنه ومباركته قال له: «وداعاً يامولاي، لأن الرب قد

استدعـاني من هذه الحياة، وبعدما ودع إخـوانه وأصدقائـه وفق الطريقة نفسهـا، عـاد بشكل تقـوي إلى بيتـه، ودهش جميع الناس تجاه إجـراءاته هذه، وسخـر بعض الأشخـاص منه قـائلين بـأنه صـار متقـدمـاً بالسن ومجنوناً، لأنهم رأوه يتمتع بصحـة جيدة، ولم يصب بأي جـرح جسدي، لكن وليم عمل جميع الترتيبـات الضرورية في بيتـه، باتقـان وكما ينبغي، وبعدمـا أباح خبر الرؤيا المذكـورة أعلاه إلى كثيرين، عبر في اليـوم التالي من مناطق هذا العام بوساطة موت مضمون.

ومـات في حـوالي الوقت نفســه أيضـاً المعلم جـون أوف أوفنغتـون Uffington, وكان كاهن كنيسة سالسبري، وهو لم يكن هناك من هو أشهر منه بين الكهنة في انكلترا.

حول الخلافات بين راعي دير ويستمنستر وبين التجمع الرهباني هناك

وفي هذه الآونة تفجرت فضيحة في دير ويستمنستر الفـاخر، لنشوب خـلاف بين الفئتين فيـه، وهو خـلاف لم يكن هناك مـؤذياً مثله ومضراً وغير طبيعي، لأن راعي الدير كـان رجـلاً متعلماً وحكيماً، وكـان يسعى إلى إلغـاء إجـراء عملـه سلفـه، الذي كـان قـد قسـم ممتلكات الدير إلى قسمين، الحصـة الأولى لاستخدامـاته، والحصـة الثـانيـة لاستخدامـات رهبـانه، وكـان ذلـك في سبيل العيش متمتعين في أعظم سـلام، غير أن راعي الدير هذا كـان يسعى باذلاً كل جهـد ممكن له لتوحيـد القسمين، وأن يرضخ كل شيء ويضعه تحت تصرفه، وبناء عليـه بادر مسرعاً نحو البابا، وتبعه خطوة خطوة، وأطال إقـامته كثيراً في بلاطه، ولم يكن ذلك من دون انفاق مبلغ كبير من المال، ونتيجة لحكمتـه، وفصاحته، وبراعته خصيصاً، عـدّ بين الأصدقـاء المقربين من البـابا، وشرفه بلقـب قسيسه، وحصل على أشياء كثيرة رغب بالحصول عليها وخطط لها، ولدى سماع

رهبان الدير بهذا كله، باتوا مرعوبين كثيراً، وصاروا يخشون من أن ما رسمه بتقوى راعي الدير المتقدم، أي راعي الدير رتشارد، سوف يصبح لاغياً، وبالتالي سوف تصبح أحوالهم أسوأ، وبناء عليه أرسلوا بعض الرهبان المتفوقين في ديرهم، إلى الملك، حيث تقدموا إليه بشكوى محزنة، وخاطبوه كما يلي: «ياصاحب الجلالة، إن راعي الدير الذي عينته علينا يسعى لاشاعة الفوضى في ديرنا، لابالحري في الدير الخاص بك شخصياً، وإلى إلغاء الذي تقرر تقوياً لسلامنا وراحتنا، وإن واجبك هو أن تحمي ديرك، لابل منزلك الملكي من الانحدار والسقوط، من خلال اعتداءات وتجاوزات أعدائه»، وعلى هذا رد الملك مرفقاً كلامه بيمين عظيم، قائلاً: «من المؤكد أنه لن يحقق غرضه»، وفي غضب وسخط، وكراهية، شعروا بأنه قد قال: «أنا آسف بأنني جعلته رجلاً».

رسالة من ألفونسو ملك قشتالة إلى ملك إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل ألفونسو [اقرأ: فرناند الثالث] الملك المنتصر لقشتالة، صدوراً عن عاطفة التقدير والاحترام لملك انكلترا، فارساً وسيماً وفصيحاً إليه، بمثابة رسول خاص، ومن خلاله نصح ملك انكلترا بحكم أنه كان قريبه، وبناء عليه محبوباً كثيراً لديه، بأن لايتبع خطى الملك الفرنسي، عندما سيذهب ويسافر إلى حجه، أو أن يقلد رعونة الفرنسيين، بل بالحري أن يرتحل بشكل مضمون من خلال أراضيه، أي أراضي الملك ألفونسو، وهو شخصياً سوف يرافقه، وسوف يكون صاحبه الذي لن يفترق عنه، ومعاونه الذي لن يتخلى عنه، ولسوف يزوده بالمؤن، والسلاح وبأسطول، وعلمنا مما ذكره هذا الرسول أنه بعد الاستيلاء على مدينة اشبيلية الغنية، خضعت جميع اسبانيا كلها تقريباً حتى شاطىء البحر إلى سلطة الملك نفسه أي ألفونسو، ولقد ذكر أيضاً أن مدينة اشبيلية مع المقاطعة المجاورة لها، اعتادت أن تدفع إلى ملك المغرب (الذي ندعوه أمير المؤمنين) مورداً

ثابتاً كل أسبوع، هو أن تقول أحد عشر ألف مارك، وكان هذا المبلغ يجرى دفعه في اليوم السادس من الأسبوع، ويكاد هذا مما لايمكن تصديقه بالنسبة لنا شعب الغرب، وكان ملك انكلترا مسروراً تجاه هذه الرسالة، وفرحنا نحن أيضاً بجوهر هذه الرسالة، وكنا سنحصل على التشريف بموجبها، لولا أن ألفونسو الملك النبيل قد انتزع من بيننا بموت مبكر، ذلك أنه أذعن للموت في العام نفسه، ومات مبكياً عليه من قبل جميع المسيحيين، وعلى كل حال، حدث بقدر من الرب، أنه عندما مات حتى لايظهر أنه فقد تماماً، ترك وراءه بعض الأولاد الشجعان ليتولوا حكم مملكته.

رسالة بدون قيمة من البابا

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل البابا رسالة إلى راعي دير القديس ألبان، جاء محتواها كما يلي:

«من أنوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى أبنائه المحبوبين، راعي دير القديس ألبان ورهبانه في أسقفية لنكولن، تمنيات الصحة، ومباركات رسولية:

بما أن ولدنا المحبوب كثيراً جون دي كيمكيف Camecave, الذي هو حفيدنا وقسيسنا مستحوذ على كنيسة وينغريف Wengrave بموجب حق التقديم الذي هو —كما نفهم— عائد إليكم، نحن نرجوكم بموجب العاطفة الأبوية، وبهذه الرسائل الرسولية نأمركم بتبديل الكنيسة المذكورة بأول كنيسة عائدة إليكم سوف تصبح شاغرة، والتي سوف يرى القسيس المذكور أو نائبه المنتدب بأنها موائمة للقبول، مع الاحتفاظ بوينغريف لتكون أعطيتنا، دون التقيد بأي منع، أو تحفظ مهما كان، ودون التقيد أيضاً حتى بالغفرانات التي يقال بأنها ممنوحة إلى الانكليز، والمتعلقة بمنافع الكهنة الايطاليين الذين يتخلون عنهم أو

يمــوتـون، وفي أن لاتعطى على الفــور إلى واحـــد آخــر مــن الكهنة الايطاليين. صدر في ليون في الثاني عشر من كانون الأول».

ولقد أقحمنا هذه الرسـالة في كتابنا في سبيل أن تعرفـوا مدى الآلام والأذى الذي أنزله البـلاط الروماني على الانكليز التعسـاء، لأن كل من يتولى تقـدير مقاصـدها، يمكنه أن يجد فيها التحـدي، والأذى، والظلم، وأن كلمات شجب الرسـول تطبق عليها وهـو قوله: «مـا لم يتم الفصل أولاً، فإن ابن الظلم لن يظهر»، فها هنـا القضية، وهاهي الأسباب التي تبين لماذا ينسحب الناس من الكنيســة بالقلب، وليس بالجســد، وذلك بسبب أبينا البـابا، الذي أثير ليتصرف بعناد مثل زوج الأم، الذي ينفس عن غضبه بالتنكيل بزوجة الأب.

وصول الملك إلى سينت ألبان

ذهب الملك في هذا العـام، في أحـد أسبـوع الآلام إلى سينت ألبـان، وبقي هناك ثلاثة أيام، قـدم خـلالها ثلاثة طيلسـانات إلى القديس ألبـان عند المذبـح الكبير، وقـــدم طيلســـاناً إلى القـــديس أمفيبـــالوس Amphibalus, وأعطى بعض التقــديمات من الذهب إلى مـــزار القـديس ألبـان، ولقد كـان على كل حـال معـاق كثيراً في تنفيذ العـدل بالنسبـة لقضيتنا، التي كانت مـؤذية كثيراً لنا، وهي القضية التي كـانت قائمـة بين كنيسة القـديس ألبان وغيـوفري دي تشـايلدويك Childe-wick الذي اقترف تجاوزات كثيرة جداً حتى نتمكـن من روايتها، وخرق بعنف سـلام المملكة، وكرامة التـاج الملكي، وفعل ذلك بالقوة، وتصرف مثل قاطع طريق، فـاستولى على حصان كـان محملاً بالهدايا من واحد من خدم كنيسة القديس ألبان، ونتيجة لذلك جرى اتهامه من قبل الخادم بخرق السـلام، وتم الحصول على مـذكرة من الملك، فيهـا جرى اتهام هذا الفارس بالجريمـة، وألصقت به، إذا ما كـان بإمكاننا استخدام هذه الكلمـة المأخوذة من مفـردات العـدالة، ولكن عندما شـاهد راعي

الدير الفتور في العدالة، واعفاء الملك وتراخيه، ومعه جون مونسيل Maunsell, الذي كان مستشاره الخاص، والذي كان أيضاً زوج أخت الفارس المذكور، وصدوراً عن حظوته لدى الملك، وأنه سيقف منحازاً إلى الفارس، عندما شاهد هذا كله أهمل الترافع بالقضية، ومع ذلك فإن هذا الفارس العاق، لم يتقيد بهذا، وسعى بشكل دنيء وخياني إلى إيذاء الكنيسة، وراعي الدير، ورهبان القديس ألبان، مع أنه كان تابعاً لهذه الكنيسة، وتولى جون المذكور حضه وتشجيعه، وحثه على الاستمرار، وساعده.

حول اعتقال فارس إسمه روبرت وموته

وجرى في هذه الآونة اعتقال أحد الفرسان واسمه روبرت كاندوس Chandos, وكان رجلاً قوياً وجريئاً، وكان تابعاً لحاشية بيت جون أوف مونماوث Monmouth, وكان هذا الرجل لسبب ما قد تخلى عن خدمة مولاه جون وهو غاضب، وانخرط بصحبة عدد من المتعاونين معه، وشغل نفسه سراً وعلناً، مثل حشيشي شرير في أعمال السرقة والقتل، وعندما كان الملك مقيماً في كنيسة القديس ألبان، حسبما ذكرنا أعلاه، وصل إليه تقرير بأن أعوان ايرل غلوستر قد اعتقلوه، وألقوا به في السجن، حيث بقي مغلولاً بشدة لأن سجانيه كانوا خائفين منه، وقد مات هناك ميتة تعيسة.

وفاة العقيلة التقية سيسيليا دي ساندفورد

وفي الثالث والعشرين من تموز في هذا العام، وعلى بعد حوالي التسعة أميال عن سينت ألبان ماتت امرأة مقدسة كثيراً اسمها سيسيليا أوف ساندفورد Cecilia of Sanford, وكانت أرملة من أصل نبيل، وكانت أكثر نبلاً بأخلاقها، وكانت أرملة وليم دي غورهام Gorham, وكان فارساً، وأم وليم دي غورهام الأصغر، والذي

كـان أيضـاً فارسـاً، وبعـدمـا مكثت لسنين طويلة أرملة، ولأنها كـانت متعلمة وفصيحة، انتخبت لتكون معلمـة وموجهة لجوهانا Johanna أخت الملك، والتي كـانت أرملـة وليم مـارشـال الأصغـر، وفيما بعـد صـارت جوهانا زوجـة و. W دي بلنسيـة، وقامت هذه السيـــدة سيسيليـا مع جـوهانا، كـونتسـة بمبروك Pembroke, وكـــانت آنذاك أرملة، بحضـور القـديس ادمـوند، وكـان آنذاك رئيساً لأسـاقفـة كانتربري، فقطعت على نفسهـا عهداً مهيبـاً بالالتزام بعفة دائمـة والبقاء أرملة، ومع خـاتم الاقتران ارتدت الثـوب الخمـري اللون، الذي كـان يرتدى بمثابة علامة على العذوبية الدائمة، ومثلما فعلت، فعلت تلميذتها الكونتسـة جـوهانا، لكن جـوهانا هذه رغبت فيما بعـد بأن تصبح أمـاً، فحصلـت على تحليل مـن البـــابـا، وتزوجـت من ايـرل أوف ليستر، وحـافظت سيسيليا —على كل حـال— في كل من العقل والسلوك، من دون احباط على عهدها الذي قطعته للرب حتى وفاتها، وعندما شعرت بدنو منيتهـا، استـدعت بسرعـة المتلقي لاعترافـاتها، الراهب وولتر دي سينت مـارتين، الذي كـان من طائفـة الدومينيكان، والذي كـان رجـلاً متعلماً وفصيحاً، وبعدما عملت اعترافاً كاملاً، وتمتنت بقربان جسد ربنا للمـوت، وتلقت مسحـاً أقصى، تمددت تنتظـر الموت، وعندمـا شـاهد الراهب وولتر الخاتم الذهبـي على اصبعهـا، قـال لخدمهـا الذين كـانوا يرعـونها: «انزعـوا هذا الخاتـم على الفـور، حتى لاتموت وهي مزينة»، لكن سيسيليا، مع أنها كانت شبه ميتة، سمعت هذه الكلمات، فاستردت أنفاسهـا وسعت لأن تتكلم، وقالت مـايلي: «بعيداً هذا عني، أيها الأب العزيز، أن يتركني هذا الخاتم مادمت حية، فأنا سوف أقدمه أمام محكمة الرب، الذي هو قريني، شهـادة على الطهارة الدائمـة التي أنا وعدته بها بوسـاطة هذا الخاتم، في سبيل أن أتمكن من تلقي الجائـزة الموائمـة، وأنا أعـرف الذي أثق به، لأنني لهذا السبب رفضت معانقـة النبلاء والمهـور الثمينة التي عـرضت علي»، ومـا أن أكملـت قـولها حتى سحبت يدها،

وحنت اصبعهـا، وحـافظت بثبـات على الخاتم، مـع أن الخدم حـاولوا انتزاعـه، ومع الانتهاء من كـلامها أنهت حيـاتها، وبما أن الراهب وولتر كـان رجـلاً مستقيماً أطرى على كـلامهـا التقوي، وعلى غـايتهـا التقيـة، وروى ذلك لي، أنا كـاتب هذه الصفحات، وأخبرني أيضاً بـأمثلة أخرى عن قداستها، وتمّ جلب جسدهـا والخاتم مايزال في اصبعها، إلى كنيسة القـديس ألبان، وبسبب الامتيـاز الذي منح لعـزوبيتها، ولنبـالة أسرتها، دفنت بشكل مشرف في قبو حجـري أمام مذبـح القديس أندرو في تلك الكنيسة، وأثناء القيـام بالمراسيم المهيبة للدفن، كـان حاضراً راعي الدير والرهبـان، وعدد كبير من الفـرسان والنبـلاء من أسرة السيدة المتـوفاة، وكـان من بين هؤلاء نيقولا أوف سـاندفورد، أخـوها، ونتيجة للحـزن الذي شعر به لوفاة أخته النبيلة، لم يتقدم صحيـاً بعد ذلك، فهو قد كان شاباً، ووسيماً في شخصه، وكـان الفارس الأول في انكلترا في الشجاعة، لكن بعـد مـرور بعض الوقـت، في الحزن، دفع في العشرين من كـانون الثاني من العام نفسه دين الطبيعة.

مغادرة البابا لمدينة ليون

وفي العـام نفسه، في مـوسم الاحتفـالات، غـادر البابا مـدينة ليـون، مـرافقاً بكرادلتـه، وبعـدد كبير من النبلاء، وكـان دليله فيليب الأسقف المنتخب لليون، وكـان محاطاً بحاشية كبيرة من الرجال المسلحين، خـوفاً من اعتـداء من أصـدقـاء فـردريك، وعنـدمـا بات كل شيء جـاهزاً للمغادرة، تولى الراهب هوغ، وكان كاردينالاً، باسم البابا، توديع سكان ليـون، ووعـظ بشكل علني بقـداس إلى النـاس، وبعـدمـا أعطاهم توجيهـات صـالحة، وودعهـم بشكل أديب، وأستأذنهم باسـم البـابا والبـلاط كله، أضـاف إلى ذلك خطاباً، نعتقـد أنه من الموائم ادخـاله في هذا الكتـاب بسبب التـوبيخ الشـديد الذي ورد فيـه، حيث قـال: «أيها الأصدقاء، عملنا منذ وصولنا إلى هذه المدينة كثيراً من الأعمال الصالحة،

ووزعنا الصدقات بشكل واسع، لأننا عندما قدمنا إلى هنا وجدنا ثلاثة أو أربعة بيوت دعارة، والآن عند مغادرتنا خلفنا وراءنا بيتاً واحداً فقط، لكن هذا البيت ممتد من الباب الشرقي للمدينة إلى الباب الغربي»، وأساء هذا الخطاب إلى جميع النساء وأزعجهن، ذلك أنه كان هناك منهن عدداً كبيراً جداً لسماع هذا القداس والخطاب، لأنه جرى جمع سكان المدينة بواسطة صوت المنادي، باسم البابا، لأنه كان على وشك مغادرتهم، وجرى تناقل هذا الكلام الحاد من فم إلى فم بين كثيرين، لأن سخريته أصابت الجميع سواء.

كيف وصل البابا دونما أذى إلى ميلانو

وبعد كثير من المخاطر والمصاعب، وصل البابا دونما أذى إلى ميلانو، في يوم عيد ميلاد القديسة مريم، وعند وصوله جرى استقباله من قبل السكان، الذين رحبوا به بتشريف عظيم، لكنه بعدما أمضى شهراً بينهم، طالبوه بدفع مبلغ كبير من المال، قالوا بأنهم أنفقوه في التصدي إلى الامبراطور فردريك، في سبيل كرامة الكنيسة، وهو شخصياً، وعلى هذا الطلب، يقال بأن البابا أجابهم بهدوء كما يلي:

«أصدقاء الرب والكنيسة، نحن نعرف معرفة جيدة بأنكم عرضتم أنفسكم إلى كثير من المخاطر والخسائر، في سبيل كرامة الرب، وكنيسته، ونحن أنفسنا، لكنكم تعرفون جيداً بأنني طردت من المدينة (روما) وكنت منفياً، وعانيت من كثير من الخسائر، بالاضافة إلى كرامتي، وإنه على كل حال عندما يبتسم الحظ لنا وللناس كما آمل، وأثق أن يكون ذلك بفضل جهودكم، سوف أتفقدكم بكثير من الكرامات»، وبهذا الخطاب وخطابات مشابهة له، وبتقديم الهدايا، التي قدم منها البابا كثيراً بيدين مفتوحتين، ومع كثير من الوعود والأماني، تمكن بحكمة من تهدئة غضب سكان المدينة، لأنه كان يعلم بأن يده محبوسة بشدة في فم الأسد، وعلاوة على ذلك حصل على وعد منهم، بأن جميع سكان

المدينة، سوف يرافقونه وهم مسلحين بشكل جيد، ويوصلونه سالماً دون أذى وبدون خسارة إلى حدود ممتلكاته، وذلك بهدف حمايته من جميع مؤيدي فردريك، ثم إنه انطلق، إنما ليس من دون نفقات كبيرة نحو بيروجيا Perugia, ولم يرغب بدخول أية مدينة كبيرة، خشية الوقوع مثل سمكة في شبكة الصيد، وأن لايتمكن من الخروج ثانية، ولذلك لم يوفر جنبي فرسه وأسرع بقدر مااستطاع في سفره حتى وصل إلى بيروجيا، حيث استقبله السكان بكل اخلاص مستحق، وذلك صدوراً عن التقدير للربح الذي سوف يحصلون عليه من الناس الذين سوف يتدفقون على هناك.

وصول راعي دير ويستمنستر عائداً من البلاط الروماني

ووصل في حوالي الوقت نفسه، راعي دير ويستمنستر، وقسيس البابا، عائداً من البلاط الروماني، وهو متورط بعمق بالديون، وبالمسؤوليات القانونية، لأنه أقام طويلاً في ذلك البلاط، ونال لنفسه عواطف كثيرين كانوا هناك، إلى حد أنه اعتقد بأنه كان الرجل الذي كان بإمكانه تحمل القضايا الصعبة، وأنه سوف يبقى كلية مع البابا، وقد وصل الآن مسلحاً بكثير من السلطات المضاعفة ليرغم الرهبان في ديره على الخضوع لإرادته، وتوجه على الفور إلى عند الملك في ويندسور Windsor, حيث رتل قداساً أمامه وكأنه كان البابا، لأنه كان مدهشاً ومتميزاً بصوته وكذلك بوساطة شخصيته، ثم إنه اقترب واثقاً من الملك، وأراه رسائل من كثير من الأمراء، والتمس منه اذنه، أن يتولى الإدارة الكلية لدير وينكستر، الذي عهد الملك بولايته إليه، وأن يدمج الحصتين المفصولتين للممتلكات في كنيسته في حصة واحدة، وتجاه هذا الطلب، نظر الملك، الذي كانت عواطفه قد نأت عن راعي الدير، وحدق به شزراً، وتفوه بكثير من عبارات الملامة والتوبيخ التي لايمكن ذكرها، ووجّه الاهانات إليه، وكان من بين ماقاله توبيخاً أنه أعلن بأنه قد رقاه —أي راعي

الدير— دون أن يستحق ذلـك، وأنه تصرف بشكل غير حكيم بدعـوته إلى استشـارة سريـة، وقـال له: «كيـف يمكنني أن أضع أية ثقـة بك وبإخلاصك، وأنـت الذي سعيت إلى ظلم ومضايقة رهبـانك مع الذين كانوا أصحـابك والضيوف على المائدة لوقت طويل مضى»؟، وقـام عدد كبير من أصـدقـاء راعي الدير، كـان منهم جـون مـونسيل مع كثيرين آخـرين عـددهم كبير جـداً حتى نقـوم بذكـرهم بالاسم، فتـوسطوا من أجله، ومع ذلك قـام الملك وهو غاضب بطرده من مجلسـه الاستشاري، وأبعـده عن حظوته، وبعـد لأي وافق راعي الدير —الذي كـان بإمكانه إثارة غضب الملك بسهـولة— على الالتزام بقرار يصـدر عن لجنة تحكيم مؤلفة من جـون المتقدم ذكره أعلاه، ومن الايرل رتشـارد، إذا كان ذلك يرضي الملك، ووعد بأنه سوف يصـادق على الذي سوف يقررانه ويوافق عليه، وقـد وافق على هذا بالرضا المجمع الديـري، مع أن المحكمين كانا صـديقين حميمين لراعي الدير، ومثـل هذا أعطى الملك مـوافقتـه، وبعـد كثير من المناقشـات، وافـق الحكمان على رغبـات الـرهبـان ومطالبهم، ورفضـا طلبات راعي الدير، لأنهما علما بـأنهما سوف يرضيـان الملك بهذا القرار، ومع ذلك فإن هذا الخلاف لم يصل إلى نهاية في هذا العام.

فقدان الملك الفرنسي للمال في البحر

وفي الوقت نفسه أرسلت أم الملك الفرنسي مع أخويه مبلغاً كبيراً من المال من أجل فـديته، ولكن عندما كـانت السفينة الحاملة للمال تسير في البحر، هبّت عـاصفة، وغـرقت السفينة مع كل شيء كان على ظهـرها، وعندمـا سمع الملك الفـرنسي التقـي بهذه الحادثة قـال: «لاهذه الكارثة ولاأية كـارثـة أخـرى سـوف تنأى بي وبعـاطفتـي عن المسيح»، وهكذا اطمأن هذا الملك النبيل وواسـى ومتّن الذين رأى أن قلوبهم ضعيفـة، وبذلك بـدا وكأنه الثـاني ليعقـوب، حتـى أن المسلمين أشفقـوا عليـه وأعجبوا بمثابرته وبثباته العقلي.

الفيضان غير الاعتيادي في فريزلاند

وتدفقت في العام نفسه بعض المياه، كما هو معتقد، من صدر البحر، وسببت فيضاناً غير عادي في فريزلاند، غطى وجه تلك البلاد لمسافة سفر حوالي السبعة أيام، وبهذه الزيارة التفقدية للانتقام الرباني، وفي تلك الأثناء، جرى دمار جميع القطعان، لكن بعد مضي أربعين يوماً عادت كتلة المياه المدمرة هذه إلى مكانها المعتاد، ثم قام الناس من أهل الجوار الذين بقيوا أحياء بالتفتيش في كهوف الصخور، والقلاع شبه المدمرة، حيث تمكنت الأمواج المدمرة من قهر السكان، ووجدوا هناك أعداداً كبيرة جداً من الأجساد المرتدية، حول أذرعتها، ورقابها، وأصابعها، والأجزاء المتبقية من أجسامها سلاسل زينة، وعقوداً، وخواتم، وأحزمة ثمينة، ومشابك ذهبية، مع أثواب ثمينة، تساوي جميعها مبلغاً هائلاً، فقد قام هؤلاء الناس، وهم على وشك الهلاك، بربطها حول أجسامهم، من أجل أنه لدى العثور عليهم فيما بعد، أن يجري دفنهم بجاهزية، وأن يمنحوا طقوس الدفن بكرم زائد، وهكذا حدث أن الذين بقيوا أحياء صاروا الآن أغنياء بوساطة أسلاب هذه الأجساد، ومضى كثير منهم إلى سوق القديس بوتولف Boutlph, وباعوا ذهبهم، وفضتهم، وجواهرهم، وفق شروط جيدة إلى التجار الذين كانوا على استعداد لشرائهم.

عودة هنري أوف باث إلى البلاط

وفي حوالي يوم عيد القديسة مريم المجدلية، عاد هنري أوف باث، الذي تقدم ذكره أعلاه، إلى البلاط، واسترد حظوة الملك بوعده إياه بألفي مارك، ونسي بذلك جميع المصائد التي نصبت له، ونجا منها من قبل.

وصول الأسقف المنتخب لوينكستر
إلى إنكلترا قادماً من البلاط الروماني

وقدم في هذه الآونة أيضاً ايثيلمار، أسقف وينكستر، من القارة، ونزل في انكلترا، تحيط به حاشية كبيرة وبأبهة عظيمة، ولدى وصوله، مضى الملك وهو مسرور لاستقباله، يرافقه عدد كبير من النبلاء، خاصة من البواتيين، وكان من بينهم أخويه: وليم دي بلنسية، وغيوفري دي لوزنغنان، الذي كان الأخ الثالث للملك، وبعد التعبير عن سرورهم فيما بينهم، ذهبوا إلى وينكستر، وفي اليوم التالي لعيد القديسة مريم المجدلية، الذي كان يوم أحد، اشتركوا مع بعضهم بالعيد هناك، وهكذا طارت جميع عظمة انكلترا ونبالتها، وذهبت إلى الأجانب، لأن الانكليز المحليين قد أبعدوا كلياً، وكان لدى الأسقف المنتخب المتقدم ذكره، سبباً إضافياً للسرور، لحصوله على حظوة البابا، وعلى حظوة الملك التي نالها بموجب علاقة الأخوة بينهما، وبموجب ذلك احتفظ بالممتلكات وبالموارد التي كانت بين يديه من قبل، والتي وصلت إلى أكثر من ألف مارك، وهي التي، مع أنه أسقف منتخب مسكين، قد حصل عليها من استخراجات أخيه الملك، لأن من المعتقد أنه لم يكن هناك كنيسة مفردة في انكلترا، هي مشهورة، لم يتم امتصاص الحليب من صدرها حتى جف، ولقد رأينا أنه من المناسب أن نقحم في هذا الكتاب رواية لابد من أن تسبب جريان الدموع من عيون قرائي، فقد أرغم راعي دير كنيسة القديس ألبان، من خلال الاستخراجات الهائلة والتي بلا حياء، للملك، على دفع مائة شلنغ من خزانته، لصالح سيمون الذي كان كاهناً من نورويك، مع أن سيمون هذا المذكور كان قد مات في العشرين من عمره، ولقد طالب الملك قبل دفنه تقريباً، بأن يجري تحويل المورد ليسمن به شخص آخر، كان أيضاً من الأجانب، وهذا ما جرى تنفيذه، مع أن ذلك كله كان ضد رغبة راعي الدير، وسبباً لحزنه،

وعلاوة على ذلك طلب الملك بوجوب منح عشرة ماركات سنوياً من خزانته، إلى أخيه ايثيلمار، الذي هو الآن الأسقف المنتخب لوينكستر، وبناء عليه، عندما جرى انتخاب ايثيلمار إلى ذلك الكرسي، طالب على الفور بتحويل هذه العشرة ماركات، التي كان ايثيلمار قد تسلمها لعدة سنوات، ودفعها إلى كاهن بواتي صغير، الأمر الذي سبب الخطر للكنيسة، وكذلك الخسارة، وبذلك توفرت الظروف لأن يلحق بالكنيسة ضرر لايمكن تعويضه، وأن تصبح عرضة للعبودية، وبالإضافة إلى هذا لم يتردد الملك بطغيانه عن إنزال أضرار كثيرة متكررة ومضاعفة، ووضع أعباء ثقيلة على كنيسة القديس ألبان، الذي كان رائد الشهداء الانكليز، وهذا كله مزعج لأن يقوم الكاتب بوصفه، ومرهق للسامع حتى يصغي إليه.

موت بوينتز بيبر

وفي الخامس من حزيران من هذا العام، غادر طريق الجسد، فارس متعلم، أو بالحري كاهن فارس اسمه بوينتز بيبر Poyntz Piper, وجاءت وفاته في لندن، ولقد كان ساقي الملك، وواحداً من مستشاريه الرئيسيين، وكان عندما بدأ يدور حول بلاط الملك ويتردد عليه بالكاد يمتلك فدانين من الأرض، وذلك كما هو معروف بشكل جيد، لكنه تمكن خلال مدة وجيزة، بوسائط قانونية وكذلك غير قانونية، من الحصول على كثير من الأراضي والموارد، حتى أنه امتلك أكثر من خمسين فداناً من الأراضي الجيدة، وباتت لديه ثروة ايرل، لابل حتى إنه ادعى لنفسه فخار حمل هذا اللقب، وكان شارياً للأرض لايعرف القناعة، ولامثيل له في بناء العزب، ومن دون أن نذكر أعماله الأخرى الكثيرة، تولى تزيين عزبة تيدنغتون Tedington, ببناء قصر فيها، وبيعة، وغرف نوم، وبيوتاً أخرى من الحجارة مغطاة بالرصاص، وشيد حدائق ومطارد هناك، كانت محطّ اعجاب كل الذين شاهدوها، وقد

ذكر العاملون في أبنيته أنهم بقيوا عدة سنوات، يتلقى أحدهم مائة شلن في كل أسبوع، وغالباً ما كان أجر كل واحد منهم عشرة ماركات، وبعدما جرى فتح جسده، جرى دفنه في لندن، لكن قلبه جرى حمله إلى تيدنغتون، وهو القلب الذي بقي في حالة عدم استقرار خلال حياته، وتزوج جون دي غري Gray, الذي كان فارساً شجاعاً ووسيماً من أرملة بوينتز المذكور، وصار خليفة غير متوقع له، وبذلك سكن الأبنية الفخمة، التي بالكاد كانت قد كملت، وهكذا فإن جسده قد قسّم، وممتلكاته أيضاً قسمت وتفرقت:

ليس لنفسك أيتها النحلات تصنعين العسل

تأبين بولينوس Paulinus بيبر

أنت يابولين بيبر حماك الرب

وعندما تقوم من قبرك آمل

أن تمنح بفضل نعمة ادوارد

حياة أبدية مباركة في السماء

تأبين آخر للشخص نفسه

هنا يرقد تحت الأرض رماد بوينتز بيبر

تفكروا، أنتم ياأبناء الفناء:

أنا ماستكونون أنتم، وماأنتم عليه الآن

قد كنته.. وأن يرتفع إلى السماء النذر التقي

والدعاء إلى الرب الذي أحتاجه في وقت عوزي هذا

في أن لاتتغذى الديدان على جسدي

وصول راعي دير كلوني إلى إنكلترا

وفي حـوالي الوقت نفسـه، قـدم راعي دير كلوني إلى انكلترا، ليـزور رهبـانه، وليصلح طائفتهم، وليتـولى فحص كمية أمـوالهم، لكنه عندمـا كان مقيماً في انكلترا، ناوياً الحصول على بعض المرابح، قام بعض جيرانه في القارة بالاستيـلاء بالقوة على بعض قلاعه مع متعلقـاتهم، وبناء عليه أرغم على العودة على الفور.

كيف تم العثور على بعض الرهبان الموتى في كنيسة القديس ألبان

جـرى في هذا العـام، أثناء عمارة بعض الأبنية الحجـرية قـرب المذبح الكبير، في الجانب الجنوبي من كنيسـة القـديس ألبان، العثـور على عظام بعض الرهبان الموتى، بلغ تعـدادهم حوالي الثلاثين، وقـد جرى جمعهم بكل عناية، ووضعوا في قبـوين حجريين، تحت قنطرة عملت في الجدار، وقد عمل هذا لسبب جيـد، لأنه كان من المعتقـد وجود كنز ثمين مخفي هناك، وكانت عظام بعض الأجسام بيضاء مثل العـاج، لابل أكثر بياضاً عندما جرى تفتيتها، وأعطت رائحـة كأنها قد دهنت كلها بزيت معطر، وكانت أحذية هذه الأجسـاد —علاوة على ذلك— سليمة بنعالها، ومن الواضح أنها كانت مناسبـة لاستخدامات الفقراء، وكـانت النعال نفسها مستـديرة، لذلك كانت مناسبـة لأي قـدم من القدمين، من دون تمييـز، وكـانت الأحذية مـربوطة بخيـوط، وكانـت بعض هذه الخيوط مـاتزال سليمة، وهذه واقعـة سببت العجب والدهشة لجميع مشاهديها، خـاصة وأن القبـور عدّت بأن عمـرها مـائـة سنة على الأقل، وبحكمة وتقـوى اعتقد بأن هذه علامة على قداستهم، ولدى تفكر بعض الرهبان الأحياء الآن حـول هذه المسائل، انفعلوا وحـزنوا، وقـالوا فيما بين أنفسهـم، مع تنهدات عميقـة: كم كان أسلافنا وآباءنا مبجلين، حتى أنهم استخـدموا

مثل هذه الأشياء، التي فيها اشارات إلى قداستهم، آه أيها الرب، كم هي موثوقة البينات التي عملتهـا، وكم هي واضحة البراهين على صلاحهم وسعـادتهم، خـاصـة في بيـاض عظام وطيب رائحـة هؤلاء الـرجـال المتـواضعين، ثم إنه بـلاشك، كـانت كنائس هؤلاء الرهبـان قـد تلقت السعـادة مضـاعفـة في الأمـور الدنيـويـة، وفي القضـايا الروحيـة، وهي الكنائس نفسهـا، التي من خـلال انتقام الرب، لضـلالها وابتعـادها عن طرق آبائها، معاقة ومتضررة من قبل الأسـاقفة وكذلك من قبل النبلاء، اخجلوا أنتم يارهبان أيامنا، الذين ترتدون، لابالحري تتزينون بالأثواب الناعمـة، والرفيعـة والثمينة، ومـاالذي يمكن قـوله عن القمصـان التي ترتدونها، وعن القبعـات التي تلبسـونها أيها الناس؟ آه، لو أن القـديس بندكت يعـود إلى الحياة —وهو الذي كـان قد شاهد في بعـض الأحيان العـالم كله قـد تجمع تحت أشعـة الشمس— ويـرى هذه الأشيـاء (وفي الحقيقـة لابد بالفعـل أن يراهم) إلى أي حـد سـوف يشعـر بالانزعـاج والغضب، ولو أن القـديس برنارد، تمكـن من رؤية هذه الأشيـاء، كيف كان سيتـأوه آسفاً، لأنه كـان قد قال وكتب: «مـامن شيء أكثر اغضـاباً للرب، من راهب أكل طعـاماً لطيفـاً، وارتدى ثياباً ثمينة، ولبس حـذاءً ناعماً خفيفاً».

وفاة غيوفري قهرمان الملك

وفي العام نفسه، وفي الوقت نفسه، الذي غـادر فيه بوينتز هذه الحياة، كما تقـدم الذكر أعـلاه، مـات غيوفـري الفـارس النبيل، قهرمـان قصر الملك، والمستشار الخاص له.

كيف جرى استدعاء السماسرة إلى العدالة

أصبح في حوالي الوقت نفسه المرابون من وراء الألب الذين ندعوهم باسم السماسرة Caursins كثيري العدد، وصاروا أغنيـاء إلى حد

أنهم شيدوا قصوراً فخمة لأنفسهم في لندن، وقرروا أن يقيموا هناك بشكل أبدي، مثل السكان المحليين المولودين هناك، ولم يتجرأ الأساقفة على التذمر لأن السماسرة قد أكدوا أنهم كانوا وكلاء البابا، كما لم يتجرأ سكان المدينة على التعبير عن عدم رضاهم، لأن هؤلاء كانوا محميين من قبل بعض النبلاء، وينالون حظوتهم، الذين قيل بأن أموالهم قد وضعوها لديهم في سبيل جمع الفائدة، وفق طريقة البلاط الروماني، وحدث على كل حال أنه تم بناء على رغبة الملك وبتوجيه منه، أن وجهت إليهم تهماً ثقيلة عرضت ضدهم في المحاكم المدنية، وجلبوا إلى المحاكمة أمام القاضي، وجلس أحد القضاة في لندن، ممثلاً للملك، وقد اتهمهم، ووجه إليهم تهماً بأنهم كانوا منشقين، وهراطقة، ومجرمين بالخيانة ضد الملك، ذلك أنه مع أنهم أعلنوا عن أنفسهم بأنهم كانوا يؤمنون بالمسيحية، كان من الواضح تماماً أنهم لوثوا مملكة انكلترا بتجارتهم الدنيئة في ممارسة الربا، وتجاه ذلك تشكى الملك المسيحي، لأنه تأثر كثيراً وجرح في ضميره، بحكم أنه كان قد أقسم على الحفاظ على مؤسسات الكنيسة دونما أذى، وبما أن السماسرة لم يكن بإمكانهم إنكار التهمة، جرى اعتقال بعضهم، وعهد بهم إلى السجن، وأخفى آخرون أنفسهم في أماكن نائية، وفرح اليهود لاتخاذ هذه الإجراءات، لأنهم أصبحوا الآن شركاء لهم في حالة العبودية، وعلى كل حال أمكن أخيراً عن طريق دفع مبلغ كبير من المال، فسمح لهؤلاء السماسرة —المنافسين لليهود— بالعيش بسلام لبعض الوقت، وأخبرني واحد منهم، أنا كاتب هذا العمل حول هذه القضايا، وأعلن لي مؤيداً إعلانه بيمينه، أنهم لولا عمارتهم لهذه البيوت الثمينة في لندن، بالكاد لم يبق أحد منهم في انكلترا.

وفي هذا العام أيضاً، تولى البابا صياغة بعض الفتاوى، التي يمكن للقارىء الحريص أن يجدها في كتاب Additaments.

حول اجتماع الرعاة في فرنسا من أجل الاستيلاء على الأرض المقدسة

وفي حوالي هذا الوقت، تصور عدو الجنس البشري بعض الآمال المطمئنة، بأن نهر الأردن سوف يتدفق على فمه، مثلما هو يشرب الآن منه بوسائط سلطان مصر، ولدى مشاهدتهم أنه في فرنسا الحلوة الإيمان المسيحي كان يترنح، وبات جاهزاً للسقوط، فشغل نفسه في تأسيس نوع جديد من العقيدة الزائفة، وكان هناك أحد الأشخاص من أصل هنغاري، كان قد بلغ الآن الستين من عمره، ولقد كان منذ صباه مرتداً عن الديانة المسيحية، وقد تقمص بشكل جشع الزيف والمكر الصادر عن الجحيم، وأصبح خادماً وتلميذاً لمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى هذا وعد مخلصاً سلطان مصر، الذي أصبح أيضاً عبداً له، بأنه سوف يقدم إليه عدداً كبيراً جداً من الأسرى المسيحيين، حتى تصبح فرنسا مهجورة من الناس، ومحرومة من ملكها، وبذلك تغدو إمكانية الدخول إلى تلك البلاد المسيحية أكثر سهولة بالنسبة للمسلمين، ثم إن هذا الدعي، الذي عرف اللغة الفرنسية، واللغة الألمانية، واللغة اللاتينية، قام من دون تفويض من البابا، أو ضمانة من أي أسقف، فتجول هنا وهنالك، وأخذ يبشر، ويؤكد كاذباً بأنه تلقى أوامر من القديسة مريم، أم ربنا، بأن يجمع الرعاة والذين يتولون حفظ الحيوانات الأخرى، فهؤلاء، حسبما أعلن، قد منحوا من السماء السلطة، بحكم تواضعهم وبساطتهم، بأن يتولوا انقاذ الأرض المقدسة، مع جميع الأسرى من بين أيدي المسلمين، ذلك أنه قال بأن فخار فرنسا من الجند كانوا غير مرضين للرب، ودعمت فصاحة خطبه، مثلما فعل حين أمسك بيديه المضمومتين إلى بعضهما ورقة —ادعى كاذباً— بأنها تحتوي على أمر العذراء المباركة، واستدعى جميع الرعاة للالتحاق به، فتخلوا عن قطعانهم، ومواشيهم، وخيولهم، وقاموا من دون التشاور مع مواليهم أو أقربائهم، باللحاق به

على أقدامهم، دون الاهتمام مطلقاً بالطعام، لأن هذا الرجل قد مارس البدع الرئيسية التي كان قد تبناها من ذلك الشاب الأمرد في فرنسا، والذي فتن الشعب الفرنسي، وجمع حشداً كبيراً جداً من الأطفال، الذين ساروا وراء خطاه، وهم يغنون، والذي كان مدهشاً، أنه كان من غير الممكن منعهم لابالمغاليق ولابالحواجز، كما لم يكن من الممكن اعادتهم بوساطة الأوامر والالتماسات أو بوساطة هدايا آبائهم وأمهاتهم.

وبوساطة البدع نفسها، يحكى بأن روبرت بوغري Bugre, الذي كان راهباً مزيفاً من رهبان الدومينيكان، قد فتن عدداً لايحصى من الناس، وأودع هؤلاء الناس المخدوعين الأبرياء وعهد بهم إلى النيران، وتمت مساعدته بوساطة السلطة الدنيوية للملك الفرنسي، الذي مال إلى توجهاته، فقام بتسبيب دمار هائل، هذا وجرت حكاية هذه المسائل بشكل كامل في مكان آخر.

وحمل هذا الدعي الكذاب، وكذلك جميع الذين تبعوه، علامة الصليب، وكان هناك الكثير من الناس الذين تعاطفوا معهم، وأبدوا نحوهم الاحسان، وأعطوهم المساعدة، قائلين بأن «الرب غالباً مايختار الأجزاء الضعيفة في العالم ليخزي بها الأجزاء الأقوى، فالرب القدير ليس راضياً أو مسروراً بأرجل الانسان، كما أنه ليس مقبولاً لديه الذين يدعون البراعة والشجاعة في الحرب»، وقامت السيدة بلانشي أيضاً، التي كانت ملكة فرنسا ونائبة الملك، وهي آملة بأنهم سوف يستحوذون على الأرض المقدسة، وينتقمون لأولادها، فمنحتهم احسانها، وأظهرت نحوهم اللطف، ولذلك تضاعفت أعدادهم إلى درجة، أنه جرى تقدير عددهم بأنه قد بلغ مائة ألف وأكثر،وعملوا أعلاماً لأنفسهم، حتى يقاتلوا تحتها، وفي ظل قائدهم، ورسموا عليها صورة حمل، واتخذ هذا الشعار رمزاً على تواضعهم وبراءتهم، وعدّوا الراية التي عليها الصليب رمزاً للنصر.

وصول رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا

وفي حوالي عيد القديس برنابا، وصل رئيس أساقفة كانتربري إلى انكلترا، فشهد على صدق القضايا المذكورة أعلاه، وذكر أن هذه المشكلة قد بدأت في المملكة المتقدمة الذكر، بعد عيد الفصح، وعلاوة على هذا، أضاف بأن البابا، بعدما قام بانزال عقوبة الحرمان الكنسي بكونراد بن فردريك وبجميع أعوانه في يوم العشاء الأخير، انطلق في يوم الجمعة في أسبوع الفصح تحت حماية، وبتوجيه، وقيادة من فيليب الأسقف المنتخب لليون، الذي تحمل نفقات ثلاثة آلاف مارك، مقابل تزويده بالأمان، وشجعت مغادرة البابا وغيابه هؤلاء الرعاة الذين تضاعفت أعدادهم في فرنسا، وزودتهم بالثقة والجرأة، وقد ازدادوا في القوة والعدد.

كيف تزايدت أعداد هؤلاء الرعاة كثيراً في فرنسا

وتدفق الآن للالتحاق بعصابتهم: لصوص، ومنفيين، ولاجئين، وأشخاص محرومين كنسياً، (الذين هم جميعاً يدعون بشكل عام في فرنسا باسم السفهاء)، وبذلك فإنهم جمعوا جيشاً كبير العدد كثيراً، وكان لديهم خمسمائة راية، مشابهة لرايات سيدهم ومقدمهم، وحملوا سيوفاً، وفؤوساً، وحراباً، وخناجر، وسكاكين طويلة، وعلى ذلك ظهروا أنهم يرعون فكرة الحرب، أكثر من اهتمامهم بالمسيح، وتكلموا هائجين بشكل مجنون، وعقدوا زيجات غير قانونية، وتولى قادتهم والموجهون لهم الوعظ والتبشير، مع أنهم كانوا مدنيين، وضلوا كثيراً في وعظهم وابتعدوا عن أركان الايمان المسيحي، والأحكام الواضحة والصدق، وكان إذا ما حاول انسان مخالفتهم أو معارضتهم، هاجموه بالسلاح، وليس بالمنطق أو بقوة الحجة، وعندما كان قائدهم الرئيسي يتولى الوعظ، كان يحاط بالأتباع المسلحين، ويتولى إدانة جميع الطوائف باستثناء جماعاتهم، وركز لعناته بشكل خاص على الدومينيكان

والفـرنسيسكان، الذين سماهم الـزائغين والمنافقين، وأعلن بأن رهبـان السسترشيان كانوا الجشعين والأكثر حباً للقطعان وللأراضي، أما رهبان الطائفـة السـوداء فقـد أكـد بأنهم كـانوا شرهين ومتجبرين، وقـال عن الكهنة بأنهم كـانوا شبـه مـدنيين ومفترسين أكلة لحوم، وأن الأسـاقفـة ومـوظفيهم كـانوا فقط صيـادين للمال، يتمتعـون بفيض من جميع أنواع المباهـج، وذكر عن البلاط الـروماني أشياء كثيرة لايمكن ذكـرها، وعلى هذا ظهـروا جميعـاً من خلال مـاصرح به، هراطقـة ومنشقين مـرتدين، وصـدوراً عن الكراهية والمقـت لرجال الدين حيـا الناس هذه الشتـائم التي صدرت عنه، وأصغوا باهتمام ورعاية إلى عقائده الخطيرة.

وصول أولئك الرعاة إلى مدينة أورلين

ووصل هؤلاء الرعـاة في يوم عيـد القـديس برنابا إلى مـدينة أورلين Orleans في أبهة كبيرة، وقـوة عظيمـة، ودخلوا إلى المدينة على الرغم من عدم رضـا الأسقف وجميع رجال الدين، مع أن سكان المدينة كانوا مسرورين كثيراً بوصولهم، وبعـد دخولهم، أعلن مقدمهم مثل نبي بمعجـزاته، بصـوت المنادي، وأعطى مـلاحظة، لابل بالحري أصـدر مـرسـوماً مثلما يفعل الملك، وبين أنه سـوف يلقي مـوعظة، وبناء عليـه تدفق الناس عليه بأعداد لاتحصى.

وكـان أسقف المدينة في حـالة خـوف كبيرة، وشعور برعب مـدمر، لذلك منـع كل رجل دين، تحت طائلـة عقـوبة التكفير، من الاصغـاء لخطاباتهم، ومن اتباع خطواتهم، وأعلن بأن جميع هذه الإجراءات كانت مصائد للشيطان، لأن الرجال المدنيين استخفـوا بتهديداته وبأوامره، أما بعض الباحثين اللاهوتيين، فقد خـرقوا حظر الأسقف، ولم يتمكنوا من حبس أنفسهم ومنعها من إعارة مسامعهم المتشوقة لهذه العقائد الجديدة غير الاعتيادية، وطبعاً لم تكن لديهم نية باتباع أخطائهم، بل أرادوا فقط رؤية وقـاحتهم، وغـريب حقـاً، وكـان أمراً متناقضـاً، أن يقـوم رجـلاً

علمانياً، لابل بالفعل رجلاً عامياً، مستخفاً بسلطات البابا، بامتلاك الجرأة على الوعظ علينا في مدينة فيها الجماعة العلمية في أوج نشاطها، وأن تميل آذان وقلوب مثل هذه الأعداد من الناس إلى سماع دجله! وقد حملوا معهم خمسمائة راية، وتجاه ذلك قام الكهنة ذوي الفهم السليم، فأغلقوا أبوابهم بقوة ووضعوا حواجز لها، وأخفوا أنفسهم بقلق وخوف في بيوتهم.

ثم قام المقدم المذكور ليعظ الناس، وبدأ دون أن يقدم لكلامه بنص مقدس، ثم اندفع متدفقاً يتحدث بصوت مرتفع بكلام وشتائم لايمكن ذكرها، وحدث وقتها فجأة أن قام واحد من الباحثين، وكان واقفاً على مسافة منه، فشق طريقه بالقوة، واقترب منه، وانفجر يقول الخطاب التالي:

«دنيء، وهرطقي، وعدو للحقيقة، وانك تكذب، وكذبك شيق برأسك، وإنك تخدع هؤلاء الناس الأبرياء بحججك الزائفة والمراوغة»، وما كاد يتفوه بهذه الكلمات، حتى قام —على كل حال— واحد من هؤلاء السفلة وانقض عليه، رافعاً فأساً له رأس مدبب، فشطر رأسه إلى قسمين، وبذلك لم يتفوه الرجل المصاب بأية كلمة أخرى، وتفجر هياج واضطراب، والناس الذين سميناهم رعاة، والذين يستحقون الآن أن نسميهم أفاقين، ورواد للمسيح الدجال، قاموا بحمل أسلحتهم ضد رجال الدين في أورلين بشكل عام، وانقضوا على سكان المدينة غير المسلحين، وهم حاملين لأولادهم المحبوبين، وحطموا جميع أبواب ونوافذ البيوت، وألقوا النيران بأنفسهم في البيوت في الثالث عشر من كانون الثاني.

وبرضا سكان المدينة، أو بالأصح بموافقتهم (الذين من خلال موافقتهم تم ادخال مجموعة هذه الكلاب استحقوا مانالوه) مزقوا كثيراً من مواطني المدينة، وأغرقوا عدداً كبيراً في نهر اللوار Loire,

والذين نجوا من الموت أصيبوا بالجراحات، وسلبوا من ممتلكاتهم، وأما الذين مكثوا متخفين في بيوتهم، فعندما شاهدوا هذه الأعمال، هربوا على شكل حشود من المدينة أثناء الليل، وعمت الفوضى بين جميع الناس وساد الاضطراب، واكتشف فيما بعد أن خمسة وعشرين كاهناً قد هلكوا، وذلك بالاضافة إلى أعداد الذين جرحوا، ونالهم الأذى بطرائق مختلفة، وأيضاً تعرض الأسقف وأتباعه الذين أخفوا أنفسهم ليتجنبوا التورط بمأساة مشابهة، إلى كثير من الاهانات، وعانى من كثير من الأضرار.

وبعد هذا قام الرعاة بالمغادرة، خوفاً منهم، أن يثور سكان المدينة ضدهم ويهاجمونهم، وقام الأسقف، حتى لايبدو مثل كلب غير قادر على العواء، فوضع المدينة تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، لأن سكان المدينة جعلوا من أنفسهم ملومين ومتلبسين بالعار، بسماحهم بمثل هذه الإجراءات، لابل وصل بهم الأمر إلى حد الموافقة، والتعاون معهم، وأخيراً وصلت صرخات الشكوى إلى مسامع السيدة بلانشي، وإلى النبلاء والأساقفة، وإثر سماع الملكة بما حدث أجابت باعتدال: «إنه كما يعلم الرب، كنت قد اعتقدت أنهم بسذاجتهم، سوف ينالون ملكية جميع الأرض المقدسة، لكن بما أنهم مخادعين، يتوجب حرمانهم كنسياً، واعتقالهم، وتدميرهم»، وبناء عليه جرى حرمان جميع هؤلاء الأشرار كنسياً، والدعوة إلى التشهير بهم على هذا الأساس، ولكن قبل أن يجري نشر هذا القرار، ذهبوا مع نوايا إجرامية إلى مدينة بورجي Bourges, ففتحت أبواب المدينة لهم، بموافقة من سكان المدينة، الذين رفضوا الاصغاء إلى أوامر الحظر الصادرة عن رئيس أساقفتهم، ودخل الشطر الأكبر منهم إلى المدينة، وأما البقية فمكثوا في الكروم خارج المدينة، لأن أعدادهم كانت كبيرة جداً إلى درجة أن مامن مدينة كان بإمكانها استيعابهم جميعاً بسهولة، ولذلك توزعت حشودهم على عدة مدن،

حتى أن باريس عـانت من أذى محسـوس منهم، وأعلـن مقـدم هؤلاء القوم الضـالين عن نيته إلقـاء موعظة قـداس عام، ووعـد بعمل بعض المعجزات المدهشة، ولـذلك تدفقت أحشاد هائلة من الناس مع بعضهم من جميع الجهات، لسماع أشياء لم يسمعـوا بمثلها من قبل، ولرؤية أشياء لم يروا مثيـلاً لها من قبل، وبعـدما تفـوه هذا المخـادع ببعض الخطابات التي كانت كلهـا هذيان، وبعدما تبين أن المعجزات التي وعـد بها كانت خداعاً، قـام واحد من الناس، وكان جذاراً، يحمل فأسـاً، بتوجيه ضربة له على الرأس، فأرسل به من دون دمـاغ إلى جهنم، وألقى بجسـده على مفترق طرق، وتـرك من دون دفـن حتى يهترىء، وعنـدمـا انتشرت التقـارير وعمت بـأن هؤلاء الرعـاة مع محرضيهم، وكـذلك كل الذين أصغوا إليهم، قد حرموا كنسياً، تفرقوا، وتشرذموا مثل كلاب مسعورة، وأيضاً حدث في بوردو عندما وصلت مجموعة من هؤلاء، واقتربت من المدينة، أغلقت الأبواب، بناء على أوامـر سيمون ايرل ليستر، ولم يسمح لهم بالدخـول، وبناء على طلبهم الـدخـول أجـابهم الايرل بسـؤالهم: «بسلطة من تفعلون هـذا؟»، وعلى هذا أجـابـوه: «نحن لانلتمس سلطة البابا أو الأسقف، بل سلطة الرب القدير، ومريم المباركة، أمه، التي هي سلطة أعظم من سلطتهم»، وعندمـا سمع الايرل هذا الجواب، عدّ مثل هذا الكلام كلامـاً عابثاً، فأرسل إليهم الرسـالة التالية: «غـادروا جميعاً، بأقصى سرعـة ممكنة، أو إنني سـوف أحشـد جميع عساكـري، وكـذلك الكتـائب المدربة، وسكان هـذه المدينة، وسـوف نهاجمكم ونمـزقكم إلى أشلاء».

حول نهاية الواعظ الثاني لهؤلاء الرعاة

واعترت الدهشـة هؤلاء التعسـاء الضـالين لدى سماع هذه الكلمات، وأصبحوا مثل رمل من دون كلس، وتفرقوا في جميع الاتجاهات، وبما أن كل واحد منهم فكر فقط بسلامته شخصياً بوساطة الفرار، فقد تعرضوا

إلى كثير من المخاطر بأشكال متعددة، وهرب مقدمهم ورئيسهم بشكل سري، وركب سفينة، وسعى لأن يأخذ طريقه بكل سرعة إلى بلاد المسلمين، التي كان قد جاء منها، ولكن تبين للملاحين أنه خائن، ورفيق للهنغار المتقدم ذكرهم، الذين كانوا قد قتلوا شعب مدينة بورجي، لذلك غلوه بيديه ورجليه، وألقوا بهذا المتشرد التعيس في الزنزانة، وهكذا حين حاول النجاة من خطر وقع في خطر أشد، ووجدوا في حقائبه، بالإضافة إلى مبلغ كبير من المال، عدة أوراق مكتوبة بالأحرف العربية والكلدانية، وكذلك ببعض الأحرف الأخرى غير المعروفة، ووجدوا أيضاً بعض المساحيق الضارة، من أجل صنع عدة أنواع من السموم، وقد جاء في بعض الرسائل التي كانت معه، كما تبين من بعد أن «السلطان شجعه كثيراً على الاستمرار بمهمته، مقابل نيل جوائز كبيرة»، وورد في الرسائل الأخرى بأن الواعظ المذكور «سوف يعطي إلى السلطان عدداً كبيراً من الناس»، وهكذا فإن ساحرين وقعا في مصائد الشيطان وهلكا.

نهاية الواعظ الثالث

وحاول الواعظ الثالث الدخول إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham, وأقنع أكثر من خمسمائة إنسان باتباعه، وقد تألفوا من: رعاة، وفلاحين، ورعاة خنازير، ورعاة قطعان، ومثل هؤلاء الناس، ولكن عندما انتشر بين الناس بأنهم محرومين كنسياً، وأن الهنغاري هو أستاذهم الرئيسي، وأن رفيقه قد قتل، وأن أصحابها قد تفرقوا، تغيرت أوضاعهم نحو الأسوأ كثيراً، وحاول مقدمهم لدى أوصوله إلى مونترويل Montreuil أن يعظ هناك، ولكنه ما أن شرع بإلقاء خطابه المجنون، لابل بالحري شرع يؤكد هذيانه، حتى قام مستمعوه ضده، ولدى حملهم للسلاح هرب إلى الغابة، لكن مالبث أن اعتقل وقتل، ولم يتعرض فقط إلى تقطيع أطرافه، بل جرى تمزيقه إلى

أشلاء وقطع صغيرة، وترك جسده طعاماً للطيور الجارحة.

كيف تابت الحشود الساذجة لأنها ضللت

ثم حدث في الحقيقة، أن وجد كثير من أتباعهم أنهم قد ضللوا، واكتشفوا أوضاعهم التعيسة، فقبلوا بالتوبة التي فرضت عليهم، وألقوا بالصلبان التي تسلموها من أيدي أولئك المخادعين، وأعادوا حمل شارة الصليب من أيدي الرجال الصالحين، في سبيل القيام بحجهم بشكل صحيح، وفي سبيل الانطلاق نحو الأرض المقدسة، دخلوا في خدمة الملك الفرنسي، بعد اطلاق سراحه من أيدي المسلمين، حسبما سنوضح في الرواية التالية، لأنهم قالوا بأنهم قد تعلموا من معلمهم، بأنهم سوف يحررون الملك الفرنسي، ولذلك تنافس أحدهم مع الآخر في حمل شارة الصليب، وكان معلم اسمه توماس، من أهالي نورماندي، كما كان راهباً من شيربورن Sherborne، وكان أيضاً رجلاً مستقيماً وفصيحاً، وقد أرسل في تلك الآونة إلى القارة في سبيل قضاء بعض الأعمال لصالح الملك، وقد اعتقل من قبل الرعاة الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وسجن لديهم لمدة ثمانية أيام، ولأنه رفض الإصغاء إلى حججهم، تعرض للضرب بحدة، وأخيراً تمكن بعد بعض المصاعب، من النجاة أثناء الليل، وأخذ طريقه إلى الملك في وينكستر، فقدم رواية كاملة عن إجراءاتهم، وعن أعمالهم المخادعة إلى الملك، وكان ذلك على مسمع من كاتب هذا العمل، الذي قام بصدق وبشكل كامل بكتابة كل الذي سمعه من فم الراوي، بحكم أنه كان رجلاً موثوقاً.

وقال رجال أصحاب نفوذ، ومتسمين بالاخلاص، وأساقفة ذوي تفكير عميق، أنه منذ أيام محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يتسلل مثل هذا الطاعون المخيف إلى كنيسة المسيح، خاصة بسبب الكارثة التي حدثت للملك الفرنسي، فبذلك بدأ الايمان بالترنح في مملكة فرنسا.

كيف جرى تدمير دمياط وتسويتها بالأرض

وأمر في الوقت نفسه، سلطان مصر، بهدم مدينة دمياط، وبتسويتها مع الأرض، لأنه وجد أنها كانت فريسة للصليبيين مرتين.

ظهور بعض الطيور الغريبة في إنكلترا

خلال هذا العام، وفي حوالي موسم الفواكه، ظهر في الحدائق بشكل رئيسي، بعض الطيور الغريبة، التي لم تشاهد قط من قبل في انكلترا، وكانت أكبر بعض الشيء من القنابر، التي تأكل لب الفواكه، ولاتأكل شيئاً آخر، ولذلك أصبحت الأشجار من دون فواكه، مما سبب الخسارة لكثيرين، وكانت مناقير هذه الطيور مصلبة، ولذلك تمكنت بهذه الواسطة من فتح الفاكهة، مثل فتحها بوساطة الكماشة أو السكين، وكان الجزء من الفاكهة الذي تركوه، كأنه قد تأثر بسم.

كيف حلل البابا كثيراً من النبلاء كان قد حرمهم كنسياً من قبل

في الثامن والعشرين من حزيران، عندما كان البابا على وشك مغادرة جنوى، بعث برسل خاصين مع رسائل سلم، وسعى إلى دعوة بعض النبلاء، الذين كان قد حرمهم كنسياً بشجب رهيب، يوم عيد العشاء الأخير، ورغب في أن يعودوا إلى وضع الوئام السالف مع الكنيسة، وكان واحداً من هؤلاء توماس أوف سافوي، الذي كان يسعى لتزويجه من حفيدته، وهو على كل حال لم يظهر أية رحمة تجاه كونراد، فيما يتعلق بذلك القرار، ولكي يمتن حزبه، أعطى واحدة من حفيداته بالزواج إلى صاحب تور دو بين Tour du Pin, وكان نبيلاً قوياً، وقد تقبلها هذا النبيل، ليس بسبب جمالها النسائي، بل من أجل المال الذي أعطي معها، لأن البابا أعطى مع السيدة عشرين ألف مارك من الفضة، وإلى توماس أوف سافوي، الذي كان من قبل كونت فلاندرز، أعطى

البابا واحدة أخرى من حفيداته لتكون زوجة له، وذلك بعدما حلله من قرار العقوبة الذي كان قد صدر ضده، وأنعم عليه بكثير جداً من الموارد، وذلك بالاضافة إلى المال الذي دفع لدى الزواج، كما أنه أصدر أوامر دقيقة، تتعلق بالمورد السنوي المتوجب تسلمه من فلاندرز، بأن يجري دفع ذلك من دون تقاعس ومصاعب من ذلك التاريخ فصاعداً، ولأنهم كانوا، بسبب تحريم البابا، قد قاموا بالاحتفاظ بالموارد لعدة سنوات منذ أن جرى حرمانه كنسياً، أمر مولانا البابا، بأن يدفع له منذ ذلك التاريخ فصاعداً، جميع المستحقات المتأخرة، طالما أنه قد تصالح الآن مع الكنيسة، وبفضل هذه النعمة، لابل بالحقيقة بفضل هذه الزيجات المقدسة، تحول من كونه ابناً للغضب إلى ابن للنعمة، وتابعاً للانتخاب، وكان قد بقي على كل حال، تحت حكم الحرمان الكنسي، الذي كان البابا قد أصدره: عظام فردريك، وابنه كونراد، الذي تمكن بفضل عطية والده، من الاستيلاء بالقوة على الشطر الأكبر من الامبراطورية، مع الذي انتزعه لنفسه بالقوة، من دون موافقة كنيسة روما: ممالك سردينيا، وصقلية، وأبوليا، وكالبيرا (قلورية)، وعلاوة على ذلك فإن جيرارد صاحب مرسيليا مع سكان مرسيليا، وكريمونا، وبافيا، وأحبائهم، وكثيرين أيضاً، من الذين كان قد حرمهم كنسياً بالاسم، وبعضهم باسم الأسرة، في يوم عيد العشاء الأخير، أبقاهم مشمولين بذلك الحرمان، وبناء على هذا تضاعفت أعداد أعداء الكنيسة، وأضيفت الشرور إلى الشرور، فازدادت.

الاستيلاء على كاستيلون في غسكوني

وفي حوالي هذا الوقت نفسه أيضاً، حقق سيمون ايرل ليستر انتصاراً على كثير من الغسكونيين، أعداء الملك في القارة، واستولى على كاستيلون Castillon, وهي قلعة كانت مكان اللجوء لهم جميعاً.

كيف عاقب أسقف لنكولن أناساً انغمسوا بالشهوات الجسدية وجعل كثيرين كهنة

وفي هذه الآونة أيضـاً، عمل أسقف لنكـولن جـولة تفقـدية في جميع أسقفيتـه، وبعـد بحث دقيق، أرغم الذيـن كـانت بين أيديهم منافع على التخلي عنهـا على أسـاس انغماسهم بالشهـوات الجسـدية، وأمـر بابعـاد بعض النسـوة عنهم، ممـن كن مـوضع ريبـة، لأنهن كن مـرعيـات من قبلهم، وعاقب المذنبين بحرمـانهم من منافعهم، ذلك أنه سعى إلى تنقية أسقفيتـه من الآثام والشرور، وتمكـن باستخـدام توسـلات لطيفـة، وبوسـائل تنكيل حـادة، من الارتقـاء بكثيريـن إلى مـراتب الكهـانة، والوظائف اللاهـوتيـة، وبالاضـافـة إلى هذا غـالبـاً مـاألقى محاضرات وخطب على الناس، وجمع الناس مـع الكهنة، الذين كـانوا يسكنون في الجوار، وأرغمهم على الإصغاء له، وكـان يكره الرومان الأشرار، الذين كـان بين أيديهم الرسـالة البـابويـة، التي أوجبت عليهم القيـام بوظيفـة الوعظ، ومقتهم وكأنهم كـانوا سم أفـاعي، وقـال بأنـه لو عهـد إليهم بعلاج الأرواح، لكان تصرف مثل الشيطان، ولذلك فإنه بما أصدره من أوامـر، عمل بشكـل مكشـوف ضـد الرسـائل البـابويـة الصـادرة عنه والمختومة بختمه.

حول تقارير من الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة أيضـاً، عندمـا كـانت الهيئة الرهبـانيـة العـامـة للسسترشيـان عـاقـدة لاجتماع عـام، قـرأ رسـول مـن عند الملك الفـرنسي،وكـان راعي دير من الطائفـة نفسهـا، رسـالة من ذلك الملك، وتلاها أثناء الاجتماع، وكان فحوى هذه الـرسالة هو كما يلي: كان الملك الفـرنسي وزوجتـه، والكتلة الصغيرة من الأتبـاع الذين كـانوا معـه، في وضع صحي جسدي سيء، وكـانوا ينتظرون رحمة الرب بعد الذي نزل

بهم، وجرى تزويدهم بشعاع من الأمل، بوساطة العداوة، والشحناء، والحرب بين المسلمين، أي بين سلطان مصر، وسلطان حلب، وكان هو —الملك— مقيماً في قيسارية، وقد قام بتحصينها بناء على مشورة الداوية والاسبتارية.

وصول الملك إلى سينت ألبان وأعطياته هناك

وفي هذا العام نفسه، في ثمانية عيد ميلاد العذراء المباركة، وصل الملك إلى سينت ألبان، وذهب إلى الكنيسة كما كانت عادته، فقدم هناك ثلاث قطع من الحرير، وقد لوحظ أنه بتعداد القطع اللائي كان قد قدمهن من قبل، أصبح العدد ثلاثين قطعة، وبالاضافة إلى ذلك، قدم بهذه المناسبة عقدين ثمينين جداً، وأمر بهما، حفظاً لذكراه، بأن يجري حفظهما بقوة في المزار، بتثبيتهما بالمسامير، وبعدما أقام هناك لمدة ثلاثة أيام، قام بالمغادرة.

سقوط غزير جداً للمطر

وفي ليلة يوم عيد القديس لامبرت Lambert, الذي كان يوم أحد، كان الظلام مخيفاً، وكان هناك تساقط غزير من الأمطار، حتى بدا وكأن أبواب السماء قد فتحت، وتصببت الغيوم نفسها على الأرض، وكأنها تريد أن تدمرها.

حول الزيارة التفقدية التي عقدت في سينت ألبان

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل من العام نفسه، أرسل ثيوبولد رئيس رهبان هيرلي Hurley, وجيمس نائب رئيس رهبان القديس أوغسطين في كانتربري، وقسيس البابا، رسالة مكتوبة إلى رهبان القديس ألبان، بأنهما على وشك القدوم إلى سينت ألبان، للقيام بزيارة تفقدية هناك، وذلك حسبما كان قد تقرر في عيد القديس المخلص في لندن، وجرى طلب تأخير ذلك لصالح الدير في كنيسة القديسة مريم في

ساوثورك Southwark حتى يوم الأحد التـالي لما قبل عيد جميع القديسين، وتمت الموافقة من الزائرين المتقـدم ذكرهما، وقالا بأنهما سوف يقدمان في يوم عيد القديس دايونيسيوس Dionysius, ووعد في الوقت نفسـه راعي دير القديس ألبـان بأنه سوف يقـوم بقدر مـا يمكنه من اصـلاحـات، وأعلن قبل وصـولهما، بأنه لن يتـوانى عن القيـام بأي اصـلاح ينبغي عمله في سيـاق الأيام، ووعـد أيضـاً بأنه لن يكون هناك مـاسيثير شكوى مشكوك بها، وقـدمـا في اليـوم الذي تقـدم ذكـره، وفي اليوم التـالي ألقى نائب رئيس الرهبان محاضرة في مجمع الرهبـان، ثم أمر بقراءة نص اجازته، وبعـد ذلك البنود التي حصل عيها في مجمع رهباني اقليمي عقـد في لندن، فهناك جـرى تقـرير ذلك، بحكم أن ذلك كـان صحيحـاً وضرورياً جداً للنظام الرهبـاني، وهذا كله مـوجود في كتـاب Additaments, حيث جـرت كتـابة ذلـك بالكامل، وبما أنهما لم يجدا أي شيء غير صحيح، مع أنهما قـامـا بعمليـة فحص دقيقـة، واستجواب لكل راهب من الرهبـان على انفراد، خلال إقامـة استمرت أربعة أيام، غادرا بسلام.

وكـان قد جرى ارسال بعض رهبـان القـديس ألبان، للقيـام بزيارة تفقـدية في دير القـديس ادمـوند، وفي أمـاكن أخـرى، وبالنسبـة لجون، الراعي الثاني لدير القديس ألبان، فقد أعطى ترضية إلى الدير، فيما يتعلق بجميع الاصـلاحات التي كـان قـد وعد بها قبل الزيارة التفقـدية، وأنه سوف يقوم بها فيما بعد، وفق الطريقـة نفسها، التي قام بها سلفه، راعي الدير وليم، عندمـا جـرت زيارتـه زيارة تفقـدية بمـوجب تفـويض من البـابـا، وذلك من قبل راعـي دير بوكسلي Boxley, وراعي دير بيغهـام Begeham, ويمكن القـــول أن أياً منهما لم يعمل بشكل جيد كما كان قد وعد، ذلك أنه كان قد وعد الدير، ضمن أشياء أخرى، بأنه سوف يسقط تماماً عمـومياته والحصص الصغيرة، التي كان هو أول

واحد بين رعاة الدير، قد أقدم على أخذها إلى غرفته الخاصة، وذلك مالم يتناول طعام الافطار مع أصحابه في مطعم الدير أو في مصلاه، وأنه سوف يسترد جميع الحصص الصغيرة، التي كان سلفه وليم قد انتزعها من الرهبان المرضى، والثمن الذي كان يحصل عليه ليزود نفسه بالخمرة لاستخداماته الشخصية، لكن بعد انتهاء الزيارة التفقدية، ومع أنه لم يُقل له أي شيء حول الإجراءات المتقدم ذكرها، هو لم يقم بتنفيذ أي من وعوده مطلقاً.

رسالة الملك الفرنسي

ومع مرور الأيام، ربح كونراد الحظوة، والمكانة الطيبة لدى كثير من شخصيات الامبراطورية، لأنه جاء من الدم النبيل لجون، ملك القدس، ذلك أنه كان ابن ابنته، وتمتع أخوه هنري، ابن أخت الملك بالمحبة والاحترام لدى جميع النبلاء المخلصين لأبيه، وأيضاً بسبب براءته، وسمو أخلاقه، ورفعة أسرته، ولم يكن البابا على كل حال مسروراً بهذا، وتسبب بإعلان بلاغ مهيب عام في مقاطعتي برابانت وفلاندرز، بأنه يتوجب على الأتباع المخلصين للمسيح القيام بحصار قلاع كونراد، واعداً إياهم بمكافأة مجزية، هي الغفران من جميع ذنوبهم، وكان هذا أعظم مما منح من أجل الحج إلى الأرض المقدسة، على أساس أن كل من سوف يحمل شارة الصليب ضد كونراد، ويفعل ذلك باسم أبيه وأمه، سوف يحصل على الغفران لذنوبهما.

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الملك الفرنسي الذي عانى كثيراً من الاضطراب، وتألم بسبب الحاجة إلى الضروريات في قيسارية، بارسال رسالة كئيبة وحزينة إلى أمه، وإلى أخويه، وإلى رعاياه المخلصين، رجاهم فيها بحرارة بأن يرسلوا بكل سرعة إليه العساكر، وأن يزودوه بالمؤن والمال، ذلك أنه كان يعاني من كثير من النوازل في سبيل الكنيسة العالمية، ولدى سماع الملكة بلانشي بهذه الأخبار، وهي التي

أمسكت بين يديها مقاليد الحكم في المملكة الفرنسية، تصرفت ليس كما تتصرف النساء، فجمعت جميع نبلاء المملكة للتشاور حول القضية، وأثناء بحث المسألة بدأ النبلاء يتذمرون بغضب شديد قائلين: «بما أن البابا قد أثار حرباً داخلية جديدة، وبقيامه بإذاعة إعلان جديد للناس الخاضعين للرب، قد شحذ سيف المسيحيين ضد المسيحيين، للقتال في أراضي المسيحيين أنفسهم، تاركاً ملكنا الذي يعاني من كثير من الإهانات والانتكاسات للقتال في سبيل الإيمان المسيحي، عرضة للاهمال وللنسيان»، لأن الاعلان الذي تقدم ذكره، كان قد عمّ انتشاره في جميع أرجاء المناطق الفرنسية، وبناء عليه شعرت بلانشي بالسخط، لأن الشكوى التي انبعثت لم تكن من دون سبب مسوغ، فأمرت بمصادرة جميع أراضي وممتلكات الذين حملوا شارة الصليب، وأن توضع تحت تصرفها قائلة: «على هؤلاء الذين يقاتلون من أجل البابا أن ينالوا التمويل من ممتلكات البابا، وليذهبوا دون أن يعودوا مطلقاً، وعلاوة على هذا تصرف النبلاء المجاورين، وعملوا وفق الطريقة نفسها في أراضيهم، ضد الذين حملوا الصليب نتيجة لذلك الاعلان، وهكذا مات هذا الاعلان وتلاشى، وتراجع الذين حملوا الصليب، وتعرض رهبان الدومينيكان والفرنسيسكان أيضاً للملامة، لأنهم أثاروا هذه الفوضى والاضطراب، وجرى توبيخهم لما قاموا به من إجراء، من قبل النبلاء، الذين قالوا: «نحن بنينا الكنائس والديرة لكم، ونحن علمناكم، واستقبلناكم،وأطعمناكم، فأي منفعمة أضفاها البابا عليكم؟، فهو قد ضيّق عليكم وأثاركم، وفرض ضرائب جباها منكم، وجعلكم مكروهين من قبل الذين يقدمون المنافع إليكم»!، وأجابوا على هذا كله قائلين: «الطاعة ترغمنا»، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، خجل البابا، وسعى في سبيل الحصول على السلام.

حول الاتهام الجاد الذي أثير ضدّ فيليب لوفل

وخلال العام نفسه أيضاً، وفي حوالي عيد القديس ميكائيل، جرى اتهام فيليب لوفل Lovel بشكل جاد أمام الملك، وكان فيليب هذا محاسباً، جرى نقله من وكالة ايرل وينكستر إلى خدمة الملك، وعهد إليه بالوصاية على اليهود، وقد أكد أعداؤه، بأنه عندما جرى إرساله هو ونيقولا الكاهن من كنيسة القديس ألبان، إلى المقاطعات الشمالية لفرض ضرائب على اليهود، استلم بشكل سري بعض الكؤوس الثمينة جداً، من يهودي غني كثيراً، ليستثنيه من دفع الضريبة الملكية، ومثل هذا تلقى أعطيات خاصة من آخرين لاقناعه حتى يستثني بعضهم، ويلقي بالأعباء على آخرين، مما ألحق الأذى بالملك، وجعله يخرق أمانته، ولذلك غضب الملك غضباً شديداً، وأمر بتعريض فيليب المذكور إلى الاهانة، حتى يكفر عن هذا الاثم العظيم، وبما أن فيليب هذا كان رجلاً داهية وعاقلاً، نشد في حاله المضطرب كثيراً المشورة والعون من جون مونسيل، الذي كان المستشار الرئيسي للملك، وأشفق جون عليه، لأنه كان هو الذي استدعاه شخصياً إلى خدمة الملك حتى يرفعه إلى مرتبة أعلى، فقام بترتيب القضية بشكل فعّال، فاسترد حظوة الملك، وجاء ذلك بعدما دفع مبلغاً كبيراً من المال، مقداره كما قيل ألف مارك، وجرى على كل حال طرده من مكتب الوكالة، وتعرض للإهانة بدرجة عالية.

تكريس كنيسة هيل

وفي التاسع عشر من تشرين الثاني، من العام نفسه، وهو يوم عيد القديس ليونارد، قام الايرل رتشارد بشكل مهيب، ولقاء نفقات كبيرة، بتكريس كنيسة هيل Hales, وهي التي كان قد أسسها وأشادها مقابل نفقة كبيرة، وفعل ذلك وفاء للنذر التي عمله عندما كان في البحر، أثناء عودته من غسكوني، حيث كان في خطر، نتيجة لعاصفة

كـانت قـد ثارت، ولذلك وصل وقتهـا بصعـوبة إلى كـورنوول، وكـان الملك والملكة حـاضريـن أثناء التكريس المذكـور، وتقـريبـاً جميع نبـلاء وأسـاقفـة انكلترا، وقد كـان هناك ثلاثة عشر أسقفـاً، كل واحـد منهم عمل قـداساً في يوم التكريس، كل واحـد منهم على مذبحـه الخاص به، أما أسقف لنكولن فقد رتل قـداساً عند المذبح الكبير، وكان هذا في يوم أحد، واحتفل النبـلاء بشكل فخم وسخي برفقـة الأساقفة والآخـرين، فأكلوا اللحـوم، في حين جلس الرهبـان في أمـاكنهم، وأنعشـوا أنفسهم بكميـات كبيرة من السمك من مختلـف الأنواع، وكـان مـوجـوداً هناك أيضاً أكثر من ثلاثمائـة جندي، وفي الحقيقة إنني إذا ما رغبت في وصف عظمة ذلك الاحتفـال وفخامته، وذلـك الاجتماع الاحتفالي، لقيل بأنني تجاوزت حدود الحقيقـة، وعندما رغبتُ أنا متى باريس، أن أحصل على المعلومات حول هذه القضيـة، في سبيل أن لاأدخل أخباراً زائفة في هذا الكتـاب، أخبرني الايرل بكل تأكيـد ومن دون تردد، أنه عندمـا جـرى احصـاء النفقـات تبين أنه أنفـق عشرة آلاف مـارك على تلك الكنيسـة، مضيفـاً الكـلام الرائع والمستحق للثناء وهو التـالي: «لو أن ذلك يرضي الرب لكنت أنفقـت هنا مثلما أنفقـت على بنـاء قلعـة وولنغنفـورد Wallingford بطريقة معقولة ومرضية».

وصول إيرل ليستر مع الأخ الثالث للملك

وفي حـوالي ذلك الـوقت نفسـه صعـد إلى ظهـر سفينة في ويسـاند Wissand سيمون إيرل ليستر مـع زوجته، وجلب معه كـونت غي أوف لوزنغنان الأخ الثـالث للملك من أمه، وقـد أرادوا العبور إلى انكلترا، وبعد رحلة موفقة، وعندما كانوا على وشك الوصول إلى الميناء، هبت فجـأة ريح، فغيرت الاتجاه، ودفعت بـالسفينة مع خطـر عظيم إلى ويساند، وعلى هذا كان هناك من علّق حول ابعادهم عن هناك، والعودة إلى مأواهم السـالف بقـوله: «امتـلأ إخـوة ملك انكلترا بوفـرة فـوق

الحدود، وقد قدموا إلى انكلترا خاليي الوفاض، واحتشدوا هناك من أجل ملىء أنفسهم، ولقد أعاد البحر الممتلئين كثيراً»، وقد قيل هذا مزاحاً وفقاً لعادة الفرنسيين، ثم انتظر الايرلان حتى هبوب ريح أكثر مواءمة، ثم أقلعا فوصلا إلى ميناء دوفر، وكان سيمون ايرل ليستر قد ترك أتباعه يتابعون الحرب بشجاعة لصالحه، وبصمود صدوا هجمات الغسكونيين، وبعدما علم الملك بوصولهما، ذهب مسروراً لاستقبالهما، وجاء خروجه في الحقيقة لأن الكونت كان أخاه، ولم يخرج لاستقبال ايرل ليستر، كما أنه أصدر تعليماته إلى كثير من النبلاء وسكان لندن، لاستقبال أخيه، والترحيب به بهتافات فرح، وبعدما ملأ الكونت حافظة نقوده الفارغة، عاد إلى أراضيه رجلاً غنياً.

حول عاصفة مدمرة

وفي صيف العام نفسه، وفي يوم عيد القديس دنستان Dunstan, ارتفعت غيوم كثيفة في الصباح الباكر، وقد جعلت العالم كله مظلماً في كل من الشمال والجنوب، والشرق والغرب، وسمعت الرعود، وكأنها قادمة من مسافة بعيدة، وتقدم عليها البرق، وفي حوالي الساعة الأولى من النهار، أصبح الرعد والبرق أكثر قرباً، وزمجرت رعود إحدى الغيوم أكثر من سواها بشكل مرعب، وكأنها أرادت أن تحمل السموات وتلقي بها على الأرض، فأرعبت قلوب الذين سمعوها وأصمّت آذانهم بقرعها المفاجىء، وأثناء ذلك التصادم سقطت صاعقة على غرفة نوم الملكة، حيث كانت مقيمة وقتئذ مع أولادها وأسرتها، وألقت بالفراش إلى الأرض وحولته إلى رماد، وهزت البيت كله، وفي غابة ويندسور المجاورة، رمت بثلاثين شجرة من أشجار البلوط أو حولتها إلى شظايا، وعلاوة على ذلك، دمرت بعض الطواحين مع متعلقاتهن، وبعض حظائر المواشي مع رعاتهم، وسببت الرضوض لبعض الفلاحين والمسافرين، وألحقت كثيراً من الأضرار ببني البشر، مثل ذلك لم يسمع

به كـاتب هـذه الرواية، أو شـاهده من قبل، وعــلاوة على ذلك، سقط البرق في سينت ألبـان على الحمام، فأشعل النيران فيه، وسقط في أمـاكن أخرى على الدير نفسه، لكن لم يسبب كثيراً من الأذى، لكن آثاره ظلت ظاهرة على الجدران لسنين طويلة كثيرة فيما بعــد، لكن مـاهو مـدهش، وجــدير بالـرواية، هو أن بعض الرهبــان من طـائفــة الدومينيكان أو الفرنسيسكان، جرى استقبالهم في اليـوم نفسه، من أجل المأوى والطعام في دير القـديس ألبان، حسبما كـانت عليه العـادة في كل يوم، ولم يمكن منعهم من متــابعـة سفــرهم، على الرغـم من الالتماسـات الملحــة من الرهبــان، الـذين —كما هي العــادة— استقبلوهــم وزودوهم بما لزم، فغــادروا مع أن العاصفـة لم تكن قد توقفت بعـد، وبعدمـا خرجـوا من المدينة، شاهدوا على الطريق الذي هو الطريق العام، والذي هو مطروق كثيراً من قبل الناس ومن قبل العربات، مشعلاً متصـدياً لهم، مع ماظهر وكأنه سيف مصلت، غير أنه كـان يلوح به، فيتبعـه رعـد غير متـوقف، وأنين مـرعب، فتحولوا جـانباً، ورسمـوا على أنفسهم علامـة الصليب، وشرعـوا في خـوف واخـلاص بالتـوجــه بالدعـاء إلى الروح القـدس، وينشدون Veni Creator Spiritus والذي أعقب ذلك، هو أنه عند هذا توقفت الرعود وخمدت البروق، وعبرت، وانتهت، في حين بقيوا هم من دون أذى.

فيضان غير اعتيادي للبحر

وفي حوالي الوقت نفسه من السنة، وبالتحديد أيام الاعتدال الخريفي، فاض البحـر وتجاوز حدوده الطبيعية المعتـادة، فسبب أضراراً عظيمة في المقاطعات الانكليـزية القائمة قرب الشاطىء، وتغطى الشـاطىء لمسافة ستة أقدام، أكثر مما رؤي قط من قبل.

كيف عادت ملكة سكوتلندا إلى بلادها

وفي حوالي عيد القديس ميكائيل، قامت ملكة سكوتلندا، أرملة الملك الاسكندر، وابنة انغلرام أوف كوسي Engelram of, Coucy بعدما جرى تعيين الحصة العائدة إليها من مملكة سكوتلندا مع مورد مقداره سبعة آلاف مارك، فتركت سكوتلندا للعودة إلى الوطن، من أجل زيارة بلادها، ووالديها، وتوقفت وسط رحلتها، وجاءت لتقدم احتراماتها إلى الملك، الذي كان من عادته معاملة جميع الأجانب بالهدايا والموارد، لذلك حملها بانعاماته وبهداياه، ورجاها أيضاً بإلحاح بالعودة من دون تأخير، عندما تجري دعوتها إلى زفاف ولدها الاسكندر الثاني، الذي رفعه النبلاء في سكوتلندا إلى العرش.

حول مبارزة عقدت في روكستر

وفي العام نفسه، في يوم عيد حمل العذراء المباركة، عقدت مبارزة حادة في روكستر فيما بين الانكليز، والأجانب، فيها جرت هزيمة الأجانب بشكل مهين، وقد هربوا مع الخزي إلى المدينة للالتجاء، لكن لأنهم جرى اعتراضهم من قبل فرسان جاءوا من الاتجاه المعاكس، هوجموا ثانية، وسلبوا، وضربوا بشدة بالعصي والهراوات، وهكذا استرد الانكليز مع كثير من الفائدة الضربات والأضرار التي كانوا قد تعرضوا لها في المبارزة التي عقدت في بريكلي، ونتيجة لهذا ازدادت الكراهية، وتعاظم الغضب بين الانكليز والأجانب، وأصبح يومياً أكثر إخافة.

خاتمة العام

كان هذا العام كله خصباً في انتاج الحبوب والفواكه بكميات كافية، لابل بكميات وافرة، مع أنه كان عاماً عاصفياً، ومضطرباً ومرعباً بالبرق، وكان عاماً متعباً وعالي النفقات بالنسبة للبابا، وللبلاط الروماني، وخطيراً بسبب العودة إلى ايطاليا، أما بالنسبة لفرنسا وانكلترا

فكان مليئاً بالشكوك في ظل السلام المتأرجح، أما بالنسبة للرومان، والايطاليين، والألمان، والصقليين، والأبوليين، والكلبيريين، الذين كانوا بلا رأس ولامقدم، فكان عاماً قلقاً، أما بالنسبة لداشيا، فكان عاماً دموياً، أما بالنسبة لسكوتلندا، التي كان ملكها طفلاً، فكان عام متقلقلاً ومهدداً، كما قال لوكان Lucan في قضية بومبي الكبير:

سني عمر شبابه يمكن أن تثير الشكوك

لأنه حتى يكون ثابتاً، يحتاج الإنسان إلى أيام طويلة.

وبين الصمت والتعرض للخطر كان ملك سكوتلندا، مع الحظ المتقلب.

كيف أقام الملك عيد الميلاد في يورك

في عام ألف ومائتين واثنين وخمسين لتجسيد ربنا، وهو العام الخامس والثلاثين لحكم الملك هنري، كان الملك المذكور في يورك في عيد الميلاد، من أجل ابنته مرغريت، التي وصلت الآن إلى سن الزواج، حتى يمكن أن تتزوج من الاسكندر، ملك سكوتلندا، ومن أجل أن يجري الاحتفال بالزفاف بشكل لائق بين مثل هاتين الشخصيتين الرفيعتين، وقد اجتمع هناك حشد كبير من رجال الدين، وكذلك من الفرسان، من أجل أن تشع عظمة الاحتفال بالزفاف الكبير بالطول وبالعرض، ولقد كان موجوداً هناك ملك وملكة انكلترا، مع نبلائهما، الذين سوف نحتاج إلى وقت طويل حتى نأتي على ذكر أسمائهم، وكان أيضاً موجوداً ملك سكوتلندا، والملكة أمه، التي استدعيت من القارة من أجل المناسبة، وكان بصحبتها كثير من النبلاء، ليس فقط من سكوتلندا، بل أيضاً من فرنسا، حيث كانت قد ولدت، وقد جلبتهم معها، لأنها كانت تمتلك حسبما كانت العادة مع الأرامل، ثلث موارد مملكة سكوتلندا، الذي وصل إلى خمسة آلاف مارك، وأكثر، بالاضافة إلى امتلاكها مقتنيات

أخرى، كانت قد تسلمتها بمثابة هدية من أبيها انغلرام، وقد ظهرت في الخارج وهي قادمة مع قطار فخم وكبير العدد من الأتباع والخدم، وعندما وصل الجميع إلى يورك، أقام الذين قدموا مع ملك السكوتلنديين في شارع واحد، دون الاختلاط بأي من الآخرين من باب الحيطة، لكن عندما كان بعض موظفي النبلاء، الذين ندعوهم المارشالية، يعدون أماكن إقامة إلى مواليهم، اشتبكوا بشجار فيما بينهم أنفسهم، أولاً بقبضات أيديهم، وبعد ذلك بالعصي، وأخيراً بسيوفهم، وقد أصيب بعضهم بجراحات بالغة، وقتل رجل واحد، والذين أصيبوا بالجراحات لم يتعافوا قط بعد ذلك، وتمكن الملك بالحكمة وبوساطة الحرس الذي كان موجوداً هناك، ببراعة من منع قيام صراع بين السادة، وكذلك من ايقاف القتال بين الخدم، وقام أيضاً أعوان رئاسة الأساقفة، حتى لاتسبب رداءة أماكن الاقامة سبباً للصراعات، بتزويد الناس بأماكن كافية للرعاية والضيافة، وذلك حسب الوقت، وتأمن ذلك للجميع، مع أنهم تجاوزوا أعدادهم.

كيف جرى منح مرتبة الفروسية إلى ملك سكوتلندا من قبل ملك انكلترا

وفي يوم عيد الميلاد، قلد ملك انكلترا ملك سكوتلندا نطاق الفروسية، ومنح ذلك إلى عشرين آخرين معه، الذين كانوا جميعاً مزينين بملابس جميلة وثمينة، وكانت مناسبة لحفلة الترقية تلك.

حول زواج ملك سكوتلندا من ابنة ملك إنكلترا

وفي اليوم التالي ليوم عيد الميلاد، الذي كان يوم عيد القديس اسطفان، اقترن ملك سكوتلندا بابنة ملك انكلترا، وبسبب أن حشد الناس اندفع وضغط مع بعضه بطريقة غير نظامية، حتى يكون حاضراً، ويشاهد عظمة مثل ذلك الزواج، تمّ إجراء الاحتفال في الصباح الباكر،

وبشكل سري، وقبل أن يكون ذلك متوقعاً، فلقد احتشد هناك كثير من الناس من مختلف الأنـواع، ولقـد شكلوا حشـوداً عظيمـة من النبـلاء الانكليـز، والفرنسيين، والسكوتلنديين، ولقـد كان هناك حشـوداً كبيرة من الفرسان، لبسوا بشكل أنيق بألبسـة فاخرة، وتباهوا بزينتهم الحريرية وبالأنواع الأخرى، حتى أننا إذا ماأردنا وصف الترف الدنيوي والخيلاء وبهجـة المشهـد بالكامل، سـوف نثير العجب، وتتعب الذيـن سـوف يسمعـون بذلك، لأن ألفـاً من الفـرسـان، لابل أكثـر، كـانوا يرتدون الملابس الحريـرية التـي تعـــرف بشكـل عـــام بـاسم Cointises, ظهـروا أثناء الزفاف عن جـانب ملك انكلترا، وخلعـوا في اليوم التـالي جميع هذه الملابس، وعرضوا أنفسهم ثانية في البلاط بأثواب جديدة، أما من جانب ملك سكوتلنـدا، فكان هناك ستين فارساً، وأكثـر في ملابس لائقـة، وكـان هناك أعـداداً كبيرة من المراتب نفسهـا المســاوية لمراتب الفرسان، قد لبسوا وفق الطريقة نفسهـا، وقد عرضوا أنفسهم أمام جميع الناس الذين احتشدوا.

كيف قدم ملك سكوتلندا الولاء إلى ملك إنكلترا

ثم قـدم ملك سكوتلندا الولاء إلى ملـك انكلترا، عن الاقطاع الذي بين يديه من ملـك انكلترا، ومن أجل حصـة من مملكـة انكلترا اسمهـا لوثيان Lothian, ومن أجل بقيـة أراضيه، لكن عندمـــا استدعي سكوتلندا ليقدم الولاء عن مملكته السكوتلندية، وليقدم الطاعة والتابعية إلى مولاه ملك انكلترا، مثلما فعل أسلافه، وذلك حسبما جرى تدوينه في التواريخ، في كثير من الأجزاء، أجاب ملك سكوتلندا بأنه قدم إلى هناك بسـلام وفي سبيل كرامـة ملك انكلترا، وبناء على أوامره، وأنه بوسـاطة رابط الزواج يمكنه التحـالف معـه، وليس أن يقـدم له جـواباً على مثل ذلك السؤال الصعب، لأنه —كما قـال— لم يتباحث بما فيه كفـاية حول هذه القضية مع نبلائه، أو عمل مشـاورة موائمة حول مثل تلك القضية

الصعبة، وحسبما تتطلبه، ولدى سماع الملك بهذا، لم يكن راغباً بأن يقوم أي معيق بإلقاء أية ظلال على الاحتفال السلمي، أو أن يثير أية متاعب لذلك الملك الذي مايزال شاباً، وزوجته التي ماتزال أيضاً شابة، خاصة وأنه جاء بناء على استدعائه، بسرور عارم، لإعطائه ابنته في الزواج، ولذلك ضبط مشاعره، وعبر بجميع الأشياء بصمت.

حول إمتياز الإيرل مارشال في هذه المناسبة

وأثناء هذه الترقيات، واحتفالات الزواج، طالب الايرل مارشال بوجوب منحه امتيازه الذي هو امتياز وصل إليه من أجداده، وهو أن المهر العائد لملك سكوتلندا، والذي ادعى أنه امتياز له، ينبغي أن يعطى إليه، مع غطاء سرجه المزركش، وذلك ليس بسبب قيمته، ولاصدوراً عن أي شره، ولكن تماشياً مع عادة قديمة تتعلق بمثل هذه القضايا، وأنها ينبغي أن لاتموت، أو أن تتلاشى من خلال أي اهمال من جانبه، وفي جواب على هذا المطلب تم اخباره بأن ملك سكوتلندا سوف لن يخضع لمثل هذا المطلب، بسبب أنه لو أراد الاختيار، يمكنه الحصول على هذه التجهيزات من أي أمير كاثوليكي، أو من بعض من نبلائه، وهو صدوراً عن احترامه وتقديره للملك الذي هو أمير عظيم، وجاره وختنه، هو يفضل أن يصبح فارساً على يدي ملك انكلترا، وليس على يدي أي واحد آخر، وبناء عليه قضت تعليمات الملك، بوجوب تهدئة كل نوع من أنواع الخلاف أثناء يوم الاحتفال.

وصف لاحتفال الزواج

ثم بدأ المحتفلون بتمتيع أنفسهم مع بعضهم، ومع الملكين ونبلائهما، ومع أسرهم، وهكذا أمضوا عيد الميلاد في أعظم بهجة، ولو أنني أردت أن أصف بشكل كامل وفرة الموائد وتنوعها، واختلاف الملابس، والحركات المرحة والقصف والصياح، وعدد الضيوف في هذه

الاحتفالات، سوف تبـدو الرواية فيها مبالغة غير معقـولة لمسامع الذين لم يكونوا حاضرين، وسـوف تكون سبباً لملاحظات قـاسية، ولكن في سبيل تقـديم مثل مستخلـص من البقيـة، ولفهم مـاحـدث مـن خـلال حقيقـة واحـدة، نجد أن أكثـر من ستين رأساً من مـاشية المراعي شكلت الوجبـة الرئيسيـة على المائدة، وكـانت هذه تقـدمة مـن رئيس الأساقفـة، واحتفل الضيوف على التوالي مرة مع الملك الأول، ثـم مرة أخرى مع الملك الثاني، في إعـداد وجبات ثمينة، حتى أن عبث الدنيـا قـد أظهر نفسـه لبني البشر بقدر مـايمكنه في لحظات عابرة من البهجة، ولقـد تناولوا جميعاً أطعمتهم لعدة أيام مـع رئيس الأساقفة، الـذي ظهر وكأنه أمير الشمال تولى اضـافة الجميع، وقدم المشورة إلى الجميع في كل قضيـة نقص أو حاجة مستعجلة، وزود بشكل فعـال حـاجـات الجميع، أحيـاناً بتقـديم أمـاكن الاقـامـة للمسافرين، وأحياناً أخرى بتقديم الأعلاف لخيولهم، ومرات كثيرة أخرى بتقـديم الأدوات المنزليـة، والوقـود للنيران، وهدايا من المال، وهكذا فإنه بمـوجب هذه الزيارة لمولاه، وفي تقـديمـه الهدايا من الذهب ، والفضـة، والملابس الحريرية، بذر على أرض قاحلة أربعة آلاف مارك، لم يحصد منها فيما بعد أية ثمار، إنما كـان من الضروري بالنسبة له القيـام بهذه الأشياء في ذلك الوقت، حتى يكون من الممكن الحفاظ على سمعتـه سليمة متماسكة، وأيضاً في سبيل اغلاق أفواه الذين يتكلمون بالشرور.

الاحتفال بعيد القديس إدوارد في لندن

في الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الاحتفالات في المقاطعات الشمالية من انكلترا، بناء على مبـادرة من الملك، الذي لم يكن نـاسيـاً للقـديس ادوارد، قام أسقف ايلاي، ورعاة ديرة ويستمنستر، وورلتهـام، عوضاً عن الملك، وبناء على أمـره، بالاحتفـال بعيـد القـديس ادوارد، في ويستمنستر بكل أبهة، وذلك بوساطة القداسات في الكنيسة، والاحتفال في القصر.

كيف استرد فيليب لوفل الحظوة لدى ملك إنكلترا

وبينما كانت احتفالات الزفاف ماتزال مستمرة، وكانت أفكار وآراء الجميع متركزة حول هذه الأيام الاحتفالية، أقدم ذلك الرجل الماهر والداهية، فيليب لوفل، المحاسب، بتقديم الرجاء بتواضع إلى ملك سكوتلندا وإلى زوجته الجديدة، بأن يستخدما التماساتهما لصالحه، لتهدئة غضب الملك ضده، وأن يستردا من أجله رضاه وطيب نواياه، وكان فيليب المذكور معروفاً من قبل لدى ملك سكوتلندا، كما كان صديقاً حميماً لأبيه ولأمه، لأنه أثناء عمله قهرماناً لايرل وينكستر في غالووي Galloway, العائدة للملكية ذلك الايرل، مكث لبعض الوقت في تلك المقاطعة، وغالباً ماقدم هدايا تشريفية إلى الملك المذكور، وإلى ملكة سكوتلندا، وأصدقائهما، ولذلك أصغى الملك الجديد باهتمام لشكوى فيليب، وعندما وجد وقتاً مناسباً، ذهب ليمثل أمام ملك انكلترا، وجثا على ركبته، وبيدين متشابكتين مهّد لطلبه بالخطاب التالي، الذي امتلك قدرة تحريك قلب ملك انكلترا، الذي رغب في انهاضه، مع أن ذلك جاء ضد الراجي الجاثي، وبدا أنه قادر على إسالة دموع التأثر والسرور من أعين كثيرين ممن جلسوا هناك، ثم إنه تكلم كما يلي: «مولاي الملك، يعلم جلالتكم أنه مع أنني ملك، وأنني بفضل احسانك صرت فارساً، إنني مجرد طفل، من دون سن أو معرفة، علاوة على ذلك إنني يتيم، بسبب موت أبي، وعودة أمي إلى بلادها، البعيدة، فيما وراء البحر، تاركة إياي في عمر غض، فهي ماكانت لتأتي إلى هنا، لولا أنها دعيت من قبلكم، وإنني منذ الآن فصاعداً قد تبنيتكم بمثابة أب لي، أنت الذي يمكنك أن تعوض عليّ الخسارة في قضية كل من أبي وأمي، ويمكنك أن تزودني بما أحتاجه من مشورة أبوية كافية وحماية»، ولم يستطع الملك حبس نفسه عن البكاء، فأجاب وهو يتنهد بعمق: «أنا على استعداد»، وبناء عليه أضاف الصبي، لكن ليس متحدثاً مثل صبي:

«بناء عليه سأحاول في هذه القضية، وبالتجربة سوف أعلم (بما أنك بمعروفك أصغيت إليّ) فيما إذا كنت سوف تلبي أول طلب لي، ورغبة، اعف عن جميع ذنوب فيليب لوفل كلها، الذي أضفى في أحد الأوقات كثيراً من التشريفات على أبي وأمي، وعليّ شخصياً، بأن تعيده إلى خدمته السالفة، لأنني علمت من أشخاص جديرين بالتصديق، بأنه قد اتهم بشكل غير عادل، وهو شخص قديم الاخلاص، وكان لايمكن الاستغناء عنه في معالجة المسائل الصعبة لايرل وينكستر، وعلاوة على ذلك كان موائماً في مشورته لك وتأدية واجبه نحوك»، وكان الذين كانوا آنذاك جلوساً هناك أثناء هذا الخطاب ميالين لصالح هذا الطلب، ولذلك تفضل الملك فاستجاب، وكانت هناك أيضاً مساعدة فعالة في هذه القضية من خلال دور جون مانسيل، الذي فاق الجميع قوة.

وعند انتهاء احتفالات الزواج، غادر ملك سكوتلندا وسافر إلى بلاده مع زوجته التي اقترن بها حديثاً، وجرى أيضاً تعيين حارس موثوق ليتولى العناية بالعروس، وليزودها بجميع أنواع المعلومات، وكان هذا هو روبرت أوف نورويك، الذي كان مارشال بيت الملك وحاشيته، وستيفن بوزان Bauzan, وكانا معاً فارسين، وبالاضافة لهما ماتيلدا أرملة وليم الثاني أوف كانتلوب Cantelupe, وكانت سيدة تتمتع بجميع مشاعر الشرف، مع بعض الرجال الآخرين المستقيمين والجيدين، ووعد ملك انكلترا ملك سكوتلندا بأن يرسل إليه بعض المستشارين الحكماء والمخلصين للتشاور مع نبلاء مملكته حول جميع القضايا المتعلقة به وبالملكة.

حول عاصفة ريح حادة جداً

وفي هذا العام نفسه، في ثمانية عيد الغطاس، هبت ريح شرقية حتى حركت الريح الجنوبية الغربية على الهبوب أيضاً، وقد عانى كثيرون من المؤثرات، وهبت الريح الجنوبية الغربية مع زمجرة مرعبة، وعنف شديد،

وردت الأمواج عن الشاطىء، وكشفت أسقف البيوت أو دمرتها، واقتلعت بعض أشجار البلوط من الجذور، أو فتتها إلى شظايا صغيرة، وجردتها من أوراقها، واقتلعت رصاص أسقف الكنائس، وأغرقت أقوى السفن وأكبرها في الأعماق، وسببت أضراراً لايمكن تعويضها لكثيرين، هذا وكانت الأضرار أعظم على اليابسة، ومن الواضح أنها كانت أكبر بعشرة أضعاف من الأضرار على البحر، ودون أن نذكر الأضرار الأخرى والخسائر، أعتقد أنه من المفيد أن نأتي على ذكربعضها مما عرفناه، وكنا شهوداً عليه، ففي وينكلسي Winchelsea, التي كانت ميناء له فوائد عظيمة للانكليز، وخاصة إلى سكان لندن، فقد قامت أمواج البحر، وكأنها كانت غاضبة وساخطة لإبعادها في اليوم الماضي، بتغطية أماكن مصاقبة للشواطىء، واستحوذت على طواحين وبيوت، وأغرقت وجرفت عدداً كبيراً من السكان، ولكي نكون أكثر علماً وإحاطة بالوقائع الأخرى التي لم تكن متوقعة، وحدثت في كل مكان، اقتلعت الريح من الجذور ثلاثة بلوطات في مقبرة كنيسة القديس ألبان، كل واحدة منهن لايمكن لثلاثة رجال الإحاطة بها بأذرعتهم، واقتلعت أثناء ثورتها أوراق أشجار أخرى.

وفي يوم عيد القديس فالنتاين، وصل الملك إلى لندن.

كيف جمع أسقف روكستر حصة الخمس من موارد رعاياه من رجال الدين

وفي هذه السنة نفسها أيضاً قام أسقف روكستر، الذي كان قد تسلم منصبه منذ وقت قصير، بالحصول من بلاط روما، على سلطة استخراج حصة الخمس من منافع رجال الدين في أسقفيته، ومن مواردهم لمدة خمس سنوات، مما أثار دهشة الكثيرين، ولاعجب في ذلك فهو كان معروفاً من قبل ذلك البلاط، نتيجة إقامته فيه لمدة

طويلة نـائبـاً للملك هناك، وجـــاء هذا على الرغـم من أن الأسقف المذكـور، كـــان قـد احتفظ، بمــوجب ترخيص من البـابـا، بمـوارده السالفـة، التي كانت بحوذته، قبـل ترقيته إلى أسقفيته، وقـد عدّ ذلك ضروريـاً —كما أعلن— لتخليص أسقفيتـه القـاحلة من حـالة الفقـر، لأنه بدا إليه أنه أمـراً مخجلاً أن يقال بأن أسقفيتـه هي الأفقر بين جميع الأسقفيـات في انكلترا، وقد تفـوقت الآن على أسقفية كـارأيل، وبناء عليــه طالب بوجــوب دفع ذلك المبلغ إليــه، ليس حسب التقــدير اللاهوتي للممتلكات الذي عمله رجاله، بل وفق جمعه من الممتلكات اللاهوتية بأية طريقة من الطرق.

موت نيقولا أوف ساندفورد

وفي تلك الآونة، في العشرين من كــانون الثـاني، مـات نيقـولا أوف ساندفـورد، الذي كان فارسـاً، ولقد أتينا على ذكـر موته في هذا المجلد، ليس بسبب ثروته، بل بسبب شجـاعته، وكان سبب مـوته الأسى الذي شعر به، نتيجة موت اخته سيسيليا، كما تقدم الذكر من قبل.

كيف حث البابا ملك إنكلترا على القيام بالحج

وفي هذه الأونة أيضــاً، أرسل البــابا رســالة لاقناع ملك انكلترا، وحثه على القيام باستعدادات فعـالة، من أجل انجاد الأرض المقدسة، وليقـدم مساعـدة مؤثرة إلى ملك فـرنسا، الذي كـان ينتظر المساعـدة، وإذا لم يكن راغباً بفعل ذلك، بأي حال من الأحوال، عليه عدم إلقاء أية عقبات في طريق الآخرين، الذين كـانوا جاهزين وراغبين في عبور البحـر، والقيام بـالحج، وقد أضيفت هذه الفقـرة الأخيرة، لأنه أخـر بعض النبلاء، الذين كانوا مستعـدين للذهاب إلى الأرض المقدسة، مما سبب لهم ضرراً كبيراً وخســارة، وبناء عليــه، قــام الملك، في سبيل التجـاوب مع رغبة البـابا الملحـة، فـاستخرج من اليهـود، كل ملكيـة

ظاهرة امتلكها هؤلاء القوم التعساء، فهو لم يكتف بسلخ جلودهم، بل استخرج أيضاً ما كان في أجوافهم، وهكذا فإن هذا المتعطش الساعي وراء الذهب خدع المسيحيين، وكذلك اليهود، واستخرج منهم أموالهم، وأطعمتهم، وجواهرهم، بجشع كبير بلغ حداً، ظهر فيه وكأن السماسرة قد قاموا من الموت.

كيف متن البابا نفسه بزيادة عدد كرادلته

ومع اقتراب الربيع، وفي سبيل أن تتمكن الكنيسة من التنفس بحرية بالتوافق مع صفاء الفصل، أوجد البابا سبعة كرادلة في بيروجيا، المدينة التي استقبل من قبل سكانها بالتكريم، لأنهم عرفوا أنهم سوف يحصلون على المنافع من قدومه، وبعدما كان قد زوج حفيدته بأبهة عظيمة ونفقات عالية، زاد على ذلك، في سبيل زيادة قوة حزبه، بأن اقترح تزويج احدى حفيداته إلى هنري بن فردريك، وابن أخت ملك انكلترا، واستهدف من وراء ذلك أن يصبح هنري الابن المتبنى من قبل البابا، وأن يصير محمياً تحت جناحي الكنيسة، ومن ثم تحليلة من الحرمان الذي فرض عليه، ووقت ذلك يمكنه —البابا— أن يتمتع بسلام كامل، لكن عندما سمع نبلاء الامبراطورية بهذا، شعروا بسخط عظيم، من محاولة البابا بالاقدام على الحط من شأن مثل ذلك الشاب النبيل والرفيع الأصل.

وحدث في هذه الآونة أيضاً، أن وليم كونت هولاندا، الذي حزن للخسائر التي عانى منها، من خلال اقدامه على ادعاء المنصب الامبراطوري، وذلك بوساطة المساعدة المالية للبابا، تخلى عن جميع ماادعاه حتى الآن، مفضلاً —مع أن ذلك جاء متأخراً— أن يتمتع بأمن السلام، على الرغم من أنه نزل إلى منزلة منخفضة، مؤثراً ذلك على مواجهة مخاطر الحرب المتقلبة، والعيش في منصب رفيع.

الظهور الأول للجواميس في إنكلترا

وفي أيام الصوم الكبير من هذا العام نفسه، جرى ارسال بعض الجواميس إلى الايرل رتشارد من القارة، وكان بعضهم ذكوراً، وبعضهم الآخر من نوع الإناث، في سبيل أن تزداد هذه الحيوانات، التي لم تشاهد من قبل في هذه البلدان الغربية، وتتكاثر، والجاموس هو نوع مشابه للثور، ومتأقلم بشكل جيد لحمل الأثقال أو جرها، وهو عدو كبير للتمساح، ومغرم بالماء، ومزود بقرنين كبيرين للدفاع عن نفسه، وعن هذا الحيوان قال الفيلسوف برنارد:

للفيل أنياب، والسنام يزين ظهر الجمل

وينتفخ جبين الجاموس بشموخ بقرنيه

حول رفض الرهبان الفرنسيسكان قبول هدية من ملك إنكلترا من بضائع مسلوبة

وفي هذه الآونة نفسها، أرسل الملك صدقاته إلى الرهبان الفرنسيسكان، عبارة عن عربة محملة بالأقمشة الصوفية والأقمشة الرمادية، المناسبة لتكون ملابس للرهبان المذكورين، لكن لدى سماعهم بأن الملك استخرجهم من التجار، وفق الطريقة التي يأخذ بها، لابل يستولي بها، على الأشياء الأخرى، واحتفظ بثمنهم، ودفع فقط الضريبة الاقطاعية عنهم، رفضوا تسلم مثل هذه الهدية، وأعادوا العربة، مع جميع محتوياتها، قائلين إنه لايجوز قانونياً اعطاء الصدقات من أسلاب الفقراء، وهم لن يتسلموا مثل هذه الأعطية الملوثة، وجعل هذا العمل الرهبان جديرين بالمدح، واستحق الملك الملامة، لابل بالحري العار، فالملك ينبغي أن يعدّ مرآة للعدل وأساساً له، وأن يكون مثل الشمس، التي أشعتها مستقيمة، تخرق الظلمات، وأن تكون كلماته صادقة، وغير متقلبة، تمنح الضوء والمعرفة إلى الذين هم في الظلام، لكن الآن، بما أن

الذي يسمى ملكاً مليئاً بالظلمات في ذاته، فكيف يمكن له أن يضيء الذين حجبهم الظلام؟ وحول هذه المسألة قال ستاتيوس Statius: أنت يمكنك أن تضع كل شيء تحت سلطانك القضائي، عندما تكون ملكاً على نفسك، ولقد عانى الاغريق جميعاً من أجل هذه الأشياء».

حول الاتهامات الجادة التي وجهت ضد سيمون إيرل أوف ليستر

وفي العام نفسه، عندما كان سيمون، ايرل ليستر، مقيماً إقامة قصيرة في انكلترا، تحرك شعب غسكوني ضد السلطة الملكية، وتخلوا عن المواثيق التي دخلوا بها، و شنوا الحرب ضد الملك، وتجرأوا على مهاجمة الذين وضعهم الايرل، وأنابهم عنه لحماية قلاعه والممتلكات الأخرى، وأرسلوا رسالة إلى الملك، بأن الايرل المذكور، هو أكثر الخونة انحطاطاً، وأنه كان يتولى جمع مبلغ لاحدود له من المال، قام باستخراجه من النبلاء، ومن المواطنين، ومن العوام، فهو لم يوفر أحداً، وأنه أخبرهم بأن الملك هو الذي بحاجة لذلك لأنه على وشك الذهاب للحج، فهو على هذا سوف يتسلم جميع الأموال، غير أنه احتفظ بذلك كله لنفسه،وعلاوة على هذا تقدموا ضده بشكوى جادة، هي أن دعا إلى مجلسه الاستشاري بشكل سلمي بعض الرعايا المخلصين كثيراً إلى الملك، وبعدما دعاهم، تصرف مثل سينون Sinon وليس مثل سيمون، حيث سجنهم بشكل غادر، وأبقاهم في السجن، وأجاعهم حتى الموت، وبهذه الشكاوى وبأمثالها، وبالهمس بالشكاوى، حولوا الايرل إلى هدف للشك من قبل الملك، وتأرجح الملك وقتها في حالة من الشك، فأرسل فجأة وبشكل سري إلى غسكوني محاسبه هنري أوف وينغهام Wengham, وكان رجلاً بارعاً وحكيماً، ليقوم ببحث جاد، حول ماتعلق بالشكاوى المتقدم ذكرها، وذلك في سبيل أن يحصل الملك على معلومات موثوقة حول المسألة، وذلك وفق الطريقة التي

كـــان قـــد أرسل بها مـن قبل غيـــوفـــري أوف لانغلي Langley, للبحث في إجراءات روبرت باسليف Passeleve, عندما كان مـوضـع شك، وللتقصي حتى يكتشف الذي كـــان هو السر في المسألة، وليتعـرف إلى العقدة في القصبـة الناعمـة، وإلى الزاوية في اطار الدائـرة، لكن كل واحد من المفتشين أخفق في فحصه، وعندما سمع الايرل بهذه الإجـراءات، غضب غضبـاً عظيماً، لسبب مضـاعف، وأعلن عن براءته إلى الملك قـائلاً: «كيـف حدث يامـولاي أن ملت بأذنيك وقلبك نحـو رسـائل هـؤلاء الخونة لك، وصـدقت أولئـك الذين غـالبـاً مـا أدينوا بالخيـانة، بدلاً مني، أنا الذي خـاضع لك ومخلص، وهكذا أقمت بحثـاً حـول أعمالي»؟، وعلى هذا أجـابه الملك، الذي أصبح هادئـاً تمامـاً: «إذا كـان كل شيء واضحـاً، مـا هو الأذى الذي سيلحقـه بك التـدقيق؟ في الحقيقة سوف تصبح سمعتك أكثر وضوحاً واشراقاً بذلك»، ثم تواضع الايرل، واستعد للمغادرة إلى غسكوني، وبناء على التماساته، زوده الملك بمبلغ كبير من المال، لكن من دون استقـرار في الفكر، لأنه فكر بالقيـام بانتقـام موائم، بسبب الأذى الذي لحق به من خـلال هذه التهم الجادة، وحشـد جيشاً كبيراً من الفـرسـان الفرنسيين مع أتبـاعهم المستأجـرين، ودعـا ملك نافـار لتقـديم المسـاعـدة إليـه، وكـذلـك كـونت بيغـوري Bigorre, مع كثير آخرين، ومتن حـزبه إلى درجة عـالية، وهكذا أخمد تجبر الغسكونيين، الذيـن لولا أن انكلترا مفيـدة لهم مـن أجل بيع خمورهم، لقامـوا جميعاً بالتخلي عن ولائهم لملك انكلترا، ولأقـدموا على اختيـار سيـد آخر، وعلى كل حـال بما أن الغسكونيين صـار لديهم الآن مكاناً للجوء إليه في اسبانيا من أجل بيع خمورهم —التي من حاصلاتها هم يعيشـون— في قـرطبـة، واشبيليــة، وبلنسيـة الكبيرة، وهي أمـاكن خضعت الآن للادارة المسيحيـة، لكان من المخشي أنهم سـوف يتركـون الأراضي الانكليزية، التـي فيها تعرضـوا للاضطراب ولكثير من المظالم، والأذى، خاصة من خلال الأتاوات الملكية، ولأخذوا أنفسهم من أجل

المستقبل إلى مناطق أكثر بعداً، ولقد رأينا بأن هذه الملاحظات مناسبة لأن يجري ذكرها كاملة في هذه الصفحات، لأن جميع سمعة مملكة انكلترا، التي اعتادت على القيام بالتفاخر بالمقاطعات الموجودة في القارة والخاضعة لها، أخذت الآن بالتناقص والتشتت بسبب كسل ملك انكلترا وزيفه، لذلك لم يبق إلاّ النادر في مقاطعة غسكوني، من هو خاضع للانكليز، وهي المقاطعة المكروهة من الملك الفرنسي، والتي —علاوة على ذلك— كانت في حالة تأرجح، وإذا مافقد الانكليز تلك المقاطعة، حسبما هو معلن من قبل الغسكونيين، لن ترسو بعد الآن فصاعداً أية سفينة انكليزية في المقاطعات القارية، ولن تتوقف فيها.

الحالة المدهشة للهواء والمناخ

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، وبالتحديد في اليوم التالي لعيد القديس غريغوري، في اليوم الرابع من الأسبوع، عندما صار تغير القمر وشيكاً، ظهر قبل أربعة أيام من يوم ظهوره، كما كان متوقعاً من قبل، لأن اليوم التالي قبل السبت، كان في الترتيب الصحيح للأشياء، وكان اليوم الأول لظهوره، وبعد ذلك، خلال خمسة عشر يوماً متواليات، ظهرت الشمس، وظهر القمر، وكذلك النجوم بلون أحمر، وظهر أحد الأيام غائماً، أو كأنه مغطى بالدخان الذي ملأ محيط العالم كله، وكانت الريح آنذاك تهب من الشمال، أو من الشرق، وخلال الجزء الأكبر من شهر آذار، وأثناء نيسان كله وأيار، من هذا العام نفسه، جفت الأرض، وعطشت بوساطة حرارة الشمس المحرقة، واستمرت الريح بالهبوب من الشرق، والشمال، أو الشمال الشرقي، ونتيجة لتزايد الحرارة، وبسببها وبسبب الجفاف، ولانعدام الندى المنعش، تساقطت ثمار التفاح والفواكه الأخرى، فبعدما كانت قد ظهرت بكثرة مثل حبات الفستق، ذبلت وسقطت لافائدة منها، ولم يبق أي جزء من هذه الثمار حياً، مع أن الأغصان كانت قد وعدت بوفرة عظيمة من الفواكه، واستمر

تناقص الفواكه بازدياد، ولاسيما عندما وصلوا إلى حجم البلوط، فعندما وصلت الفواكـه إلى حجم البلوط، أصيبت بجليد مفـاجىء في الصباح، وترافق ذلك مع أشعـة ضـوئيـة غير اعتيـادية (مما يسميـه الفـلاسفـة الطبيعيين لفحات الضوء والحرارة)، أحـرقت التفاح الناضج، والبلوط، والدراق، وجميع أنـواع الفـواكـه، والكـلأ، إلى درجـة أن الذي بقي لم يتجاوز العشر، وعلى كل حال إنه بسبب الوفرة الأولية للمواسم، بقيت الحدائق مليئة بالتفاح، والحقول بالقمح، وفي الحقيقة لو أن جميع الأزهار بقيت، لما استطاعت الأشجار أن تحمل الفـواكه التي أنتجتها، وارتفعت الشمس إلى العلو الانقـلابي في السماء، وأحرقت حـرارتها العاليـة والتي لايمكن تحملها، وجـه الأرض، حتى أن جميع الأعشاب قـد ذبلت، ولم تعد المروج قـادرة على تقديم الطعام للمـواشي، واستمرت الحرارة أثناء الليل، وسببت كثـرة الذباب والبعوض، مع الحشرات الأخـرى المؤذية، وهكذا صار جميع الأحياء متعبين من الحياة.

حول رفض رجال الدين ذوي المنافع الترقية إلى المراتب الكهنوتية

وفي هذه الآونة جـرت محاولة لاقناع رجـال الدين من ذوي المنافع في أسقفيـة لنكولن بإلحاح، ومن ثم حثهـم من قبل أسقف تلك الأسقفيـة، بإرادتهم، أو بـدون إرادتهم، على السماح لأنفسهم بالترقيـــة إلى المراتب الكهنوتيـــة، وقـد رفـض كثير منهم، إخضـاع رقـابهم إلى نير المولى بهذه الطريقة، وتم بمـوافقة عامـة جمع مبلغ من بينهم أنفسهم، وبعدمـا جمعوا مبلغاً كبيراً، بعثـوا إلى البلاط الروماني، وتمكنـوا عن طريق الانفاق الكبير للمال، المال الذي له سلطة قوية في ذلك البلاط، من الحصول على السلطة من البـابا، وقـاومـوا هذا المرسـوم الأسقفي، وحصلـوا على اذن لعـدة سنوات، بامتـلاك مـدارس دون الدخول في الكهـانة، وهكذا استطاعـوا بمظهر الأمانة، وبمكر يشبه مكر الثعلب إزالة نير المولى من على رقابهم.

كيف رفض الفرنسيون إطاعة أوامر ملكهم

وفي العام نفسه، ومع اقتراب حلول موعد عيد الفصح، دعا الملك جميع نبلاء انكلترا الذين حملوا شارة الصليب، إلى الاجتماع في لندن خلال اسبوعي الفصح، لعقد مشاورات حول شؤون الأرض المقدسة، التي كرامتها كانت في حالة تأرجح وتردي كبيرة.

وفي هذه الآونة أيضاً، بدأ اسم الملك الفرنسي يقدر تقديراً متدنياً كثيراً في تلك المملكة،وأصبح مكروهاً، وغير محترم بين كل من النبلاء وعامة الناس، وذلك لسببين، كان أولهما، أنه قد تعرض لهزيمة مهينة على أيدي المسلمين في مصر، وعانت النبالة الفرنسية كلها معه من عار لايزول، ولأنه عزم، من دون موافقتهم، على منح نورماندي، والأراضي الأخرى في القارة، التي تملكها الملك الفرنسي واستحوذ عليها، إلى ملك انكلترا، على شرط أن يمده بمساعدة قوية وفعالة، خاصة وأنه كان ملزماً بأن يفعل ذلك، على أساس أنه قد حمل الصليب.

وعلاوة على ذلك ازداد تجبّر الفرنسيين، بوساطة الخزي والمرارة التي أخرجوها من أفواههم أثناء المحادثات، من ذلك أنه عندما كان النبيل روبرت، كونت أرتوي، وأخو الملك الفرنسي، فاراً خلفه، كان هناك شاب انكليزي، اسمه وليم صاحب السيف الطويل، وكان منحدراً بأصله من الأسرة الملكية لانكلترا، وقد وقف هذا بثقة وبشجاعة، وثبت في مكانه، يقاتل حتى الموت، وبما أن الفرنسيين أنفسهم، لم يكن بإمكانهم انكار، بأنه سوف يشع مطوقاً ومتوجاً بتاج الشهادة، وأنه جدير بأن يكون مفضلاً لدى القديس ادموند، وأن هذا يمكن تأكيده شرعياً، فادموند هو المعترف المجيد، وهو الذي اشتهر باستقامته، وبمعجزاته المتوالية، أما الآخر، فكان فارساً شجاعاً، ومن أصل نبيل، وقد تبرهن بشكل مكشوف بأنه شهيد، وكان هذا كله شوكة جارحة في أعين الفرنسيين، لأن كل رجل متجبر يحزن كثيراً عندما يشاركه أحد

بالثناء عليه، ويزداد حزنه وأساه إذا ماتفوق أي واحد عليه، وحول هذا قال الشاعر:

كل قدرة

أو

كل تجبر

يغار من الشريك

وبالنسبة لمحاولة الملك الفرنسي إعادة الممتلكات في القارة إلى ملك انكلترا، ردّ الفرنسيون برعونة على الشكل التالي: «لاسمح الرب أن تتعرض فرنسا في أيامنا إلى البتر، وأن تهان وتتدنى سمعتها —مع أن ذلك أصبح أكثر شراً وسوءاً مما هو ممكن من خلال تقاعس وغلبة الملك الصغير— بإعطاء ملك انكلترا الضعيف، وتلبية مطالبه، بالتخلي عن الأراضي، فلقد عانينا من الإهانة بما فيه الكفاية، وأسيء إلى سمعتنا كثيراً، وأفقرنا بما فيه الكفاية، وإذا كانت ملكتنا بلانشي، تريد ذلك، صدوراً عن عاطفة الأمومة، وعن الرغبة النسائية، وعلى استعداد لأن تفعل هذا، في سبيل تحرير ابنها وفائدته، فإن جماعة المملكة الفرنسية كلها لن تسمح مطلقاً بذلك، وإننا لن نسمح مطلقاً بخرق قرار النظراء الاثني عشر، الذي قضى بتجريد الملك الانكليزي من نورماندي، أو عدّه لاغياً أو طائشاً، ولن يتمكن ملك انكلترا، عدونا المميت، بأي حال من الأحوال ومهما كان، بالحصول على مطالبه الأخرى مادمنا أحياء».

وهكذا تفجر التذمر والرفض بين النبلاء الفرنسيين، تجاه عزم الملك على القيام بهذه الأعمال من دون موافقة البارونات جميعاً، وشرع أخواه أيضاً: كونت بواتو، وكونت بروفانس بإزدرائه وكراهيته، والنظر إليه بقلة احترام، ومع أنه كان متوقعاً مساعدتها الأخوية الموعودة،

وحمايتها، لقد رفضا تزويده بذلك، وكان الوحيد الذي وقف إلى جانبه، وعمل لصالحه هو أمه بلانشي، التي لم تسمح لها رحمتها، وعاطفتها الطبيعية، ومشاعرها الدينية بالوقوف ضده.

وعندما سمع ملك انكلترا بهذا، ماتت جميع آماله في استرداد حقوقه في القارة، وتلاشت، ولقد جرى إخباره أيضاً، بأن النبلاء الفرنسيين، قد أقسموا قسماً عظيماً، بأنه، أي ملك انكلترا قبل أن يحصل على مايتطلع إليه، سوف يرغم على شق طريقه خلال أسنة ألف رمح، وبعد قصفهم وتكسيرهم، سوف يرغم أيضاً على شق طريقه خلال العدد نفسه من السيوف التي كانت جاهزة لتغطس في دمه، ولقد خاف ملك انكلترا من هذا كثيراً، ولاعجب تجاه ذلك.

كيف أقسم الملك بأنه سوف يقوم بالحج إلى الأرض المقدسة

وأثناء هذا العام، في يوم الاثنين التالي قبل اليوم الذي ندعوه بالعادة وبشكل عام باسم Hokeday, دعا الملك بوساطة صوت المنادي جميع سكان لندن، من أدناهم إلى أعلاهم، آمراً إياهم بوساطة مرسوم ملكي بالاجتماع جميعاً في ويستمنستر، لسماع مارغب به، وعندما اجتمعوا جميعاً مع بعضهم، أمر الملك أسقفي: ووركستر، وشيستر، وراعي دير ويستمنستر، بإلقاء خطابات مهيبة وعاجلة، على الناس، حول موضوع حمل الصليب، لكن بسبب الاستخراجات المالية المتنوعة، وأعمال الخداع، لبلاط روما، قليل من سكان لندن وأتباعهم من سكان الريف، كانوا هم الذين فعلوا ذلك، بناء على تبشيرهم، وقام على كل حال الذين كانوا حول البلاط، ورتشارد دي غري، وأخوه جون، وج. J دي بليست Plessets, بحماس بحمل الصليب، وبادر الملك على الفور بالتوجه نحوهم، وعانقهم، وقبلهم في ذلك المكان، ودعاهم باسم إخوانه، ووجّه في الوقت نفسه اللوم إلى سكان لندن، ودعاهم مرتزقة منحطين، لأن قليلاً منهم كانوا هم الذين حملوا

الصليب، وكان هذا التمسك بالتهور بعناد، سببه روما، لأن الملك كان لتوه قد حصل على تفويض من البابا بأن يجبي العشر لمدة ثلاثة أعوام من رجال الدين، ومن شعب المملكة، ولو أن هذا كله جمع وأحصي لوصل إلى مبلغ يزيد على ستمائة ألف [مارك]، مما كان سيلحق الضرر الدائم بالمملكة، ولهذا قد قيل بشكل سري، بأن أصحاب العقول التقية، صعب عليهم تصديق بأن الملك قد حمل الصليب، إلاّ لغرض واحد، هو أن يتمكن بهذه الوسائط من تجريد المملكة من ثروتها، وهو على كل حال قد أقسم بأنه سوف يقوم بعبوره خلال السنوات الثلاث المقبلة، شروعاً من عيد القديس يوحنا المعمدان، مالم يمنعه عن ذلك الموت، أو مرض شديد، أو سبب آخر معقول، ولدى تأديته لهذا القسم، وضع يده اليمنى على صدره، مثلما يفعل الكهنة، ثم وضعها على الأناجيل، ثم قبلهم وفق طريقة العلمانيين، وهذا على كل حال لم يجعل الذين كانوا من حوله أكثر قناعة، لأنهم تذكروا الخروقات الماضية، لذلك شعروا بالريبة الآن.

كيف طلب سلطان مصر السلام من الملك الفرنسي

وفي هذه الآونة، عندما كان الملك الفرنسي، مايزال باقياً في قيسارية، شنّ أهل قونية ودمشق حرباً دموية متواصلة ضد السلطات المصرية، وأوقفوا أنفسهم، على السلب والنهب، والحرق والقتل، لأن سلطان مصر كان هدفاً للكراهية لدى جميع الشرقيين، وذلك لسببين: أولهما لأن الملك الفرنسي جرى السماح له بالنجاة من دون أذى، من بين أيدي المصريين، وذلك من خلال إثارة الشره، وأيضاً بسبب أنه قد قيل بأنه قتل بشكل غادر، مولاه سلطان مصر، وسلفه، في سبيل إغناء نفسه بأمواله، وفي الحقيقة استهدف جميع المشارقة التشهير بالملك الفرنسي، وعرضه ليكون هدفاً للاستهزاء من قبل جميع المسلمين، وذلك في سبيل محق العقيدة المسيحية وشريعتها، وإلحاق عار أبدي بها، وكانوا يريدون بعد هذا كله تقديمه أخيراً إلى خليفتهم حتى يسجن طوال أيام حياته،

أو أن يجري التضحية به، وتقديمه أضحية محرقة إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) من أجل رفع شأن شريعتهم، ولم يكن الغضب الرباني مشتعلاً على كل حال إلى مثل هذه الدرجة ضد عبيده، مع أنهم استحقوا بوساطة ذنوبهم مثل ذلك العقاب من انتقام الرب، لكن مع أنه كان غاضباً، لقد تذكر رحمته.

ولقد أرسل سلطان مصر المتقدم ذكره، منذ ذلك الوقت فصاعداً الهدايا، والرسائل المسالمة إلى الملك الفرنسي، أخبره بها حول كم من الاضطرابات قد تحمل بسببه، لأنه أبقاه حياً، كما أنه بدأ يفكر بتقديم عروض للسلام معه، أو هدنة، يمكن منحها إلى الملك المذكور، ولذلك شعر هذا الملك بالطمأنينة، وتشجع على الشعور بآمال أفضل.

حول قسوة الملك نحو رعيته وسخائه تجاه الأجانب

قبل انتهاء اجتماع البارلمان المتقدم ذكره، صار الملك جافياً ليس لديه مرحمة نحو أي واحد، وهو لم يكتف بعدم منح أي تأخير، ولو كان قصيراً، إلى المديونين له، بل شدّد بقسوته على رعاياه الطبيعيين من دون شفقة، ومن دون أي تقدير للحكمة، وفي سبيل سحب المزيد من الدم من قلوب رعيته، أنعم بقطعة من الأرض تساوي قيمتها خمسمائة مارك على واحد من البواتيين اسمه الياس دي رباني Rabani, وكان رجلاً غير جدير تماماً بهذا التشريف العظيم، وهكذا كان الملك من الجانب الأول شرهاً ولايعرف الشبع، وبرهن من جهة أخرى عن نفسه أنه مبذر، ومبدد لثروات المملكة.

كيف نُظر إلى كونراد بن فردريك بعين التقدير من قبل جميع الفئات

وفي هذه الآونة، كان كونراد بن فردريك، الذي حظي بتأييد ورضا: تقريباً جميع الايطاليين، والكالبريين والصقليين، والرومان، والألمان، قد

جرى تسميمه بشكل غادر، بوساطة مشروب مميت (يارب لاتجعل هذه الجريمة تقع على عاتق بلاط روما)، وبصعوبة بالغة جرى انقاذه من بوابات الموت، بفضل العناية الكبيرة جداً به من قبل أطبائه، وقد كان هناك من قال بأن بعضاً من مؤيدي البابا وأعوانه —لكن من دون معرفة البابا— قد فعلوا ذلك، لأن حزب البابا كان خائفاً كثيراً، لخشيته من أن يقوم كونراد باتباع خطى والده، وأن يتذكر مانالَه من اضطهاد، فينزل جزاءه الإنتقامي على أعدائه، ومن هذا، وبناء عليه، أخذ الجميع ينظرون إلى كونراد بعين التقدير، لأن الرب قد حفظه دون أذى، في مثل تلك الظروف الخطرة جداً، والتمس كثيرون من البابا، وحثوه بإلحاح على القيام بترقية كونراد إلى المرتبة الامبراطورية، باذلاً ما لديه من قوة، لكن البابا كان خائفاً، ويخشى من أن يتبع كونراد خطى فردريك خطوة، خطوة، ويسير على طريقه في اضطهاد الكنيسة.

حول مصاعب سيمون إيرل ليستر

وصل في هذا العام، سيمون دي مونتفرات، ايرل ليستر، الذي عانى من كثير من المشاكل، إلى بوردو، حيث وجد بأن مؤامرة سرية قد حيكت ضده، وأن كثيراً من سكان المدينة شرعوا بإبداء العداوة ضد سلطته، وبإحياء الخطط القديمة، وبحبك خطط أعمال خيانية جديدة، ولذلك وجد أنه من الضروري الدخول بمخاطر الحرب من جديد، ومواجهة حظوظ الموت، حسبما سوف يظهر في الصفحات المقبلة.

وفاة المعلم جون أوف بيزنغستوك

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً، حتى لاتأتي الشرور منفردة، بل مصاحبة، غادر طريق الجسد كله المعلم جون أوف بيزنغستوك Basingstoke, رئيس شمامسة ليستر، وكان رجلاً له كفاءة عالية، وخبرة في ثلاثة مناهج اختصاصات، لابل في أربعة مناهج

اختصاصات، في مجالات الدراسة، وكان متعلماً تماماً وعارفاً بالاغريقية، وبالأدب اللاتيني، وبذلك ازدادت أحزان وأسى الايرل المتقدم ذكـره، وكان المعلم جون هذا قد أخبر روبرت، أسقف لنكولن،بأنه عندما كان يتابع دراساته في أثينا قد شاهد، وأيضاً سمع من بعض العلماء الإغريق، عن بعض الأشياء غير المعروفة باللاتينية، وكان من بينها أنه اكتشف أسفار البطاركة الاثني عشر، أبناء يعقوب، الذين من الواضح أنهم كانوا جزءاً من الكتابات المقدسة، كان قد جرى اخفاءه من خلال مكر اليهود، وذلك بسبب وضوح النبوءات المتعلقة بالمسيح، والظاهرة فيهم، وبناء على ذلك، بعث الأسقف المذكور إلى بلاد الاغريق، وتمكن من الاستحواذ عليهم، وقد ترجمهم من الاغريقية إلى اللغة اللاتينية، ومعهم بعض الكتابات الأخرى، وعلاوة على ذلك أدخل المعلم جون الأرقام الاغريقية إلى انكلترا، وعلّم رفاقه الأقربين استخدامهم، وبيّن أهميتهم، وبهذه الأرقام جرى تقديم الأحرف أيضاً، وماهو مدهش بشكل رئيسي فيهم هو أنه بوساطة حرف واحد فقط، يمكن تقديم أي رقم، الأمر الذي ليس موجوداً في اللاتينية أو في النظام العددي، كما أن المعلم جون المتقدم ذكره، قد ترجم أيضاً عملاً من الاغريقية إلى اللاتينية فيه جميع قواعد النحو قد عرضت بشكل محكم، وهو مادعاه المعلم المذكور بـ Donatus of the Greeks.

كما أنه صنف عملاً آخر، فيه جرى شرح أدوات الجمل بوساطة التمييز الذي يبدأ هكذا «هيكل الرب»، والذي هو مفيد كثيراً.

وترجم هو أيضاً عملاً آخر، حصل عليه من أثينا، لأن الأناس المتعلمين من الاغريق كانوا يتابعون هناك دراساتهم، وأن الحكمة خالدة، وحسبما يقول الكتّاب المتعلمون عنها: «أنا خلقتُ من البداية، وقبل جميع العصور، وسأبقى حتى النهاية من دون اخفاق»، واسم أثينا هذا مشتق من حرف الألف، الذي يعني «من دون»، ومن كلمة

التي معناهـا «مـوت»، وبالمحصلـة إن المعنى هو (Thanatos)، «خـالد»، وقد برهن في هـذا العمل ترتيب الأناجيل، كما أنني ينبغي ألا يفوتني ذكر أن ذلك المعلم المذكور، كان بالعادة هو صديق لي، أنا كاتب هذه الصفحـات، وقـد أخبرني بأنه: كـانـت هناك امـرأة شـابة، هي ابنة رئيس أسـاقفة أثينا، وكـان اسمها قسطنطينا، ولم يكن عمـرها يزيد على العشرين عاماً، وكانت تتمتع بكل الفضـائل، وقد تعلمت كل مصاعب المنهاج الثـلاثي والرباعي، ونظراً لما تمتعت به من علم ومعرفة مـدهشة، كان المعلم جون يدعوها بشكل مسـوغ باسم كاترين أخرى، أو ببساطة كاترين، وقـد كانت هي معلمـة المعلم جون، وكل الأشيـاء الجيدة التي حصل عليها عن طريق العلم، كـان قد التمسه منهـا، فهذا ما قـد أكده مـراراً، مع أنـه درس لمدة طويلة في باريس، وكـانت هـذه المرأة الشـابة تتنبأ، بالأوبئة، وبالعـواصف، وبالخسـوف والكسوف، ومـاهو مـدهش أكثر، بالهزات الأرضية، ولذلك كانت تقدم انذارات مبكرة لاتخطىء إلى جميع المستمعين إليهـا، ولكن دعونا نعـود من هذا الاستطراد إلى صلب موضوع روايتنا، ونتابع حكاية مشاكل وهموم سيمون، ايرل ليستر.

كيف أن الإتهام الأول ضدّ الإيرل سيمون قد تبعه إتهام آخر أكثر جدية

انتشر في هذا العام نفسه تقرير شريـر ضد سيمون ايرل ليستر، وجرى تقديم شكوى فيها تهمة جادة ضده، عرضت أمام نبلاء مقاطعات ماوراء البحـر، مـن أنه عمل بشكل غـادر ضـد الرعـايا المخلصين لمولاه ملك انكلترا، وأنه سجنهم، وقتلهم بصورة لاإنسانيـة بالسيف، أو أنه أجاعهم حتى الموت، وأنه استولى على ممتلكات قـلاعهم وأراضيهم، وبذلك أظهر نفسـه أنه كـان مغتصبـاً متـوحشـاً للبلدات والمدن، ومـدمـراً لاإنسـاني للإنسـان، وليس محافظاً على أتبـاع مـولاه، الذيـن سعى إلى تجريدهم من مواريثهم، وبناء عليه تقـرر بموافقة عامـة من قبل جماعة غسكوني كلها،

إرسال رسل خاصين إلى مولاهم ملك انكلترا، عليهم أن يأخذوا معهم، بمثابة برهان على هذا الاتهام، رسائل من جماعات مدن غسكوني، ومن النبلاء، ومن شحن القلاع، والنواب، وأن يقدموهم إلى الملك مع شكاويهم، وتقرر أيضاً باتفاق عام، بأنه يتوجب على جميع الشخصيات الرفيعة في تلك المقاطعة أي رئيس الأساقفة في بوردو مع بعض النبلاء الآخرين المشهورين، الذهاب إلى انكلترا، إلى الملك بكل سرعة، لأنه من الممكن تصديقهم أكثر من سواهم، وبذلك يسببون الاضطراب للايرل، وعندما جرى اخبار الايرل بهذا، بذل قصارى جهده لكي يعود بكل سرعة إلى انكلترا، حتى يتمكن من إجابة الملك بشكل مقنع عن جميع قضايا الشكاوى التي رفعت ضده من قبل متهميه.

حول إخضاع ويلز إلى القوانين الإنكليزية

وفي هذا الوقت نفسه، عبر اللورد ألان دي زوك Alan de Zouch, المسؤول عن العدالة في مقاطعات ويلز المجاورة لشيستر، بدير القديس ألبان، في عشية يوم عيد أحد الشعانين، جالباً معه في عربات، إلى خزانة لندن، مبلغاً كبيراً من المال، جمعه من الموارد الملكية، وأعلن بشكل مكشوف أمام جميع مستمعيه بأن ويلز خاضعة ومستقرة بشكل سلمي في ظل القوانين الانكليزية، وأعطى أسقف بانغور Bangor, الذي قدم أيضاً إلى دير القديس ألبان الرواية نفسها أيضاً، وجرى أيضاً في الوقت نفسه انتخاب المعلم رالف، الكاهن في كنيسة لنكولن أسقفاً لموري Murray, في سكوتلندا.

كيف قدم نبلاء غسكوني إلى إنكلترا للشكوى ضدّ طغيان الإيرل سيمون

قبل عدة أيام من أحد الشعانين من العام نفسه، قدم إلى انكلترا من غسكوني رئيس أساقفة بوردو، وبعض النبلاء من راؤل Reole,

ومن مدن غسكوني الأخرى، وقد جاءوا عبر الماء حتى لندن، حيث وجدوا الملك قد وصل قبلهم، وقدموا شكوى محزنة حول طغيان ايرل ليستر، بعدما أرسل ليكون المتولي عليهم، واتهموه بأعظم غدر يستحق التحقيق به، ولم يشق الملك —على كل حال— فوراً بكلامهم، لأنه وجدهم من قبل غدارين عندما كان في غسكوني، فأرسل إلى هناك نيقولا دي مولي Molis, وكان فارساً، ودرو دي فالنيس Dreux de Valence, ليتقصيا لمعرفة فيما إذا كان الغسكونيين مجرمين أم أبرياء، وفيما إذا كان هنري دي وينغهام Wengham, على وفاق وعلاقة صداقة معهم أم لا، وعما إذا كانوا يرفقون صراخهم بأفعالهم أم لا، وأنه ينبغي ايضاح جميع هذه النقاط ببينات أحسن العارفين بهم، الأمر الذي أزعج الايرل سيمون كثيراً، ولاعجب في أنه فعل ذلك، وتصرف هكذا.

بنود الإتهامات ضدّ الإيرل سيمون

وبناء عليه، عندما عاد المفتشان، أخبرا الملك بأن الايرل سيمون، قد عامل بعض الغسكونيين بشكل غير إنساني كبير، لكن وفقاً لما اعتقداه، كانوا يستحقون ذلك، وهو ما لم —على كل حال— يستطيعا برهنته، بسبب غياب الايرل،ولدى سماع هذا قال رئيس أساقفة بوردو والغسكونيون الذين كانوا معه بحضور الملك، بغضب شديد: «إن برهان الحقيقة سوف يجري ذكره من دون اخفاق، وبعد البرهان نطالب بالحكم»، وأعلنوا مقسمين أنهم سوف لن يطيعوا مطلقاً، أو يخدموا ذلك الايرل المبيد، وأنهم بدلاً عن ذلك، سوف يختارون سيداً آخر لهم، غير ملك انكلترا، وبما أن الايرل جرى التشهير به إلى هذا الحد في بلاط الملك، وأخذت البراهين على سوء سلوكه تكسب التثبيت، بزيادة عدد الشهود، قدم مسرعاً تماماً إلى انكلترا، ولدى وصوله عرف اليوم الذي حدد له للرد على تهم خصومه، ولأنه شعر أنه بات في وضع صعب،

رتب هذا الايرل، أن يكون في ذلك اليوم موجوداً الايرل رتشارد، الذي كان مسروراً كثيراً للاضطراب الذي لحق بالغسكونيين، وايرل غلوستر، وكان صديقاً للايرل سيمون في هذه القضية، وايرل هيرفورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، ورجال من المرتبة العليا، الذين كانوا لن يسمحوا بتعرض الايرل للخطر، بأي حال من الأحوال حول هذه القضية، لأنه كان يخشى كثيراً من الملك بتسرعه المفطور عليه، ولإيثاره المعروف للأجانب، من أن يأمر بالايرل، الذي كان من أصل نبيل، وكان من رعاياه الطبيعيين، فيعتقل، ويوضع بالسجن، إذا ما أدين بأنه خائن، وهذا أمر لن يسمح به بشكل مطلق، وعندما أعطى الايرل براهين كافية على براءته، وتمّ اسكات الفريق المخاصم ورفضه، تابع الملك الكلام ضده، لكنه عندما شعر بأن الايرل رتشارد والبقية كانوا مؤثرين للايرل سيمون، ولأنهم كانوا يدارون بالحكمة، لم يعد يتجرأ —مع أنه أثير لأن يفعل ذلك— على وضع القسوة الملكية موضع التنفيذ ضده، ومع ذلك استمرا يتراشقان الكلام، فأثارا غضب بعضهما بعضاً، وبسرعة استعادا ذكريات ماوقع منذ زمن طويل مضى، فقد ذكر الايرل —على سبيل المثال— كيف أنقذ الملك في سانتاغيو من مصائد الفرنسيين، وكيف أنه عندما كان على وشك الانطلاق إلى غسكوني للمرة الأولى، نصحه الملك بسحق الخونة، وكيف أنه أعطاه صكاً بتولي الوصاية على تلك البلاد لمدة ستة أعوام، وكيف أنه وعده بمساعدة فعالة وبالمشورة، الأمر الذي لم ينفذه، ثم أضاف قائلاً: «ولولا أنه كان مغطى باسمه الملكي وبمكانته، لكانت ساعة سيئة تلك الساعة التي تفوه بها بمثل ذلك الخطاب»، وهنا وجد الملك صعوبة في حبس نفسه ومنعها من الغضب، ومن ثم الأمر باعتقاله في مكانه، لولا أنه كان متأكداً تماماً بأن مثل هذا الإجراء سوف لن يسمح له به من قبل النبلاء، وعلاوة على ذلك أضاف الايرل قائلاً: «من الذي يمكنه أن يعتقد أنك مسيحي؟ أولم تعترف قط؟» فأجاب الملك: «لقد فعلت»، فاستأنف

الايرل يقول: «لكن ماهي منفعة الاعتراف من دون توبة وتكفير؟»، وكأنه قصد أن يقول: «إذا كنت قد مارست قط الاعتراف، إنك لم تتب قط، ولم تقم مطلقاً بالتكفير الصحيح، وعلى هذا الكلام ردّ الملك الذي ازداد غضبه أكثر فأكثر اشتعالاً قائلاً: «إنني لم أندم قط على أي عمل مثل ندمي الآن على السماح لك بدخول انكلترا، أو بتركك تضع بين يديك أية أرض أو مراتب شرفية في تلك البلاد، التي سمنت بها إلى أحد أنك تمردت على سلطتي»، وهنا قطع أصدقاء الطرفين هذا الخلاف، وهكذا افترقا.

سبب الشر المتقدم ذكره أعلاه

ووقعت هذا الأشياء كلها بسبب عدم استقامة الملك وعدم استقراره، إنما حتى نتمكن من متابعة هذا الموضوع، علينا أن نعود بروايتنا بعض الشيء إلى الوراء لوقت قصير، في سبيل ايضاح السبب، فمنذ سبعة وعشرين عاماً انقضت، قام الملك، بناء على نصيحة نبلائه، عن طواعية وبارادته بمفرده، بالتنازل عن غسكوني إلى الايرل رتشارد، وأبحر الايرل إلى هناك، وبعدما جعل الغسكونيين يرون الصك المثبت لدعواه، والذي تسلمه من الملك، تلقى الولاء منهم، الأمر الذي قاموا به عن طواعية، من قبل أنفسهم، وأدوا يمين التابعية له، في ذلك الوقت نفسه، لأنه كان آنذاك شاباً، وصاحب مظهر جيد، وجديراً بكل التشريفات والاكرام، وبعد مضي عدة سنوات، أنعم الملك ثانية بالبلاد نفسها على الايرل نفسه، وأعطاه صكاً بذلك، لكي يكون التملك لها أكثر ثباتاً وضماناً بالنسبة له، وبعد مرور عدة سنوات، كانت الملكة قد أنجبت للملك أول ولد كان منتظراً منذ وقت طويل، وبناء على إثارة الملكة وتحريضها، انتزع الملك غسكوني من أخيه الايرل رتشارد، من أجل أن ينعم بها على ابنه البكر ادوارد، فألغى صكيه الماضيين ومنحته، لكن الايرل رتشارد رفض القيام بالتنازل، معتمداً على امتيازه، في أنه

لايجوز تجريده من ممتلكاته، وبناء عليه، عندما كان الملك أخيراً في غسكوني، وكان بعض الغسكونيين يتأرجحون، وفي حالة شك، لايدرون إلى أي من الاثنين يتوجب عليهم تقديم الطاعة، قام الملك وهو في حالة غضب شديد، فأمر الايرل بشكل قاطع بالتخلي عن صكية، وأن يعلن على الملأ تنازله عن دعواه في غسكوني، ولأن الايرل رفض بثبات أن يفعل ذلك، أمر الملك رجال شعب بوردو بأن يعتقلوه ليلاً، وأن يودعوه في السجن، وعلى هذا أجابه الغسكونيون من دون تردد، لكن بشكل سري، بأنهم لن يفعلوا ذلك مهما كان الأمر، أولاً بسبب شهرته، وأصله الملكي، وبسبب الولاء الذي كانوا قد أدوه إليه، وأيضاً بسبب ضعف الملك وتقلبه، أي خشية من أن يقوم فيها بعد بالندم لإقدامه على هذا العمل، ويعاقبهم جميعاً، ولم يعط الملك هذا الأمر إلى نبلاء انكلترا، لأنه كان متأكداً من أنهم لن يفعلوا ذلك من دون تداول كبير، وبما أنه أصبح ساخطاً مليئاً بالغضب، سعى إلى رشوة الغسكونيين بوساطة الهدايا، لأنه لم يستطع جعلهم يطيعون أوامره باعتقال الايرل بمثابة متمرد، وأن يضعوه في السجن، وكان الإيرل قد أنذر مقدماً في الليلة نفسها، فأخفى نفسه في دير الصليب المقدس، ومبكراً عند الفجر، قام بشكل سري ومفاجىء بالصعود على ظهر سفينة والعبور إلى انكلترا، وبما أنه لم يكن مجهزاً من قبل بالمؤن وبالأشياء الضرورية الأخرى، عانى من عوز كبير في البحر، ومن العواصف أيضاً، التي ثارت، وأبعدته عن طريقه الصحيح، وجعلت الرياح المتضادة تتقاذفه، وتعرض إلى مخاطر عظيمة، إلى حد أنه نجا بصعوبة من بين فكي الموت، ونتيجة لذلك عمل نذراً في وقت تعرضه للخطر، بأن يبني لعبادة الرب، ديراً لطائفة السسترشيان، وقد وفى بنذره هذا بالشكل الصحيح، حسبما تقدم ذكر ذلك في الصفحات الماضية، وألقى الايرل باللوم نتيجة لكل ماعاناه منه على الملك، وشعر بالفعل بأعظم الغضب ضده، كما أنه لم يتعامل بعد ذلك هو والملك بموجب

العلاقـات الأخوية والمشـاعر المتبـادلة، كما كانا من قبل، وعندمـا وجد الملك بأن الايرل قـد نجـا هكذا من سخطه، جمع وهو حـانق في قـرارة نفسـه نبلاء غسكوني، ولاسيما نبـلاء بوردو، وبعـدمـا ألقى خطاباً فيهم نأى بقلوبهم عن المحبـة وعن الـولاء والاخـلاص للايرل، وجـاء ذلك بوساطة عدد لايحصى من الخطابات الناعمـة، والوعود السخية، وأعلن بأنه —أي الايرل— كـان رجلاً شرهاً، وظـالماً للرعية التي كـانت تحت حكمه، وأنه كان الأكثر سخاء بوعوده، لكنه الأعظم شحاً في تنفيذهم، كما أنه أضـاف أنه ألغى صكيـه، وأزال منحـة غسكوني، وبذلك أزال ولاءهم له، وجـرد الايرل تماماً من دعـواه ومن حقه بالتملك، وفضـلاً عن هذا وعدهم بسيد أفضل، وبحـاكم أكثر رأفة، وأنهم إذا مافعلوا كما يرغب ويريد، فلسوف يتسلمون منه مبلغاً كبيراً من المال بمثابة مكافأة، وتقرر السعر أيضاً، وتحدد المبلغ بثلاثين ألف مارك، وهكذا أمكن إلزام الغسكونيين بالتنازل عن خضوعهم وعن ولائهم للايرل رتشارد.

وعندما أخيراً، كـان الملك على وشك مغادرة غسكوني، هكذا بشكل مهين، أعطاهم ضمانة بوساطة صك على الالتـزام بدفع المال والوفاء به، وتعهـد بيمينه وبشرفـه بأن يفي بهذه الصفقـة، لأنه اعتقـد أنه يمكنه خداعهم بمثل هذه الوعـود الكبيرة، لكن المخادع وجد نفسـه أخيراً قد وقع بالفخ، لأن الغسكونيين، احتفظوا بالورقـة المختومـة من قبل الملك في حـوزتهم، بمثـابة برهان على الصفقـة، وهكذا ويالللأسف، إن العـار والخداع واضح على الجانبين، وكـان من المتـوجب على مثل هذا الأمير العظيم عدم ممارسة الخداع، وكذلك لايجوز تعرضه للغش.

أما بالنسبة للايرل رتشارد، فإنه في الوقت نفسه، بعـدما جرى تقاذفه بين الأمواج الكبيرة، مما ألحق به ضرراً مستمـراً بصحته البـدنية، وصل أخيراً بكل صعـوبة كبيرة إلى ميناء في كـورنوول، وهو مجرد لامـال لديه ولاخيل، وطلب في ذلـك المكان، وهو حـزين وكئيب، تـزويده بما هو

ضروري، من أتباعه في ذلك الجزء من أراضيه.

ولدى الفراغ من هذه القضايا، عاد الملك إلى انكلترا، بعدما عانى من جميع أنواع الخسائر، وعلى الفور استخرج المال من كل واحد من الأساقفة، في سبيل تلبية المطالب الوقحة للغسكونيين، وبما أنه ظل غاضباً على هؤلاء القوم، وكارهاً لهم، عيّن الايرل سيمون حاكماً عليهم، من أجل أن يقوم، وهو الرجل المشهور، والواسع التجربة في مسائل الحروب، بسحق عصيانهم المتجبر، كما أنه أعطاه صكاً، بأن يستحوذ على الولاية لمدة ستة أعوام، وأنعم عليه بعشرة آلاف مارك من خزانته الملكية، والتمس منه بالوقت نفسه، لابل فرض عليه أن يدوس عليهم، ويضعهم تحت قدميه، وأن يعاملهم بخشونة وقسوة، خصوصاً الذين هربوا من ظل سلطته، طلباً لحماية أنفسهم، والذين استخرجوا المال منه، ليس فقط بالطريقة التى تقدم ذكرها، بل بطرائق أخرى كثيرة، وبشكل خاص غاستون دي بيارد وأمه، التي كانت امرأة ضخمة، أو بالحري مثل التنين، مع عدد كبير آخر، وبناء عليه قام الايرل سيمون، الذي كان رجلاً مقاتلاً، وقوياً، وصاحب خبرة، بإطاعة أوامر الملك،وبفعله ذلك عرّض نفسه، وممتلكاته، وأتباعه إلى مخاطر البحر والحرب، وأنفق كل الذي استطاع أن يستخرجه من ممتلكاته بوساطة الضرائب، أو بيع الخشب الذي كان فيهم، أن ينفق على الضروريات لذلك المقصد، وفي نهاية جهوده هذه، كانت جائزته تلك التي تلقاها من الملك، ومن هذا الاستطراد المختصر لأخبار الوقائع، بات واضحاً لماذا لم يحزن الايرل رتشارد، أو لم يهتم، حول خسائر الملك، أو اضطراباته في هذه القضية، وعلى كل حال، إنه مهما تفاوتت وجهات النظر والتفاسير، يمكن القول فقط بأن الملك قد تغير، وأصبح مؤثراً للغسكونيين، الذين كان قد عانى من مكرهم، وأبعد عن حظوته الايرل سيمون، الذي خدمه باخلاص في كثير من قضايا الريبة والأزمات.

لكن دعونا نعود من هذا الاستطراد إلى موضوع روايتنا.

كيف جرى اتهام الإيرل سيمون بعنف شديد من قبل الغسكونيين

عندما جاء الايرل سيمون بكل سرعة من غسكوني، وجد الملك في لندن، لكنه لم يتلق التحية كما ينبغي، ولم يستقبل بالتشريف من قبله، بل على العكس وقف خصومه، رئيس أساقفة بوردو ورفاقه ثابتين ضده، وكأنهم كانوا متحالفين مع الملك، ونظروا إليه نظرات مسمومة، واتهموه بالكلمات التالية: «في المقام الأول، يامولانا الملك، والايرل رتشارد، سوف نريكما أنتما مع بقية النبلاء، الذين هم حاضرون هنا، لصالح الملك، التواكيل المعتمدة، التي جلبناها معنا من جميع نبلاء غسكوني، الذين هم رعايا مخلصين للملك، ومن الفرسان، ومن المواطنين، ومن العقائل العفيفات، ومن السكان الذين أنابونا بشكل عام بالتحدث وطرح شكاويهم، وإننا بناء عليه نحن جميعاً نتقدم بالشكوى بالإجماع ضد سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، الذي تولى حكومة غسكوني، لكن الذي بحدة عدو، وشدته، يقوم باجتياحها، وايصالها إلى الدمار.

وعلاوة على ذلك، إنه بالنسبة إلى الذين منحهم الايرل رتشارد (الذي كان ومابرح متفوقاً كثيراً على الايرل سيمون) لمدة طويلة حياة سلام، والذين جرت معاملتهم في الأزمان المتأخرة بلطف وبسلام، لابل حتى بودّ وصداقة من قبل هنري دي تروبفيل Trubeville الذي كان بموجب تفويضك قهرمان غسكوني، والذي كان وصياً متعاطفاً وعادلاً علينا، والذين أيضاً عوملوا بطريقة لطيفة مماثلة من قبل ويلران Waleran الألماني، الذي كان رجلاً مستقيماً وحكيماً، هؤلاء أنفسهم هم الرجال الذين يتولى الايرل سيمون التضييق عليهم،

ودفعهم إلى الدمــار مما ســوف يسبب خســارة كبيرة، وأذى عظيماً إلى صاحب الجلالة الملك.

فضلاً عن هذا، لقـد ألغى الأحكام والمراسيم المكتوبة، العـائدة لكثير من النبـلاء، وأرسـل رجـالاً من ذوي المراتب العـاليـة في بلادنا، ومن الرعايا المخلصين للملك، بمثابـة أسرى إلى فرنسا، حتى يسجنوا هناك، وذلك تحدياً لنا، ولإلحاق الأذى بالملك، وقـد هلك بعض هؤلاء النبلاء بالسجن، من الجوع ومن وزن سـلاسل قيـودهم، كما أنه استخـرج من النبلاء المذكـورين مبالغ كبيرة من المال، مما ألحق أضراراً لايمكن جبرها بالملك، وهو لم يخبره بها، أو يسمح له بالمشاركة بالمال، وقام أيضاً بشكل غـادر باستدعـاء كثير من الرعايا المخلصين للملك، وذلك تحت مظهـر عقد مقـابلات سلمية، فصاروا مثل بـائسين تعساء، لأنه اعتقلهم، ومن ثم أعـدمهم، وبالاضـافـة إلى هذا كله، طـالب بتسليم القـلاع من أجل استخدامـات الملك، لكنه قام بشكل غـادر ودنيء بالاحتفاظ بملكيتهم، وكأنهم كانوا قـلاعه، وألقى بالسجون ولاتهم، الـذين سلموه إياهم عن حسن نية، وبإرادة طيبة».

رد الإيرل سيمون على الإتهامات

ورد الايرل سيمـون على الاتهامـات المذكـورة أعـلاه من دون تردد، بأنهم، أي الذين اتهمـوه، ليسـوا مـوضع ثقـة، ولايجوز تصـديقهم، لأنه عندمـا كـان الملك، في حـالـة طوارىء كبيرة، فكر أن يجد فيهم رعـايا مخلصين وأصدقـاء، فاكتشف أنهم دجـالين، وأعداء دمويين، وقـال: «لقد برهنتم في الحقيقة، أنه لاشهادتكم ولاحكمتكم مما يتوجب الاعتماد عليه، ومن الممكن أن يكون قد حدث أنه وجد في مقاطعتكم، بعض الذين، قد منحهم الايرل رتشـارد، والنبـلاء الآخـرون الذيـن جـرى تعيينهم ولاة عليكم، قد جـرى منحهم السلام والحيـاة، لأنهم تظاهروا لبعض الوقت أنهم أبناء السلام، لكنهم عندما قامت الفـرصة، ثاروا، وأصبحوا فيها بعد

أبناء جهنم، واستحقوا فقدان حق الادعاء بالسلام والحياة، فلماذا كان علي أن أفعل غير الذي فعلته؟ وصدقاً، لقد كان ذلك واجبي، فالرب عمل هكذا، وهو الذي أكثر عدلاً من أي إنسان، فالذين حافظوا على السير في طريق العدل توجهم، وعاقب الذين عادوا إلى ذنوبهم، وهكذا إنني لم ألحق، بأي طريق من الطرق، الأذى بأسلافي، ولاتكم المعينين، ولابالملك نفسه، في هذه القضية، وفي سبيل البرهنة على صدق هذه التأكيدات، أنا جاهز، في الوقت المناسب، لتقديم شهود أكثر عدداً، وأعظم جدارة بالتصديق منكم، لكن هل تريدون شهوداً حول هذه المسائل؟ فالملك نفسه، إذا مااعترف بالصدق، سوف يكشف نواياكم الشريرة، فهو قد نظر خلال زيفكم، وفيما يتعلق بقضايا الاتهامات الأخرى، التي تقدمتم بها ضدي، إنه ليس بوساطتكم، بل بوساطة أشخاص أكثر ثقة، سوف يتم جلاء الحقيقة، لأنه لايمكن وضع الثقة في القوم الخونة»، ثم إن الايرل رتشارد والنبلاء الآخرين، الذين تعلموا بالخبرة في غسكوني، وتعرفوا إلى مكر الغسكونيين، صادقوا على كلام الايرل سيمون، ولم يضعوا أدنى ثقة بالغسكونيين، ولم يصدقوهم.

الأذى الذي أنزل براعي دير رامسي من قبل الملك

وفي هذه الأونة أيضاً، قام الملك الذي كان مهتماً بالحصول على المال بمختلف الطرق، أكثر من اهتمامه بأن يصبح إما موائماً، أو موافقاً، بالعمل، بناء على نصيحة روبرت باسليف Passeleve, بازعاج راعي دير رامسي Ramsey, في امتلاكه لسوق القديسة حواء Ives, مع أن راعي الدير المذكور كان متملكاً لهذا السوق، من دون أية اعتراضات على ادعائه وحقه، منذ عصور سحيقة، ومع أن راعي الدير المذكور قد عرض صكوكاً أصيلة، من القديس ادوارد، الذي يبدي الملك نحوه عاطفة خاصة، وأيضاً من قبل القديس أولستان Ulstan تأييداً لادعائه وحقه، إنه مع هذا كله لم يخف الملك من إلغائهم، وفي

الحقيقـة، كـان هذان القـديسان قـد تفـوها، بالاتفـاق مع عـدد كبير من الأساقفة المقـدسين الآخرين، بقرارات وأحكام مرعبـة بالحرمان الكنسي، ضـد جميع الذين يخرقـون حرمـة صكوك امتيـازات دير رامسي (وبشكل خاص مـايتعلق بالسوق المتقدم ذكـره أعلاه)، لكن الملك أعلن، بناء على مشورة شريرة، وبيّـن لصالح نفسـه، أنه تبعاً لصكوك راعي الـدير، كان من الممكن الحفاظ على السوق، وابقائـه بشكل قانوني، حتى أيام القديسة حـواء، وليس بعـد ذلك، كما ادعى ملكيـة الطريق القـائم بين الشـارع والنهر، مع أن راعي الدير، قد تملكهما بسلام بموجب امتياز قديم، وكان أي تأخير لاجتماع التجار هناك بعد ذلك اليوم، لن يعزى إلى الملك، ذلك أنه رغب بالإبقاء على ذلك السوق وعلى أجـوره من أجل منفعته الخاصة من دون أية معارضة، مما كان سيتحول كله بشكل واضح لأذى وخسارة راعي الدير، وكان ذلك لايتوافق مع المنطق ومع النوايا الطيبة للمعطيين، الذين رغبـوا بوجـوب استقبـال الكنيسـة حشـوداً كبيرة، وأعطيـات غير مـادية، وهكـذا حـدث أن عـانى دير رامسي النبيـل من مثل ذلك الأذى الكبير، وكان أفضل بالنسبة له لو أنه فقد أياً من عزبه.

حول الخطر الذي أحاق بكنيسة القديس إدموند

ووفق الطريقـة نفسها، تهددت خسـائـر كبيرة الكنيسة النبيلة للقـديس ادمـونـد الملك والشهيـد، حيث نشب خـلاف، تعلق بعـزبة مـايلدنهول Mildenhall, ولكي نعرض ماحدث باختصار، لقد بات العالم الآن يميل إلى السلب والاغتصـاب، حتى أن أي واحـد كـان يمارس أي عمل من الاستخراج، على الرهبان، ظهر وكأنه يستحق المكافأة وليس الملامة.

حول الخلاف الذي نشب حول كنيسة فليمستد

وفي حـوالي أيام عيـد الفصح من العـام نفسه، مـات رتشـارد، الذي كنيتـه دي ثوني Thony, وكـان خـازن أنجو، ورجـلاً مشهـــوراً

بأصله وبفضائله، وكان قريباً لملك سكوتلندا، وأخاً من جانب الوالدين معاً للفارس النبيل رالف دي ثوني، ولأنـه كان بحوذته كثيراً من الموارد في مملكتي فرنسا وانكلترا، أصبحت كنائسه عند وفاته شاغرة، وكان من بين الكنائس التي شغرت كنيسـة فليمستد Flamstead, التي لم تكن بعيـدة عن كنيسة القـديسة ألبـان، وقامت الملكة بناء عليـه، بحكم الوصـاية التي أعطـاها إياها الملك، على أراضي رالـف دي ثوني، الذي كان في أعطيتـه الكنيسة المذكورة، بالإنعـام بالكنيسة نفسهـا على قسيسه وليم، الذي كان كاهناً من كنيسة القديس ألبان، وذلك بسبب أن كنيسة كنّبل Kennebell قـد أنعم بها عليه من قبل راعي دير القـديس ألبـان، وقـد فعلـت الملكة هذا، اعتماداً على حقهـا، لأنها تولت لسنين طويلة تعليم —وهذا قـد حصلت عليه بمثـابة أعطية من الملك اعترافـاً بالفضل— وريث رالـف دي ثوني المذكـور، الـذي كـان آنذاك طفــلاً، والذي إليــه يعـود حق ولاية النعمــة، وهكذا فإن حق العطيــة آل إلى الملكة، وعندما سمع الملك بهذا، انفجـر غاضباً غضباً عظيماً قـائلاً: «إلى أي مــدى يمكـن لتجبر المرأة أن يصل بها، فقط إذا سمح لها بـأخـــذ سبيلهـا»، وبناء عليه قـام بشكل غير لائق، وكـذلك غير عـادل، فألغى عمل الملكة وأبطله، وأنعم بالكنيسة المذكورة، التي بلغت مـواردها مائة مـارك، على كـاهن خـاص به، ومستشـار، اسمـه هيرتولد Hurtold, وكـان من أصـل بيرغندي، وقـام هذا على الفـور بطـرد وليم المذكـور، واغتصب الكنيسة، واستولى عليهـا على الفور، وعلى كل حال لم تتحمل الملكة هذا بسهولة، بسبب الأذى والإهـانة التي لحقت بها، وعلاوة على ذلك، عندمــا وصل خبر هذا الإجـراء إلى علم أسقـف لنكولن، الذي وقعت في أسقفيته الكنيسـة المذكورة، قام بانزال عقـوبة الحرمان الكنسي بحق هيرتولد المذكـور، وتولى بعد ذلك تعليق الكنيسـة، وحرمـانها من شراكة المؤمنين، وبذلك لم يعد من الممكن دفن الموتى هناك.

موت روبرت باسليف

وفي السادس من حزيران لهذا العام، مات في وولتهام روبرت باسليف، رئيس شمامسة ليوي Lewes, الذي عنه كتب كثيراً في الصفحات الماضية، ومع أن روبرت هذا كان كاهناً، ورجل لاهوت، لم يتردد في وقوفه إلى جانب الملك، في العمل على إفقار كثير من الناس بطرق كثيرة ومتنوعة، في سبيل إغناء سيده، لكن أفاعيله لحقت به.

وفاة رتشارد دي ويندوفر

وفي حوالي الوقت نفسه، مات المعلم رتشارد دي ويندوفر Wendover, وكان كاهناً في كنيسة القديس بولص في لندن، وطبيباً صاحب شهرة واسعة، وأخذ هذا الرجل احتياطات لنفسه، بشكل أكثر حكمة، وبطرق أكثر عقلانية من روبرت المتقدم الذكر، ذلك أنه جهز الوسائل الضرورية لتسعة من الكهنة لتقديم أعطيات مفيدة للمسيح إلى الأبد، من أجل الحفاظ على الأرواح، ولقد رأينا من المناسب أن نعمل ذكر خاص له في هذا الكتاب، فبسبب اخلاصه الواضح وتقواه أهدى إلى كنيسة القديس ألبان صليباً، احتوى في داخله على عدد كبير من الآثار المقدسة، كما تبرهن على ذلك كتاباتهم المقدسة، وكان التمثال على الصليب من العاج، وكان جذع الصليب والذراعين، الذين يدعون معاً باسم Furcae, مغطيين بغطاء من العاج، وكان هذا الصليب عائداً من قبل إلى البابا غريغوري، الذي قدره تقديراً عالياً جداً، وبما أن المعلم روبرت المتقدم الذكر كان طبيبه، فقد قام هذا البابا عندما كان على حافة الموت، فأعطاه الشيء الذي كان موضع تقدير كبير جداً لديه، أي الصليب نفسه، أعطاه إلى صديقه العزيز، المعلم رتشارد.

كيف حصل أسقف لنكولن من البابا على سلطة إقامة قساوسة

خلال هذا العام، قام روبرت أسقف لنكولن، في سبيل التجاوز والتدخل بموارد الرهبان، ولكي يزيد من فئة القساوسة، فحصل من الكرسي الرسولي على الولاية التالية والتفويض الذي كان متوقعاً منذ زمن طويل:

«من أنوسنت، أسقف إلخ، إلى أسقف لنكولن المحترم: بما أنه يوجد في مدينتكم وأسقفيتكم، كما سمعنا، بعض الرهبان مع آخرين يشكلون جماعات وبين أيديهم ممتلكات الكنائس الأبرشية، من أجل منافعهم الخاصة، وهي ليس فيها قساوسة معينين، أو إذا كان هناك بعض القساوسة، فعددهم قليل جداً، إننا نأمركم بموجب هذه الإجازة الرسولية، ياأخانا، العامل عوضاً عنا، وفي مكاننا، أن تعين قساوسة في الكنائس نفسها، اعتماداً على مواردها، وبعدما تتولى تعيينهم، أن تتولى زيادة إمكانات الذين هم فقراء، حسبما تجد الأمر سوائها، ومتوافقاً مع إرادة الرب، وأعراف البلاد، دون التقيد بأن تكون تلك الفئات معفية، أو أنها محمية بوساطة أي امتياز رسولي، أو غفران وإعفاء، يمكن أن يشكل إعاقة لهذه الولاية، أو يؤخرها، والتي يتوجب عمل ذكر خاص لها في هذه العروض، وأن تضع جانباً جميع الالتماسات والمرافعات، وأن تضبط جميع المعارضين بالروادع اللاهوتية. صدر في ليون في هذا اليوم الخامس والعشرين من أيلول، في العام الثامن لبابويتنا».

وبناء عليه، تسبب الأسقف المذكور (كما قيل وكما هو واضح، صدوراً عن كراهيته للرهبان، أكثر من عاطفته نحو القساوسة، والارتقاء بهم) بموجب هذه الولاية بكثير من الخسارة والأذى إلى تلك الفئة من الناس.

كيف جرت إعاقة مشروع السلام بين البابا وبين شيعة فردريك

وفي هذا العام نفسه أيضاً، في حوالي أيام عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، عندما كان البابا مقيماً في بيروجيا، جرى إخباره بشكل سري، وبمثابة نصيحة تحذيرية، من قبل جميع الكرادلة، مع أصدقائه، أنه إذا لم تتم بسرعة تسوية الخلاف بينه وبين شيعة فردريك، الذين يتمتعون الآن بالحظوة لدى الشطر الأكبر من الامبراطورية، وإنهائه كلياً، فإن الكنيسة كلها، لابل في الحقيقة العالم المسيحي كله، سوف يتعرض للخطر، وللدمار، لأن كونراد بن فردريك محبوب، ويحتل مكانة حظوة عظيمة لدى جميع النبلاء، وكذلك بسبب سمو مكانة أصله، وللطفه الكبير، ولشجاعته التي لاتقهر في الفروسية، ولجرأته وبراعته في الحرب، وكان هنري، الابن الآخر لفردريك، وابن أخت ملك انكلترا، أيضاً مثله استحق عن جدارة نيل الحظوة، وحسن المكانة والعاطفة لدى جميع الحزب الامبراطوري، وذلك بسبب براءته، ومظهره الوسيم، ولحبه [الحزب الامبراطوري] للامبراطورة ايزابيلا، التي برهنت عن لطفها نحو الجميع.

وبناء عليه أخذ البابا بفكرة محاولة نيل حظوتهم ورضاهم وأن يجعلهم يتحالفون معه بوسائل الزواج من احدى الاناث من قريباته، حسبما بدأ يفعل في قضية النبلاء الآخرين، الذين أعطاهم حفيداته بالزواج، ولكن هذه الخطة أعيقت بسبب مرض كونراد، الذي —كما سلف القول— نجا بصعوبة بالغة من آثار السم الذي قدم إليه، وأيضاً بسبب مشاعر الرفض والغضب والمعارضة، التي قدمها أصدقاء الامبراطور، لهذه القضية، وعندما نجا كونراد من عتبات الموت، واسترد صحته، اتهم شيعة البابا بأنهم هم الذين خططوا لهذه الفعلة، وجلبوا ذلك الخطر العظيم إليه، وأسقط هذا إلى أعلى الدرجات الثقة باسم البابا، على أساس التأكيد بأن ذلك السم المميت قد أعطي له ليشربه بناء

على تحريضه (البابا)، كما تقدم بالمحاولة الغادرة التي عملت لأبيه (لاسمح الرب أن يكون ذلك صحيحاً)، ولهذا وبما أن قوة أذى البابا قد غدت أشد، بات واضحاً بأنه قد فقد الحظوة لدى كثيرين جداً.

وسلف أن قام توماس أوف سافوي، وهو قريب للبابا وصديق له، أن مهّد بحكمة السبيل ووفر الوسائل لترتيب سلام، لكن هذا المسعى أعيق بسبب الواقعة غير السعيدة، ونتيجة لذلك حدث هياج مميت، في كثير من أجزاء الامبراطورية، إلى درجة أن الذين كانت لديهم قضايا أعمال تتوجب عليهم ملاحقتها في بلاط روما، لم يعد بإمكانهم الذهاب إلى هناك من دون التعرض للنهب، وتمزيق أوراقهم، وتحطيم أختامهم، في تحد للبابا، ولإلحاق الأذى به، لأن أصدقاء فردريك، وبشكل خاص أصدقاء كونراد، قالوا بأن كونراد قد حرم كنسياً بشكل غير عادل، وهو بالتالي يمتلك الحق المسوغ بالتنكيل بالبابا، الذي حرمه كنسياً، وأن يكون ذلك بالنار والسيف، وبناء عليه صرف عدد كبير من الناس أنفسهم للنهب، وللحرق، وللقتل، ولهذا السبب فإن الذين أرادوا الذهاب إلى بلاط روما، آثروا السفر بحراً، للنجاة من المصائد التي نصبت إليهم، مع أنهم باختيارهم لهذا الطريق عرضوا أنفسهم للخسارة، وهكذا فإن أبانا البابا الذي اتبع خطوات قسطنطين، وآثرها على خطوات بطرس، سبب كثيراً من المصائب في العالم.

كيف جرى منح حق القيام بزيارة تفقدية جزئية إلى رئيس أساقفة كانتربري

قام الآن توماس أوف سافوي الذي تقدم ذكره أعلاه، والذي كان البابا مطيعاً لجميع ترتيباته، وبسبب محبته —أي توماس— لابنة أخيه [ملكة انكلترا]، ببذل قصارى جهوده لعمل ترتيبات فعالة، ليحول دون احباط أخيه رئيس أساقفة كانتربري، وليحقق رغبته بالقيام بزيارات

تفقـدية في انكلترا، وهكذا جـرى منح رئيس الأسـاقفـة المذكـور الاذن بالقيـام بزيارات تفقدية، لكن الفـوائد الماليـة التي كان سيحصل عليهـا بوسـاطة هذه الزيارات التفقـدية جـاءت محدودة، حيث اشترط من قبل بلاط رومـا صـاحب الدهاء الكبير، أن يكون البـابا هو المنتفع بوسـاطة أمـوال رئيس الأسـاقفـة، وأنه ينبغي أيضـاً أن لايخسر شيئاً مطلقـاً، من الذي سيتمكن من جـرفـه من الفئـة المضـادة، وجـرت كتـابة الرسـائل الأصيلة حول هذه القضية في كتاب Additaments.

كيف شفى طفل عدداً كبيراً من الناس المرضى

في هذا العام، كان قد عـاش في بلدة في كنيت اسمها ستون Stone, على مقربة من دارتفورد Dartford, طفل وصل إلى سن عامين في عيـد تمجيد الصليب المقـدس، وقـد تمكن من عمل معجـزات، (مع أنه غير معـروف بقـوة أية فضيلة تمكـن من فعل ذلك)، وكـان اسم والد الطفل وليم كـرول Crul, واسم أمـه يوستـاتيـا Eustatia, وكـان اسم الطفل نفسـه وليم حسب اسم أبيـه، وكـان هذا الطفل قـد تمكن من شفـاء جميع الذين كـانوا مـرضى، وذلك بعـد رسم عـلامـة الصليب من قبل أي واحـد كان واقفـاً هناك لمسـاعدته، وشمل الشفـاء كل مرض مهما كان جاداً، وكانوا يعانون منه، وبسبب السمعة التي نالها عن طريق الذين شفيـوا، فقـد تدفق عليه جميع الذيـن كانوا يعـانون من عجـز أو مـرض، في سبيل استرداد صحتهم، ورائع أن نذكـر أنهم لم يخدعوا في الحصول على تلبية كاملة لجميع الذي رغبوا به، ولدى سؤال أم الطفل: كيف جرى اضفـاء هذه المنحة على مثل ذلك الطفل الصغير، أجـابت بأنها أخبرت سلفـاً من قبل الرب بهذه الحقيقـة، عندمـا كـانت حـامـلاً، وكذلك بعد ميـلاد الطفل، وعلى كل حـال بما أن هذه القـوة الأعجـازية لم تدم لمزيد من الوقت، بل تناقصت في فعـاليتها يوميـاً، ولم تعد تلاحظ بعد وقت قصير، ونسيت.

كيف تمّ صنع سلام بين راعي دير ويستمنستر والرهبان هناك

وفي هذه الآونة من العام، أي أن تقول في حوالي عيد صعود العذراء المباركة، انتهى الخلاف الذي استمر لعدة سنوات بين راعي دير ويستمنستر وبين رهبانه، والذي مضى يزداد يوماً بعد يوم، وجرت تسويته بسعادة، وجاء ذلك بوساطة تدخل الملك، الذي كان لديه احترام خاص إلى ذلك الدير وإلى كنيسته، وأثناء هذا الخلاف نال راعي الدير غضب الملك، ولذلك نال راعي الدير الخسارة في هذه القضية، فقد كانت هناك ثلاث عزب، كان راعي الدير، قد استحوذ عليها من قبل لمدة طويلة، على الرغم من معارضة الرهبان، وشكاويهم، وقد جرى أخيراً تعيينهم لصالح الرهبان، في سبيل أن تزداد موارد الضيافة والإحسان لدير ويستمنستر، وعلى هذه الصورة جرى ترتيب القضية، بعد مداولات مستفيضة بين الايرل رتشارد، وجون مانسيل، ذلك أن الفريقين المتنازعين كانا قد وعدا بالالتزام بقرارهما، ولأن راعي الدير امتلك النية بالانسحاب من وعده، وتقدم بالتماس دعوى إستئناف ضد القرار، أصبح الملك ساخطاً كثيراً، وكدس على راعي الدير بطريقة غير لائقة الملامات والاهانات، مما هو غير موائم لذكره، ولم يتنازل بعد ذلك لاستقباله وفق شروط الصداقة الماضية، مع أن راعي الدير المذكور كان من قبل مستشاراً مقرباً كثيراً لديه، كما كان صديقاً كبيراً لجون مانسيل المذكور، وجاء ذلك على الرغم من أنه (الملك) كان هو الذي عمله راعي دير، لأنه أعلن أنه قد أفقر إلى أبعد الحدود دير ويستمنستر، وآذى الرهبان وظلمهم.

حول الإمتياز الملكي الذي منح إلى دير ويستمنستر

ثم قام الملك الآن صدوراً عن عاطفته نحو دير ويستمنستر، الذي عانى لعدة سنوات من كثير من الأذى والخسائر، فمنح إلى رهبان هذا الدير نفسه بكرم منه حرية التصرف، عندما يصبح منصب راعي دير

ويستمنستر شاغراً، وتدبير الممتلكات العائدة إلى ذلك الدير، إلى أن يجري تعيين راعي دير إليه، وكانت تلك الممتلكات يجري بالعادة الاحتفاظ بها من قبل الملك، ضمن ممتلكاته الخاصة، مما كان قد سبب خسارة كبيرة وأذى للدير، وفي سبيل الوفاء بهذا أعطى الصك التالي نصه إلى الرهبان:

صك ملك إنكلترا

«**من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ، إلى جميع الذين سوف تصلهم هذه العروض، تحيات:** بما أن ممتلكات راعي دير ويستمنستر، وممتلكات رئيس الرهبان، مع ممتلكات المجمع الرهباني للمكان نفسه، منفصلة عن بعضها بعضاً، ورغبة منا بتزويدهم بالوقاية والهدوء، وبتزويد رئيس الرهبان المذكور مع الرهبان، بإسمنا نحن أنفسنا وبإسم ورثتنا، ومنحهم، أنه كما يحدث في الغالب، أن تصبح رعاية الدير شاغرة بسبب تخلي الرعاة أو استقالتهم أو وفاتهم، منحهم حرية إدارة ممتلكاتهم المنفصلة، مبقين لنا ولورثتنا، خلال وقت شغور ذلك الدير، العناية بالممتلكات العائدة للرعاة المتقدم ذكرهم، وشهادة على ماتقدم، إلخ، شهدتُ أنا نفسي في ويستمنستر، في العام السادس والثلاثين من حكمي».

وعملتُ هذه الوثيقة في دير القديس ادموند، حيث بقي الملك في وضع صحي سيء لقرابة ثلاثة أسابيع، مما سبب احراجاً كبيراً إلى ذلك الدير.

غضب الملك ضد راعي دير ويستمنستر

ثم إن الملك، خوفاً منه أن يسبب راعي ويستمنستر له سخط بلاط روما، بحكم أنه كان قسيس البابا، صار الآن واقفاً تماماً ضده، خاصة وأن راعي الدير المذكور قد ترافع بدعوى استئناف إلى البلاط المذكور، وكان هذا يعني توريط دير ويستمنستر بديون لايمكن سدادها، ولذلك كدس عليه الاهانات وإنهال عليه بالشتائم والاتهامات، التي كانت

بشكل واضح غير مدعومة بأية أرضية صحيحة، وكانت فقط صادرة عن الغضب، كما أنه أصدر إعلاناً، تولى نشره المنادون في جميع أرجاء مدينة لندن، قضى أنه لايجوز لأحد، بأي حال من الأحوال، تقديم أي مال إلى راعي دير ويستمنستر، ولا أن يبدي أية طاعة لمراسيمه وختمه، مما كان واضحاً أنه إهانة كبيرة إلى راعي الدير.

واعترت الدهشة إلى أقصى الحدود، جميع الذين سمعوا هذا الاعلان، وعجبوا كيف تحول راعي الدير من كونه أعظم أصدقاء الملك، فأصبح الآن هدفاً للكراهية والمقت، وفق الطريقة نفسها عندما تحدث الشاعر بلسان سيدة اشتكت من حبيبها:

كل نظرة على الآخر، بدت تسأل

بصمت: هل سافر حبنا وغادر؟

حول أخبار تتعلق بأحوال الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه بعض التقارير المتعلقة بأحوال الأرض المقدسة، إثر وصول الرسالة التالية، إلى راهب من طائفة الدومينيكان، كان اسمه وولتر أوف سينت مارتين، وكان قد نال من قبل شهرة كبيرة في الأرض المقدسة:

«إلى أخيه المحترم والمحبوب في المسيح وولتر أوف سينت مارتين، يرسل الراهب يوسف دي كانسي Cancy, الخازن المتواضع للدير المقدس للاسبتارية في القدس وعكا، التحيات (انظره في كتاب Additaments), وكان مجمل محتوى هذه الرسالة هو كما يلي: «إن المدنة التي طلبت من الملك الفرنسي من قبل المصريين الذين ضغط عليهم بشدة من قبل سلطان حلب، لم يتم ابرامها بعد، كما لايبدو أنها معروضة وفق شروط مواتمة، لأن المصريين قد ألقوا بمعيقات على الطريق، ومجدداً إن كامل المنطقة المحيطة بأنطاكية قد تعرضت للسلب

والنهب من قبل التركمان، وسكان تلك المدينة يفرون بحشود من خلال الخوف، ولهذا يقوم كثير من المسلمين، الآن بالتجول في المنطقة كما يريدون وفي أرجاء المناطق الخاضعة للصليبيين، ويجتاحون البلاد كلها بالنار والسيف، وقد اتخذوا مكان لجوء في موضع يدعى قيصرية الكبرى، وإن جميع هذه الشرور، قد تسبب بها سلطان حلب»، ولقد انتشرت هذه الأخبار في الخارج في بلدان ماوراء جبال الألب في الخريف.

أخبار أكثر قبولاً من الأرض المقدسة نفسها

وفي هذا العام أيضاً، قام بعض الرهبان من طائفة السسترشيان الذين كانوا عائدين من اجتماع الهيئة الرهبانية العام لطائفتهم، بنشر بعض التقارير الأكثر سروراً، حيث حصلوا على معلوماتهم من الكاردينال جون، الذي كان رجلاً انكليزياً، وكان يعرف بشكل عام باسم الكاردينال الأبيض، لأنه كيان راهباً من طائفة السسترشيان، وكان قد أرسل رسالة إلى هيئته الرهبانية العامة، بوساطة راهب من الطائفة نفسها، كان فحواها هو كما يلي: «بما أن الكراهية والعداوة القائمة بين سلطان مصر وسلطان حلب ازدادت يومياً، وبناء عليه تولى الذين ظهروا بأنهم المقدمين والرجال الرئيسين بين المصريين، فأرسلوا رسالة مستعجلة وضاغطة إلى الرجل الذي كان إما هو سلطان مصر، أو بين يديه سلطات ذلك السلطان، وأعلنوا أنه بات من الضروري تماما بالنسبة لهم إقامة سلام، أو ترتيب هدنة مع الملك الفرنسي، لأن جيشه ازداد بشكل كبير جداً، ولقد تضخم مثل جدول في الوادي عندما ذابت ثلوج الجبال، وقالوا له: إننا إذا لم نفعل ذلك، سوف نهاجم ونقهر، إما من الجهة الأولى من قبل سلطان حلب، أو من الجهة الثانية من قبل الصليبيين».

وبناء عليه جرى ترتيب المسائل، بناء على موافقة عامة، بعقد هدنة مرضية إلى كلا الفئتين، وهكذا تمت الموافقة على هدنة لمدة خمسة عشر

عـامـاً، وجـرى الاتفـاق في هذه الهدنة على وجـوب أن يصبح الملك الفـرنسي صـديقـاً لسلطان مصر، وحليفـاً ومستشـاراً أثناء تعـرضـه للاضطرابات، خـاصة ضـد سلطان حلب الذي كان يستهـدف تدميره، مبقيـاً إلى الملك الفـرنسي وإلى الذين هم رعيـة له من الصليبيين التقـدير والاحترام كله، وعـلاوة على ذلك ينبغي عليهم اقتسام كل شيء سـوف يربحونه من سلطان حلب، إذا مـادخلوا بحرب ناجحة ضـده، وكذلك مـاسوف يربحـونه من حربهم ضـد أي أعداء آخـرين لهم، وجميع أنواع الغنائم والأسلاب التي سيحصلون عليهـا، وأيضاً اسقاط أي مبلغ بقي وتوجب دفعه من أجل فدية الملك الفرنسي، وأن يحررونه منه تماماً.

وكـانت كمية المبـالغ المطلوبة لفـدية الملك المذكـور، تقريبـاً لايمكن تعدادها، وكـانت في الحقيقة عشرة أضعاف الذي اعتقد أنها كـانته، وقد أبقيت سرية، خشية أن يكون هناك يأس من دفعهـا، كما تمّ الاتفاق على أن كل الذي يمتلكه سلطان مصر في الأرض المقـدسة، تتوجـب إعادته إلى الملك الفـرنسي مـع العبيـد الصليبيين (لأن الأسرى الصليبيين هكذا جرى عدّهم من قبل آسريهم).

عدم ثقة الكثيرين بخصوص شروط الهدنة

عندمـا جـرى اقتراح هذه الشروط من أجل الهدنة أو السـلام، كـان هناك بعض الذين ترددوا في قبـولهم والموافقـة عليهم، بناء على تحريض من الشيطان، وشعـروا بسخـط عظيم في قلوبهم، قـائلين: «العلي الأعلى يمنع ملك فـرنسـا، أعظم الملوك وأكثـرهم نبـلاً على الأرض، وخليفـة شـارلمان الـذي لايقهـر، والذي مسح بالميرون السماوي، يمنعـه من أن يصبح مـرتزقـاً، أو رجـلاً مثل كلـب، لابل كلبـاً لاإنسـاني»، لكن هذا التجـديف كـان مجرد غمغمـة وهيـاج التجبر والتفـاخـر الفطري لدى الفرنسيين.

كيف وافق الملك الفرنسي على شروط الهدنة المعروضة

وكان الملك الفرنسي، مدركاً على كل حال، بأن أخويه الباقيين قد تخليا عنه، ولم يكن خافياً عليه أن نبلاءه الفرنسيين قد استخفوا به، ولذلك تواضع في روحه، وأعطى موافقته على الهدنة التي طلبت منه، ووافق أيضاً على الشروط المقترحة، وبناء عليه أزيح كل الغضب وجميع العداء بين الفئتين، ووضع جانباً، وتمت إعادة جميع مناطق مملكة القدس من على هذا الجانب من الأردن، التي كانت موضوعة تحت سلطة المصريين إلى الملك الفرنسي، من دون إعاقة، وذلك مع جميع الأسرى الصليبيين، الذين يطلق عليهم بشكل عام اسم عبيد، وجرى أيضاً عقد حلف منيع بموجب الموافقة العامة للفئتين، بأن عليهما مضايقة سلطان حلب بالنار والسيف، ومن دون رحمة، على أساس أنه عدوهما المشترك، والمضي بالعمل حتى تدميره، وأن عليهما أن يقتسما بالتساوي بينهما أية غنائم سوف يحصلون عليها، وبناء عليه قام هذان الأميران: ملك فرنسا من هذا الجانب، وسلطان مصر من الجانب الآخر، بشنّ الحرب على سلطان حلب، ومحاربته، وبمقاتلته من اتجاهين، بمثل ذلك النشاط، كان سلطان حلب، غير قادر تماماً على مقاومتهما، وكان جيش الملك الفرنسي قد ازداد الآن زيادة كبيرة جداً وتقوى بوساطة ملك قبرص مع آخرين كثر قدموا في الوقت المناسب إلى مساعدته، وهكذا حدث أنه بفضل الرب «الذي يقاوم المتجبر، لكن يظهر الحظوة نحو المتواضع»، أن تقدمت الحرب بين يدي الملك، وكنا قد جمعنا بعضاً من هذه المعلومات، إن لم يكن كلها، من الرسالة المختصرة التالية.

الرسالة المتعلقة بالهدنة المذكورة أعلاه

«إلى الأب المبجل في الرب، رتشارد أسقف شيستر، يرسل وليم الذي هو بالنعمة الربانية نفسها، القسيس الحقير لأورلين، تحياته مع جميل التبجيل والتشريف، وهو على استعداد لأن يفعل كل مايرضيه بحكم أنه

مـولاه وأباه: نقـدم إليكم فيما يلي باختصـار، وبشكل مكتـوب الأخبـار القادمة من بلاد ماوراء البحر، والتي هي كما يلي: عمل صاحب الجلالة ملك فرنسا الأعظم نبلاً هـدنة لمدة خمسة عشر عاماً مع المسلمين، وتمت إعـادة جميع مناطق مملكة القدس الموجـودة على هذا الجانب من الأردن إلى الملك، مع جميع الأسرى الصليبيين، الذين يعرفـون بشكل عام باسم العبيـد، كما جـرى إلغـاء رصيـد المبلغ المتبقي للمسلمين من فـديتـه من أسره، وكان مبلغ الفدية خمسين ألف مارك من الفضة.

حول الاجتماع بين الملك الفرنسي والسلطان

وحدث في أحد الأيام بعد تثبيت الهدنة المذكورة أعلاه، أن تمتع الملك الفرنسي وسلطان مصر باجتماع كـان منتظراً منذ وقت طويل، وعبر كل واحـد منهما، بوسـاطة مترجمين موثقين عن رغبـاتهما المتبادلة، وجعـلاها معـروفـة فيما بينهما، وجـاء ذلك عندمـا بدأ السلطان بهدوء وبمـلامح مشرقـة القول: «كيف أنت يامـولاي الملك»؟ وعلى ذلك رد الملك وهو حـزين وبمـلامح كئيبـة: «أنا حسـن ومـريض أيضـاً»، فسأله السلطان: «لماذا، ألاتعرف الجواب؟ حسناً ماهو سبـب حزنك»؟ وعلى هذا أجاب الملك: «إنني لم أحصل على الذي كان رغبتي الرئيسية، والتي من أجلها تركت أمي الحبيبـة، التي تبكي الآن بصـوت مـرتفـع من أجلي، ولقـد عرضـت نفسي أيضاً إلى مخاطر البحار والحرب»، وتسـاءل السلطان عما يمكن أن يكون الهدف الذي تشوق إليـه كثيراً وإلى هذه الدرجة، ثم إنه قـال: «ومالذي كـانته، أيها الملـك، رغبتك التي تشوقت إليهـا إلى هذه الدرجة»؟ فأجـابه الملك: «إنها نفسك التي ادعى الشيطان أنها عـائدة له حتى يلقي بها في قعـر جهنم، لكن أبداً، بعـون يسـوع المسيح، الذي يرغب بانقـاذ جميع الأرواح، سوف لن يتفـاخر الشيطان بالحصـول على مثل تلك الغنيمـة الكبيرة» وأضـاف قـائـلاً: «إن العلي الأعلى، الذي لايجهل شيئاً، يعرف لو أن العالم المرئي هو كله ملكي، إنني سوف أتخلى

عنه جميعه من أجل انقاذ الأرواح»، ثم قال السلطان: «وهل كانت هذه نيتك ياملكي الصالح في اقدامك على القيام بحجك الكبير؟ إن جميع الشرقيين يعتقدون أن ذلك كان صدوراً عن رغبة الشره والطمع في الاستيلاء على بلادنا والاستحواذ عليها، وأن ذلك لم يكن من أجل انقاذ النفوس، فكل الذي طمع به جميع صليبيوك وتشوقوا للانتصار علينا، في سبيل الاستحواذ على تملك هذه البلاد والتحكم بها»، وعلى هذا أجاب الملك: «إنني أدعو الرب القدير، ليكون شاهداً بأنني لم أهتم مطلقاً بالعودة إلى مملكتي في فرنسا، إذا ماتمكنت من نيل روحك وأرواح جميع بقية الكفار لصالح الرب، حتى يمكن أن يتمجدوا فيه»، وعندما سمع السلطان هذا قال: «إن هذا مانأمل به باتباع شرائع محمد صلى الله عليه وسلم، وبالحصول على التمتع بالسرور الأعظم في الحياة المقبلة»، وعلى هذا الكلام رد الملك الأعظم تقوى قائلاً: «أنا لايمكنني أن أعجب بها فيه الكفاية، كيف يمكن لأناس حكماء ووعاة مثلكم أن يؤمنوا بالدعي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي علم وسمح بكثير من الأعمال غير الطاهرة وغير الأمينة، لأنني قد رأيت قرآنكم وتفحصته، الذي هو غير طاهر مطلقاً وغير نقي، ذلك أنه بالنسبة لجميع الرجال الحكماء للأزمان الغابرة، لابل حتى بين الكفار، الاستقامة هي أعظم الأشياء الجيدة في هذه الحياة».

وعندما سمع السلطان بهذه الكلمات انهمرت الدموع من عينيه، فتبللت لحيته، ولم يقدم جواباً على هذه الاعتراضات، بل تأوه وتنهد بعمق، وتوقف عن الكلام، وبعد هذا الاجتماع الودي لم يعد يميل نحو أوهامه أو لم يعد مخلصاً لها كما كان من قبل.

وهكذا من الممكن أن نستخلص من الأقوال والأفعال المتقدمة الذكر، أنه توفرت هناك أرضيات جيدة لآمال قد انبعثت، بأن هذا السلطان نفسه سوف يتحول إلى الإيمان المسيحي، ويغدو مسيحي

الديانة، ولقد أعلن الملك الفرنسي بأنه سوف لن يعود إلى فرنسا، بل سيظل يقاتل في الأرض المقدسة بقية حياته لنيل أرواح المسلمين لصالح الرب، تاركاً مملكته لعناية أمه، وواثقاً بشجاعة الفرنسيين في حمايتها ضد هجمات جيرانها الأمراء، ونحن نترك هذا إلى المقادير الربانية(١).

موت ألفونسو ملك إسبانيا

حتى لايكون ازدهار هذا العالم صافياً بل ممزوجاً بالانتكاسات، فقد أصبح الملك الفرنسي الآن حزيناً جداً، لدى تلقيه أخباراً بأن ألفونسو، الملك المشهور لقشتالة، الذي لصفاته العالية أطلق عليه اسم ملك اسبانيا كلها، قد غادر طريق الجسد كله، وجاء ذلك بعدما جعل نفسه مشهوراً بأعماله، وبعدما نال انتصارات كبيرة على المسلمين في اسبانيا، الحديث عنها، ورواية أخبارها سوف يحتاج إلى رسالة خاصة، وكان ألفونسو المذكور قد وعد الملك لويس بأن يقدم إليه مساعدة سريعة وفعالة، وذلك بعدما أقنعته بذلك بلانشي، بوساطة الالتماسات الملحة والهدايا، وقد وعدها بذلك لأنه كان قريباً لها، وقد ترك وراءه أسرة نبيلة، وفرساناً مشهورين ووسيمين، وهم قد قاوموا المسلمين بشجاعة في تجبرهم وجرأتهم، وبمثابة تعويض من الرب وتسكين لأحزانه، منح الرب إلى الملك الفرنسي أولاداً نبلاء، ولدتهم له الملكة في الأرض المقدسة، وهم صبي وابنة، وكان قد تشوق كثيراً إلى الابنة ورغب بها كثيراً.

كيف أصيب ألفونسو أخو الملك الفرنسي بداء غير قابل للشفاء

وفي هذه الآونة أصيب ألفونسو، أخو الملك الفرنسي، بالشلل، مما سبب حزناً كبيراً لأخيه الملك، وكذلك لأمه، وأخذ يتلاشى ويسير نحو

(١)- واضح أن هذه حكاية دعائية مخترعة، لم يرد ذكرها في أي مصدر آخر، ولاسيما لدى جوانفيل الذي بقي بصحبة الملك لويس حتى عودته، وفائدتها في التدليل على العقلية الأوروبية، ولاسيما عقلية رجال اللاهوت، الذين كما يبدو اخترعوها وروجوا لها.

الموت، تحت هذا الداء غير القابل للشفاء، ولعله أصيب بانتقام رباني، لأنه عندما كان أخوه في وضع حرج جداً، لم يساعده حسبما كان قد وعده وأقسم أنه سيفعل ذلك.

حزن الملكة الفرنسية بلانشي

ولدى سماع الأعظم بين السيدات، الملكة الفرنسية بلانشي بهذه الأخبار، لم تستطع ضبط عواطف الأمومة لديها، بل نفست عن أحزانها بالآهات والتنهدات، وكأنها كانت قد أصيبت بجرح عميق، لأنها تذكرت أن أكبر أولادها وأعزهم لديها قد تعهد بالبقاء في الأرض المقدسة كل حياته، وتذكرت كيف أن روبرت كونت أرتوي، الذي كان ولداً آخر من أولادها قد مات ميتة شنيعة، وهاهو ولدها الثالث، ألفونسو، كونت أوف بواتو، ممدد الآن وهو مصاب بداء غير قابل للشفاء، وأخذت منذ ذلك الحين تتلاشى، مثل واحدة قد حرمت من أغلى الذين عطفت عليهم، وهكذا قهرها الأسى، وباتت تتوقع موتها في حال من التعاسة،ولم تستطع العودة إلى حال الشعور بالسعادة، ولم تعد قادرة على تقبل المواساة.

كيف عبر الراهب وليم من دير القديس إدموند الألب

وفي هذا العام أيضاً جرى إرسال وليم الراهب من دير القديس ادموند، ووليم الكاهن من كنيسة القديس ادوارد، إلى بلاط روما، الذي كان معقوداً آنذاك في بيروجيا، من أجل بعض الأعمال الضاغطة، المتعلقة بكنيسة القديس ميكائيل في كنغبيرن Kingsbern, وبعد إرسال الكاهن عائداً إلى الوطن، اختفى الراهب، وتعذر معرفة إلى أين قد ذهب، مع أن بحثاً دقيقاً جرى عنه في جميع البلدان من قبل ناظر دير القديس ألبان، وبعد مضي وقت طويل عاد أخيراً إلى الوطن مشوشاً وفي صحة سيئة، بعدما قام بترتيب أعماله بطريقة ما من الطرق،

وبعدما مضى على غيابه في حجه عـاماً وزيادة، وبعدما —أيضاً— ورط دير القـديس ألبـان بدين مقـداره ثلاثمائـة مارك، وبعـد وصـوله ذهب بشكل سري إلى المصحة، وبعـدما أقـام هناك لبضعة أيام، أبحـر، مخالفاً لأوامـر وأعـراف دير القـديس ألبـان، وذهب إلى دير القـديس جـايلز، وجرى ادخال رسائل مناظراته في كتاب Additaments.

كيف أرسل ملك إنكلترا الإيرل سيمون إلى غسكوني

وفي هذه الآونة، قـام ملك انكلترا، مقلداً لداود الذي بعث أوريا إلى وسط مخاطر الحرب، في سبيل أن يظهـر أن المعكـر للسـلام هو الواحـد القـادر على إعادة تـأسيس السلام، وعلى هذا قـال لسيمـون ايرل أوف ليستر: «ارجـع إلى غسكـوني، حتى تتمكـن، أنـت الخبير كثيراً بـالحرب والمغـرم بها، من أن تجد مـايكفي مـن الحروب هناك، واجلب معك من هناك جائزتك المستحقـة، كما فعل أبوك قديماً»، وربح الملك بهذا الكلام القصير قبـول الغسكونيين ورضـاهـم، وقـام الايرل وهو مسرور وغير هيـاب بالاجابة على الفـور حيث قال للملك: «سـوف أذهب إلى هناك برضـــاي، وأعتقـــد أنني لـن أعـود من هنـاك —وإن كنت غير ممتن وشاكـر— حتى أعيد هؤلاء العصـاة إلى طاعتك، وأجعل أعداءك تحت قـدميك»، وبناء عليه غـادر انكلترا على الفور، وحمل نفسـه إلى فرنسـا، التي كـان على عـلاقـة طيبـة معهـا، وتمكن هناك بمسـاعـدة أقـربائـه وأصدقـائه، على الفور من جمع جيش كبير وقـوي من المرتزقة، وبعـدما عبأهم وعـدهم، بأنهم سـوف يحصلون من الأسـلاب والغنائم، على مكافـآت مـوائمـة وكـافيـة، وكـان أولئك الجنـود شرهين أكثـر منهم متعطشين إلى الدمـاء، وقـد تبعوه بحماس وجـرأة، وكـان الايرل نفسـه يتحرق رغبة للانتقام للنيل من سمعته.

وقـام الملك بالوقت نفسه إمـا بالتظاهر —أو أنه نسي— أنه قـد منح من قبل غسكوني مرتين إلى أخيه الايرل رتشارد، وأعطاه إياها بموجب

صكوك، فعزم على منحها إلى ولده ادوارد الأول ولادة، وجاء ذلك بشكل رئيسي بناء على تحريض من زوجته الملكة واقناعها، وعندما توصل الايرل رتشارد إلى معرفة هذه النية، غضب غضباً شديداً وسخط، وسحب نفسه على الفور عقلياً وجسدياً من بلاط الملك، وتخلى من صميم قلبه عن تقلبات هذا البلاط وعدم استقراره.

كيف أعطيت غسكوني إلى إدوارد الابن البكر للملك

ثم أمر الملك، بموجب مرسوم ملكي، جميع الغسكونيين الذين كانوا مقيمين في لندن: رئيس أساقفة بوردو والآخرين الذين قدموا معه، بوجوب الاجتماع على الفور، وعندما أعلن، وبيّن بشكل عام بأنه قد أعطى غسكوني إلى ادوارد، ولده البكر، وذكر بأن أخاه الايرل رتشارد لم يحرص على تملك غسكوني، لابل في الحقيقة هو لم يرغب قط في رؤيتها، لأن تلك العاصفة في البحر قد ضايقته بما فيه الكفاية، وأفرغت غسكوني، في كثير من الأحيان حافظة نقوده، وكانت هذه الخطة مقبولة كثيراً من قبل الغسكونيين، وقدم الذين كانوا هناك جميعاً الولاء وأقسموا على الاخلاص إلى ادوارد الأمير الشاب، الذي تولى، بناء على ذلك تقديم بعض الهدايا الجميلة والثمينة إليهم، من الذهب، والفضة، والأطواق، والأحزمة، والملابس الحريرية، ووعدهم بهدايا أعظم، واحتفظ الملك —على كل حال— لنفسه، بالسيادة الرئيسية، أي بولائهم، ثم إنهم شاركوا جميعاً باحتفال كبير، وعبروا عن مشاعر سرورهم وتفاخرهم، ولم يختف التهديد خلال أحاديثهم، من أن الايرل سيمون، الذي تصور آمالاً، بأن نهر الأردن كله سوف يصب في فمه، سوف يجري إما تقطيعه إلى قطع، أو أنه سوف يطرد إلى المنفى من بلاده، ثم ركب الغسكونيون سفينة، وتمكنوا بأشرعة منشورة من العودة ثانية إلى بلادهم، ولدى وصولهم إلى هناك، وقبل أن يتعافوا من متاعب رحلتهم، وقبل أن يجدوا الوقت للإعلان عما حدث في انكلترا، وجدوا

الايرل سيمـون، الذي تردد ذكره كثيراً من قبـل، قد تحصن ضـدهم مع جيش كبير، كـان جيد التسليح والتجهيـز، وقـاموا —على كل حـال— بدعـوة كثيرين من أعـداء الايرل وحشـدوهم، وبعثـوا الحماسـة في نفوسهم، بإخبـارهم بأنه قد بات لديهم سيداً جديداً، كـان الآن مستعداً لإبطال مفعـول قـرني الايرل رتشـارد وكسرهما، فحشـدوا جيشـاً كبيراً وقوياً، اعتقدوا أنه سيكون قادراً على سحق الايرل المذكور، وبدأوا على الفور بالأعمال العدوانية ضده، ولأنهم كانوا محترسين، وصلوا إلى كمين كـان الايرل سيمـون قـد نصبـه في مـوضـع حتى يتمكن منه من أخـذ الغسكونيين على حين غرة، وبعـد معركة دمـوية أسروا فارساً شجـاعاً، كـان الايرل سيمـون قد عهـد إليـه بقيـادة ذلك الكمين، وحملوه معهم أسيراً، وبعـدما فـرقوا بقيـة تلك الكتلة، عبّـروا عن بهجتهم بصرخـات النصر.

حول المعركة الدموية بين الغسكونيين والإيرل سيمون

ولم يكن الايرل معسكراً على بعـد كبير عـن المكان الذي وقعت فيـه الحوادث الأخيرة، وكان متوقعاً مواجهـة أعدائه على حد السيف، وكان يأمل كما كان قـد خطط بشكل سري، بأن يتمكن الجنود الذين وضعهم في الكمين من الانقضـاض عليهم من اتجاه آخـر، وكـان ينتظر وصـول بعض الشـارات التي تخبره ببداية القتـال، ووقتها وصل إليه واحـد من الفارين من القتال الأخير، وكان يمتطي على فرس سريع، وقد قدم إليه ليخبره بالذي حـدث، وكـان مجروحاً ملطخـاً بالدم، ومشـوهاً ويتنفس بصعوبة، فأخبره بالذي وقع، وأضاف بأن قائدهم الفارس الشجاع، قد حمل أسيراً، ولدى سماع الايرل بهذا، بدا مندهشاً، ومثل واحد أفاق من نوم عميق سأل: «نحن تـأخـرنا كثيراً، هل العـدو بعيـد عنـا»؟ فأجـابه الفار: «لا، إن الأعـداء قريبين جـداً، وهم يتقدمـون مسرعين للاشتباك بالقتال معكم على الفور، وهم أيضـاً مسرورين، ويتمتعون بروح عالية،

لأنهم واجهوا النجاح في المعركة، وسببوا لنا الاضطراب وأرغمونا على الفرار»، وما كاد الرجل ينهي كلامه حتى ساق الايرل مسرعاً، متشوقاً لانقاذ الفارس، الذي تقدم الحديث عنه أعلاه، وبصعوبة انتظر أتباعه، وأخذ الرسول معه ليكون دليله، ولم يوفر جنبي فرسه، وطار مسرعاً مثل صاعقة نحو الأعداء، وعلى الفور جاء إلى مواجهتهم، وشرب سيفه اللامع من دماء عدد كبير منهم، وبقوة تمكن من انقاذ الأسرى، وقطع أغلالهم وحطم قيودهم، وحيث أنهم كانوا متشوقين للقتال، وبعدما وجدوا أنفسهم قد أنقذوا، انقضوا حانقين على العدو، ثم أعقب ذلك صراع دموي ومشكوك بنتائجه، وكان الغسكونيون واثقين من أعدادهم، فاندفعوا منقضين كتلة واحدة على الايرل، الذي تشوقوا إلى أسره أو قتله قبل سواه، وهكذا صار ثقل المعركة كله واقعاً عليه، وتابع العدو بإلقاء رجاله عليه بجدة وبشكل جماعي، وقد ألقي به من على حصانه، وبات في خطر عظيم بأن يفقد حياته، ووقتها رآه واحد من الفرسان، كان قد أنقذه قبل وقت قصير، ولدى مشاهدة هذا الفارس ماأحاق به من خطر، صرخ بصوت مرتفع: «أيها الايرل الشجاع كثيراً، إن من العدل والواجب عليّ إنقاذ الذي حفظني»، وتمكن بقوة جبارة من خرق صفوف الأعداء الكثيفة، وبعدما تمكن من إعادة الايرل إلى ظهر حصانه، أصاب بشكل قاتل بعض الذين تصدوا له، أو ألقى بهم إلى الأرض حتى يواجهوا الموت، واستمرت المعركة حتى قرابة منتصف النهار، عندما أخيراً انهزم الغسكونيين، وأرغموا على الفرار، وجرى أسر العديد منهم، وتمّ في هذه المعركة أسر خمسة من أعلى نبلاء الغسكونيين مكانة، كان من بينهم روستين Rustein, الذي جرى تقديمه إلى الملك، وحصل الايرل في ذلك اليوم على نصر رائع، ولم يواجه قط النجاة بصعوبة من المخاطر كما حدث له الآن، ولم يعد أعداؤه الآن يتجرأون على الشكوى ضده.

حول الاجتياح المخيف الذي عمله الأجانب في إنكلترا

خلال تلك الآونة، وعن طريق عدة أشكال من خدع الشيطان، بات شعب انكلترا بشكل عام من بارونات، وفرسان، ومواطنين، وتجار، وعمال، وبشكل خاص الرهبان، يعملون في ظل وباء جارف بعدواه، لأن ذوي المراتب العليا من الأجانب، فرضوا على الطبقات الدنيا كثيراً من الخدمات الشاقة، وآذوهم بوساطة كثير من السرقات والأضرار، إلى حد أن جميع الشعوب المقيمة في انكلترا ظهرت في أدنى الأحوال، ففي المقام الأول جرى الاستيلاء على بيوت التجار، وفي مقام آخر تمّ الاستيلاء على عرباتهم، وعلى ممتلكاتهم الصغيرة، وتمت مصادرتها بالقوة، وما من شيء ترك لهم غير عرضة للخطر، وذلك باستثناء الريبة والسخرية، ولدى مشاهدة هذه الإجراءات، قال بعض الأكثر نبالة من الانكليز، الذين أستحي من ذكر أسمائهم، قالوا في حالة تجبر، وأصحبوا الذي قالوه بالأيمان: «هناك الآن كثير من الملوك والطغاة في انكلترا، ونحن علينا أن نكون ملوكاً وطغاة مثل الآخرين»، وهكذا صاروا أسوأ من البقية، وكان إذا ماتعرض إنسان إلى الأذى الشديد، وتقدم بشكوى أمام البواتيين الذين انقلبت رؤوسهم وتحولت بوساطة الثروات الواسعة والممتلكات، وطالب بتقديم العدالة إليه، وفقاً لقانون البلاد، كانوا يجيبونه: «نحن لانقيم وزناً لقانون البلاد، بل لما هو قانوني وعرفي بالنسبة لنا»، وهكذا بات السكان المحليين للبلاد، خاصة الرهبان مثل الوسخ في أعين الأجانب، الذين لم يخجل بعض الانكليز من اتباع خطواتهم، ففي إحدى المناسبات، كان الراهب متى باريس، كاتب هذا الكتاب، وروجر دي ثيركباي Thurkeby, الذي كان فارساً ورجل ثقافة، يتناولان الطعام معاً على مائدة واحدة، وقتها قام الراهب متى بذكر المظالم المتقدمة الذكر، فبادر الفارس المسمى أعلاه مجيباً له بشكل

جاد قائلاً: «سوف يأتي الوقـت أيها الرهبان، لابل في الحقيقة قد جاء، عندمـا سيعتقد كل واحـد يتـولى ظلمكم بأنه يؤدي خدمـة إلى الرب، وأنا أعتقـد أن هـذه الأضرار والمظالم لن تتأخـر كثيراً عـن تدميركم كلياً»، وعندمـا سمع متى المذكور هذا الكلام، أعاد إلى ذاكـرته القول بأنه «في الأيـام الأخيرة للدنيـا، سـوف يكون هنـاك أناس يحبـون أنفسهم، وليس لديهم أدنى تقدير لمنافع جيرانهم».

حول الحر والجفاف خلال هذا الصيف

كان هناك خلال أشهر نيسان، وأيار، وحزيران، وتموز من هذا العام، حراوة لاتحتمل وجفاف عام، استمر طوال ذلك الوقت من دون سقوط للمطر، أو للندى، لإنعاش الأرض، ونتيجة لذلك فإن الأغصان المورقة على الأشجـار، التي وعـدت بكميات وافـرة من الفـواكـه، ذبلت وتساقطت، وتجردت الحقـول من أعشابها، وذبلت أوراق النبـاتات، ولم تقـدم المراعي الطعام إلى القطعـان الجائعـة، وأصبحت الأرض قاسيـة، وتشققت وتفتت، وبسبب الحاجـة إلى الرطوبة لم تعـد قادرة على تغـذية القمح، وتطايرت الحشرات مـع أزيز أصـواتها، أمـا الطيـور فخفضت أجنحتهـا وفتحت أفواههـا، وتوقفت عن التغريد الممتع، وبشر التعـرق المحـرق الصـادر بسبب هذه الأنواء بني البشر وتوعـدهم بأمـراض شديدة، وبحميات قاسية خلال خريف هذا العام.

حول رسائل إصلاح صدرت عن البابا

وفي هذه الآونة قـدّم البـابا تنازلاً إلى الذين شغلوا مناصب لاهوتيـة رفيعة، والذين تعرضوا للظلم إلى أبعد الحدود، خاصة في مناطق ماوراء الألب: «بأن على الذين يعود إليهم أمر الانتخـاب أن يضعوا الرب أمام أعينهم، وأن يتولوا بشكل صحيح توزيع هذه المناصب»، وجرى تقديم الرسائل حول هذه القضية في كتاب Additaments.

حول الاحتفال في دير وولندن بنوع من المبارزات دعيت باسم المائدة المستديرة

وفي هذا العـام قـرر فـرسـان انكلترا بالاجماع، من أجل البرهنة على براعتهم وعلى ممارستهـم لأعمال الفـروسيـة الشجاعـة، ولكي يجربوا قواهم، التباري حـول مايعرف بشكل عام باسـم المبارزات، بل التباري بنوع الفروسية الذي أطلق عليه اسم «المائـدة المستديرة»، ففي ثمانية عيد ميلاد العـذراء المباركة، احتشدوا بناء عليـه بأعداد كبيرة في دير وولندن Wallenden وتقـاطروا مع بعضهم مـن الشمال ومن الجنوب، وكـذلك من القـارة، وتبعـاً لأحكام هـذه الرياضـة التي تشبـه الأعمال القتالية جرى في ذلك اليوم وفي اليـوم الذي تلاه أن قام بعض الفرسان الانكليـز بعرض أنفسهم مع بـراعة عظيمـة وشجـاعة مما بعث البهجة والاعجاب لدى جميع الأجـانب الذين كانوا حـاضرين هناك، وفي اليوم الرابع التـالي، دخل فـارسان مشهـوران بالشجـاعـة العظيمـة في قائمـة المتبـارين وهما أرنولد دي مـونتني Montigny, وروجـــر دي ليمبيرن Lemburn, وجاءا إلى التباري وهما مسلحان تماماً وفق طرائق الفـرسـان، وكـانا يمتطيان على فـرسين مختـارين ورشيقين، وقـد اندفعا ليتصـدى أحدهما للآخـر برماحهما، وسـدد روجر سـلاحه الذي كان سنـانه مشحوذاً، مع أنه توجب أن يكون غير ذلك، ولذلك خـرق تحت خـوذة أرنولد، ونفـذ في حلقومـه، وقطع قصبتـه وشرايينه، لأنه لم يتول تغطية ذلك الجزء من جسمه، وكـان من دون ياقة، وبعدما أصيب هكذا بشكل قاتل، وقع أرضاً من على ظهـر حصانه، ومات على الفور، مما سبب حـزناً عظيماً، كما حكي عن روجـر، وكان أرنولد هذا، واحـداً من أبرع الفرسان في استخدام السلاح، ولم يترك بعده نظيراً له، ولاحتى أي واحد يعـدّ ثانياً له في ذلك المجـال، وانبعث حزن كبير ونواح وبكاء بين الفـرسـان الذين كـانوا مـوجودين هنـاك، وهكذا فإن أولئك الذين

قدموا إلى هناك فرحين مسرورين تفرقوا فجأة وسط حزن وبكاء، وجرى دفن جسده في جوار دير وولندن، وسط كثير من الحزن والأسف، أمام النبلاء الذين كانوا هناك قبل أن يغادروا، وما من فارس بكى لموت المتوفى بقدر الذي تسبب بوفاته، أي روجر المتقدم ذكره، وقد نذر على الفور أن يحمل الصليب وأن يقوم بالحج لتحرير نفسه من أرنولد، وحسبما ظهر واضحاً أنه قتل أرنولد المذكور دون قصد، لابل حتى دون أن يعرف بأنه قتل أرنولد دي مونتي المتقدم ذكره، لهذا لم يتهم لذلك، ولم يوجه إليه اللوم، وكان بين ذلك التجمع الفرساني الكثير من نبلاء انكلترا وسواهم، وكان من بين هؤلاء ايرل غلوستر، الذي حاول لدى إصابة الفارس المذكور أرنولد وجرحه أن يسحب بقية الرمح من رقبة الرجل المجروح، وعندما نجح في سحب القطعة الخشبية بقي السنان الحديدي في الجرح، وبعد قطع العنق وانتزاعه، وفحصه من قبل الفرسان الذين كانوا موجودين هناك، وجدوا هذا السنان حاداً في رأسه مثل مدية، مع أنه توجب أن يكون كليلاً غير مشحوذ، وأن يكون عريضاً بقدر سكين صغير، وقد بدا شكل هذا السنان مثل سكة المحراث لكن على مستوى صغير، ولذلك كان هذا النوع يعرف باسم المحراث الصغير، وفي الفرنسية Soket, ولقوة هذه البينات، بات روجر دي ليمبيرن الذي تقدم ذكره هدفاً للشك، مع أنه أعلن عن نفسه أنه كان بريئاً، وجرت ملامته بحدة بأنه اقترف غدراً جريمة قتل، خاصة وأن أرنولد المذكور، قد سلف له في مبارزة ماضية أن كسر رجل روجر دي ليمبيرن هذا، لكن الرب هو وحده الذي يعلم حقيقة هذا الأمر، فهو وحده يبحث في أسرار قلوب الناس:

متشوق للشهرة، بناء على صرخة الشرف الدنيوي

وهكذا جرت هزيمة أناس، وهكذا مات المهزوم.

كيف ذهب الملك إلى سينت ألبان وقدم كثيراً من الهدايا

وخلال هذا العام، وعشية عيد القديس بارثلميو، ذهب الملك إلى سينت ألبان، وتوجه على الفور إلى المذبح الكبير، حيث قام بعد صلاته، وحسبما كانت عادته، بتقديم منحة إلى الشهيد، وكان ذلك عبارة عن طيلسان أنيق وثمين، وعقدين، وخاتمين ذهبيين، واثني عشر طالن، أمر بأن يجري تكريسهم بشكل خاص لتزيين الأضرحة، وفي اليوم نفسه، قام ابنه البكر ادوارد بتقديم طيلسان عند المذبح نفسه، وقدم طيلساناً آخر، وعقدين عند مذبح القديس أمفيبالوس Amphibalus, وهؤلاء جميعاً كان الملك قد أمر بشرائهم، مع هدايا أخرى ثمينة، وأمر بتغطية الضريح بزينة شريت مع المشتريات المتقدمة، ولقد أقام لمدة خمسة أيام في سينت ألبان، كما كان قد فعل من قبل في عيد الفصح، في السنة التي تلت حصار بدفورد Bedford.

وفاة وليم أوف هافرهل

وفي اليوم نفسه، الذي وصل فيه الملك إلى سينت ألبان، حسبما ذكرنا أعلاه، أي عشية عيد القديس بارثلميو، مات وقتها في لندن وليم أوف هافرهل Haverhull, وكان لاهوتياً في كنيسة القديس بولص، وخازناً للملك، وكان قد أمضى كثيراً من سنوات حياته مخلصاً في خدمة الملك المذكور، وكان من المعتقد بأن الملك سوف يضع جون الفرنسي في موضع وليم وفي وظيفته، لكن انتشرت تقارير، أفادت بأن جون المذكور قد توفي في منطقة نائية من شمالي انكلترا، إلى حيث ذهب للشكوى ضد أحد الرهبان، وبناء عليه عيّن الملك، خازناً لنفسه، في مكان وليم المذكور، فيليب لوفل، وكان محاسباً، ورجلاً فصيحاً وحكيماً ومن أصل نبيل، وجرى هذا التعيين في سينت ألبان، بناء على ترشيح وتحبيذ من جون مانسيل، الذي كان صديقاً خاصاً لفيليب.

النقش على ضريح وليم أوف هافرهل

هنا يرقد وليم الخازن الأعلى للملك
ولن يلد النحيب على هافرهل مطلقاً
واحداً مثله. فعندما كان على الأرض
هي التي زودته وهي أيضاً كانت قادرة
على تزويده بخمرة ثمينة وبأطعمة لمائدته
لكن الآن مملكة المسيح هي جائزته السماوية

حول مرض مميت بين الماشية

خلال هذا العام، وبعد صيف حار كثيراً، ومع اقتراب الخريف، انتشر طاعون مميت مثله لم يشاهد من قبل، ولايتذكره إنسان، وجاء انتشاره بين المواشي في كثير من أجزاء انكلترا، إنما بشكل خاص في نورفولك Norfolk, وفي السباخ، وكذلك في المناطق الجنوبية، وكان من الملامح المثيرة لهذا الطاعون، هو أن الكلاب والغربان التي تغذت من أجساد المواشي التي ماتت بسبب هذا الوباء كانت تصاب بالعدوى على الفور، وتتورم، وتموت حيث هي، ولذلك لم يتجرأ أي إنسان على الأكل من لحوم المواشي خشية أن تكون عائدة إلى الحيوانات التي ماتت بذلك المرض، وكان من بين الوقائع المدهشة التي لوحظت بين الماشية هو أن الأبقار والثيران البالغة رضعت من أثداء الأبقار الأكبر سناً مثل العجول الصغيرة، ولوحظت واقعة مدهشة أخرى، هي أنه في هذا الوقت من العام، الذي تنتج فيه الطبيعة كما اعتادت الأجاص والتفاح، أزهرت الأشجار، حسبما اعتادت أن تفعل في نيسان، وكان سبب هذا الموتان بين الماشية، وظهور الأزهار، مع الشهوانية غير الاعتيادية بين الماشية، قد تأصل وصدر عن الحر

والجفاف، الأمر الذي أتينا على ذكره من قبل، لأن ما كان مدهشاً ومثيراً للعجب، هو أن الأعشاب، حتى في المروج، قد اهترأت وجفت وباتت قاسية خلال أشهر: أيار، وحزيران، وتموز، ومع الاعتدال الفصلي، تساقطت كميات وافرة من الأمطار، وغطت الرطوبة وجه الأرض، التي شربت مياه الأمطار وابتلعتها في شقوقها ومسامها المفتوحة، وأصبحت غنية بالانتاج وتقديم المنافع، وقدمت الخضراوات الخصبة بشكل غير اعتيادي، وأقل من المواسم المعتادة، والتهمت القطعان الجائعة وشبه الميتة هذه الأعشاب التي كانت مشتاقة إليها، وأصبحت فجأة مليئة بالشحوم، وبذلك صارت أجسادها غير صالحة للأكل، وصدرت عنها أعمالاً مضحكة غير عادية تماماً، وأخيراً أصيبت بالجنون، وتصرفت وفق طرائق مدهشة غير اعتيادية، إلى أن أصيبت أخيراً بالمرض، فسقطت المواشي موتى، وانتقلت العدوى منهم، بسبب خبث المرض، وبذلك أثرت بالآخرين أيضاً، ومن الممكن استخلاص سبب مماثل من أجل إزهار الأشجار في غير موسمها.

حول تكريس كنيسة إيلاي

في السابع عشر من أيلول لهذا العام، الذي كان يوم عيد القديس لامبرت، جرى تكريس الكاتدرائية الفخمة لإيلاي وسط احتفال فخم وأبهة كبيرة، وجرى بناء الجزء المشيخي من هذه الكنيسة إلى جانب برج جميل، وروائع الأعمال وكبير النفقات، كله بالكامل وتماماً على النفقة الفردية لهوغ، أسقف ذلك المكان، والذي كان مشرفاً خاصاً على ذلك كله، وله مكانته وصلاحه، وبنى هذا الأسقف نفسه في ساحة إيلاي قصراً ملكياً جميلاً، مع غرف وأبنية أخرى موائمة، فيها شارك الذين حضروا التكريس بمتع الاحتفال وبموائده، وذلك حسبما سنحكي في الرواية التالية، وتولى القيام بطقوس التكريس أسقف إيلاي، وهي التي كانت هدفه ورغبته المخلصة منذ زمن طويل مضى، وساعده كل من

أسقفي نورويك وللانداف، وكان موجوداً هناك أثناء الاحتفال الملك نفسه، وعدد كبير جداً من نبلاء المملكة، وذلك بالاضافة إلى عدد لايحصى من الأساقفة ورجال الدين، وجرى منح غفران لعدة أيام إلى جميع الذين جاءوا للمشاركة في الاحتفال، وإلى الذين كان من الممكن أن يأتوا فيها بعد، وبعد مراعاة صحيحة وموائمة للاحتفالات الروحية، وجهوا تفكيرهم نحو احتفال أجسادهم، وامتلأت مساكن الرهبان، وكذلك مساكن الأساقفة والذين يعيشون في البلدة بالضيوف، ومع ذلك أبدى الأسقف حزنه للعدد الصغير من الضيوف الذين تجمعوا، وأعلن أن الضيافات التي اقترحها لنفسه كانت على معيار أكبر، وقد نقصت عن حجمها الصحيح، ومع ذلك فرح في قرارة نفسه، وشعر ببهجة عظيمة، لأنه تمكن بنعمة الرب من البقاء إلى ذلك اليوم، الذي استطاع فيه بسرور تنفيذ جميع الذي نواه ورتب له، وبناء عليه إن بهجة ذلك الأسقف العجوز وسروره وسعادته يمكن أن تردد قول سمعان المبجل: «الآن أخيراً أنا خادمك» إلخ، إلخ.

وفاة مرغريت الكونتسة الكبيرة لـ دي لآيل

وفي الثاني من تشرين الأول لهذا العام، ماتت السيدة النبيلة والرفيعة النسب مرغريت كونتسة دي لآيل Lisle, التي كانت ألقابها الأنهار، والتي كانت من قبل زوجة ذلك الخائن الدموي فولكس Faulkes, فهي كانت قد تزوجت منه ضد إرادتها، وكان هذا الزواج واحداً من أعمال الارغام (كانت قد أعطيت إلى فولكس بموجب طغيان جون الذي لم يتورع عن اقتراف أية جريمة شريرة) حيث أكرهت النبالة على الاتحاد بالدناءة، والتقوى مع عدم التقوى، والجمال مع انعدام الشرف، وحول هذا الاتحاد كتب واحد من الكتّاب يقول محقاً:

القانون جعلها واحداً، وكذلك الحب وطقوس القران

فأي قانون، وأي حب، وأي رابط ربط مابين مثل هذين الاثنين؟
وبدلاً عن قانون، اقرأ: لاقانون، وعن حب، اقرأ: كراهية
وعدم الوئام هو وئام مصير هذين المحبين.

وسوف تبقى الذكرى الطيبة لهذه السيدة النبيلة جديرة بالذكر من قبلي، بسبب الواقعة التالية: عندما كانت في إحدى الليالي متمددة نائمة مع زوجها فولكس، رأى الأخير رؤيا، فيها ظهر له بأن حجرة ذات حجم مدهش سقطت مثل صاعقة عليه من برج كنيسة القديس ألبان وسحقته وحولته إلى رماد، وأفاق من نومه، وقفز من فراشه وهو مصاب بالدهشة والرعب، وعندما رأته زوجته يرتجف، وكأنه قد تلبسه جنون قالت له: «ماالخطب يامولاي؟ ماالذي أزعجك»؟، وعلى ذلك أجاب: «لقد تعرضت إلى كثير من المخاطر لكن لم أضطرب قط مثلما حدث معي في المنام الذي رأيته»، وقص عليها تفاصيل منامه، فقالت له زوجته:

«لقد أزعجت مؤخراً القديس ألبان وأغضبته بشكل جدي، بتلويث كنيسته بالدم، وبنهب بلدته وتجريدها من بضائعها، والحاق الأضرار بالدير والرهبان بكثير من الطرق المضاعفة، وبناء عليه انهض وأسرع، وبادر على الفور إلى هناك، حتى قبل بزوغ الفجر، وتواضع بنفسك وتصالح مع ذلك الشهيد، وليكن ذلك على الفور سريعاً بقدر الامكان، خشية أن يحل بك انتقام يسحقك»، وبناء عليه ذهب فولكس في الصباح الباكر إلى سينت ألبان (لأنه كان قد أمضى الليل في ليوتون , Luiton) واستدعى راعي الدير إلى حضرته، وقام وهو جاث على ركبتيه، ويديه مقبوضتين، ودموعه منهمرة بمخاطبته قائلاً: «كن رحيماً بي يامولاي، لقد أذنبت بشكل جدي إلى الرب، وإلى شهيده القديس ألبان، وإليك، لكن كن رحيماً بي أنا المذنب، وبإذن منك سوف

أتحدث الآن إلى أعضاء المجمع الرهباني، وأطلب المسامحة منهم بحضورك، عن الذنوب التي اقترفتها»، ووافق راعي الدير على طلبه، وأعجب بالذئب الذي جاء متلطفاً ومتواضعاً مثل شاة، وبناء عليه جرى تجريد فولكس من ثيابه، وحمل بيده عصا تعرف عادة باسم Baleis, ودخل على مجمع الهيئة الرهبانية، يتبعه خدمه، ورجال مسلحين، كانوا مثله مجردين من ملابسهم، وبعدما اعترف بذنبه الذي اقترفه أثناء الحرب، وتلقى لصالحه عقوبات على جسده العاري من كل واحد من الرهبان، وبعدما ارتدى ملابسه مضى وجلس إلى جانب راعي الدير، وقال له بصوت مرتفع: « إنها زوجتي هي التي جعلتني أتصرف هكذا، بسبب منام قد شاهدته، ولكن إذا ماطالبت بإعادة الذي أخذته منكم، إنني لن أستجيب لطلبكم»، ولدى فراغه من هذا قام بالمغادرة، ورأى —على كل حال— راعي الدير والرهبان أنها منفعة عظيمة إذا ماأقلع منذ ذلك الحين وتوقف عن إيذائهم، لأنه في ذلك الوقت، عُدّ كل من لم يكن سيئاً تماماً، جيداً، وذلك حسبما قرأنا قول استاروث Astaroth: «عندما يتوقف رجل ظالم عن الأذى يعدّ نافعاً»، وكذلك وفقاً لقول الرسول: «الزوج الكافر يجري حفظه من قبل الزوجة المخلصة».

حول البارلمان الكبير الذي عقد في لندن

ومع اقتراب حلول عيد القديس ادوارد (الذي اعتاد الملك على الاحتفال به مع رفقة كبيرة واكرام كبير) اجتمع تقريباً جميع أساقفة انكلترا، حيث جرت دعوتهم للاجتماع بموجب مذكرة ملكية، وكان في الحقيقة جميع الأساقفة موجودين هناك، باستثناء: أسقف شيستر، الذي كان مريضاً صحياً، ورئيس أساقفة كانتربري وأسقف هيرفورد، اللذان كانا آنذاك في القارة، ورئيس أساقفة يورك، الذي كان غائباً لسبب ما غير معروف لنا، مالم يكن موجوداً آنذاك يعيش في منطقة نائية.

وعندما اجتمعوا كلهم، ذكرهم الملك ولفت انتباهم إلى الولاية البابوية، التي كانت هدفاً للكراهية والازدراء من قبل جميع الذين حرصوا على رفع شأن المملكة مع مصالحها، وكانت مقاصد الولاية البابوية، أن البابا بموجب فضيلة السلطة الممنوحة له من الرب، قد أعطى لمدة ثلاثة أعوام، جميع عشور المملكة، أي أن تقول موارد الكنيسة الانكليزية كلها، لتأمين الضروريات من أجل حج الملك، مضيفاً العبارات العظيمة العدوانية التالية: «ليس حسب الإحصاء الماضي للكنائس، بل حسب تقدير جديد، يتم عمله إثر تدقيق وبحث شامل، وذلك وفقاً لإرادة وقضاء الوكلاء الملكيين واستخراجاتهم، وكان هؤلاء بدهائهم الكبير في المقام الأول يعملون في سبيل منافعهم وبعد ذلك من أجل منافع الملك، ملحقين بذلك ضرراً لايقاس بالكنيسة، ومنزلين إياها إلى درجة العبودية الدائمة.

وتقدم وكلاء الملك ورسله، مع حجج ماكرة، باقتراح إلى الأساقفة المجتمعين، بأن عليهم الموافقة على هذه المساهمة الكبيرة، وبمكر يشبه مكر الثعلب سألوا بأن يجري دفع المال لمدة عامين وفقاً لولاية البابا، وأن المال من أجل السنة الثالثة —مع أنه لم يرد ذكره في الولاية البابوية— يتوجب تجهيزه قبل أن يبدأ الملك بحجه، وبناء عليه فإن جميع مبلغ المال الذي سوف يجري جمعه وفقاً للطريقة المذكورة أعلاه، أو نصفه على الأقل، ينبغي منحه حراً ودونما شرط إليه، عندما سيكون على وشك الشروع بحجه، لأنه —كما قالوا— سوف ينطلق على الفور برحلته، ولدى سماع هذا الاقتراح، اعترت الدهشة أسقف لنكولن الذي كان بين الآخرين، وعجب من مثل هذا الكلام المسموم، والذي قصد منه الإطاحة بالكنيسة، فأجاب بغضب شديد: «باسم مولاتنا، ماهذا؟، أنتم تتصرفون على أساس امتياز، هو لم يمنح إليكم، فهل تفترضون أننا سنوافق على هذا الاسهام الملعون؟ لاسمح الرب بأن

نقوم بالجثي على ركبنا أمام بعل»، وإثر هذه الإجابة، قال الأسقف المنتخب لوينكستر: «ياأبانا كيف سنكون قادرين على معارضة إرادة البابا والملك؟ فالأول يقوم بدفعنا، ويقوم الثاني بجذبنا، وفي حالة مماثلة وافق الفرنسيون على مساهمة مماثلة، لمساعدة ملكهم، عندما كان على وشك القيام بحجه، وهم أكثر قوة مما نحن عليه، وبالعادة ميالين أكثر للمقاومة، أما بالنسبة لنا، ماهي وسائل المقاومة التي نمتلكها»؟ وعلى هذا أجاب أسقف لنكولن قائلاً: «إنه للسبب نفسه الذي من أجله أسهم الفرنسيون، يتوجب علينا معارضة هذه الضريبة، لأن أي شيء عمل مرتين صار عرفاً، وبالاضافة إلى هذا، نحن رأينا بوضوح مثل وضوح النهار، النتيجة التي وصلت إليها عملية طغيان الملك الفرنسي في جباية المال واستخراجه، علينا أن نتعلم من الأمثلة الماضية، وبناء عليه لاتدعونا نحن أو الملك ننال غضب الرب الحاد، وبالنسبة إليّ، إنني أقول دون تردد، إنني أعارض هذا الاسهام المؤذي»، ووافق على هذا القرار برغبة وبدون تردد أساقفة: لندن، وشيستر، وووركستر، والأسقف المنتخب لوينكستر، وجميع الآخرين تقريباً، وكان أسقف سالسبري متقلباً برأيه، وقد أضاف أسقف لنكولن إلى ماتقدم قائلاً: «دعونا نلتمس من الملك أن يكون لديه تقدير لخلاص روحه، وأن يلجم الرغبات العنيفة والطائشة».

كيف جرت تهدئة غضب ملك إنكلترا من قبل رجال بلاطه

جرت رواية جميع هذه الوقائع بصدق إلى الملك، الأمر الذي أثار غضبه الشديد، ولأنه لم يستطع ضبط غضبه، طرد جميع الذين كانوا في غرفته، وأبعدهم عنه مثل رجل مجنون، وبعد لأي تمكن رجال بلاطه المقربون منه من تهدئة غضبه، فأرسل رسالة إلى الأساقفة يلتمس منهم أن يزودوه من قبل أنفسهم، وبناء على إرادتهم بالمساعدة المالية المناسبة، ليس على أساس النظر إليه على أنه مولاهم وسيدهم، بل عدّه بمثابة

واحد يطالب بالمساعدة بناء على فضيلة الأمر البابوي، وتقديره رجلاً متضرعاً، على وشك القيام بالحج إلى الأرض المقدسة، في سبيل كرامة الكنيسة المسكونية، ولكي يقاتل هناك من أجل يسوع المسيح.

كيف أجاب الأساقفة بالاستجابة لطلب الملك

وعندما حملت هذه الرسالة إلى الأساقفة، أصبحوا أكثر هدوءاً، وأجابوا قائلين: «نحن بلا شك نعتقد أن البابا لو كان حقاً على دراية بالأضرار، وبالمظالم، وبالاستخراجات، التي أثقلت بها الكنيسة الانكليزية وبها ضغط عليها بشدة، فإن الملك ما كان مطلقاً سيحصل على هذا الترخيص من بلاط روما، وإذا ما قمنا باعلام البابا بهذه المسائل بشكل كامل، مما لاشك فيه هو سوف يلغي قراره هذا، ولاعجب إذا كان قد غرر به بخنق الصدق واسكاته وبأقوال زائفة، لأن الملك قد أفقر مملكته بكثير من الطرق، فهو حيناً قام بتوسيع غابته، وحيناً آخر عن طريق جولات رجال عدالته، ومرة ثالثة بإدخال اجراءات قضائية جديدة، وهكذا بمختلف الأساليب الأخرى والطرائق، وعندما تجف المملكة، سيتبع ذلك بالضرورة تعرض الكنيسة للفقر، وتحولها إلى حالة العوز، ثم ماالذي يمكن أن نقوله بشأن الأساقفة الذين أقحمهم الملك في الكنائس الفخمة؟ وكيف قام بشكل مأساوي بونيفيس رئيس الأساقفة الأخير لكانتربري، فاستخرج ثروات منطقته وابتزها، مدعياً بأنه متورط بكثير جداً من الديون، إلى حد أنه لايستطيع التنفس بحرية، ومن دون مساعدة الكنيسة الانكليزية كلها؟ كما أن الملك —لو سمح لنا بذكر مثل هذه الأشياء— لم يتمنع حتى الآن، عن تجريد مملكته، والكنيسة من المال، ومن الامتيازات التي تمتعت بها منذ زمن طويل، وذلك يومياً بمختلف الحجج التي لاتحصى، ومخالفة ليمينه الرئيسي، وعلاوة على ذلك من المعتقد، والمقرر بموجب حقائق واضحة، بأنه قد حمل الآن شارة الصليب ليس إلاّ لسبب واحد،

هو أن يتمكن بهذه الطريقة الجديدة، وبهذا الإدعاء من الاستيلاء على البقية الصغيرة من الثروة التي بقيت الآن في انكلترا، وبذلك قام بتحويل انكلترا الحلوة، والمملكة الغنية إلى وضع الجفاف والقحط، أو أنه سيجرد السكان الذين ولدوا في هذه المملكة وفيها نشأوا مما لديهم ويفقرهم، ومن ثم يحل محلهم أجانب يعطيهم أماكنهم وممتلكاتهم، أولم يقم منذ زمن طويل مضى، في شبابه، عندما جرى تحت الطالع السعيد جعله ملكاً، بوضع صليب الملك جون على كتفيه، نعني بذلك والده الذي حمل شارة الصليب في الوقت نفسه؟، وبناء عليه، ينبغي الخوف من أن يكون هذا الملك متبعاً لخطوات والده، وقد حمل هذه الشارة وفق الطريقة نفسها، ومع النية نفسها، مثلما فعل والده، أي من أجل ظلم رعاياه الطبيعيين المخلصين والدوس عليهم بقدميه، لاسمح الرب بذلك، ومع ذلك، من دون التقيد بأفعاله حتى الآن، ودون التقيد بأمر أنه قد ظلم الكنيسة الانكليزية وآذاها وفعل الشيء نفسه بمملكة انكلترا، سوف نمنحه الذي طلبه منا، وسوف نتجاوب، بقدر مانمتلك من قوة، مع طلبه، إذا كان —حسبما ماوعد به غالباً— لن يقوم من الآن فصاعداً بخرق صك امتيازاتنا، التي غالباً ما منحت إلينا وغالباً ما أقسم على مراعاتها والتقيد بها، وأن يمنحنا أيضاً صكاً آخر، يتعهد به، أنه لن يقوم في وقت آخر، اعتماداً على هذه السابقة بمنحه الآن هذا المعروف، فيطالب بأن تكون الكنيسة الانكليزية خاضعة لمثل هذه الاسهامات اللعينة والاستخراجات، ونحن نطالب أيضاً، بأن يجري جمع المال الذي يطالب الملك أن نمنحه إياه، بعناية وبأمانة، وأن يوضع جانباً في سبيل المصلحة، بحذر وحيطة أكثر مما هو معتاد، وحسبما سيظهر موائماً لرعيته المخلصين، في سبيل منفعة الملك، عندما يشرع بالذهاب إلى الأرض المقدسة، فوفقاً لهذه الشروط سوف يجري منح المال إلى الملك وتزويده به».

وقـد أضيفت هـذه الشروط، بسبب أن جميع المبـالـغ الماليـة، التي استخرجها الملك مـن الانكليز، قد جرى توزيعها من قبلـه بطريقة فيها طغيـان وأذى، وجـاءت لمنفعـة أعـدائـه، ولإلحاق الأذى بالمملكة، والإضرار برعـاياه التـابعين له، وفعل ذلك مثل قيـام إنسـان بإرادته، بتوزيع أسلحته بين أعدائـه، في سبيل إيذائه وتدميره، وجرى إعداد هذه الشروط المفيدة من قبل الأساقفـة، أبناء السلام، لتكون معلومة من قبل الملك ولصالحه.

كيف أصر الملك على نواياه ومقاصده

وعندمـا جـرى إعـلام الملك بهذه المقـررات التـي اتخذت من قبل الأسـاقفة، وحملت إليـه لإعـلامه بها، من قبل أسقف سـالسبري، ازداد غضبـه اشتعـالاً، وبأنف توسعت فتحتـاه، أقسم أيماناً مـرعبـة، أنه لن يخضع مطلقـاً مادام حيـاً، لمثل هذه الحالة من العبـودية، وبهذه الطريقـة سـار على خطى والده وعلى طريقـه نفسـه، وبعث ثانيـة إلى الأسـاقفـة يسألهم عما إذا كانوا سيقـدمون إليه جواباً بطريقة أخـرى ما من الطرق، غير هذا الهراء والمراوغـة، ولكي لايظهـر الأسـاقفـة بأنهم وقحين عن طريق إرسال رفض صريح جواباً على طلب الملك، أعادوا إليه الجواب، بأنهم لن يتمكنوا مـن التـداول حـول الموضـوع كما ينبغي، ولايمكنهم إعطاء جـواب كـامل وقـرار نهائي، من دون حضـور رئيس أسـاقفـة كانتربري وموافقتـه، بحكم أنه المعترف به الأول بينهم في بريطانيا، وهو الأعلى مقـامـاً بين جميع الأسـاقفة، أو مـن دون موافقـة رئيس أسـاقفـة يورك، ثم الحصـول على الرأي الحكيم الصـادر عنه،لأنه هو الذي إذا لم يكن الرئيـس الأول، إنه واحـد من رؤسـاء الرجـال في المملكة، هذا ومعلوم أن الأول بينهما موجـود في القارة، وكان الثـاني يعيش في منطقة بعيدة، وقد منع من الحضور، لسبب غير معروف.

كيف وزع الملك الموارد الشاغرة بين أشخاص غير جديرين

واستمر الملك —على كل حال— في اسرافه المعتاد، وتصرف وكأنه يريد الانتقام لمعارضة الأساقفة له، ولذلك تابع منح الأبرشيات الشاغرة والموارد وتوزيعها بين أشخاص غير معروفين، وسفهاء، وأجانب لايستحقون، في سبيل إنزال جرح لايمكن شفاؤه على رؤوس رعاياه الطبيعيين، ودون أن نذكر كل قضية، إننا نعتقد أنه من الموائم والصحيح أن نذكر في هذا المجلد القضية التالية، وهي قضية بين كثير من القضايا: كان في خدمة غيوفري دي لوزنغنان، أخوالملك [لأمه] أحد الشامسة، الذي عمل بمثابة أحمق ومهرج للملك، ولأخيه غيوفري مولاه المذكور، وإلى جميع البلاط، وكانت أقواله مثل أقوال أصحاب الحركات السخيفة، وحملة العصي، قد أسهمت في تسليتهم، وفي إثارة ضحكهم، وقد أنعم الملك على هذا الرجل بكنيسة بريستون Preston الغنية، وكانت هذه الكنيسة عائدة من قبل إلى وليم هافرهل Haverhull, الذي توفي مؤخراً، حيث كان خازن الملك، وكان دخل هذه الكنيسة السنوي، قد وصل فيما مضى إلى أكثر من مائة باوند، وكان هذا الشماس نفسه من أصل بواتي Poitevin, وكان جاهلاً تماماً، في علمه وفي أخلاقه، وقد رأيناه يرشق الملك، مع أخيه غيوفري ونبلاء آخرين، أثناء سيره في حديقة كنيسة القديس ألبان، بقطع الأعشاب، والحجارة، والتفاح الأخضر، ويعصر العنب غير الناضج في أعينهم، مثل واحد كان خالياً من العقل، وكان خسيساً جديراً بالازدراء في حركاته، وفي طريقة كلامه، وفي عاداته، وكذلك بحجمه وبمظهره الشخصي، وكان هذا الشخص جديراً بأن يكون ممثلاً على المسرح لا أن يكون كاهناً حسب احترافه، مما ألحق إهانة كبيرة بالطائفة الكهنوتية، فمثل هذا وعلى شاكلته كان الأشخاص الذين عهد إليهم ملك انكلترا بالعناية والوصاية على آلاف كثيرة من النفوس،

رافضاً أعداداً كبيرة جداً من المتعلمين، والحكماء، والرجال الموائمين، الرجال الذين ولدتهم انكلترا، والذين عرفوا لغة السكان المحليين، وعرفوا كيفية توجيه الجهلة، وبطريقة مماثلة أيضاً، ولكي يثير غضب الناس الصالحين وكراهيتهم، تصرف الملك بناء على نصائح سيئة، فأعطى، أو بالحري بعثر المنافع الأخرى للكنيسة والتي كانت عائدة إلى وليم المتقدم ذكره، ووزعها بين أناس غير جديرين وأجانب، وهؤلاء قد وضحت عدم كفاءتهم وانعدام الفائدة منهم بتصرفاتهم غير الاعتيادية والشاذة، والذين تبرهن بشكلٍ واضح أنهم فاسدين بأقوالهم، التي لم تكن سخيفة فقط، بل حمقاء أيضاً وفاحشة، وجاء استطرادنا هذا وابتعادنا عن سياق روايتنا، لأن أسفنا قد أثير لتلك الأسباب.

سير الملك بالتسلسل في هذه القضية

وأصبح الملك مصاباً بعاهة الشره الكبير، وبالتعطش العظيم للمال، فقد عاد الآن إلى مكره المعتاد وخداعه، وأبدع في ذهنه خطة أن يخضع لإرادته، واحداً إثر آخر، من أولئك الذين لم يستطع تحطيمهم وهم متحدين، وبناء عليه، عندما ارفض المؤتمر المتقدم ذكره أعلاه، وقبل أن يغادر الأساقفة لندن، استدعى إليه أسقف إيلاي، إلى مقابلة خاصة معه، ولدى وصول ذلك الأسقف، نهض إلى استقباله بكل تقدير واحترام، وبعدما طلب منه الجلوس إلى جانبه شخصياً، خاطبه بتواضع وبملامح هادئة قائلاً مايلي: «عزيزي مولاي الأسقف، سوف يكون من الصعب عليّ أن أذكر جميع ألطافكم، وكرمكم، وخدماتكم التي غالباً ما جربتها، وتلقيتها على أيديكم، فأنت الذي قمت عن طواعية من نفسك، فتعذبت وعانيت من شقاء السفر إلى بروفانس، على حسابك الخاص، لإحضار زوجتي إلي، وعلاوة على ذلك، عندما كنت على وشك الانطلاق إلى القارة، قمت مرة تلو أخرى دون أن تمل من مطالبي، فزودتني بمساعدة فعالة، ومااللذي يمكنني قوله أكثر من هذا؟

ثم مامن مرة احتجت فيها أنا إلى المساعدة، إلاّ وقمت بتقديمها أو على الأقل وقفت إلى جانب مطلبي بنوايا طيبة جاهزة، هذا وإنني الآن أحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى اختبار لطفك المعتاد، وجودك، لأنك كما تعلم أيها الأب المقدس، أنني قد وضعت صليب الرب على كتفيّ، لأحمله بنبل إلى الأرض المقدسة، في سبيل تشريف الكنيسة المسكونية، ومن أجل ازدهار هذه المملكة، وبالنسبة لهذا الحج، إن رغبتي الخاصة، ورجائي إليك، أن تكون وأنت من رعيتي المخلصين والنافعين لي، شريكاً مساهماً، وبناء عليه إنني ألتمس بكل إلحاح ممكن، أن تساعدني في هذه الحالة الضاغطة من العوز، والتي تتطلب نفقات ثقيلة، حتى تكون مثلاً صالحاً إلى الآخرين، وأن لاتولي أدنى اهتمام إلى تراخيهم في هذه القضية، وعندما تتهيأ الفرصة، سوف أرد هذا المعروف إليك بمنافع أكثر وفرة».

وأمام هذا الكلام المخادع، وقف الأسقف صامدا أمام الإغراء، وقد ردّ عليه كما يلي (بلطف، وبالأخذ بالصمت تجاه الأذى الذي لحقه من استبدال سوق القديس ايثلرد Ethelred واقامة بدلا عنه سوق القديس ادوارد في ويستمنستر): «مولاي، إنني إذا كنت في أي وقت من الأوقات قد أديت خدمة لك، فأنا مسرور لذلك كثيرا، لكن جلالتك يعلم أنني لن أقوم، كما أنه لايمكنني بأي حال من الأحوال، أن أبعد نفسي، أو التخلي عن البنود التي عملت والقرار الذي أجمع الكل عليه صادقين، أي من قبل الجماعة كلها، لأنني إذا مافعلت ذلك سوف يكون عملاً مخلاً بالكرامة من قبلي، وإذا ما قمنا نحن الأساقفة بالإذعان إلى قرارك غير المحدود، سوف تتعرض الكنيسة للفقر، كما سيتعرض للأذى تعهدك ويمينك، وسوف نخضع إلى ضريبة دائمة، وإلى عبودية مستمرة، ويمكنك إذا تفضلت، أن تعيد إلى ذاكرتك، كم كان عدد القديسين كبيراً، الذين خضعوا للعقوبة والنفي، والذين عدّوا

بشكل رائع ومجيد كشهداء في سبيل حرية الكنيسة المقدسة، فهل أنا بحاجة إلى ذكر ذلك الشهيد المجيد، توماس المبارك؟ أو لذكر خليفته القديس ادموند، المعاصر لنا؟ وهناك فيض من الأمثلة واضحة أمامك، كلها تميل بشكل واضح إلى نقدك ولومك، والذي عليك هو أن تكون حذراً ومتنبها إلى الذي حصل إلى الملك الفرنسي، وهو المثل الذي أشع واضحاً كالمرآة لك من قبل الرب، لأنه وزع المال الذي استخرجه من مملكته بين أعدائه، من أجل فديته، وبهذا المال أصبح أعداؤنا من المسلمين أغنياء، وبذلك فإن الذين يطاردوننا سوف يكونون أسرع، والذين يكرهون مجدنا، سوف بذلك المال يكونون القاهرين لنا، لابل إنهم الآن يعيشون في بهجة، لأنهم أصبحوا أغنياء بمالنا وبسلاحنا، ومهما حدث من الآن فصاعداً إلى هذا الملك المذكور، إنه قد نال عاراً لايمحى في الماضي، ففي الحقيقة أصبح ذلك الأعظم نبالة بين المسيحيين، فريسة بيد المسلمين، ومن المؤسف القول انه بسبب ذلك تخلى كثيرون عن العقيدة وارتدوا، وهذا كله من الأمور يعزى إلى نظام السرقة المتقدم ذكره».

رفض الملك الإصغاء إلى المنطق

ولدى سماعه لهذا الكلام، كان الملك مثل واحد أصيب بجرح عميق، ولم يصغ إلى ما أملاه العقل، ودعا بصوت مرتفع خدمه قائلاً: «اطردوا هذا العجوز الهرم، وأغلقوا البابا دونه، ولاتدعوه يظهر أمامي ثانية، بما أنه رفض أيضاً أن يقدم لي المواساة والعون»، وهكذا فإن هذا الأسقف، الذي استقبل بلياقة لدى دعوته، غادر وهو مغطى بالملامات والاهانات، ووفق الطريقة نفسها سعى الملك إلى اضعاف ثبات بعض الآخرين، الذين بعث خلفهم بشكل سري، ومع أن اجاباتهم لم تكن من دون وزن، فإننا سوف نتجاوزها من أجل الاختصار، وقد بذل بهذه الطريقة البارعة قصارى جهده لتطويع عقول الأساقفة لإرادته، من

أجل أن يرغم النبلاء على الموافقة على هذا الاسهام، لأن اصرارهم اعتمد على اصرار الأساقفة.

ثبات كهنة وينكستر

وفي ذلك الوقت أيضاً، قدم الأسقف المنتخب لوينكستر إلى عند أخيه الملك، ليطلب منه الاذن بالعودة إلى وطنه، وليقول له وداعاً، لكن الملك لم يخاطبه بملامح هادئة كما ينبغي أن يفعل، كما أنه لم ينهض من كرسيه، كما كان يفعل نحو إخوته القادمين إليه، ثم إن هذا الأسقف خاطبه كما يلي قائلاً: «يبدو لي يامولاي، أن المؤتمر قد ارفض، وبت عارفاً بالقرار الثابت للأساقفة، حيث أعتقد أنك أخبرت به، وأنا الآن على استعداد —إذا سمحت— للعودة إلى الوطن، أسرع مما كنت متوقعاً لأن الإقامة الأطول في هذه المدينة لن تكون موافقة لي، وبناء عليه، أعهد بك إلى الرب»، فأجابه الملك: «وأنا أعهد بك إلى الشيطان، فقد كان يتوجب عليك الوقوف إلى جانبي، حتى لو كان العالم كله واقفاً ضدي، فأنت أخي لأمي، وأنا الذي رقيتك لتكون الذي أنت عليه، ولذلك نلت عدم رضا الرب، وقديسيه، وعدم موافقة الذين يعود إليهم حق الانتخاب، ورفعتك إلى أعلى المراتب وأسمى الأماكن، حتى أنك الآن الأول في انكلترا بالنسبة للثروة»، وأجابه الأسقف المنتخب على كلامه التوبيخي قائلاً: «مولاي إنني شاب بعدد سنوات العمر، لكن هل تريد، لأنك عملت مني الذي أنا عليه، أن أتصرف مثل طفل؟ لاسمح الرب بأن أنسحب من قرار تلك الجماعة التي تحب الرب، وتقدر كرامتك»، وبهذا غادر غاضباً.

كيف دفع سكان لندن عشرين ماركاً إلى الملك

وفي هذه الآونة، استخرج الملك بوساطة التماسات ملكية، عشرين ماركاً ذهبياً من سكان لندن (الذين توجب وفقاً لفحوى صكوك

حقـوقهم، وللأعراف القـديمـة، أن يتمتعوا بالقـدر الأكبر من الحرية) وكأنهم كانوا الطائفـة الأدنى من العبيد، لابل بالحقيقة ظهـر وكأنهم قد نظر إليهم بالمنطق نفسه، أو ربما أقل قدرا من مكانة عرق العبيد اليهود.

فرض ضريبة عبودية أخرى على اللندنيين

وعـــلاوة على ذلـك، أرغم الملك سكـان لندن، بـإرادتهم أو بدون رغبتهم، على إغــلاق نوافــذ حـوانيتهـم في مـدينة لنـدن، من أجل أن يحضروا السوق الذي أقامـه في ويستمنستر أيام عيد القديس ادوارد، مما ألحق الأذى بسـوق ايلاي، والذي استمر لمدة خمسـة عشر يومـاً، وذلك دون التقيد بالأحوال الشتوية للأنواء، وبـالوسخ، والمطر، وعدم مواءمة المكان، ولقـد أرغمـوا على الوقـوف في خيمهم، وذلك بناء على أوامـر الملك، الذي خشي من أن لايقـوموا جميعـاً بعرض بضـائعهم للبيع، مع أنهم لم يواجهوا مشترين.

حول معاناتهم من الأنواء القاسية

وبناء عليه، تغلب عليهم جميعـاً الوصب، وشمل ذلك الذين جاءوا إلى السوق، والذين سكنوا هناك، لأنه خـلال ذلك الوقت كله، كانت هنالك حشـود كبيرة من أنحـاء المملكة أتت مسـافـرة إلى هناك، وأقـامت بعض الوقت ثم عادت، وقـد أمطرت في تلك الأثناء إلى درجة كبيرة، حتى أنهم تبللوا جميعـــاً مــن المطر، وغطاهم الطين، كما أنهم أنهكوا أثنـاء سفــرهم، حيث وجدوا المخاضات لايمكن عبورهـا إلاّ بصعوبة بالغة، والجسور قد زالت، والطرقـات غير مـوائمة للسفـر عليهـا، وذلك مع أوسـاخ المدينة، وانعدام المؤن والحاجـات الضرورية الأخرى، وكان كل شيء قليـلاً وغالي الثمن، وعلى هذا تورطوا جميعـاً بمتـاعب لاحدود لها، وعـلاوة على ذلك كانت هنالك جماهير عديدة وكثيرة من الأشخـاص الذين قدموا إلى لندن، وأقاموا فيهـا، وبلغ ذلك حداً، أن سكان المدينة قد أعلنوا —حتى المسنين

بينهم— أنهم لم يشاهدوا من قبل قط مثل هذه الحشود الهائلة، وخلال ذلك الوقت كله تزايدت مشاعر الغضب وارتفعت ومعها الكراهية ضد البابا والملك، اللذان آثرا الطغيان وتعاونا مع بعضهما في سبيل ذلك، ولأنهم كانوا منزعجين كثيراً، فقد أطلقوا عليهما اسم «المزعجين لبني البشر»، وبذلك تحقق قول الرسول: «إنه مالم يحدث الانفصال سوف يظهر ابن الظلم»، ذلك أن الذي ظهر حتى الآن هو أن الشقاق بات قريباً، مع استيقاظ مشاعر عالمية للسخط وعدم الرضا المطلق، إن لم يكن بالأجساد، فعلى الأقل في القلوب (وكان هذا شراً أشد وأقسى) ضد كنيسة روما، والشعاع الضعيف الذي بقي من التقوى قد انطفأ.

مقالة حول شؤون غسكوني

وقام الملك في الوقت نفسه، حتى لايظهر بأن بعض النبلاء قد جرى جمعهم مع بعضهم من دون غرض، فعرض للمناقشة الخاصة، قضية الذي يتوجب عمله بالنسبة لشؤون مقاطعة غسكوني، التي ظهر بأن ايرل ليستر، قد بعث الفوضى فيها إلى درجة عالية، مما ألحق الضرر الكبير به، أما فيما يتعلق بالايرل نفسه، فقد انتشرت اشاعة في كل مكان في الخارج، تقول إنه بعدما حصل على النصر المجيد على الأعداء لنفسه وللملك، حسبما تقدم ذكر ذلك أعلاه، حمل نفسه وذهب من دون حذر إلى القلعة التي اسمها مونتوبان Montauban, التي وإن بدت أنها لاترام، كانت مهجورة وليس فيها عساكر للدفاع عنها، كما لم يكن فيها جميع أنواع المؤن، وهنا —كما قيل— جرى حصاره فجأة من قبل أعدائه الاقليميين، وبصعوبة بالغة جرى انقاذه بوساطة مساعدة بعض أتباعه المخلصين، الذين خاطروا بحياتهم لانقاذه، وعلاوة على ذلك أعاد إلى الذين تولوا حصاره، بعض الأسرى الذين وقعوا مؤخراً بين يديه في كمائنه، وفضلاً عن هذا كله، كان الملك غاضباً، لأنه رغب شخصياً بعبور البحر حتى يتولى تهدئة تلك المنطقة المضطربة التعيسة،

وقد بعث محاسبه بطرس تشيسبور Chacepore, ليطلب الاذن من الملكة بلانشي، حتى يرتحل بسلام ويسافر خلال فرنسا، وكان مثل هذا الطلب الأحمق يقابل دوماً برفض مطلق، وهو لم يتجرأ على الركوب بالسفينة ليسافر إلى هناك عبر الماء، بسبب مخاطر البحر، التي كان قد عانى منها، لاسيما وأن حلول الشتاء بات قريباً، ومعه التهديد بازدياد العواصف، وفي الوقت الذي كان فيه الجميع يتناقشون حول القرار الذي ينبغي اتخاذه حول هذه المسائل، جدد الملك في نهاية خطابه، بروح عالية، المطلب الملح بتقديم المساعدة المالية والعسكرية إليه شخصياً، لأنه كان على وشك الاقلاع للحج، وليقاتل في سبيل المسيح من أجل السلامة العامة، وعلى هذا المطلب أجابوه بالاجماع، بأن جوابهم يعتمد على جواب الأساقفة، وأنهم سوف لن يخالفوا القرار الذي سوف يتخذونه، أو يتخلون عنه، ونظر أحدهم نحو الآخر وتهامسوا فيما بينهم قائلين: «أي أمل يمكن تحقيقه من خلال هذا الملك الصغير، وماالذي يمكن توقعه منه، وهو الذي لم يتعلم قط ممارسة الفروسية، والذي لم يركب قط على ظهر حصان، ولم يشهر سيفاً في حياته، ولم يهز رمحاً، ولم يرفع ترساً في معركة، فهل ياترى يمكنه أن ينتصر، حيث جرى أسر الملك الفرنسي، وحيث سقطت فروسية فرنسا وتدمرت؟ أو أية مشاعر طائشة التي يشعر بها بأنه سوف يتمكن من استرداد الاستحواذ على مناطقه في القارة بالقوة، وهي المناطق التي لم يستطع الاحتفاظ بها عندما كانت تحت حكمه»؟ ومع هذه الانتقادات، ومع إعلانهم أنه قد ولد فقط لغرض استخراج المال، عادوا ساخطين إلى مواطنهم، مع محافظ نقوذ فارغة، وديون متعاظمة.

ارفضاض المؤتمر وغضب الملك مع الآخرين

ثم إن المؤتمر ارفض، وسط غضب الملك، ورجال الدين، والنبلاء، وخزن الملك غضبه وكراهيته في قلبه، معتقداً أن جميع الذي عمل وقيل

مصدره الحقد والكراهية، وبناء عليه اعتقد أنهم أعطوه سبباً للعمل بشكل سيء ضدهم وشرير بدوره، وعلى هذا الأساس أصبح عنيداً وشديد الإصرار على تنفيذ خططه التي أبدعها بطريقة ملتوية عندما تتهيأ الفرصة.

كلام كونتسة آرونديل

وفي تلك الآونة أيضاً، عندما كان الملك مايزال مقيماً في لندن، أتت إليه إلى هناك، إلى غرفته الخاصة ايزابيلا كونتسة آرونديل Arundel, أرملة هـ . H, ايرل آرونديل، وكانت من أقرباء الملك لتطالب بحقوقها في قضية متعلقة بوصاية عائدة إليها، وبدا الملك أولاً هادىء المظهر، لكنه بعد ذلك قرعها بكلمات قاسية، ولم يرض بالاصغاء إلى أي من مطالب الكونتسة أو التجاوب معها، لأنه ادعى لنفسه المسؤولية عن الوصاية المذكورة، وبناء عليه قامت الكونتسة، مع أنها كانت امرأة بالرد عليه غير هيابة، وتخطت كونها امرأة فقالت: «لماذا يامولاي الملك تشيح بوجهك عن العدالة؟ حيث لايستطيع الإنسان الحصول على ماهو عدل وحق في بلاطك، فأنت قد جرى تعيينك بمثابة وسيط بين الرب وبيننا، وأنت لاتحكم بشكل صالح لانفسك ولالأنفسنا، كما أنك لاتخشى من إثارة الاضطراب والأذى للكنيسة في كثير من الطرق، وهذا ماقد تبرهن ليس الآن فقط، لكن غالباً ماتبرهن مراراً في الماضي أيضاً، وعلاوة على ذلك إنك تقوم من دون خوف أو حياء بظلم نبلاء المملكة بطرق متنوعة»، ولدى سماع الملك هذا الكلام ضحك باستهزاء، وبعدما لعب بفتحتي أنفه، قال بصوت مرتفع: «ماهذا ياسيدتي الكونتسة؟ هل اتفق معك نبلاء انكلترا وأعطوك تفويضاً لتكوني المرأة المتكلمة بلسانهم والمحامية لهم، بحكم أنك فصيحة؟»، وعلى هذا ردت الكونتسة —مع أنها كانت امرأة شابة— بطريقة ترفع من مقام الإنسان الأكثر نضوجاً بالعمر قائلة: «ولابشكل من الأشكال يامولاي أعطاني نبلاء مملكتك تفويضاً، لكن أنت الذي أعطيتني تلك الرخصة، فهي التي منحتني

والدك إياها، وأنت وافقت عليهـا، وأقسمت على رعـايتهـا بإخـلاص، والحفاظ عليها غير مخروقة، ولقـد قمت مراراً كثيرة باستخراج المال من رعيتك، في حين قد وعدت بالحفاظ على حقوقهم وامتيازاتهم، غير أنك برهنت دوماً عن نفسك بأنك ناقض للميثاق بدون حياء، ومعتدي على هذه الامتيـازات، وبذلك برهنت بوضـوح على أنك حـانث بيمينك وخافر لذمتك، فأين هي امتيازات انكلترا، التي غـالباً مامنحت، وغالباً مادونـت كتابة، وغالبـاً ماجـرى انقاذها؟ وإنني وإن كنت امـرأة، وكلنا نحن الذين رعـايا طبيعيين ومخلصين، نترافع بالدعـوى ضدك، ونتقـدم بالشكوى عليك أمام قضـاء الحكم العدل المخيف للجميع، والسماوات والأرضين سوف تكـون شهودنا، بما أنك تعـاملنا بالظلم، مع أننا أبرياء من اقتراف أية جـريمـة ضـدك، وأرجـو أن يقـوم المولى إلـه الانتقـام بالانتقـام لنا»، وأمـام هذا الكلام استحى الملـك وصمت، لأنه علم بما أمـلاه عليه ضميره، بـأن الكونتسة لم تبتعـد عن طريق الحق والصـدق، وبعـد لأي قال: «هل إنك لاتطالبين بـإسداء هذا المعـروف إليك لأنك امـرأة قـريبـة لي؟»، وعلى هذا ردت قـائلة: «بما أنك تنكـر علي مـاهي مطالب عـادلة، كيف يمكن أن آمل أنك ستسـدي إليّ معروفـاً بناء على طلبي؟ غير أنني أتضرع بالشكوى أيضـاً أمـام وجـه المسيح ضـد الذين هم مستشاريك، الذين أضلوك، وأزاغوك، وحادوا بك عن طرق الحق، لأنهم مهتمـون بتشـوق بمنافعهم فقط»، وبعـدمـا أصغى الملك إلى هذا التقـريـع الأديب وهذا الكلام الـلائق، لزم الملك الصمـت، وعـادت الكونتسة إلى منزلها مـن دون الحصول على الاذن، لابل بالحري دون أن تطلب ذلك، وذلك بعـدما عـانت من كثير من المتـاعب ودفعت الكثير من النفقات من دون فائـدة، واستمر الملك —على كل حال— لايمكن تقـويمـه، وليس على استعـداد للاصغـاء إلى هؤلاء ولا إلى الآراء والمشاورات السليمة.

حول البحث في شؤون غسكوني

ثم قام الملك مرة ثانية بدعوة النبلاء للاجتماع مع بعضهم، وهم الذين —كما ذكرنا أعلاه— كانوا قد رفضوا طلباته الملحة وقاوموها، وشاورهم حول الذي ينبغي عمله بالنسبة لقضية غسكوني، وعلى طلبه أجابه النبلاء، أنه «إذا كان الايرل سيمون ايرل ليستر يسعى إلى اخضاع أولئك العصاة المتمردين ضد ملكهم، ينبغي أن لانعجب تجاه ذلك وأن لانتحب، خاصة وأن هؤلاء الغسكونيين مجموعة من الناس المنحطين، لأن مولاهم الملك عندما اتخذ ملجئاً بينهم بكل اطمئنان، خانوه، وأفقروه بعدد من الطرق المضاعفة، وبناء عليه عدت إلى الوطن مهاناً وفقيراً، مما سبب الأذى وألحق العار بجميع الانكليز، وعلاوة على ذلك إن كثيراً من هؤلاء الغسكونيين هم لصوص وقطاع طرق، يسلبون الحجاج والتجّار أثناء سفرهم، ويلتجئون إلى كهوف قطاع الطرق القدماء بين سلسلة جبال ايغريمونت Aigremont الوعرة والتي لايمكن الوصول إليها، والتي حصنوها بقلاع قوية، يضاف إلى هذا، لقد بقيت فقط سنين قليلة، هي مجرد ثلاث سنوات ونصف السنة للايرل، وذلك وفقاً لصك ولايتك، للاحتفاظ بحكومة تلك البلاد، ومجدداً نحن لم نتلق معلومات تتعلق بأوضاعها مؤخراً، لوجود مسافة واسعة من الأرض والماء بيننا وبينها، وبالتالي لايمكننا إعطاء جواب محدد حول قضايا غير مؤكدة بالنسبة لنا».

هذا ولم يكن الملك مسروراً لتقديمهم له تسويغاً وعذراً لأعمال الايرل، لأنه كان ينوي التعامل معه بقسوة أكبر، وأن ينظر إليه على أنه خائن، وأن يحكم عليه هكذا، وبالتالي يجري تجريده من أملاكه، ولم تكن هذه الخطة —على كل حال— سرية بالنسبة للايرل، مع أنه كان بعيداً، وعندما رويت إليه أخبار الإجراءات المتقدمة الذكر قال: «أنا أعرف تماماً أنه يريد تجريدي، ليغني بعض البروفانسيين أو البواتيين بايرليتي».

انتهاء المؤتمر

ولذلك ارفض المؤتمر، وبقي الملك ملتهباً بغضب عنيف ضد النبلاء، وكذلك ضد الأساقفة، وفكر بأن يستدعي إلى مساعدته نائباً بابوياً، يمكنه بفضل السلطات الرسولية أن يرغم رجال الدين على تقديم الاسهام إلى مطالبه، مع أنها سوف تكون ضريبة ثقيلة، ونوعاً من أنواع العبودية الجديدة ومسألة لاتحتمل بالنسبة للكنيسة، وهكذا هددت الشرور بمضاعفة الشرور وتكديسها فوق بعضها، وبذلك يكون قد جرى إغناء السماسرة، واليهود، وآخرين من مقرضي الأموال، وسوف يغادر الأساقفة والنبلاء، خاليي الوفاض، حزينين ومحتاجين.

حول المقابلة التي جرت بين مقدم الاسبتارية والملك

وفي هذه الآونة أيضاً، كان مقدم اسبتارية القدس، ينتظر في بيت الطائفة في كليركنول Clerkenwell ينتظر وقتاً مناسباً وهادئاً، وذلك منذ وصوله، من أجل الحصول على اجتماع مع الملك، وعندما جاء إليه تقدم إليه بشكوى، حول الأذى الذي لحق به، وعرض رسائل حمايته موقعة من قبل الملك الحالي، وكذلك من قبل سلفه من الملوك، وبما أن الملك قد غضب، خاطبه بصوت مرتفع، وقدم لجوابه بيمين، ثم أجابه قائلاً مايلي: «أنتم القساوسة والرهبان، وبشكل خاص الداوية والاسبتارية، لديكم كثيراً من الامتيازات والصكوك، وقد جعلكم تملككم الزائف والمسرف متجبرين، ومن التجبر انسقتم إلى الحماقة، وبناء عليه، يتوجب علينا، أن نلغي بشكل عقلاني، الذي منح إليكم بصورة لاعقلانية، وأن نسترد من عهدتكم، الذي وزع بموجب مشورة فاسدة»، ثم أضاف قائلاً: «أولم يقم البابا في بعض الأحيان، لابل مراراً كثيرة ومراراً كثيرة، بمراجعة أوامره وإلغائها؟، أولم يقم هو باقحامه فقرة «دون التقيد» بإلغاء صكوك جرى منحها من قبل؟ وهكذا إنني سوف أخرق هذا الصك وألغيه، والصكوك

الأخـرى أيضـاً، التي منحهـا سلفي ومنحتهـا أنا بتسرع ومن دون روية»، وقـام مقدم الاسبتـارية، الذي حمل رتبـة رئيس رهبـان برفع رأسه، وخـاطبه من دون خوف قـائلاً: «ماهذا الذي تقـوله يامولاي الملك؟ لاسمـح الرب لمثل هـذا الكلام المليء بالنكـران والجحـود، والمتناقض، أن يخرج من فمك، فطوال مـا أنت تتولى مـراعاة شرائع العـدل، سوف تكون ملكاً، لكن عندمـا تخرقهم وتتجاوزهم سـوف تتـوقـف عن كـونك ملكاً»، وعلى هـذا رد عليـه مع حـاجـة كبيرة للتقدير قائلاً: «مـامعنى هذا؟ هل ترغبون أنتم الانكليز بالإطاحة بي من على عرشي، كما فعل آباؤكم من قبل مع أبي، وبعد خلعي تتولون قتلي؟».

تعيين رينالد دي موهون حافـظاً للغابات

وحـدث في هذه الآونة، أن جـرى صرف الفـارس غيـوفـري لانغلي Langley, الذي كـان ظالماً بلا حـدود لجميع الذين وقعـوا تحت سلطانه، وذلك بمختلف السبل ومهما كـانت، صرفه من وظيفـة حافظ الغـابات، وأرسل إلى سكوتلندا، بمثـابة مستشـار لملكة سكوتلندا، التي كانت ابنة الملك، ومنح صرفه رضـا كبيراً إلى كثير من الانكليز، وجرى تعيين رينالد دي موهون Mohun بدلاً عنه، وكان غيوفري هذا، قـد جرى تعيينه، بناء على أوامـر الملك، واحداً من الأوصيـاء على ملكة سكوتلندا، غير أن نبـلاء تلك البـلاد لم يستطيعـوا الاستمـرار بتحمل سلوكه الوقح، ولذلك صرفـه من منصبه، ثم إنه حول نفسـه ونقلها إلى خـدمـة ادوارد، وعمل في وضعـه الجديد الكثير من الأعـداء للملك، وكذلك لادوارد، وكـان غيوفري هذا قد جـرت تربيته من قبل روبرت باسليف، وتمت ترقيتـه إلى منصبه من قبله، لكن بعـد بعض الوقت حل المتلقي للتـوجيهات محل الموجـه لـه، وهذا الذي جـرت ترقيتـه تولى الإطاحة بالذي رقاه.

حول الأخبار التي جلبها بعض الأرمن

وجاء في هذه الأونة بعض الأرمن إلى كنيسة القديس ألبان، حتى يقدموا صلواتهم، وكان واحدا منهم أخا للرجل المقدس الذي مات في سينت ايف، وهي واقعة جرى ذكرها من قبل، وحملت الوجوه الشاحبة لهؤلاء الرجال، ولحاهم الطويلة، وطريقة عيشهم القاسية شهادة على قداستهم، وعلى قسوة نظامهم، وأكد هؤلاء الأرمن، الذين ظهروا أنهم رجال يستحقون التصديق، جوابا على سؤال طرح عليهم، مايمكن عدّه حقيقة، بأن التتار، قد عانوا من خلال انتقام الرب، وليس من خلال انتقام الإنسان، من النقص الشديد في التعداد، بوساطة مرض مميت انتشر فيما بينهم، وكذلك بوساطة سيوف أعدائهم، وأنهم قهروا تماما، وأرغموا على العودة إلى مواطنهم الماضية، وفي الحقيقة بات بإمكان شعوب الغرب أن تكون متأكدة بأن هذا الوباء المدمر لن يزور العالم ثانية، وذكروا أيضا، أنهم يعلمون —بدون أدنى شك— بأن يوسف، الذي رأى المسيح، عندما كان على وشك الصلب، والذي كان ينتظر اليوم الذي سيحكمنا كلنا فيه، مايزال حيا حسب عادته، وهذه الواقعة هي احدى الحوادث المدهشة في العالم، وهي برهان عظيم على صحة الايمان المسيحي.

وكانت بلاد هؤلاء الأرمن، تبعا لما ذكروه، تبعد سفر حوالي الثلاثين يوما عن القدس، وتصل مناطقها القصوى إلى بداية مقاطعات الهند، التي تعرضت للنهب إلى حد كبير من قبل التتار، وينبغي أن يكون معلوماً بأن سفينة نوح، قد رست في أرمينيا هذه نفسها، وذلك تبعا لما ورد في الكتابات المقدسة، وما هو مدهش أكثر، هو حقيقة أنها ماتزال راسية هناك، ولكن بما أنها واقفة على قمتي جبلين عاليين كثيرا، والمكان علاوة على ذلك مشحون بحشود الأفاعي السامة والخطيرة، ما من أحد يستطيع الوصول إلى هناك، وفضلا عن هذا، إن إرادة الرب قد قضت

أن لايصل مخلوق من بني البشر إليهـا، ويحطمهـا، في سبيل أن يحمل قطعـاً منهـا، أو بالحري، إنها بقيت بفضل رحمة الرب الدائمـة، هناك، حتى يبقى دمار العـالم كله، وتصالحه بعـد ذلك مع الرب، في ذاكرة بني البشر بشكل دائم.

وفاة كونتسة وينكستر

وماتت في الوقت نفسه في غروبي Groby, وهي عزبة عائدة إلى ايرل وينكستر، ليس بعيـداً عن ليستر، الكونتسـة زوجـة ذلك الايرل، وابنة ايرل هيرفـورد، وقـد ماتت وهي شـابة، ولذلك لم تترك ولداً منهـا للايرل، مثلما كـان الحال مـع زوجتـه الماضيـة ابنة ألان أوف غـالوي Galway, التي ماتت من قبل، مخلفة له بناتاً فقط، وكانت الكونتسة المذكورة أولاً، قد ماتت في العشرين من تشرين الأول، ودفنت في بريكلي Braukley, حيث كـانت قـد دفنت زوجـة الايرل السالفـة أيضـاً، وكان دير ذلك المكان قد تأسس من قبل أجـداده، ولهذه الأسباب اختاره ليكون مكاناً لدفن زوجتيه، ثم مالبث على الفـور أن اقترن بامرأة أخرى، حيث ظل آملاً أن ينال من الرب نعمة انجاب صبي.

حول إطلاق سراح أسرى صليبيين من قبل سلطان مصر

وجرى في هذه الآونـة أيضاً إرسال رسل من قبل الملـك الفرنسي، تم الحصول لهم على اذن بالتجـول في جميع مناطق سلطان مصر مع الأماكن الواقعة تحت حكمـه، للبحث عن الصليبيين الذين في أسر سلطان مصر، وتحت سلطتـه حتى يجري اطلاق سراحهـم من دون شروط، وفي ذلك الوقت كان قـد جرى اطلاق سراح الأسرى الآخـرين الذين كانوا تحت سلطة السلطان وفق شروط سهلة، وفي سبيـل اطلاق سراح هؤلاء، بذل الملك الفـرنسي، الذي كـان أكثـر الناس تقـوى، كميـة وافـرة من المال، بوساطة صدقاته.

كيف جرى جلب عظام وليم صاحب السيف الطويل إلى عكا

وفي أحد الأيام، قال سلطان مصر للرسل الذين بعثوا لأداء المهمة المذكورة أعلاه: «أنا أعجب منكم أيها الصليبيون الذين تحترمون عظام الموتى، لم تقوموا بالسؤال عن عظام وليم ذلك الرجل المشهور كثيراً، وذي الأصل النبيل، الذي منحتموه اسم «صاحب السيف الطويل»، ونحن قد سمعنا كثيراً من الافادات، لاندري إن كانت مجرد حكايات أم لا، تتعلق بهذه العظام نفسها، من ذلك على سبيل المثال، أنهم يظهرون فوق قبره في الليالي المظلمة، وأن كثيراً من المنافع تضفى من قبل السماء على الذين يدعون إلى الرب في ذلك المكان، ولهذا السبب، ولأنه قتل في المعركة، وبسبب سماته الرفيعة، ولأصله النبيل، قد دفنا جسده مع كل احترام لائق».

وتحدث الرسل فيما بينهم، و قالوا لبعضهم بعضاً: «كيف يمكننا أن نستخف بهذا الرجل، الذي هو رجل انكليزي، والذي حتى المسلمين لايمكنهم رفض ماهو جدير وحقيق بنبالة وليم هذا نفسه؟» وبناء عليه قرروا من تلك الساعة المطالبة بوجوب إعطاء عظامه إليهم، وقد زودهم السلطان بها برضاه، ثم إنهم جلبوا معهم عدداً من العبيد المحررين، وقاموا بجمع عظام وليم المتقدم ذكره، وأخذوهم ونقلوهم معهم، وساروا إلى عكا، حيث تولوا دفنهم بكل احترام في كنيسة الصليب المقدس.

حول الإجراءات العدوانية والعنيفة لوليم أوف بلنسية

وفي هذه الآونة نفسها، قدم وليم أوف بلنسية، أخو الملك لأمه من مقر سكنه في هارتفورد، ودخل بالقوة، ومراغمة للمرسوم الملكي الذي صدر مؤخراً، بناء على الموافقة العامة للانكليز، إلى مكان مغلق (مما يطلق عليه بشكل عام اسم حديقة) كان عائداً إلى أسقف ايلاي، قرب عزبة

هاتفيلد Hatfield, وقـام هناك بالصيد، من دون الحصـول على الاذن من أي إنسـان، مع أن ذلك شكّل خرقـاً لقـانون البلاد، ولمبـادىء الشرف، وأصـالة النسب، وبعـدمـا عمـل هذا تحوّل إلى عـزبة الأسقف، وكـان عطشـاناً، ولم يجد شيئاً يشربه مـاعـدا البيرة، فحطم بالقـوة أبواب المستـودعات التي كـانت محكمة الاغـلاق، وهو يصرخ بصوت مـرتفع، ويجدف بشكل مـرعب، ويلعن البيرة والذيـن صنعـوها أول مـرة، ثم إنه سحب سكور بعض البراميل، وبعدمـا شرب هو نفسه مافيـه الكفاية من الخمرة الموجودة هناك، والتي كانت من أفخر الأنواع، أمر بتوزيعها بوفرة بين أتباعـه، وعلى جميع الذين اختاروا أن يشربوا منها، وكأنها كـانت ماء، أو من أسـوأ أنواع البيرة، وسمع رجل كـان يتـولى الاشراف على العـزبة ضربات المطارق التي استخدمت لتكسير الأبواب وفتحها، وسمع صراخ الذين استخدموا في ذلك العمل، فجاء حتى يوقف عنفهـم، وليوزع بينهم كميات كافية من الخمرة، لكنهم لكموه فقط وأهانوه، وبكل صعوبة نجا من عنفهم، وبعدما سكروا إلى حد التقيؤ، وبعدما بددوا كثيراً من الخمرة وصبـوها هناك، غـادروا وهـم يصرخون سخـرية، دون أن يعبأوا أجـرى إعـادة السكور إلى البراميل أم لا، وبعدمـا ذهبـوا وابتعدوا، ذهب خـادم العـزبة إلى المكان، ووجـد البـاب محطماً، وكأن ذلـك فعل أثناء الحرب، والخمـرة تسيل بكميات كبيرة على أرض المستـودع، وقـد قام على الفـور وبكل سرعـة، بتسكير البراميل، واغلاق البـاب واحكامـه ثانية، وعندمـا جـرى اخبـار الأسقف بهذه الإجـراءات، لم يأسف للأذى الذي لحق به، وقال وهو هادىء المظهر: «عجباً هل كانت هناك ضرورة لسلب ولنهب ماكـان يمكن أن يعطى إليهم طواعيـة وبالرضا، بكميـات وافية، لو أنهم فقط طلبوا ذلك؟ ثم إنه لعن هذا العدد الكبير من الملوك، أو بالحري من الطغـاة في مملكة واحدة»، ولقـد كـان من الواضح تماماً أن المحـرض على مثل ذلك العنـف، وذلك الهجـوم الذي كـان بـلا حيـاء على ممتلكات الكنيسة، استحق عقوبة الحرمان الكنسي لهذا الذنب الذي اقترفه.

حول العمل غير الشريف الذي اقترفه غيوفري دي لوزنغنان

وفي اليوم الثالث، بعد وقوع الحوادث التي رويت أخبارها أعلاه، قام غيوفري دي لوزنغنان، أخو وليم الذي تقدم ذكره أعلاه، بالعزم على الإقامة في دير القديس ألبان، فأرسل قهرمانه قبله، ليعلن عن نيته بالقدوم إلى هناك، وليجعل رغباته معلومة، ووصل القهرمان إلى باب ساحة الدير، وقال للبواب دون أن يحييه: «معلمي وشيك الوصول، ويرغب بالإقامة هنا، أين سوف ينام؟»، فردّ عليه البواب قائلاً: «حيث سيختار»، فأجابه القهرمان قائلاً: «هو لن ينام في أي مكان غير القصر الملكي، لأنه هو من أصل ملكي»، فأجابه البواب قائلاً: «ليكن ذلك كما يريد، لكن العادة بالنسبة لنا، أن يسأل الذين يرغبون بالاستضافة هنا، أن يكون ذلك تلطفاً، وليس طلب ذلك بوقاحة، لأن هذا البيت بيت للإحسان».

ولدى سماعه هذا الكلام نظر إليه القهرمان نظرة غاضبة، وقطب جبينه، وقال للبواب: «أية حماقة هذه التي تقولها أنت؟ أين هو الاسطبل لنضع خيولنا»، وبناء عليه دلّه على اسطبل واسع، مكرّس لاستخدام الضيوف، فيه يمكن وضع ثلاثمائة رأس من الخيل من دون صعوبة، وصدف في ذلك اليوم أن بعض الناس ذوي المقتنيات، من رجال دين ومن علمانيين كانوا قد وصلوا إلى هناك للاستراحة، ولإنعاش أنفسهم، ولذلك وضعوا خيولهم في ذلك المبنى، مع علف لهم قد وضعوه أمامهم، ولدى دخول القهرمان المتقدم الذكر بعجرفة وتكبر شاهد الخيول، وخدم الضيوف، فغضب غضباً شديداً، واندفع نحو الحيوانات، وقطع أربطتهم، وبتهديد كبير وعجرفة طرد الخيول والخدم من الاسطبل، ولم يسمح لهم باتخاذ زاوية من المكان على اتساعه يحتمون بها، ولقد توجب على راعي الدير تحمل هذا كله بصبر، كما فعل أسقف ايلاي تجاه الاعتداء والأذى الذي لحق به، وذكرناه أعلاه، خاصة وأن

الانكليز الآن مستضعفين ومداسين تحت الأقـدام، في حين أن الأجانب سـادة على الجميع، ففي ظل الملك الطاغيـة، يتجمع كل شيء ويحشر مع بعضه في العراء ويتعرض للخطر وللمطر.

حو ل الاتهامات التي قدمت ضدّ الفارس روبرت دي لى هو

وخلال العـام نفسه، ولدى اقتراب حلول عيد القـديسين الرسولين: سمعـان ويـود (الذي هو العيـد الذي يجدد سنـوات حكم الملك هنري الثالث) جـرى اتهام واحد من الفـرسان المتعلمين، وكـان اسمه روبرت دي لى ْهو Ho, الذي كـان الملـك قـد عهـد إليـه بالـوصـاية على اليهود، وأيضـاً على ختمه، العـائد إلى خـازن أولئك اليهود المذكـورين، اتهامه من قبل الملك بجريمة كبيرة، وهذه الجريمة أنه قام بوساطة صك زائف، حمل أيضـاً الختم الذي كـان روبرت المذكـور الحامل له والوصي عليه، بحكم كـونه المتولي لشـؤون العدالة على اليهود، قـام بايذاء وظلم ابن أحـد الفـرسـان، وكـان بريئاً مـن كل اثم وعـدوان، وبناء على هذه التهمـة جـرى اعتقـاله، وألقي به بشكل مهين في سجـن مضيق عليـه، وجـاء هذا الإجـراء تجديداً لفضيحـة التشهير، التـي عـانى منهـا فيليب لوفل، الذي كان وقتها المسؤول عن العـدالة على اليهود، وكان ذلك قد حـدث في العـــام المنصرم، عندمـا وقع في شراك اليهـــود الأشرار، وهو الذي تمكن الآن بمهارته من الارتقاء إلى وظيفة الحافظ للخزانة الملكية، وعلى هذا يمكن القـول بأن «القـدرة الربانيـة قـد تسـابقت مع شـؤون الناس وتبارت».

وحدث على كل حال أنه بتدخل من أصدقاء روبرت المذكور، جرى كشف خبث اليهـــود وشرورهـم، وتبرهنت براءته وتأسســت، ولذلك أطلق سراحـه، لكنه صرف من وظيفة الوكـالة، وجـرى تغريمـه بمبلغ أربعة ماركات من الذهب على الأقل.

حول الإجراءات القضائية لناظر أساقفة إنكلترا

وفي هذه الآونة نفسها، جرى استخدام المعلم ج. ل, الناظر العام لأساقفة انكلترا في بلاط روما، حيث ترافع بقضيتهم ضد رئيس أساقفة كانتربري، الذي ادعى لنفسه حق الزيارة التفقدية في انكلترا، مما كان سيسبب أضراراً لايمكن تحملها للكنيسة الانكليزية، وفي سبيل مقاومة هذا الظلم، دفع المعلم ج. ل المذكور ستة آلاف مارك إلى البابا، وبهذه الوسائل أمكن منع رئيس الأساقفة من الاستحواذ على حق الزيارة التفقدية الكاملة التي طلبها، واشترط أيضاً أنه ينبغي أن لايقوم بأية زيارة تفقدية إلى أية كنيسة أبرشية، مالم تتم دعوته للقيام بذلك من قبل قسيس المكان، ولكن الكنائس الديرية هي وحدها التي لم تعف، ووقتها عند ذلك، ينبغي أن يتلقى مساعدة مالية مقدارها أربعة ماركات فقط، ومن الممكن فهم خصوصيات هذا العمل بوضوح أكبر، بوساطة رسائل البابا، التي أقحمت في كتاب Additaments, وسوف يظهر الفحص الدقيق في مقاصدهم كيف احترم الأساقفة الرهبان في المملكة، خاصة المعفيين، وأنه عندما يجري اغضاب الرب، سيكون هناك انشقاق في الكنيسة، سوف ينتج اقفاراً، فيصبح وباء عاماً بين الأساقفة وكذلك بين العلمانيين.

وصول ألبيرت موثق البابا إلى إنكلترا

وفي هذه الآونة، في أيام عيد القديس مارتين، وصل إلى انكلترا المعلم ألبيرت، موثق البابا، وهو الذي كان قد جاء إلى هناك أيضاً قبل عامين، عندما كان الملك الفرنسي يستعد لعبور البحر، وذلك بقصد منع ملك انكلترا باسم البابا من ازعاج أراضي الملك المذكور، بأية طريقة من الطرق، أثناء وجود الملك الفرنسي المذكور في القتال في سبيل الرب، وكان هدف قدومه سرياً بالنسبة لكثيرين في البداية، ولكن بعد ذلك بات السبب معروفاً بوساطة نتائجه، ولقد كان البابا يعرف أن الايرل

رتشارد، أخي الملك، مليئاً بالثروات، وأغنى من جميع رجال الغرب الآخرين، الذين كانوا من مرتبته، (دون أن يتعب نفسه في معرفة كيف حصل على ثرواته) فرتب بدهاء لاختياره من أجل التعيين ليكون ملكاً حاكماً لأبوليا، وصقلية، وكالبيرا (قلورية)، وذلك في سبيل أن يقاتل الايرل لصالح البابا، وينفق أمواله على حظوظ للحرب مشكوك بها، وتعريض نفسه للمخاطر الشخصية، حتى يمكن نيل جميع هذه البلدان، من أجل منفعة البلاط الروماني، و أن يجمع الأموال لصالح هذا البلاط ولضرره الذاتي، وبتصرف البابا وعمله على هذه الصورة، اعتمد على كلام الشيطان الذي فيه دهاء وخداع عندما قال: «سوف أعطيك جميع هذه الأشياء، إذا ماسجدت لي وتعبدتني»، ذلك أن البابا كان يعرف بأن الايرل مستحوذ عليه بالنهم مثل المصاب بالاستسقاء، وبعطش إلى الثروة وإلى المفاخر الدنيوية، وبهذه الطريقة وضع طعم شصه، ظاناً أنه سيمسكه به بكل سهولة، وعلى هذا ليس عجباً سر لماذا قدم البابا من قبل كثيراً من التشريف إلى الايرل رتشارد في ليون، وعامله وكأنه قريب له، وأبدى سروراً عظيماً بمصاحبته مما أثار دهشة الجميع، ولم تعتقد أكثرية الناس بأن الايرل سوف يصغي بأي حال من الأحوال لوعود البابا، لأنه لم يكن قوياً بصحته الجسدية، ولم يكن شجاعاً ولابارعاً في الحرب، ومجدداً لأنه سوف يبدو أنه بدون شرف في أن يسعى لإحلال نفسه محل ابن اخته هنري، وأخيراً لايمكن لإنسان عاقل أن يقدم ماهو مؤكد ويستبدله بما ليس مؤكداً، لكن البابا اعتقد أن جميع هذه العيوب يمكن تحملها، لابل إنها ليست حتى مزعجة أو مربكة، وينبغي أن يكون معلوماً أنه في اليوم الذي كان فيه الايرل يحتفل مع البابا وقع الملك الفرنسي —بضربة غير موائمة من ضربات الحظ— بالأسر، وقد حدثني بأخبار هذه الوقائع —أنا كاتب هذه الصفحات— الايرل نفسه.

كيف شغل ألبيرت نفسه في سبيل الارتقاء بمصالحه

هناك قـول متـداول أن المصلي يصلي بشكل أحمق إذا نسي نفســه في الصلاة، وكـذلك المنصرف للعمل على منفعة واحـد آخر، وغير متـذكر لنفسـه، ولقـد قـام المعلم ألبيرت الذي كـان مقيماً في لندن ينتظر حتى يعطيه الايرل جواباً على رسالة البـابا، الأمر الذي أخره، في سبيل تقدير القضيـة، قـام بارسال رسـائل إلى كثير من أسـاقفـة انكلترا، التمس من أحـدهم أن يهديه مهـراً، ومن آخـر أن يعطيـه منفعـة كنيسـة، وجعلهم يفهمـون أنه لن يرفض قبـول أية هدية أخـرى يمكن أن يقـدمـوها له، وبذلك فـإن المعطي لن يظهـر أنه مستخف به من قبلهـم، وحصل من كنيسة القديس ألبان —بمثابة عمل معروف وإحسان— على مهر وعلى منفعـة أيضـاً، على غـرار مـايحصل عليـه الرومـان عـادة من مكتب أي أسقف، والذي يعني تقريباً الشيء نفسه.

حول وصول رئيس الأساقفة إلى لندن

وفي ثمانيـة عيـد القـديس مـارتين، وصل بونيفيس رئيـس أسـاقفـة كـانتربري إلى انكلترا، ولدى وصـولـه مـا من أحـد شعـر بالبهجـة، لابالحقيقـة —ونقـول هذا مكرهين— شعـر الناس بالحري بالانزعـاج لوصـوله، لأن كل واحد، لابـل جميعاً تذكـروا كيف تصرف بشكل غير معتـاد ووحشي في لنـدن، وكيف أنه عندمـا كـان هناك قـد انتـزع من الرهبـان حـق زيارتهم زيارة تفقـدية، وفـرض ذلـك عليهم، وكيف أنه —عـلاوة على ذلك— قد أفقـر المملكة والكنيسة بطرق كثيرة متعـددة، باستخراجه أولاً أحد عشر ألفاً من الماركات، ومؤخراً ستة آلاف مارك، التي جرى فرضها لدى زيارته التفقدية الطغيـانية، وكيف أيضاً قد أفقر بشكل كبير كنيسـة كـانتربري الجليلة، التـي عـاشت في ظل حكم عـدد كبير من القديسين، وجـاء ذلك عن طريق قطع أشجار غـاباتها، ووضع الدير تحت قـدميـه والدوس عليـه، ومجدداً كيف أنـه أعطى وبعثـر بين

الأجانب الموارد الغنية كلها، التي أصبحت شاغرة في أيامه، ولهذا من المعتقد أن البناء الذي يقام على أساسات أرض مستنقعية، سوف يكون بناء ضعيفاً، وهذا —على كل حال— ينبغي أن ندعه لقدر العلي الأعلى.

حول الخلاف الذي نشب بين رئيس الأساقفة والأسقف المنتخب لوينكستر

وقبل ثمانية القديس مارتين مباشرة، في هذا العام، كان هناك كاهن يعمل لصالح الأسقف المنتخب لوينكستر، قد أدخل نفسه في الوصاية على مشفى ساوثويرك Southwark، كان معروفا بشكل جيد في أسقفية وينكستر، وكان الوصي على ذلك المشفى —الذي يقال بأنه تأسس من قبل القديس توماس الشهيد— قد نال حسبما جرت العادة بين السكان لقب رئيس رهبان، ورأى المعلم يوستاس أوف لين Lynn أن الإجراء المذكور أعلاه فيه تجاوز على حقوقه، لأنه كان من موظفي رئيس أساقفة كانتربري، وبموجب وصايته، كان ينبغي الحصول على موافقته، وقد تمّ تجاهل طلب موافقته تحدياً له، ولذلك حذر الكاهن المذكور مرتين وثلاث مرات حتى يتخلى عن استحواذه على الوصاية، على أساس أن توليه للوظيفة كان مؤذياً، ومجرد ادعاء، لكن هذه التحذيرات جرى رفض الاستجابة لها من قبل الكاهن، أو رئيس الرهبان كما كان يعرف، وجاء رفضه اعتماداً على استحواذه للمنصب، وبناء عليه قام موظف رئيس الأساقفة بحرمانه كنسياً، لعصيانه وتمرده، وبقي رئيس الرهبان المذكور تحت هذه العقوبة لمدة أربعين يوماً، كان خلالها يتفوه بالتهديدات وبالإهانات، ووقتها لم يعد بإمكان هذا الموظف تحمل ذلك التجبر والوقاحة، فأمر باعتقاله على أساس أنه شخص متمرد، ولدى سماع رئيس الرهبان بهذا، ارتدى ملابس مقدسة للحماية، والتجأ إلى الكنيسة، ولكن الموظفين الذين أرسلوا لاعتقاله، لم يوفروه لتلك الأسباب لأنه بحكم كونه محروم كنسياً، قد أظهر تحديا لمفاتيح الكنيسة،

ثم أمـر مـوظف رئيس الأسـاقفة بـأخذه إلى ميـدسـتـون Maidstone, وكـانت عـزبة تابعة لرئيـس الأساقفـة، ليسجن هناك، حتى يتقـرر الذي سوف يعمل معه، لأنه أفيد بأن رئيس الأساقفة بات قريب الوصول.

حول الإجراءات الجريئة التي قام بها الأسقف المنتخب لوينكستر

ولدى سماع الأسقف المنتخب لوينكستر بهذا الإجـراء، غضب غضباً تجاوز جميع الحدود اللائقـة، وتقـدم بشكوى ثقيلـة لإخـوانه، وكأنه قـد عـانـى من ضرر عظيـم وإهانـة كبيرة، ولأنه تلقـى منهم التشجيع والمشورة، جمع عصـابة مسلحة من الفرسان، وأرسلهم مع كـوكبة كبيرة من الخدم والأتبـاع للبحث عن المحـرضين على هذا العمـل العنيف واعتقـالهم، وبناء عليـه انطلقوا مع جلبـة كبيرة وصراخ، وتوجهـوا على الفـور إلى سـاوثويرك، ظانين أنهم سـوف يجدون هناك في ذلك المكان الذين كـانوا يبحثـون عنهم، ولكن بعـدمـا بحثـوا في كل مكان في ساوثويرك، دون أن يعثروا على أحـد أرادوه، تابعوا سيرهـم بكل سرعة إلى ميدستون، لاطلاق سراح رئيس الرهبـان المعتقل، وخرقوا هناك كل حـاجـز اعترض سبيلهم وفتحـوه، وعـزمـوا على تحويل المكان كله إلى رمـاد، ولما لم يجدوه هناك حيـث بحثـوا عنه، جـرى إخبـارهم من قبل واحد من تجار الحكايات بأن موظف رئيس الأساقفة موجود في لامبث Lambeth قـرب لندن، فبـادروا مسرعين مغـادرين إلى هناك على شكل حشـد، بعـدما أحـدثوا أضراراً كبيرة في ميـدسـتـون، ووصلوا إلى لامبث فخرقـوا الأبواب وفتحوها، أوخلعـوها واقتلعوها من أمـاكنها، ودخلوا إلى كل بيت بشكل فوضوي ومفـاجىء، حتى تمكنوا قبل ساعة الغـداء من اعتقـال الموظف بشكل مهين، ذلك أنه لم يكن متـوقعـاً مثل ذلك الإجراء، ووضعوه على الفور على ظهر حصان، وأخذوه إلى المكان الذي اختـاروه، مثل واحـد كان من أكثـر المجـرمين شروراً، قد جـرى

اعتقـاله وهو يقترف عمل السرقة، ولم يسمحـوا له حتى بإمساك المقـود حتى يقود الحصان، ولكم كان إجـراءاً وقحاً وطائشاً! ولكم افتقروا إلى الاحترام، وأية وقـاحـة قد تلبستهم حتـى قامـوا هكذا بمطاردة إنسـان صـاحب سلطة عاليـة ومكانة رفيعـة، وعـاملوه بشكل مهين، فقد كـان رجلاً عظيم المعـارف، ومشهوراً بشكل مدهش، وهو واحـد كان يمثل شخص رئيس الأساقفة؟.

ولقـد أهانوا أيضـاً، وأسـاءوا معاملة شماس، كـان يقـوم بواجبـه في البيعـة، حتى بعـدما فـرّ إلى المذبح، وهاجموا مقتنيـات الكنيسـة بأيديهم المدنسـة، وعندمـا سمع المعلم هنري أوف غنت Ghent الجلبـــة، استبـد به الخوف، وهذا مـا كان يحدث بالعـادة مع الذين كـانوا أشجع منه، وبحذر قام بالنجاة، حتى لايقع بأيـدي الذين كانوا يطلبون حياته، وبعدمـا اقترفوا جميع الأعمال الوحشيـة التي دفعهم غضبهم، أو بالحري سخطهم، لاقترافها، جروا الموظف وسحبـوه بمقود الحصان إلى فارنهام Farnham, عـازمين على حبسـه هناك بـالقـوة، حتى يتمكنوا من الحصول على معلومات حول سجن رئيس الرهبان، وبعد لأي سمح له بالمغادرة، وجـرى طرده بشكل مؤسف ومهين، لكنه كـان مسروراً جداً لتمكنه من النجـاة من بين مخالبهم وأيديهم المدنسة، وهرب على قـدميه، مع أنه كان رجـلاً عجوزاً، ولم يتجرأ على النظر إلى خلفـه، حتى لايعود إلى الاعتقـــــال، وظل يـركض حتـى وصل إلى ويلـرلي Walerle, وهو دير كـان تابعـاً للسسترشيـان، ولـدى رؤيتـه من قبل رهبـان ذلك المكان، تسـاءلوا أي سـوء حظ قـد سـاقـه إلى عندهم طريداً ووحيـداً، وتلقى هناك —على كل حال— المواساة، وبدأ يتنفس بحرية من جديد.

حول الشكوى التي رفعت إلى رئيس الأساقفة

ولأن الموظفين المعتمـدين من قبل رئيس الأســاقفـة، عـانوا من هذا الأذى العظيم، تقـــدمـوا مع الدمــوع والنحيب بشكوى حـــول قضيـة

الوقاحـة والدناءة التي عـوملوا بها، إلى رئيس الأسَاقفـة، مع كمية كبيرة من المبالغـة، ولدى سماع هذه الأخبار، كان غضب رئيس الأسـاقفة أكبر مما يمكن وصفـه، وقـال متعجبـاً: «هـذه أخبـار سيئة نتلقـاها لدى أول وصولنا»، وقام على الفـور بالانطلاق إلى لندن، آخذاً معه أسقفي شيستر وهيرفـورد، ومن ثم قام في كنيسـة سينت مـاري —لى— بو - Mary Le- Bow ومعه الأسقفين المذكورين، وقـد ارتدوا جميعاً الثياب الحبرية، بحضـور عدد كبير جـداً من الناس، كانوا قـد دعوهم بوسـاطة المنادي، من أجل منح الـذين سـوف يحضرون غفـراناً لمدة ثلاثين يومـاً، ووقتها تفـوهوا بشكل مهيب بقرار عقوبة الحرمان الكنسي الرهيبـة، ضد جميع الذين شاركـوا باقتراف ذلك العمل الطائش وحرضـوا عليه (فقط باستثناء الملك والملكة وأولادهما، والايرل رتشـارد، وزوجتـه الكونتسـة وأولادهما) ثم كتب رئيس الأسـاقفـة إلى جميع الأسـاقفـة المسـاعـدين التـابعين له، يأمـرهم بكل دقـة، بحكم فضيلة الطاعـة التي يدينون بها لكنيسة كـانتربري، أن يفعلوا الشيء نفسه في كنائسهم في كـل يوم أحد، وفي أيام الأعياد.

ومن الجهة المقـابلة أمر الأسقف المنتخب لوينكستر، على الفـور عميد سـاوثويرك وبعض الآخـرين الخاضعين له بمعـارضـة رئيس الأسـاقفـة بوجهه صراحـة، وأن يعلنوا على الناس أن قراره لاغياً وفارغـاً وطائشاً، وأن التعليل الذي اتخذ كـان خـاطئاً وزائفاً، ووقتهـا ترافع حـزب رئيس الأسـاقفـة إلى الحبر الأعظم حـول هذه الاهانة، وحـول الفضيحـة التي نشأت عنهـا، وقـد كـان هناك بالحقيقـة بعض الناس الذين لم يقفـوا إلى جـانب أياً مـن الحزبين، وبعض الذين قـالوا بأن مـن الواضح أن رئيس الأسـاقفـة أضر بالأسقف المنتخب، وفي سبيل إنهاء هـذا الخلاف تقـرر وضع ترتيبـات بين الحزبين، وتمّ الاتفاق أن الـدير المتقدم الذكـر يصبح معفياً من لقب الولاية، وأن يصبح خاضعاً لإدارة أسقف وينكستر، وأن

يدفع ثلاث شلنات سنوياً بمثابة اعتراف بالخضوع، وبذلك نالت كل طائفة من الطائفتين اسما سيئا، وجنت الملامة،والأذى، والتصرف العنيف، وفي الوقت نفسه تذكر سكان لندن الوقاحة التي أبداها رئيس الأساقفة، في إجراءاته العنيفة في تلك المدينة، واستعادوا إلى الذاكرة مبلغ الاستخراجات الضخمة التي كان سببها، وتذكروا أيضا طيش الملك في ايجاده، واسهامه غير الاعتيادي في منفعته، ومن جانب آخر حصلت شيعة الملك، أي الوافدين من البواتيين، على تهمة الغدر والخيانة، التي هي بالحقيقة، فطرية فيهم، وذلك مع الملامات الأخرى، حسبما هو معتاد مع الذين يتقدمون بالشكاوي، وكان هناك الكثير من المواطنين الذين رغب بعضهم أنهم لوتمكنوا من تحطيم رؤوس بعضهم واستخراج المخ منها، ورغب بعضهم الآخر أنهم لواستطاعوا تمزيق أحشاءهم من أجسادهم لفعلوا، وذلك حسبما كتب: «ويل له —أولهم— الذي من خلاله يأتي الذنب»، وبات الفريقان عرضة للخطر من الازدراء والفضيحة التي نشأت، وهكذا تحزب أصدقاء الملك وصفوا أنفسهم ضد جماعة الملكة، أي البواتيين ضد البروفانسيين الذين سكروا حتى الثمالة بسبب ممتلكاتهم الواسعة، والذين أنزلوا غضبهم على الانكليز النائمين، وكأنهم كانوا يتبارون فيما بينهم حول أيهم ينبغي أن يحصل على السيادة في المملكة، في سبيل رفع شأن أبناء جلدته، وجرى على كل حال تداول تقرير، أدان بالحري البواتيين، لأن الأسقف في تجبره قد تجاوز جميع الحدود في الوقوف في وجه رئيسه، معتمدا على أخيه الملك، الذي والله يعلم، قد أوجده ليكون حيث هو الآن، وبشكل خاص لأننا —كما ذكرنا من قبل— قد فقدنا بواتو من خلال خيانة أبيه.

كيف ذهب رئيس الأساقفة إلى اكسفورد

ثم إن رئيس الأساقفة بونيفيس أخفى الغضب الذي شعر به، مثل النار تحت الرماد، وقام بناء على تحريض من المعلم يوستاس، الذي كان

قد تأذى أكثر من سواه، وحزن كثيراً في هذه القضية، فأصر على القيام بانتقام موائم لهذا العدوان الكبير الذي لحق به، ومع هذه النية أسرع بخطاه نحو أكسفورد، في سبيل أن يجعل معلوماً لدى الناس أخبار هذا الإجراء الشائن، وبشكل خاص إلى جماعة الباحثين الذين احتشدوا هناك للدراسة من أنحاء العالم، ولكي يقوم هؤلاء أيضاً بحكاية روايات عن هذا الاثم العظيم ونشرها بين أقصى أمم الأرض، وعندما وصل إلى المدينة، استقبل من قبل حشد كبير من الكهنة وقد ارتدوا أجمل الثياب وأكثرها أناقة، وقد امتطوا على ظهور خيول مجهزة بشكل فخم، وقد رحبوا به بالهتافات مع كل مظاهر التبجيل والاحترام، لأنهم شعروا أنهم يستقبلون رئيساً للأساقفة هو الأول على الجميع في انكلترا، وهو أيضاً مشهور جداً بأصالة نسبه، ثم أكرموه بعد ذلك باحتفال كانت فيه وفرة عظيمة من اللحوم والمشروبات، وعندما تعرف رئيس الأساقفة بالتجربة ومعه كهنته البروفانسيين الكسولين إلى ذكاء وفصاحة تلك الجماعة، وإلى سلوك أفرادها المثالي، وإلى نظام ألبستهم، وإلى دقة تصرفاتهم، كانوا مرغمين على الاعتراف بأن جامعة أكسفورد تستحق أن تكون نظيرة لجامعة باريس.

الإعلان عن القرار ونشره في أكسفورد

وفي اليوم التالي الذي أعقب يوم عيد القديس نيقولا، قام رئيس الأساقفة بحضور كهنة الجامعة الذين اجتمعوا لتلك الغاية بوساطة قرع الناقوس العام، فحكى لهم بشكل مكشوف تفاصيل العمل الوقح الذي تجرأ الأسقف المنتخب لوينكستر على اقترافه، ومعه إخوته ومعاونيه، الذين استمدوا جرأتهم من ثقتهم بتأييد الملك، وكذلك أعلن بالتحديد عن أسماء المجرمين، وأعاد تلاوة قرار الحرمان الكنسي المتقدم ذكره، وهو القرار الذي ورد بالتفصيل في الرسائل التي بعث بها رئيس الأساقفة إلى جميع أساقفته المساعدين، وورد في هذه الرسائل أسماء

المجرمين بالكامل، وإذا مارغب أي إنسان برؤيتهم، عليه البحث في كتاب Additaments المحفوظ في كنيسة القديس ألبان، والذي فيه جميع التفاصيل المتعلقة بالموضوع، هذا وكان واضحاً إلى كل واحد، وإلى الجميع بأن الأسقف المنتخب مع إخوانه كانوا المقترفين لتلك الآثام.

موت بلانشي ملكة فرنسا

وفي هذه الآونة، أي بالتحديد في الأحد الأول لعيد ميلاد ربنا، الذي وقع في اليوم الأول من الشهر، توفيت سيدة السيدات في هذه الدنيا، بلانشي، أم الملك الفرنسي الوصية على مملكة فرنسا، والحامية لها وملكتها، وقد غادرت هذه الحياة، بمثابة سيدة تقية مخلصة، حتى تتمكن باحترام من مقابلة مولانا يسوع المسيح لدى قدومه، وشكلت وفاتها خسارة كبيرة ومصدراً للحزن لفرنسا كلها، فهي كانت قد عانت من أحزان كثيرة مبكرة، كان من بينها موت زوجها الملك لويس، الذي سلب منها وهي في عزّ شبابها، تاركاً المملكة الفرنسية معتمدة عليها، وهي قضية لم تكن سهلة التناول، وكان مرض ابنها وضعفه، وحمله للصليب، وحجه، الذي قرر أن لايعود منه، ثم أسره من قبل المسلمين آثاره عليها، وهذه وقائع تستحق البكاء والنحيب من قبل جميع المسيحيين، وكذلك الفرار المهين لروبرت كونت أوف ارتوي وماتلاه من موته غرقاً، ومجدداً المرض غير القابل للشفاء لابنها ألفونسو، كونت بواتو، وأخيراً الأخبار التي حملت إليها وتحدثت بأن ابنها الأكبر، الملك الفرنسي، الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، قد عزم على البقاء هناك طوال حياته، وأن يموت هناك، وأن يحصل بذلك على المملكة السماوية، عوضاً عن مملكته الأرضية، وبذلك تلاشت تلك السيدة بلانشي التي كانت الأكثر نبلاً، في عزلتها، وماتت قبل أوانها، وبذلك حرم أولادها الأمراء الذين تقدم ذكرهم من عاطفتها التي

أوقفتهـا عليهم، وعندما رأت أن مـوتها بات وشيكاً، تركت أوامـر بأن يدفن جسدها في دير للراهبـات في بونتوي Pontoise كانت هي التي قد أسستـه وبنته بشكل فخم جداً، وفي الحقيقة كـانت قد أصبحت قبل موتها راهبـة محترفة، ولبست الحجـاب، الذي وضعت فوقـه التاج، كما أنها ارتـدت أثواب الملكـة، وبهذه الحالـة وهـذا الشكل مـن ارتـداء الملابس دفنت بشكل لائق، وهكـذا فعلت السيـدة النبيلة بلانشي، التي كـانت امـرأة من حيث الجنس، لكنهـا كـانت رجـلاً بالآراء، وواحـدة تستحق المقـارنة بسميراميس، وقـالت وداعـاً للدنيـا، تاركـة المملكة الفرنسية بدون راحة، وفارغة من كل مواساة.

حول الموارد الهائلة لجون مانسيل

وخـلال هذا العـام، ابتسم الحظ كثيراً لجون مـانسيل، الذي كـان المستشار الرئيسي للملك، فأصبح غنيـاً جداً، حتى أن دخله السنوي قد جـرى تقديره أنه قـد وصل إلى أربعـة آلاف مارك، بما في ذلك سبعمائـة مارك جرى جمعها مؤخراً من قبله، وفي الحقيقة ليس معروفاً في أيامنا أن كاهناً غيره قد ارتقى إلى مثل تلك الحالـة من الغنى، وكان ذلك مصدراً لدهشـة عظيمـة، ومحط تسـاؤل لدى الذين يعـرفـون الأشيـاء التي هي عائـدة للرب، وأن رجلاً واعياً مثله لم يخف من تـولي العناية بعدد هائل من الأرواح، في وقت كـان الأمـر فيـه واضحاً أنـه كان عليـه أن يقـدم حساباً عنهم جميعـاً أمام القاضي الأعظم، وهذا في الحقيقة يؤكـد ماكتب أو جـاء تصـديقاً لما قيل: «هناك كثير مـن الناس يعرفـون أشيـاء كثيرة، لكنهم لايعرفون أنفسهم تماماً».

كيف قام أسقف لنكولن بإحصاء موارد الأجانب في إنكلترا

ووصل أثناء هذا الوقت كله شره الرومـان إلى درجة عاليـة جداً من الضخامة، إلى حد أن روبرت أسقف لنكولن، الذي اعترته الدهشة تجاه

ذلك، أمر محاسبيه بالقيام بإحصاء لموارد الأجانب في انكلترا، ولقد تبين أن البابا الحالي، انوسنت الرابع قد أفقر الكنيسة المسكونية أكثر من جميع أسلافه، منذ التأسيس الأول للبابوية، فموارد الكهنة الأجانب الذين جرى تعيينهم في انكلترا من قبله، مع الذين صاروا أغنياء بوساطة كنيسة روما، بلغت أكثر من سبعين ألف مارك، وأحصي الدخل الصافي للملك، فوجد أنه لايتجاوز ثلث ذلك المبلغ.

حول معاناة رهبان طائفة السسترشيان في إنكلترا

ووجد الملك في هذا العام أن الخلافات التي تفجرت بين النبلاء حول مطاردهم، قد تسببت بالحصول على زيادة كبيرة لخزانته، مع أن ذلك جاء بطريقة مهينة ومخجلة، وقد حدث عن طريق المصادرة التي نالوها، ولهذا أمر بالاعلان بوساطة المنادي، في الأماكن العامة، مثل الأسواق، أن كل من يرغب بالحصول على مطردة، ينبغي أن يتحدث إليه مباشرة حول الموضوع، وأنه لدى دفع مبلغ من المال، تتوجب الاستجابة لطلبه، وبذلك جرى تدمير حقوق وامتيازات عدد كبير من الأشخاص، وهي التي كان قد منحها بصكوك قديمة، وتأكدت بالاستخدام، وبين كثيرين، اعتقد راعي دير ويردون Waredon مع رهبانه، أنه سوف يكون مفيداً لهم امتلاك مطرد، لأن خدم جيرانهم من النبلاء قد حطموا تخومهم وعاثوا فساداً في حقولهم المبذورة، وداسوا على محاصيلهم، وأهانوا الرهبان واعتدوا عليهم، وهم الرهبان الذين تولوا أعمال الزراعة، وكانوا مسؤولين عن الحقول، وبناء عليه دفعوا المبلغ المطلوب من المال، وحصلوا على حق مطردة من الملك، وقد بدا هذا —على كل حال— لوليم بيوشامب Beauchamp انتقاص لحقه وامتيازه، ولذلك استولى على مواشيهم، وقتل وجرح عدداً من رهبانهم، كما تولى بطرائق أخرى إلحاق الأذى بهم، لأنه كان قد تعلم بناء على تحريض زوجته (لأنه كان رجلاً مفتوناً بزوجته وخانع

لها) أن يشنّ حرباً ضد الرهبان، وليس ضد الفرسان، وهكذا فإنه منذ اثني عشر عاماً، استمر بمضايقة الكهنة النظاميين في نيوهام New-ham وظلمهم، حيث برهن عن نفسه أنه كان قاسياً مثل الصخر نحو أولئك الذين توجب أن يكون ولي نعمتهم وحاميهم، وبطريقة مماثلة أيضاً، تصرف بطرس أوف سافوي، الذي أمدته صداقته القوية مع الملك بالجرأة والوقاحة، حيث أقدم دون أن يخاف على تعطيل منافع النبالة القديمة، وخرق النظام القائم للأشياء، ولم يتوقف لمدة عشرة أعوام متتالية عن اضطهاد الدير المقدس في جيرفولكس Jervaulx وهو مؤسسة تابعة لطائفة السسترشيان في شمالي انكلترا، تأسست من قبل وبنيت مع فخامة كبيرة من قبل آبائنا الأتقياء الأوائل، وكان الملك متهماً تجاه جميع هذه الأعمال، وقد عبر بهم وتجاوزهم من دون عقوبة، لأنه بالسماح لهم على هذه الصورة، أصبح طرفاً راضياً، وأما الذين اقترفوا مثل هذه الجرائم، فقد احتفظ بهم من أجل زيارة تفقدية أكثر حدة يقوم بها الانتقام الرباني.

مختصر أخبار العام

وهكذا على هذه الصورة عبر هذا العام، منتجاً للقمح بشكل متوسط وكذلك للفواكه، قاسياً فيما يتعلق بالمرض المميت بين المواشي، ولكي نجمل باختصار أوضاع الشؤون البشرية، كان عاماً مضطرباً بالنسبة إلى جميع بني البشر، وفي الأحوال المضطربة هذه، خاصة بين الشرقيين، كان الأسر غير السعيد للملك الفرنسي، وهكذا نحن نشاهد عندما تلقي عظمة بين مجموعة من الكلاب المتلقفة، يسعى كل واحد منها إلى التقاطها وامساكها، وأثناء صراعهم يقاتل كل واحد منهم الآخر، وهكذا يتصارعون في سبيل عض عظمة، فيعض أحدهم الآخر وتبقى العظمة دون أن تلمس، وكانت الامبراطورية في وضع خطر، مثل مركب من دون ربّان، وجردت المملكة الفرنسية من حكامها،

وباروناتها، وأسلحتهـا وأمـوالها، ولم تندب قط مـن قبل مثل هذه الحالة من الاضطراب والهجران، وديست انكلترا تحت أقدام الأجانب، فحنت رقبتهـا إلى كثير من السـادة، وحـرمت من العـاطفـة الصـادقـة لملكهـا، وخضعت إلى أخس الأحوال، وأخذت تتلاشى في يأس وقنوط، والذي كان أعظم سخطا هو البغضاء المميتة التي كـانت قائمة فيما بين الكنيسة والناس، حيث ازدادت يوميا.

كيف احتفل ملك إنكلترا بعيد الميلاد في وينكستر

في عام ألف وواحد ومائتين وثلاثة وخمسين، الذي وافق العام السابع والثلاثين من حكم الملك هنري الثـالث، كان الملك المذكور في وينكستر أيام عيد الميلاد، حيث أقام الاحتفالات بميلاد ربنا وسط أبهة كبيرة.

حول تطويب بطرس الذي كان واحداً من طائفة الدومينيكان

وفي هذه الآونة أيضـا وصل إلى هنا بعض الرسل إلى عند الملك وإلى عند بعض النبـلاء، حيث جلبـوا معهم أخبـارا، بأن واحـداً من رهبـان الدومينيكان اسمه بطرس، عندمـا كان يعظ في ميـلان، وينتقد من دون خوف الميلانيين بسبب شرورهم وذنـوبهم، أو بالحري هرطقاتهم، جرى قتله سرا من قبلهم لتأكيـده الحقيقة، وبذلك حصل على الشهـادة بمثابة مكافأة، على تصرفـه على هذه الشاكلة، ولكي لايبقى نور الحقيقـة مخفيا لمدة طويلة تحت المكيـال، جعله الرب معـروفـا فـوق البقعـة بوسـاطة معجزات، وعندمـا تسلم البابا معلومات كـاملة حول ماحـدث وحول المعجزات قام على الفور بتطويبه وسط أبهة عظيمة.

كيف انتخب الرومان برانكليون شيخاً لهم

وذكر الرسل الـذين تقدم ذكرهم أيضـا، بأن الرومان قـد انتخبوا في شهـر آب شيخـا جديدا اسمـه برانكليـون Brancaleon, وكان مـواطنا من بولون Boulogne, وكـان رجلاً صـادقـا ومستقيماً،

وكـان جيد المعـرفة في القـانون، كما كان إنسـانا من المستحيل أن يوافق، بأي حـال مـن الأحـوال، على انتخـابه ذاتيـا، مـالم يكونوا قـد أعطوه ضمانات ببقـاء سلطة الشيخ مضفـاة عليـه لمدة ثلاثة أعـوام، وذلك على عكس قوانين المدينة، وعـلاوة على ذلك طلب من كل مواطـن صاحب نفـوذ ضمانـة معتـدلة، ومن عـامـة أهل المدينة أداء قسم بـأنهم سـوف يطيعـونه باخـلاص بمثـابة شيـخ لهم، لأنه كـان على دراية تامـة بتمـرد الشعب الروماني الـذي غالبا مـاخرج وثار لأقل الأسبـاب والمناسبات، وبعـدما تمّ الحصـول على مـوافقته، وجـرى استقبـاله من قبل المواطنين والناس، فرض عليـه شرط لايمكن خرقه، بأنه يتـوجب عليه أن يحكم المدينة وسكانها بعـدل، وإلاّ فإنه لن يسمح له بالعـودة إلى بولون بجسم صحيح، وعندما جرى أخيرا تنصيبه شيخا لمدة ثلاثة أعوام، أمر ببعض المواطنين الذين كـانوا مشهـورين بالقتـل، والذين أدينوا لإقترافهم هذه الجريمـة نفسها، بـأن يجري شنقهم على نوافذ قـلاعهم، كما أمـر ببعض الذين كانوا عصاة بتعليقهم على أعواد المشانق.

كيف أرسل شعب وينكستر هدية فخمة إلى الملك

وعندما كان الملك على وشك تناول وجبـة طعام أثناء الاحتفال بعيد الميلاد، كما تقدم الذكر، أرسل إليه سكان وينكستر هدية فخمة جدا من الأطعمـة والأشربة، قـد أثارت إعجـاب جميع الذين شـاهدوها، وقـام الملك، حتى يقـدم إليهم الشكر، ففرض عليهم أن يدفعـوا مائتي مـارك خـلال مـدة وجيـزة من الزمن، مع أنه كـان قـد ولد في ذلك المكان، وهكذا انقلب الاحتفال بالميلاد إلى أسف ونحيب بالنسبة إليهم، ولم يقم الملك وزنا لهذا، وشغل نفسه بالاحتفالات، لكن بما أن سرور هذا العالم نادرا مـامضى من دون منغصات، فإنه مع الضيـوف قد غضبـوا بسبب القرار الذي أصـدره رئيس الأساقفـة ضد الأسقف المنتخب لوينكستر، الذي كـان مضيف الملك، وضد جميع أعـوانه، لأن الأسقف المنتخب لم

يكن قد جرى تحليله بعد، كما لم يتم قبوله لنيل قبلة السلام، مع أن مصالحة كانت قد أقيمت بين الطرفين، وتمّ في ثمانية عيد الغطاس بوساطة التدخل الفعال للملك والملكة —الملك لصالح أخيه الأسقف المنتخب، والملكة لصالح عمها رئيس الأساقفة، مع الذين كانوا مهتمين في تحقيق مصالحة أكثر من سواهم، لأنه أفيد بأن وليم أوف بلنسية، وجون دي وارني Warrenne, كانا متورطين في ذلك العمل من العنف— من التوصل إلى مصالحة كاملة بين الأسقف المنتخب وبين رئيس الأساقفة، وعادا إلى تمام المودة، وقبل الأسقف المنتخب لنيل قبلة السلام من رئيس الأساقفة، لأنه أقسم بشكل علني بأنه لم يعط قط موافقته، على تلك الإجراءات العنيفة، وأنه لم يكن أبدا راضيا بهم، لكن جرى تنفيذهم من دون معرفته، وضد رغبته، وبذلك جرى تحليل الأسقف المنتخب من قرار الحرمان، وفي سبيل عدم بقاء أي أثر للغضب بسبب ذلك الخلاف، تمتع جميع الذين شاركوا في تلك الإجراءات العدوانية، بمنفعة التحليل الكامل، وبات على هذا واضحا كل الوضوح من خلال خاتمة هذه القضية، وحيث تمّ تجاوز جميع المضار التي تقدم ذكرها، دونما عقوبة، وعفي عنها، مدى اهتمام الأساقفة والآخرين واخلاصهم لإعادة تأسيس السلام بين هاتين الفئتين، وأن القضية جرى ترتيبها، بدون شك لأن الملك قد وعد دوما في إظهار نفسه محبذا لجميع الذين كانوا الواسطة في تحقيق هذه المصالحة، وأنه ميال دوما لتلبية رغباتهم، ولذلك حملوا أنفسهم بثقة أكبر للقيام بمناقشة الشؤون الصعبة التي تقدم ذكرها، أي منح المساهمة التي تقدم ذكرها أعلاه، شريطة مراعاة شروط «الماغنا كارتا»، وتوصلوا أخيرا، وبعد كثير من المناقشات إلى قرار بالموافقة، لكن ليس على الاسهام الكبير حسبما جرى طلبه، بل على منح مبلغ محدد، وتقديمه تطوعا، مع مساعدة فعالة إلى الملك، إذا ماقام، حسبما وعد مرارا بالإقلاع عن إلحاق الأذى بالكنيسة وظلمها، وفق الطريقة التي اعتاد أن

يعملها، وأن يصغي إلى الآراء المفيدة لرعاياه الطبيعيين، الذين ضغطوا بالحاح عليه ليفعل ذلك، وتضرعوا حتى يستجيب لهم، ورد الملك على هذه الاقتراحات بالترحيب، وأضاف أنهم إذا ماوجدوا من خلال تقصي صحيح واكتشفوا، وكتبوا إليه بشكل سري وخاص حول قضايا كل تجاوز، هو سيقوم بعمل كل ماهو ضروري من اصلاحات، وجرى تحديد يوم لنشر جميع الشكاوى، حتى يتمكن بمشورة الجميع بشكل عام، من اصلاحهم وتقويمهم جميعا، ولذلك شعروا بآمال كبيرة بأن الملك سوف يتجاوب بكرم منه مع جميع رغباتهم، لأنهم قاموا عند التقدم بهذا الطلب المستعجل بغفران جميع ذنوب أخيه، الأسقف المنتخب لوينكستر، كما تقدم ذكر ذلك، وأعادوا تأسيس السلام تماماً، لأنه حمل الصليب، وقد تطلب مثل هذا العمل التواضع والاستقامة والعدل، وبسبب أنه بات في سن أكثر نضوجا، ومجدداً لعله يتعلم وينال التوجيه والدرس من مثل أبيه، وأخيرا بسبب أن الكنيسة قد وعدته الأن عن طواعية بالمساعدة، وتوفرت هناك عدة أسباب كثيرة تعلل رضوخه ورضاه، واقدامه بسرعة على الاذعان لمطالبهم، وإن واحداً من الأسباب الأكثر إقناعاً هو الذي رأينا من الموائم اقحامه في هذا المجلد:

في الأيام التي كان فيها القديس ادموند يحكم كنيسة كانتربري، جرى منح الملك واحداً من الاسهامات، وجاء ذلك بناء على طلبه، وقد أقسم (واضعاً يده اليمنى على الأناجيل المقدسة، وممسكاً شمعداناً شموعه مشتعلة بيسراه، أثناء إملاء رئيس الأساقفة المذكور صيغة القسم عليه) أنه سوف يقوم من ذلك الوقت فصاعداً، من دون تعليلات بمراعاة أحكام الصك الذي جرى منحه مرارا إلى رعاياه من دون خرق، وأنه لن يسمح لنفسه بالتورط في شباك أية تصريحات زائفة تصدر عن أي مستشار ماكر مخادع، وفي ذلك الوقت أيضا، التحق عدد كبير جدا من الأساقفة الذين كانوا موجودين وقتها، برئيس الأساقفة، وهم يحملون

شمعدانات شموعها مشتعلة، وشاركوه في إنزال عقوبة الحرمان الكنسي بكل واحد سوف يخرق الصك، أو يقوم بتفسير ماورد فيه بشكل خاطىء، وتأكيداً على الموافقة على القرار الذي جرى التفوه به، قام جميع الذين كانوا هناك، حتى الملك نفسه، فرددوا مؤمنين قائلين: «ليكن ذلك هكذا، ليكن ذلك هكذا»، ثم جرى إلقاء الشموع واطفائها، حيث صدرت عنها رائحة بشعة آذت آناف الذين شموها ممن كانوا واقفين هناك، وبناء عليه ردد رئيس الأساقفة قائلاً: «وهكذا ومثل هذا تهلك النفوس المدانة، وتصدر عنها مثل هذه الرائحة البشعة، أي نفوس الذين سوف يخرقون الصك المذكور، أو يفسرونه بشكل خاطىء»، وقام الملك بحماس أكبر من حماس الآخرين، وردد مراراً بصوت مرتفع قوله: «آمين، آمين»، وجرت هذه الأعمال في بيعة القديسة كاترين في ويستمنستر، ولم يقم الملك على كل حال، حسبما قرأنا في العهد القديم، في قضية بعض الملوك الحمقى، بتدمير الأماكن العالية، بل جمع المال، وبدده بتبذير، مع أنه جمعه ضد القرار العام، ووفق الطريقة نفسها تصرف مرة ثانية، والآن من جديد، في العام الحالي، ولكن بما أن هذا التصرف عمل أحمق وفيه اسراف، وقد جرى تكراره مراراً، لايمكن (مما نأسف له) عدّه إثماً عظيماً.

مغادرة المعلم ألبيرت

وكان المعلم ألبيرت ينتظر الآن الحصول على جواب للرسالة يحمله إلى البابا، وقد قام الآن بالاستعداد لعودة سريعة إلى الوطن، لأن البابا لن يعطي بأي شكل من الأشكال مساعدة إلى الايرل رتشارد من ماله، أو سيعطيه قلاعاً ليتخذ منها مقراً له، أو رهائن عليهم يمكن أن يعتمد وهو واثق، ولذلك استمع الايرل رتشارد إلى النصيحة الأكثر حكمة، وإلى اقتراحات صديقه كونراد، وبقي هادئاً، ثم إن البابا عندما وجد نفسه غير قادر على اضعاف حذر الايرل وكثرة شكوكه، التفت إلى

استخدام الحجج الأكثر مخادعة، مع نية أن يستغل بساطة أخي الايرل وسذاجته، أي الملك، ولسوف نوضح في الصفحات المقبلة، مدى النجاح الذي حققه في هذه المسألة.

حول طرد اليهود من المملكة الفرنسية

ووصلت في هذه الآونة أوامر من الملك الفرنسي الذي كان موجودا في الأرض المقدسة، قضت بوجوب إخراج جميع اليهود الموجودين في مملكة فرنسا وطردهم، وإدانتهم بحكم نفي دائم، مع —على كل حال— الاستثناء التالي: «لكن كل من كان منهم راغبا في الإقامة، إذا كان تاجرا أو حرفيا، عليه اشغال نفسه بالتجارة وبالحرف»، لأنه قد ألمح إلى ذلك الملك من قبل المسلمين، بأننا نمتلك قليلا من الحب أو الاحترام لمولانا يسوع المسيح، لأننا سمحنا لقتلته بالعيش بيننا، وبناء عليه بادر السماسرة بكل سرعة فاستولوا على أماكن ومكاتب ووظائف اليهود المنفيين.

موت راعي دير القديس أوغسطين في كانتربري

وفي هذه الآونة، كان أيضا راعي دير القديس أوغسطين، على وشك الموت، فقام الملك حتى يظهر كم كان قليلا مانواه من أجل احترام صك الحقوق الذي تقدم ذكره ورعايته، قام باستخدام زبانيته، بنهب مقتنيات تلك الكنيسة، إلى حد تدميرها النهائي، ومن دون حياء أو خجل خرق البنود الأخرى للصك نفسه، ونفّس عن غضبه وأظهره ضد الأساقفة، والنبلاء، والمواطنين في لندن، وقام رهبان ذلك الدير، فركزوا جهودهم بكل سرعة لانتخاب قائد جوقة المرتلين حتى يكون راعيا لديرهم، في سبيل وضع حد لعمل السلب ذاك، ووجد هذا بعد انتخابه صعوبة حتى استطاع تجهيز نفسه بالضروريات اللازمة مما هو موجود في تلك الكنيسة، وذلك بعدما دفع غرامة إلى الملك، وبما أن

ثروة الكنيسة جرى تبديدها على تلك الصورة، وجد الرهبان صعوبة في الانفاق على عيشهم لمدة خمسة أعوام تالية.

حول الخسارة والإهانة التي ألحقت بكنيسة القديسة مريم في يورك

وحوالي هذا الوقت نفسه، عانى راعي دير القديسة مريم في يورك، ورهبان كنيسة الدير نفسه من خسارة ثقيلة، ومن إهانة كبيرة، وذلك بموجب أحد الصكوك الذي حكم بأنه كان لاغياً من قبل خصومهم، الذين كان المقدم بينهم جون الفرنسي، وكان محاسباً لدى متسلم خزانة الملك، وفي الحقيقة كان من المعتقد، أن حقيقة الأمر هو هذا جون نفسه، الذي كان قد ولد في الشمال، كان متشوقاً وراغباً في أن يزيد موارده في هذه المناطق، اعتماداً على ممتلكات تلك الكنيسة ومن خلالها، وهو لذلك حقق الوصول إلى تلك النتيجة، مع تقدير قليل لصالح نفسه، وذلك حسبما كتب: «ويل للإنسان الذي من خلاله جرت أية فضيحة»، ثم إن الرهبان أرغموا على دفع مبلغ ضخم من المال إلى الملك، وعلاوة على ذلك لقد فقدوا إلى الأبد أراضيهم ومواردهم الغنية، وجنوا عاراً لايمكن غسله، وأخيراً تفرقوا، وفي الوقت نفسه آلت حال تلك الكنيسة إلى الاضطراب، وتركت عرضة للخوف والدمار، وبطريقة مماثلة أيضاً، وللسبب نفسه، تسبب جون، المضطهد المتقدم ذكره (الذي حرمه الرب المنتقم من إحدى عينيه، لآثامه المتقدم اقترافها) بخسارة لايمكن تعويضها، وبدمار لايمكن جبره للدير الموجود في سلباي Selby.

استباحة مدينة تيفولي من قبل الرومان

وفي هذه الآونة أيضاً، قام الرومان، بسبب وقاحة سكان مدينة تيفولي Tivoli وتجبرهم باستباحة تلك المدينة، حتى أوصلوها إلى حالة

الدمــار، وأرغم السكان نتيجــة لذلك، ولكـي ينقـذوا حيــاتهم، على الذهاب إلى روما عراة حفاة، يرجون الرحمة.

حول زواج إيرل غلوستر من ابنة أخي الملك

وفي هذا العــام أيضــاً، وبنـاء على خطط البـواتيين الـذين حلوا محل الانكليــز المحليين، ورغبـة منهـم بانحطاط جميع نبــلاء المملكة، وبهذه الطريقـة تدمير جميع الأسر الشرعيـة الانكليـزيـة، حتى يمكن تدميرهم نهائيــاً، ولمزج دمهم النبيل مـع الدم الفـاسـد للأجـانـب، وقـد شعـروا بالأسى لأن من بين النبلاء لم يتلـوث رتشارد ايرل أوف غلوستر وولده بهذا المصدر السام، وكـان هذا الايرل شاباً، ووسيماً، وفصيحاً، وحكيماً، وبارعــاً في قـوانين البـلاد، ولذلك كـان من جميع الجوانب مـوضع أمل جميع نبـلاء انكلترا، وعليـه رست بثقـة جميع هذه الآمـال، وقـد امتلك الحظوة لدى الجميع، مع طيب الرغبات، لكنهم كانوا مخدوعين جميعاً في آمالهم هذه، لأن الشر، والنهم الذي كان مخفيـاً منذ مدة طويلة لديه، قد انكشف الآن وظهـر تمامـاً، مما أسـاء كثيراً إلى نبالتـه، وقـد شعـر الملك آنذاك بنهمـه (لأن الايـرل كـان تحت وصـايتــه لسنين طوال)، ولذلك خاطبه قائـلاً: «عزيزي الايرل، لن أخفي عليك بعد الآن الرغبة السرية لقلبي، وهي أن أرفعك وأغنيك، ولأن ارتقي بمصـالحك، بتزويج ابنك الشرعي الأكبر سناً من ابنة غي كـونت أنغـوليم، الذي هو أخي لأمي، وإليك سوف أبرهن عن سخائي باعطائك خمسة آلاف مارك، بها يمكن أن ترتقي زوجة ابنك إلى مستوى يتماشى مع المستوى الملكي، وذلك كما هو لائق بسيـدة من أصل ملكـي»، وبمـوجب هذه الإثارة، ثم لتـوفـر النهم (الذي هو وحده بين جميع الشرور يمثل العبودية للأصنام) أصبح الايرل منذ تلك اللحظة منحطـاً، وسقط من النبـالة لأجـداده، وأعطى مـوافقته على المال، وكأنه كـان تاجـراً أو مـرابياً، نعم لقـد وافق على أن يتزوج ابنه الشرعي ووريثـه من فتاة، أو بالحري من طفلة، كانت خـالية

من الإيمان والجمال (فهذا مايمكن استخلاصه فرضيا من الشكل المعهود للبواتيين)، وهي قد ادعت التحالف مع الفضائل الملكية، إنما في بعض المناسبات، وحسب المقتضيات، وبما أنه لم يكن ذلك المال المتقدم ذكره متوفرا بين يديه، أي الملك (لأنه عهد لنفسه بعادة تبديد الأموال التي كان ينهبها في جميع الاتجاهات) قام بالرجاء —لكن بطريقة ملكية— إلى رعاة ديرة: القديس ألبان، وردنغ، ووولثام، بأن يكونوا الكفلاء له عند ايرل غلوستر من أجل دفع المبلغ المتقدم ذكره، وكان هذا لايمكنهم قبوله ولاأيضاً رفضه، لأن من الذي يمكنه ارغام الملك على الدفع، إذا ماقاوم؟ كما أنه التمس بتوسل من الاسبتارية والداوية التعهد بالقيام بذلك الواجب، وقد رفضوا بشكل مكشوف أن يفعلوا ذلك، وأعلنوا أنه ليس بمقدورهم القيام بذلك، فأصبح الملك غاضبا، وتفوه بتهديدات مرعبة ضدهم، وأثناء غضبه صرف الراهب روجر الداوي وعزله من وظيفة جمع الصدقات، وطرده من بلاطه، وفي مناسبات أخرى نصب عندما تأتّى له ذلك شباكه الماكرة للداوية والاسبتارية، وبالاضافة إلى ماتقدم كان الملك مداناً بمبلغ كبير من المال إلى سيمون ايرل ليستر، لتخليه عن صك الولاية الذي كان بين يديه من الملك، والذي ولاه بموجبه حكومة غسكوني لمدة خمسة أعوام.

كيف ادعى ملك إسبانيا الحق في غسكوني

عندما علم ألفونسو، ملك اسبانيا، بأن سيمون ايرل أوف ليستر، قد ترك غسكوني، وتخلى عن صك ولايته وحكمه لها، ادعى على الفور، بأن تلك الولاية عائدة له شخصيا، وقد فعل ذلك بثقة كبيرة، لأنها تركت وحيدة لتحكم من قبل الطفل ادوارد، لأنه وفقاً لكلمات لوكان: «إن عمر طاغية النيل مصدر شك كبير، ذلك أن الثقة الدقيقة تستدعي عمراً ناضجا».

ولدى معرفة الملك المتقدم ذكره أعلاه بحقيقتي، بأن الايرل، الذي

كـان رجـلا محاربا، قـد ترك، وأن طفـلاً جـرى تعيينه حـاكماً لها، التمس حظـوة الحبر الأعظـم، حتـى يجري السماح لـه، دون إلحاق أي أذى بالكنيسة، حتى يطلب حكمهـا، ويسترد تملكها بالقـوة، لأنها كانت ملكاً له، بموجب منحة من الملك هنري الثاني ملك انكلترا، وهو يمتلك صكاً بتلك المنحة، جرى تأكيده من قبل كل من الملكين رتشارد، وجون، وبناء عليه دعا ملك قشتالة إلى مساعدته رجلاً مسكونيا من نسب رفيع، وكان قـوياً اسمـه غـاستـون Gaston, كما دعـا نبـلاء آخـــرين من تلك المقاطعة، ولقد كان هناك كثيراً من نبـلاء غسكوني وقفوا إلى جانب قضية ملك اسبـانيـا (وتخلوا عن ملـك انكلترا)، وكـان فـوق الجميع، الرجـال الأغنيـاء، الذين اعتادوا على ارسـال خمورهم للبيع في انكلترا، وهي خمور لم يخجل ملك انكلترا مـن الاستيـلاء عليهـا، والاحتفـاظ بها من أجل مسراته، ولدى مشاهدة شعب بـوردو، الذين بقيوا مخلصين للملك، هذه الإجـراءات، بعثـوا رسـالة إليـه بكل سرعـة، بأنه إذا لم يقم بكل سرعـة وبشكل فعـال، سوف بلا شك يفقـد غسكوني كلها، وأنها سـوف تعطى لغيره ويتم التخلي عنها، لصالح ملك قشتالة، الذي يدعي الحق بها كلها، ويأمل باستحـواذها، وحزن الملـك لدى سماعه بهذا، وتندم قلبيـاً —لكن ذلك جـاء متأخـراً كثيراً— لأنه استـدعى الايرل سيمـون وعـزله عن حكومة غسكوني، وكان ذلك الايرل حتى لايتعرض للاحراج عن طريق التماسـات الملك، ليعـود إلى غسكوني، غادر إلى فـرنسـا، حيث احتفظ به نبلاء تلك المملكة راغبين، واقترحوا عليه، بما أنـه كان جريئاً ومخلصاً، أن يتخـذوا منه قهـرمـاناً عليهم، يتـولى نصيحتهم في سبيل منفعتهم ومنافع المملكة، التي كـانت مهجـورة وفي وضع يائس، بسبب غيـاب الملك، وموت الملكة بلانشي، ورفض الايرل بثبات الموافقة على هذه الخطة، حتى لايظهـر كأنه خائـن، لأنه كما قال الرسـول: «احفظ نفسك وأبعـدها عن جميع مظاهر الشر»، ولأنه عزل عن غسكوني، التي امتلك صكاً بولايتها، راقب تلك الإجراءات بحذر وصمت مع نظرات متغاضية.

حول القيود في قضية الزيارات التفقدية

وفي هذه الآونة، أمر البابا أيضاً، بتقديم ترضية للطائفتين المتنازعتين حول مسألة الزيارات التفقدية، ورسم بشكل حكيم ومعتدل، ووجه بوجوب أن يقوم رئيس الأساقفة والأساقفة، الذين يمتلكون حق القيام بزيارات تفقدية، بالزيارات التفقدية المعتادة والموائمة، لكن في ظل تفاهم أن لايتعرض المزارين للظلم، وأن لايتضايقوا أو ينكل بهم من قبل المتفقدين لهم، وحدد وبيّن مقدار نفقة كل زيارة تفقدية، حسبما جاء في الرسائل المودعة في كتاب Additaments.

كيف عبر بعض النبلاء البحر من أجل تنفيذ الزواج الذي تقدم ذكره أعلاه

ومع اقتراب حلول ربيع العام نفسه، انطلق رتشارد ايرل أوف غلوستر، ووليم أوف بلنسية أخو الملك، معاً بأبهة كبيرة، وبفخامة عظيمة، ليضعا موضع التنفيذ، ويقوما بترتيبات أمور الزواج الذي تقدم ذكره، بين أكبر أبناء رتشارد، وابنة كونت أنغوليم، أخو الملك، وقام هذان النبيلان بتوسعة ثوبيهما، واستهدفا الحصول على شهرة في البراعة بأعمال القتال وهما في زهرة شبابهما، فعرضا باندفاع طائش قوتهما وشجاعتهما، وسرعة فرسيهما أمام الامتحان في مباراة مبارزة عقدت هناك، وكان الفرنسيون المحليون بحكم تجبرهم الذي فطروا عليه ساخطين من إقدام شابين ضعيفين وناعمين على الدخول بتلك المباراة بكل وقاحة (لأننا نقرأ بأن هكتور قال لباريس: «المريخ يفرح بالعسكري الشديد»)، لذلك قاموا برغبة شديدة بالدخول في المباراة، وبعدما أنزلاهما أرضاً، وسلبوهما، ضربوهما إلى درجة أنهما طلبا بعد ذلك استخدام الكمادات والحمامات يومياً، وهما على كل حال استحقا القليل من الشفقة، لأنهما كانا مسرعين من أجل تنفيذ زواج كان

مكروهاً من الانكليز، وكانا مليئين بالتجبر، وبالتفاخر الفارغ، وظهر القمر في هذه الآونة قبل أربعة أيام من موعده الذي أعلن عنه.

كيف جرى ارغام اللنديين على دفع مبلغ من المال إلى الملك

وفي هذه الآونة أيضاً، أي أن تقول في الأسبوعين الأول من الصوم الكبير، أرغم الملك لحجة صغيرة مواطني لندن (الذين ندعوهم بالعادة باسم البارونات، بسبب سمو مدينتهم، وللامتياز القديم لمواطنيها) على الاسهام بمبلغ ألف مارك، وجرب شباب لندن في الوقت نفسه قوتهم، وسرعة خيولهم، في لعبة تدعى بشكل عام /Quintain/ حيث اتفقوا على ديك ليكون الجائزة في المباراة،وغضب بعض من أتباع الحاشية الملكية وغلمانها (لأنه كان موجوداً في ويستمنستر) من هذه المباراة، وأهانوا المواطنين، ودعوهم باسم: فلاحين، وضعفاء، وتعساء كالرغوة، ودخلوا على الفور في قائمة المتبارين ضدهم، وبحماس قبل اللندنيون التحدي، وبعدما ضربوهم على ظهورهم بعصي رماح مكسرة، ظلوا يتناولوهم، حتى أصبحت ظهورهم سوداء وزرقاء، ثم ألقوا بجميع أتباع الملك من على ظهور خيولهم، وأرغموهم على الفرار، ثم ذهب الفارون إلى الملك، وأيديهم متشابكة، ودموعهم منهمرة، والتمسوا منه أن لايدع هذا العدوان الكبير يعبر من دون عقوبة، ولجأ هو إلى طريقة انتقامه المعتادة، فاستخرج مبلغاً كبيراً من المال من المواطنين.

حول مراسيم من أجل تقوية المملكة

وفي تلك الآونة أيضاً، أي في أيام الصوم الكبير، انتشرت أخبار، تبينت صحتها، أفادت بأن الغسكونيين تحدثوا بوقاحة فيما بينهم أنفسهم قائلين عن ملك انكلترا: «إننا لن نقبل به حتى أن يحكمنا، لأنه رجل غير عادل، وهو رجل لايحافظ على وعده، ولاعلى يمينه، ولاحتى على

بنود صكوكـه»، ووصلت بعد أيام أخبـار بأن لى راؤل La- Raole,
في غسكوني والقـديس اميليـون Emilion وعـدة قـلاع أخـــرى،
جرى الاستيـلاء عليها، وضاعت لغير صالح الملك، وأن مـذبحة كبيرة
قد وقعت بين السكان، وارتعب الملك إلى درجة عالية، خشية أن يحدث
بمثل هذه الخسائر أن تصبح غسكوني كلهـا عرضة للخطر، مثلما حدث
مـؤخـراً في قضيــة بواتو، (لأن هـاتين المملكتين هما بالفعل الحارسين
والحاجزين للمملكة الانكليزية كلها) ولذلك أصدر مرسوماً، وأمر بأن
يعلن بوسـاطة صـوت المنـادي في جميع أرجـاء انكلترا بشكل عـام، كما
جـرى ارسال أوامـر مكتوبة إلى كل منطقـة من المناطق، أنه تبعاً للعـادة
القديمة، يتوجب تقـديم مايكفي من كميات الأسلحة إلى السكان، وأنه
ينبغي حشـدهم، واجـراء احصاء عـام، من أجل تأمين عـدد كـاف من
الرجال المقتـدرين، وتجهيزهم وفقاً لامكـانات كل واحد منهم، وأن كل
من يمتلك خمس عشرة حصـــة أرض محررة، ينبغي أن يكون فـارسـاً،
وعـــلاوة على ذلك، ينبغي أن يكون في كل مـدينة، أي بقـدر امتــداد
حـدودها القضـائية، حـراسـة معينة، يشرف عليهـا رجال ذوي حكمـة
واستقامة وحذر، من أجل أن يتولوا حـراسة القرى والشوارع وطرقات
الدخـول والخروج، وفضـــلاً عن هذا أصـدر الملـك، بناء على نصيحـة
السافـويين مرسومـاً ووجه أنه إذا ما كـان أي إنسان مسافـراً، وتعرض
للنهـب، أو لـلأذى بأي شكـل مـن الأشكـال مـن قبل قطـاع الطـرق،
يتـوجـب على الذين قـد أوكلت إليهـم مهـام حـراســة ذلك الجزء من
المقـاطعة، والذين تعتمـد عليهم بشكل خـاص، أن يقدمـوا تعويضـات
كـافية للفئة التـي تعرضت للأذى، وعليهم أن يعيـدوا إليهم الذي فقـد
تبعـاً لأعـراف السافـويين، ويعني ذلك أن الأشيـاء إذا مـا حملت بعيـداً
وسلبت، عليهم ملاحقـة ومطاردة مقترفي الآثام، وتنظيف المنطقة منهم،
ولقـد بدا واضحاً إلى كثيرين، أن هذه الخطة من غير الممكن تنفيـذها في
هذه البلاد، مثلما هي مطبقـة في سافـوي، لأنه في بلاد سافـوي لايوجد

مثل هنا الكثير من الجوانب الواقعة قرب الطريق، والعديد من الأحراج، أو مثل هذه الكثرة من الغابات والأشجار، كما أنه ليس موجوداً هنا بسبب الجبال الوعرة والتي لايمكن الوصول إليها، طرقاً مفتوحة، بل مجرد ممرات مطروقة فقط، حيث لايمكن لقطاع الطرق المحافظة فيها على أنفسهم بشكل موائم بعيدا عن الطرق، أو اخفاء أنفسهم، ونتيجة لذلك كان من السهل اعتقالهم، وبالاضافة إلى هذا ماالذي يمكن قوله، أو كيف يمكن البرهنة على أي شيء من دون شهود؟ وهكذا إنه نظرا لتوفر بعض عدم الرضا، أعيقت القضية، أو بالحري لم تحقق أية نتيجة، والسبب الأول لذلك، أن مثل ذلك التغيير الكبير في القانون، لم يكن من الممكن إحداثه بشكل فعال من دون موافقة عامة للبارونات.

وفاة رتشارد دي ويتز أسقف شيستر

وفي حوالي الوقت نفسه، أي في الثاني من نيسان، مات المعلم رتشارد دي ويتز Witz أسقف شيستر، وكان رجلا متميزاً في علمه، وبقداسة محمودة، وكان من قبل كاهنا ومستشاراً خاصا لدى القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، وهو قد حاول أن يسير على أثره ويقلده خطوة خطوة، وكان ادموند المبارك قد تنبأ لهذا الأسقف بالوصول إلى مرتبة الأسقفية، وقد ذهب إلى بونتني في الوقت الذي كان سيجري فيه نقل القديس المتقدم ذكره، من أجل أن لايكون مثل ذلك الصديق الخاص للقديس غائباً عن حضور مثل تلك المناسبة المهيبة والمقدسة، وفي الحقيقة كان هو على علاقات طيبة مع القديس، وكان على اطلاع على جميع أسراره، التي غدت الآن كلها مكشوفة في سبيل تنوير الجميع، واعتماداً على ماذكره هذا الرجل مع الذي أورده الراهب روبرت بكيون Bacon, الذي كان من طائفة الدومينيكان، تمكن الراهب متى باريس، الذي هو راهب في كنيسة القديس ألبان، من كتابة

سيرة حياة القديس ادموند المذكور، كما أنه صنف بعناية الذي عرفه عن طريق أناس كانوا بلا شك موضع ثقة، وكل من أراد الاطلاع على ذلك الكتاب يمكنه أن يجده في كنيسة القديس ألبان.

تجدد الاضطرابات بين الغسكونيين

وفي حوالي حلول يوم عيد القديس إلفيجي Elphege, وجد الرعايا الخونة للملك في غسكوني، أن غياب الايرل سيمون، وأي واحد يمكن أن يضبطهم ويؤدبهم، قد منحهم الفرصة للتحرك بحرية للتعبير عن غضبهم وحماقتهم، فشرعوا مثل حيوانات مفترسة، أو مهرة غير مدجنة، يتصرفون بطيش، ويضايق كل واحد منهم الآخر، فهاجموا القلاع، وأسروا الأتباع وسجنوهم، وحولوا إلى رماد مساكن بعضهم بعضاً، وتسببوا في موت السكان، وكان بينهم وأعظمهم دوراً هو غاستون حاكم بيرن Bearn وبيريغورد Perigord, وكان رجلاً ملطخاً باقتراف كثير من الجرائم، وكان من الرعايا المقسمين على الاخلاص للملك، لكنه جرد نفسه من ذلك وحنث بقسمه، ومع أن ملك انكلترا وفره ولم يقم بإدانته، فقد قام في سبيل مضايقة هذا الملك وإغضابه أكثر، بالتحول إلى جانب ملك اسبانيا، ثم قام هذا الرجل باجتياح شطر كبير من غسكوني، وأثار الأعداء وشجعهم على التمرد ضد مولاهم وسيدهم ملك انكلترا، ولذلك باتت بوردو التي كانت بالعادة تزود غسكوني كلها بالمؤن، هي نفسها تعاني من العوز.

كيف جرى نهب بضائع الفقراء

نال الملك في هذه الآونة كراهية لايمكن إزالتها، وجلب إلى نفسه اللعنات المرعبة لكل من السكان المحليين والأجانب، وقد تزايدت هذه اللعنات وأسبابها يومياً، لأن عمد المناطق والوكلاء الملكيين، عملوا شغلهم الدائم، اعتماداً على حجج مخترعة أو أسباب أخرى، القيام

بإفقــار كل من يمكنهــم افقــارهم، أو بالحري نهبهم، وصــار الآن في انكلترا كثيراً من الملوك المستبدين، كل واحـد منهم لديه الرغبة بالسلب والنهب، وأعتقـد أنه خطير ومزعج الإقـدام على تسميتهم، فقد سلبـوا من الفقـراء، وبشكل خـاص من البـاعة والتجّـار خيـولهم، وعـرباتهم، وخمورهم، ومــؤنهم، وأقمشتهم، وشمعهـم، والحاجيــات الأخـــرى الضرورية، لابل إنهم أرغموا المنهوبة بضـائعهم بالاكراه وضد إرادتهم، على نقل البضائع المسلوبة إلى أماكن نائية، دون إعطائهم أجراً، ولاحتى شكراً فـارغـاً مقـابل أتعـابهم، وقـد عثـروا على أخطاء من دون سبب، ففرضـوا غرامـات ثقيلة على البلدات، واحتجوا بـوجود موازيـن زائفة وكذلك مقاييس، فاستخـرجوا المال من الأبرياء، وبما أن الخمور جلبت للبيع من قبل الغسكونيين، وقـد جـرى الاستيـلاء عليهـا، من دون أية مـدفـوعـات، فـإن الذين جلبـوها، عـادوا بأيدي فـارغـة إلى بلادهم، واشتكوا إلى جميع سكان مناطقهـم، ونتيجـة لذلك جنى الملك كـراهيـة عامة.

حول منح امتياز عظيم إلى كنيسة وولتهام

وفي أيام عيـد الفصح، من هذا العــام نفســه، قـام الملك تقـديراً منه لقداسـة كنيسة وولتهـام Waltham وللكرم الفخم الذي أظهره راعي الدير مع رهبان دير وولتهـام، ولذلك منح وثبت ما كـان ممنوحاً من راعيه، من خلال وفاة الراعي أو استقالته، أن يقوم الرهبان بناء على إرادتهم ولصـالحهم، ولامتـلاكهم السلطة الكاملة: التصرف بالبـارونيـة وبالممتلكات الأخـرى للدير، ولهذه الغـاية منحهم صكاً نظامياً كامـلاً، وكان هذا الامتياز قـد حصلوا عليه منذ زمن قديم مضى، إنما من أجل ضمانة أعظم، منحهـم الملك إياه مجدداً وأكده لهم، وقد منحهم أيضاً حق عقد سوقين، وأنعم عليهم بمنافع أكبر، هذا وجرى عرض هذه الأشياء كلها مع محتويات الصكوك كاملة في كتاب Additaments.

كيف طلب الفرنسيون المشورة والمساعدة من الإيرل سيمون

ومع اقتراب حلول عيد الفصح، تفحص النبلاء الفرنسيون وقدروا كيف أن مملكة فرنسا كانت محرومة من وجود حاكم لها، وأنها كانت عرضة لخطر عظيم، وذلك بسبب غياب الملك الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وكذلك بسبب وفاة الملكة بلانشي، يضاف إلى ذلك أيضاً خسارة نبلاء فرنسا الذين قتلوا في الأرض المقدسة، فحولوا انتباههم نحو الايرل سيمون، لأنهم رأوا اخلاصه، ونبالة عقله، وأنه تعلم حتى يحذو مثل والده في جميع الأشياء، كما أنهم رأوا أنه قد تحرر من حكومة غسكوني، فالتمسوا منه ورجوه أن يقوم بالاقامة بينهم، حتى يصبح واحداً من الأوصياء على التاج وعلى مملكة فرنسا، وأنهم سوف يكدسون التشريفات عليه بمثابة تعويضات مجزية، ذلك أنهم أكدوا أنه كان مثل والده سيمون الذي قاتل لصالح الكنيسة ضد الألبينيين، ولأنه أحب مملكة فرنسا من قلبه، كما أنه لم يكن غريباً بالنسبة لفرنسا من حيث الأصل، وأرسل الفرنسيون مرتين رسائل من أجل هذه الغاية مع رسل خاصين، إلى الايرل، لكنه رفض بثبات الاستجابة لطلبهم، حتى لايبدو وكأنه مرتد.

كيف دعي البابا إلى العودة إلى وطنه من قبل الرومان

وفي هذه الآونة، أرسل الرومان رسلاً خاصين، ليتقدموا بالرجاء إلى البابا حتى يعود إلى روما، ليعين رعيته مثل راع صالح، ولكي تبتهج روما بوجود حبرها (لأنه حمل لقب الحبر الروماني) مثلما فعلت المدن الأخرى، حيث تمتعت كل منها بوجود أسقفها، وقد ظهر للرومان —وحق لهم أن يظهر— أنه من غير الطبيعي أن تكون روما لوحدها —التي كانت تدعى باسم «ملكة المدائن»— محرومة لمثل تلك المدة الطويلة من وجود كاهنها الأعظم وحضوره فيها، هذا وكان البابا فاغراً فمه لتلقي الهدايا من هؤلاء الذين جاءوا إليه، وفتح صدره لتسلم جميع

أنواع الأعطيات، لكنه وإن بدا مرتاحاً، كان غير مستقر عندما كان موجوداً بين الناس على هذا الجانب من الجبال، ولأنه تأخر عن القدوم، دعاه الرومان مرة ثانية، كما فعلوا من قبل، لكن بإلحاح أكثر ومع شرط أن عليه أن يأتي إليهم أو أنه لن يأتي أبداً، وعندما شاهد بأن الخطر محيق به، خاصة عندما أرسل الرومان رسالة إلى أهل بيروجيا، بأن لايحتفظوا بالبابا أية مدة أطول، مع التهديد أنهم إذا فعلوا ذلك سوف يحاصرون ويدمرون، وقتها غادر بيروجيا في شهر أيار، وبادر مسرعاً إلى روما خائفاً مرتعداً، ولقد همس إليه بأن الرومان والميلانيين يطالبونه بدفع مبلغ كبير من المال، مستحق لهم مقابل ماأنفقوه في شن الحرب ضد فردريك وفي حماية الحقوق البابوية واللاهوتية، وبناء عليه إنه وإن كان قد شد حذاءه تحت ملامح هادئة، لقد عاد إلى مدينته وهو يشعر بالخوف والقلق، وعلى كل حال استقبله الشيخ والشعب الروماني بالبهجة.

حول البارلمان العظيم الذي عقد خلال أسبوعي الفصح

في أسبوعي عيد الفصح، في شهر أيار، جرت دعوة نبلاء انكلترا للاجتماع مع بعضهم، بموجب قرار ملكي، وتوجب اجتماعهم في لندن، للتباحث مع الملك حول بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالمملكة، وحضر في هذا الاجتماع والتقى عدد كبير من الايرلات، والبارونات، وكذلك بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري، مع جميع أساقفة انكلترا تقريباً، أما بالنسبة لرئيس أساقفة يورك (الذي كان بالعادة يتجنب الالتحاق بالملك في المؤتمرات، بقدر ما كان يستطيع، لأنه وجد بالغالب أنها كانت مؤتمرات بلا فائدة عملية) فقد اعتذر عن الحضور، بحجة كبر السن، وعيشه على بعد كبير، وكان سوء صحة أسقف شيكستر مسوغاً لعدم حضوره، وكان كرسي شيستر في تلك الآونة شاغراً، وبعد مناقشات طويلة كانت بلافائدة، حيث جرت حول الحاجة الضاغطة

للملك، الذي طالب بمبلغ كبير من المال من أجل حجه، وبعد القيام فجأة بتوزيع رسائل بين الفئتين، تمّ الحصول على الموافقة، ثم جرى ارسال رئيس أساقفة كانتربري، وأسقفي سالسبري، وكارآيل، والأسقف المنتخب لوينكستر، إلى الملك، باسم جميع الأساقفة ورجال الدين، لحثه ولاقناعه، بحكم أنه وعد مراراً، وأقسم بالتنفيذ أيماناً مهيبة، أن يسمح للكنيسة المقدسة أن تتمتع بجميع امتيازاتها، خاصة فيما يتعلق بقضية الانتخابات، الموجودة بشكل أساسي داخل الامتياز اللاهوتي، لأنه في الوقت الحالي، من غير الممكن ترقية أي واحد في الكاتدرائيات، أو في الكنائس الديرية، مالم يكن قد فرض عليهم بوساطة الملك، ولهذا السبب فإن الأساقفة والمتعلقين بهم قد لحق بهم الدمار، وتأذت الكنائس بصورة مرعبة، وقد قالوا بأنه إذا ما أقدم على تقويم هذا مع بعض التجاوزات الأخرى، تماشياً مع بنود الصك العظيم لامتيازاتهم، فإنهم سوف يوافقون على مطالبه، مع أن ذلك سيلحق بهم أذى كثيراً، وعلى هذه الاقتراحات أجاب الملك قائلاً: «إن الذي ذكرتموه صحيح، وأنا حزين وآسف لأنني تصرفت على هذه الصورة، وبناء عليه ينبغي أن يتم الترتيب الآن أن يجري تصحيح الذي عمل، وأن لاتتخذ مثل هذه الإجراءات في المستقبل، وكونوا أنتم أيها الأساقفة معي، بحكم أنكم ترقيتم على هذه الصورة، حتى لاتتعرضوا للأذى، أنتم والذين هم رعية لكم، لأن عليكم أن تتذكروا، أنني أنا الذي دفعت إلى المقام العالي الذي هو فيه الآن بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وأنت ياوليم أسقف سالسبري، أنا الذي ارتقيت بك من درجة منخفضة كثيراً، لأن تكون الكاتب لصكوكي، ولقد عملت كثيراً من الأحكام المرعبة عندما كنت تعمل بمثابة مسؤول عن العدل، وتابعاً مأجوراً، وأنت ياسيلفستر أسقف كارآيل، الذي كنت لمدة طويلة تلتقط فتات المستشارية، وكنت كاهناً صغيراً بين كهنتي، كم من اللاهوتيين والأشخاص المحترمين قد وضعتهم أنا جانباً، لأرتقي بك إلى الأسقفية؟ ومثل هذا بالنسبة لك

ياأخي ايثيلمار، من المعروف تماماً، كيف ارتقيت بك، ضد إرادة الرهبان، ومن دون الاهتمام بصلواتهم وانذاراتهم، ورفعتك إلى رئاسة كنيسة وينكستر الفخمة، وذلك على الرغم من صغر سنك وقلة علمك، لابل كونك مازلت تحتاج إلى أستاذ، وأولاً وفوق كل شيء، إنه من الموائم لي ولكم أنفسكم، أن تقوموا تحت تأثير التوبة، بالاستقالة مما حصلتم عليه بشكل غير عادل، حتى لاتعانوا من إدانة أبدية، وأنا سوف أمتلك بمثل هذا المثال المسوغ والدافع، بأن لاأقوم من الآن فصاعداً، بترقية أي إنسان إلى منصب ليس هو جديراً به»، وعلى هذا كان النقاش أديباً وفيه نقد توبيخي وسخرية لاذعة، ثم إنهم أجابوه قائلين: «مولانا الملك نحن لانريد أن نذكر الذي مضى، إن مطلبنا يمتد إلى المستقبل»، ثم إنهم تخلوا عن جميع القضايا المثيرة، التي يمكنها فقط أن تثير الخلافات، ثم إنهم نقلوا أنفسهم بشكل جدي إلى الأعمال الصعبة التي أمامهم، وبعد أمد طويل وبعد كثير من النقاشات التي استمرت لمدة خمسة عشر يوماً وأكثر، تقرر بموجب الموافقة العامة للجميع، عدم إعاقة الملك مطلقاً في نيته، التي كانت نية تقوية، وهي القيام بالحج، إنما ينبغي أن لاتعاني المملكة والكنيسة من أضرار كبيرة بموجب ذلك، وبناء عليه جرى منح الملك العشر من الموارد التي تتلقاها الكنيسة، وهذا العشر ينبغي انفاقه تحت اشراف النبلاء المستقيمين على ضروريات الرحلة، وأن يكون ذلك لمدة ثلاث سنوات، كما تقرر أيضاً أنه عندما سينطلق يريد القدس، في سبيل مساعدة الأرض المقدسة ضد أعداء الرب، يتوجب فرض ضريبة بدل الخدمة العسكرية على الفرسان لذلك العام، أي ثلاث علامات لكل رنك من الرنوك، ووعد الملك باخلاص وحسن نية كاملة، ومن دون أية مواربة، بأنه سوف يأخذ بصدق بالصك العظيم (الماغنا— كارتا) وبجميع شروطه، والذي حدث أن والده، الملك جون كان قد أقسم منذ سنوات خلت على تطبيق ماجاء في ذلك الصك، ومثل هذا فعل الملك الحالي

لدى تسلمه التـاج، ثم فعل ذلك في كثير من المناسبـات فيها بعد، حيث تمكن بهذه الوسائل من استخراج مبالغ ضخمة من المال، وكان موجوداً في هذا المؤتمر من رجـال الـدين والأسـاقفـة: بونيفيس رئيـس أسـاقفـة كـانتربري، وأسـاقفـة: لندن، وروكستر، وايلاي، ولنكولن،ووركستر، ونورويك، وهيرفـــورد، وســالسبري، وباث، واكستير، وكـــارلآيل، ودورهام، والقديس داود، والأسقف المنتخـب لوينكستر، وكان أسقف شيكستر قـد مات مـؤخراً، واعتـذر أسقف شيستر وسوغ غيـابه بسبب سـوء الصحـة، وكذلك فعل رئيس أسـاقفـة يورك بسبب تقـدم السن، ولإقامته في مكان بعيد جداً.

وفي اليـوم الثـالث من أيار جـرت قـراءة الإعلان التـالي في القـاعـة الكبرى في ويستمنستر: «بحضور ومـوافقة مـولانا الحاكم هنري، الملك المشهـور لانكلترا، مع أصحاب السمـو: رتشارد ايرل كـورنوول، أخي الملك، ور. R ايرل أوف نـورفـــولك وسفــــولك Suffolk ومـــارشـــال انكلترا، وهــ . H ايرل أوف هيرفـــــــورد، وهــ . H ايرل أوف اكسفـورد، وج. J ايرل أوف وورويك Warwick, والنبلاء الآخرين للمملكة، نعلن نحن: ب. B الذي هو بالنعمة اللاهوتيـة، رئيس أساقفة كـــانتربري، والأول في جميع انكلترا، وف. F أسقـف لندن، وهــ . H أسقف ايـلاي، ور. R أسقف ووركستر، وو. W أسقـف نـــورويـك، وب. P أسقـــــف هيرفـــورد، وو. W أسقف ســـالسبري، وو. W أسقف درم، ور. R أسقف اكستير، وس. S أسقف كـــــارلآيل، وو. W أسقـف بـاث، ول. L أسقـــف روكستر، وت. T أسقف القديس داود، ونحن في ثيابنا الحبرية مع الشموع المشتعلة، بأننا تفوهنا بشكل مهيب بقرار عقـوبة الحرمان الكنسي وفق الشروط التالية: ضد جميـع الذين يخرقون امتيـازات الكنيسة، وامتيـازات الأعراف الحرة

لمملكة انكلترا، ولاسيما ماجاء متضمناً في صك الامتيازات لمملكة انكلترا، وفي الصك المتعلق بالغابات (وكانت هذه الصكوك قد كتبت ووضعت في الكتاب، لدى الحديث عن أيام هنري الذي تولى منحهم)، وإننا نتولى بموجب سلطات الرب القدير، والابن، والروح القدس، والأم المجيدة للرب، مريم العذراء الدائمة، والرسولين المباركين: بطرس، وبولص، وجميع الرسل، والمبارك رئيس الأساقفة الشهيد توماس، وجميع الشهداء، والقديس ادوارد ملك انكلترا، وجميع المعترفين والعذراوات وجميع قديسي الرب، حرمان، وتكفير، مع الطرد من عتبات الكنيسة الأم المقدسة، جميع الذين سوف يقومون من الآن فصاعداً عن معرفة وبصورة شريرة، بتجريد الكنائس أو حرمانهن من حقوقهن، وكل الذين سيقومون بخبث، أو يسعون بطيش لخرق، أو انقاص، أو تغيير بصورة سرية أو علنية، بالقول أو بالفعل، أو بالمشورة والرأي، امتيازات الكنسية، أو الأعراف القديمة والمصادق عليها العائدة للمملكة، وبشكل خاص الامتيازات والأعراف الحرة الموجودة في الصكوك المتعلقة بالامتيازات العامة لانكلترا، وللغابات، وهي الامتيازات التي جرى منحها من قبل مولانا ملك انكلترا، وتشمل العقوبات رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورجال الدين الآخرين في انكلترا، والايرلات، والبارونات، والفرسان، والمتملكين الأحرار، إذا ماقاموا بطيش بانتهاكهم، أو أي واحد أقدم على ذلك بأي فعل كان، والعقوبات أيضاً ضد الذين سيذيعون، أو إذا ماأذيع سوف يأخذون بأي بند، أدرج مجدداً أو سوف يدرج، أو سيرعون أي عرف جديد، ضد هذه الامتيازات، أو ضد بنودها، أو ضد كتّاب مثل هذه البنود، أو ضد المستشارين والمنفذين لهم، والذين يسعون للحكم بموجبهم.

وليكن بمعلوم جميع الذين تقدم ذكرهم أعلاه فرداً فرداً، الذين سوف يقترفون عن دراية أياً من التجاوزات التي تقدم ذكرها، وليكونوا

على يقين بأنهم سينالون هذه العقوبة، بسبب الاقتراف، والذين من خلال الجهل سوف يقترفون مثل هذه الأفاعيل، ولم يقوموا بعد انذارهم، بالاصلاح وتقديم ترضية كاملة عما اقترفوه خلال أربعة عشر يوماً، شروعاً من يوم التذكير، أمام قضاة متميزين أو عاديين، فهم إذا لم يفعلوا ذلك، سوف يشملون من ذلك الحين بالعقوبة، وإننا نشمل بهذه العقوبة نفسها أيضاً، كل من يعكر صفو سلام الملك والمملكة، وتخليداً للذكرى وضعنا أختامنا على هذه العروض».

ثم أحضروا إلى أمام الاجتماع، صك والده الملك جون، الذي قام الملك هنري بإرادته الحرة، فمنح أيضاً بموجبه الامتيازات التي تقدم ذكرها، وعندما أصغى الملك إلى قرار العقوبات المتقدم ذكره، وضع يده على صدره، وحافظ على نظرة هادئة، ومشرقة وفرحة، وعندما قام رجال الدين أخيراً بعد الفراغ، بإلقاء الشموع أرضاً، وعندما انطفئت هذه الشموع أرسلت رائحة نتنة، وهنا قال كل واحد منهم ورددوا جميعاً: «هكذا سوف يهلك وتصدر عنه مثل هذه الرائحة في جهنم جميع الذين سينالون هذه العقوبة»، وكانت الأجراس في الوقت نفسه تقرع، وهنا قال الملك: «هكذا ساعدني يارب، إنني سوف التزم بصدق بجميع هذه البنود، بحكم أنني رجل، ومسيحي، وفارس، وملك متوج وممسوح».

وينبغي أن نشير إلى أنه لدى الشروع بالتفوه بهذا القرار، أعطيت شموع مشتعلة إلى جميع الحضور، وعندما أعطيت شمعة إلى الملك، أخذها لكنه لم يحتفظ بها، وناولها إلى واحد من الأساقفة قائلاً: «إنه لايليق بي أن أمسك مثل هذه الشمعة، لأنني لست كاهناً، فالقلب يعطي أصدق برهان، واحتفظ لبقية الوقت بيده مفتوحة وهي موضوعة على صدره، وظل هكذا حتى تم الفراغ من قراءة قرار الحكم.

وصمم —على كل حال— روبرت أسقف لنكولن في قلبه على القيام

فور عودته إلى كرسيه بإعلان قرار العقوبات الكنسية بكل مهابة في كل كنيسة موجودة في أسقفيته (التي من الصعب علينا القيام بتعدادها) ضد جميع الذين سوف يخرقون الصكوك التي تقدم ذكرها أعلاه، وخاصة ضد الكهنة، وفعل ذلك خشية منه من أن الملك سوف ينقلب على الفور ويتخلى عن تعهداته، ولذلك علق هذا القرار في آذان الجميع، وأرعب قلوب الذين سمعوه إلى أقصى الدرجات.

حول عزل الإيرل سيمون من ولاية غسكوني

وهكذا كان أن ارفض الاجتماع، وما أن جرى ذلك حتى حصل الملك على الفور على أسوأ مشورة، استهدفت إلغاء جميع الإجراءات التي تقدم ذكرها، فلقد قيل له إنه إذا جرت المحافظة على الشروط المذكورة أعلاه، هو لن يكون ملكاً، ولاحتى سيداً لانكلترا، وأن والده جون قد اكتشف ذلك، ولذلك فضل الموت على أن يداس على هذه الصورة تحت أقدام رعيته، وقال له وكلاء الشيطان هؤلاء همساً: «لاتشغل نفسك إذا مانلت هذه العقوبة، لأنه مقابل مائة أو مائتي باوند سوف يحللك البابا، فهو بموجب سلطاته الواسعة يمكنه أن يحلّ أ و يربط كل الذي يختاره، وما من أحد مهما كان عظيماً، يمتلك سلطة أعلى من السلطة التي يمتلكها هو نفسه، فأنت سوف تحصل على جزء العشر كاملاً، الذي سوف يصل إلى كثير من آلاف الماركات، وإنك إذا ما أعطيت جزئاً صغيراً من هذا المبلغ الكبير إلى البابا، سوف يتولى تحليلك، حتى ولو كان قرار الحكم مؤكداً من قبله، لأن إليه يعود حق نقض وإلغاء أي شيء كان مقرراً، وفي الحقيقة إنه مقابل مكافأة صغيرة، يمكنه حتى أن يمدد مدة الاسهام بدفع العشر لمدة عام، أو لمدة عامين».

وهذا ما وقع إثر ذلك، حسبما توضح ذلك الرواية التالية: وفي حوالي الوقت نفسه أرسل سكان بوردو رسالة إلى الملك بأنه مالم يقدم بسرعة وبكل قوة إلى غسكوني، سيكون من المؤكد فقدانه للبلاد كلها، وحول

هذا كانوا غالباً ما أخبروا الملك بذلك من قبل، لكن في هذه المرة فعلوا ذلك ببيانات واضحة، وأضافوا (ماكان زائفاً) بأنه قد خسر كثيراً من الرعية والأصدقاء، من خلال طغيان سيمون، ايرل أوف ليستر، لأنه دجن وأنزل إلى طاعة الملك، كثيراً، لابل وأكثر من كثير من المتمردين الأقوياء ضده، ثم إن الملك رغب بإرضاء الغسكونيين، فأخبرهم بأنه إذا ماعاش سوف يأتي إليهم من دون شك، وبقوة في سبيل تشريفهم وعلو شأنهم، كما أنه أمر بأن يعلن بوساطة المنادين في غسكوني، أنه ما من أحد ينبغي له من ذلك الوقت فصاعداً، الخضوع للايرل سيمون، أو اطاعته، وجعل أمراً معلوماً للجميع فرداً فرداً، أنه نتيجة للشكاوى التي عملت ضد مظالم الايرل، قد قام بعزله، وأن ذلك كان مقابل نفقة كبيرة، لأنه انتزع منه الصك الذي كان الايرل قد حصل عليه، من أجل الاستحواذ على غسكوني للأعوام الثلاثة المقبلة، وأعطت هذه الإجراءات كلها رضاً عظيماً إلى الغسكونيين، ثم كان أن الخيانة التي بقيت متخفية لمدة طويلة، قد أعلنت عن نفسها، لأنه منذ اللحظة التي عرف بها أصدقاءه الخلص، أن مدة حكم الايرل قد انتهت، قام هؤلاء المتظاهرون بالصداقة، والذين تبعوا سعادته، فأصبحوا أكثر أعداءه مرارة.

حول عودة هنري أوف باث إلى البلاط

وفي هذه الآونة أيضاً، نسي هنري أوف باث جميع أحزانه، وقام مجدداً بناء على إرادته المحضة فمزج نفسه وشغلها بمشاغل الاهتمام بالبلاط، لأن الذي تشغله الدنيا بمتاعبها، يجد بعض الصعوبة بالنجاة منها، وفي هذا العام أيضاً، جرى تعيين الفارس أرنولد دو بيوس Bois مسؤولاً رئيسياً عن الغابات، في محل روبرت باسليف، وذلك في الأجزاء الجنوبية من انكلترا، امتداداً حتى نهر ترنت Trent الكبير، وعيّن جون أوف ليكسنغتون Lexington, وكان

فارساً، للمناطق الممتدة من النهر نفسه إلى مملكة سكوتلندا، وجاء ذلك بدلاً عن غيوفري دي لانغلي Langley, الذي أفقر في السنوات الماضية من دون رحمة ومن دون سبب جميع سكان المنطقة المجاورة للغابات.

حول المعجزات التي عملت عند قبر رتشارد أسقف شيكستر

وعمل الرب في الوقت نفسه معجزات واضحة عند ضريح رتشارد، أسقف شيكستر، في كنيسة ذلك المكان، وقد جرى الآن الكشف عن تقواه السرية، لأنه عندما قضى، وتمت تعرية جسده، بغرض القيام بغسله، تبين أنه كان مغطى بثوب من الشعر، ومتمنطق بأطواق حديدية.

حول انتخاب جون كلبنغي لأسقفية شيكستر

وفي هذه الآونة وضع الكهنة النظاميون لشيكستر الرب أمام أعينهم، فانتخبوا أسقفاً لهم المعلم جون كلبنغي Clippinge, وكان كاهناً نظامياً في الكنيسة نفسها.

حول الزيارة التفقدية للطائفة السوداء

وعزم البابا، بناء على شكوكه ومقاصده، وأمر الآن الأساقفة، وفرض على كل واحد منهم القيام بزيارة تفقدية إلى التجمعات الرعوية الرهبانية وإلى الديرة المؤسسة في أسقفيته، وارغامهم تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي بتطبيق بعض الشروط التي لاعلاقة لها بأحكام القديس بندكت، والتي لاتشكل جزئاً من صلب الأحكام المذكورة، والتي عملها الرهبان ممارسة لن يطيعونها مطلقاً، وتعهدوا أنهم لن يمارسونها أبداً، وعندما وجد رهبان الطائفة السوداء (البندكتيون) في فرنسا، أنفسهم محرومين تماماً من حماية الملك، نشدوا شراء السلام لأنفسهم، حتى لايكونوا عرضة للخضوع لإرادة الأساقفة، الذين كانت

الامتيازات الممنوحة لهم هدفاً للكراهية، ولهذا دفعوا أربعة آلاف باوند من نقود تورين إلى البابا، وبذلك أوقفوا عنف هذا العمل الطغياني، وهذه الشؤون وجميع ماتعلق بها من خصوصيات، قد جرى شرحها بصورة كاملة في كتاب Additaments, وترافع راعي دير القديس ألبان ورهبانه إلى البابا، واشتكوا ضد الزيارة التفقدية لأسقف لنكولن، لأن بذلك سوف يجري خرق امتيازاتهم.

كيف عمل ملك إنكلترا الاستعدادات لحملة إلى غسكوني

فور عقد المؤتمر الذي تقدم ذكره أعلاه (يعني أن تقول في حوالي الأول من حزيران) جرى اخبار الملك بالحالة البائسة في غسكوني، فحشد بموجب الأوامر الملكية الفرسان الذين يدينون له بالخدمة العسكرية في جميع انكلترا، وأمرهم بأن يكونوا مستعدين مع الخيول والأسلحة والأشياء الضرورية الأخرى في بورتماوث، في ثمانية عيد التثليث، للاقلاع بحراً معه، بحكم أنه كان على نية الانطلاق بحملة كبيرة قوية إلى غسكوني، التي كانت الآن عرضة للخطر، واستهدف من وراء ذلك إعادتها للطاعة، ومن ثم استرداد السلام، وأمر بالوقت نفسه بالاستيلاء على جميع السفن العائدة للتجار، وسفن النقل العائدة للقارة أو لانكلترا، أو للآخرين، واستهدف من هذا الاستيلاء تأمين نقله شخصياً مع أتباعه، وكان تعداد هذه المراكب يزيد على الألف، وقام أصحاب هذه السفن، بتأخير إقامتهم وتمديدها لمدة ثلاثة أشهر، مقابل خسائر كبيرة ومتاعب عظيمة، وفعلوا ذلك انتظاراً لرياح موائمة، لكن ذلك كان بلا محصلة، وبذلك بدا واضحاً بأن هذه الحملة لاتحظى برضا الرب، ووجد الملك نفسه وقتها وقد أنفق، مبلغاً كبيراً من المال، وأنه استخرج جميع أساسيات العيش لدى الرهبان في المنطقة المجاورة واستهلكها، وقد بعث بخيوله وبأتباعه إلى هنا وهناك للعسكرة والإقامة، حتى تهب ريح أكثر مواءمة، وتبتسم لهم، كما أنه كتب إلى

الايرل رتشارد وإلى الملكة، بحكم كونهما الأوصياء على المملكة، يأمرهما أنه إذا ما أصبحت أية رعـاية ديرية فخمة شاغرة، أن يحتفظا بالمسـؤولية عنها لنفسيهما، والأمر نفسه فيما يتعلق بأيـة أسقفية إذا أصبحت شاغرة، وهنا لم يتردد ولم يساوره الشك أنه بعمله هذا قد خرق كثيراً من شروط الصكوك، التي كان يعني عـدم الالتزام بها قـرار الحرمان الكنسي، الذي جرى إعلانه منذ وقت قريب.

حول المذبحة التي اقترفت في أحواز فلاندرز

وفي هذا الوقت نفســه من العـام، وقعـت مـذبحـة كبيرة للـرجـال والخيـول والمواشي في المقاطعـات المجـاورة لفلاندرز وألمانيـا، حيث من المعتقـد أن أكثر من أربعين ألفـاً من الرجال المقـاتلين قد ذبحـوا، ومثلما حـدث في طروادة، التي قيل بأنها قد تـدمرت مع سكانها بسبب امـرأة، مثل ذلك فإن هذه المذبحـة كـان سببهـا امرأة، هـي كونتسـة فـلاندرز، وجرى ذكر سبب وتفاصيل هذه المأساة التي لاتعوض، بشكل كامل في كتاب Additaments, كما أن تفاصيل أخبارهـا كلها سوف يرد ذكرها في الصفحات المقبلة.

ومـات في هذه الآونة وليـم أسقف للانداف Llandaff, الذي أخبر مسبقاً بموته بوساطة العمى لمدة سبعة أعوام.

حول زيارة تفقدية عملت من قبل رئيس أساقفة كانتربري

وفي هذه الآونة نفسهـا أيضـاً، قـام رئيس الأسـاقفـة بونيفيس بزيارة تفقـدية لفيفـرهام، ورروكستر، وزار متفقـداً الكهنة النظـاميين لكنيسـة القـديس بولص ولآخرين في المدينـة، وبسبب التقييدات التي فـرضت، استقبل بلطف، وفعل هذا بحـذر حتى يمكنه الوصول، والحصـول على حق القيام بالزيارة التفقدية.

كيف استقبل مارشال إنكلترا زوجته ثانية

وفي تلك الآونة نفسها، استقبل الايرل روجر بيغود مارشال انكلترا زوجته ثانية، التي هي ابنة ملك سكوتلندا، التي كان من قبل قد طلقها اعتماداً على مشورة شريرة، واقتنع بهذا بوساطة حكم صدر عن الكنيسة، وعندما بات متأكداً من الحقيقة قال: «بما أن هذا هو حكم الكنيسة، إنني بأمان وعلى استعداد للقيام بهذا الزواج، الذي كنت من قبل شاك به ولدي ريبة حوله»، لأنه سلف أن قيل له بأنهما أقرباء بالدم.

حول مغادرة ملك إنكلترا إلى غسكوني

وفي السادس من آب في هذا العام، بعدما قام الملك بتعيين الايرل رتشارد والملكة وصيين على المملكة، وعهد إليهما بالعناية بإدوارد الذي كان أسن أولاده، قال وداعاً لانكلترا، وأقلع من بورتسي Portsea, وركب متن البحر برفقة ثلاثمائة سفينة كبيرة، وأسطول كبير جداً من المراكب الأخرى، وبعدما قبل الطفل والده، وبكى لمغادرته، وقف يبكي ويتنهد على الشاطىء، طوال الوقت الذي استطاع أن يرى فيه أشرعة السفن وهي تغيب في عرض البحر.

وفاة توماس أوف هارتفورد رئيس شمامسة نورثأمبرلاند

في ثمانية عيد القديس لورانس في هذا العام، مات توماس أوف هارتفورد، رئيس شمامسة نورثأمبرلاند، والراهب من دير القديس ألبان، وجاءت وفاته، في رئاسة شمامسته، وكان في نهايته مقدساً وسعيداً، وعظيم الاستعداد في جميع الأشياء الضرورية للتحول المقدس لمسيحي ولانتقاله من الدنيا، وكان من قبل تلميذاً في مدرسة القديس ادموند، رئيس أساقفة كانتربري، وكان صديقاً مقرباً من ذلك الحبر، ومنذ أن أصبح مثله، سعى لأن يسير على دربه خطوة خطوة (مثلما فعل المعلم رتشارد، الذي صار فيما بعد أسقف شيكستر، وهو الذي تقدم

ذكـره من قبل أعـلاه)، وبما أنه كـان رجـلاً صـاحب ثروة، وصـديقـاً للفقراء، خـاصة من الفرنسيسكان والدومينيكان، فقـد تبرع بجسده إلى دير فقير جداً تابع لرهبـان جبل الكرمل، وكان لهذا التبرع أثره في زيادة مكانة الرهبـان ومنفعتهم، وبعـدما غـادرت نسمـة الحيـاة جسده، كـان رفـاقـه الواقفين هناك يتناقشـون بقلق من أجـل الحصـول على ضريح حجـري، وكان الحصـول على مثل هذا الشيء صعبـاً في ذلك الحين، كما كان توفـره في تلك المناطق، وقد رغبـوا بأن يحفروا عليـه اسم توماس، وهنا تدخل واحـد من الكهنة وكان اسمـه أيضاً تومـاس، وكان رجـلاً صالحاً، وتقياً، وأعلن قائلاً: «لاتزعجوا أنفسكم حول هذه القضية، لأنه موجـود لدي الذي تريدونه، أي ضريحاً حجرياً، عليـه قد نقش اسمي، وهو توماس، فقد كنت أنا المذنب تـوماس أنوي بأن أدفن فيه، لكن إنه بإرادة الرب، الذي يقضي بتوزيع كل شيء حسب إرادته، لقد قضي غير الذي أردتـه في السماء، ولهذا أنا أقـــدم هـذا هدية إلى رئيـس شمامستنا المقـدس (كما أنه ليست هناك حاجـة لتغيير الاسم)، وأنا واثق أنه تقـرر أن يحل محلي، ويتلطف بأخـذ مكاني الذي مقر اقـامته في السماء، آه كيف حصلت هذه الصخـرة بسعـادة على نزيـل آخـر سـواي»، وعند ضريح توماس رئيس الشمامسة هذا نفسه، حصل عبيد المسيح المخلصين بشكل اعجازي على الشفاء من الأمراض، كما شهد بذلك بمثابة حقيقة مطلقة لكاتب هذا الكتـاب، جون أوف لكسنغتـون Lexington, وكان فـارساً ورجـلاً صـاحب علوم كبيرة، وسلطات عـالية، وأظهـر مـولانا يسوع المسيح أيضاً قداسة هذا الرجل المقدس، بمعجزات خاصة، حول مصـداقيتهم هناك شهـادات، وبناء عليـه حصل في وقت قصير، نتيجـة للمنافع الكثيرة والمتكررة، روحياً وجسـدياً، وقد أنعم بها على المتوسلين هناك، وهكذا فـإن البيعـة الصغيرة للرهبـان المذكـورين قـد ازدادت سمعتهـا، فحصلت على لقـب دير، ونحن نعتقـد بثبـات بأن رئيس الشمامسـة المقدس هـذا، وكذلك رتشـارد أسقف شيكستر، وإن كـانا لم

يطوبا في روما، كانا متحدين مع القديس ادموند، حيث كانا صديقيه الخاصين أثناء حياته، وبخصوص المعجزات التي تفضل الرب بعملها من خلال فضائل الأسقف المبارك، إنه قد جرى ذكرها في الكتب المتضمنة تاريخ كنيسة القديس ألبان، أي في كتاب سيرة حياة القديس ادموند، والمعجزات النافعة التي منحها الرب إلى المحتاجين إليها من خلال فضائل توماس، رئيس الشمامسة، المتقدم ذكره أعلاه، معروفين بشكل جيد من قبل رهبان جبل الكرمل المتقدم ذكرهم، ومن قبل الناس في تلك البلاد، ونحن نعتقد أن هؤلاء الأبناء الثلاثة المباركين لانكلترا: ادموند، ورتشارد، وتوماس، يتمتعون بمجد التثليث العظيم.

حول الكارثة التي نزلت بالجيش الفرنسي

ومع مرور الوقت على هذه الصورة، في الوقت الذي كان فيه الملك الفرنسي يعيش في محنته، وقد ضغط عليه بالجوع في الأرض المقدسة، آنذاك كان يمضي الوقت بشكل مهين في تحصين قيسارية، ووقتها جاء إليه فارس نبيل من أصل فرنسي، وقال له: «مولاي الملك، إننا مقيمون هنا في حالة عطالة مخجلة، اسمح لي إذا كان يرضيك، أن أذهب ضد هؤلاء الكفار، الذين لم تقم معهم لا هدنة ولاصداقة، لأنال بينهم بعض التشريف والمنفعة، وكذلك بعض المؤن، التي نحن بحاجة ماسة إليها، هذا عدا عن التدريب العسكري لجيشنا، لأنه كما تعلم، إن أية منفعة أو شهرة تعزى إلى فارس ما، ذلك كله يتجمع ليعزى بشكل أكمل إلى مولاه»، وعلى هذا الطلب رد الملك بأريحية قائلاً: «اذهب، وليعيدك ربي سالماً من مهمتك»، وبناء عليه جمع الفارس كتلة من الجنود، ووجههم وشجعهم بوساطة المثل الذي ضربه وليم صاحب السيف الطويل، الذي تولى القيام بحملة مماثلة، حسبما ذكرنا ذلك في المكان المناسب، وقد انطلق نحو بلاد المسلمين الذين كانوا قد ألحقوا أضراراً بالغة بالصليبيين، وقاتلهم بشدة متناهية، وهزمهم بشكل مفاجيء، وفرق

شملهم، ومن ثم عاد بنصر مجيد، وهو في غاية السرور، مع غنائم كبيرة، ولدى رؤية هذا من قبل واحد من المتملقين بين مستشاري الملك قال له: «ياصاحب الجلالة، لقد حصل هذا الفارس على مبلغ كبير من المال،، وحقك يخولك ويتطلب أن تقوم بالمطالبة بحصة كبيرة منه، لاسيما وأنت الآن بحاجة ماسة، لأنه بموجب لطفك ومعروفك، غادر الجيش بشكل سري، مخالفاً ماقضت به الأوامر العامة، وخارقاً لها بطيش»، وبناء عليه جرى استدعاء الفارس إلى أمام الملك، ووجهت إليه تهمة قاسية من قبل منافسيه، ونتيجة لذلك الإجراء، قام بالتخلي عن الجزء الأكثر مما حصل عليه إلى الملك، ثم خاطب ذلك الفارس الملك قائلاً: «مولاي، إن جميع ماأملكه، حتى نفسي هو ملك لك، لكن يبدو لي أن الأكثر عدلاً هو أن يتمتع بالثروة الذي حصل عليها، بعدما عرض جسده وحياته للخطر في الحصول عليها، والذي أعتقده هو أن هذه الإجراءات، قد أثيرت من قبل بعض السادة الكسالى، ورجال القاعات الجبناء، والمستشارين لديك، الذين يطرونك ويتملقون إليك لمنحك السرور»، وقام واحد ممن نالوا اللوم هكذا، لدى سماعه لهذا الكلام، فقفز نحو الأمام إلى وسط الذين كانوا مجتمعين، وكان يغلي غضباً، وقد تدفق بكلام كله قدح وذم ضد الفارس، قائلاً: « بتفوهك بهذا الكلام أنت تتشدق بالكذب من حلقومك القذر، وذلك عندما تتهم كتلة عبيد مولانا الملك بالكسل والغدر»، وأضاف يقول: «بأن الموجه للاتهام كان فارساً سيئاً، وجباناً، ورجلاً مهزوماً»، وباللغة الفرنسية هو mechant, مما كان يعني أكبر شتيمة بينهم، ولدى سماع هذا الكلام، كان هناك ابن الفارس المتهم، وكان شاباً جريئاً، وفارساً شجاعاً، فقفز واقفاً في وسطهم، ولم يستطع أن يضبط نفسه لغضبه، فصرخ بصوت مثل الرعد، قائلاً: «بحق دماغ الرب، إنك حقير، وتعيس منحط، كيف تتجرأ على التفوه بمثل هذا الكلام إلى أبي بحضوري وعلى مسمع مني»؟ وسحب فجأة سيفاً صغيراً، أو خنجراً كان يحمله، وطعنه على الفور في بطنه، ثم ركض وهو

مثل المجنون من غضبه، وهرب إلى الكنيسة للحماية، ولدى رؤية والده الذي صنعه، حزن حزناً عميقاً، وانكب على قدمي الملك قائلاً: «الآن يامولاي الأكثر احتراماً، هل ستظهر رحمتك الملكية وتبرهن عليها، إذا تفضلت بالعفو عن هذا العمل الغاضب، أما بالنسبة لي، فأنا سوف ألتزم بحكم محكمتك، وسوف أخضع للذي ستقضي به»، وبناء عليه أجابه الملك: «اجلب كفلاء مواثمين للقضية»، وعندما كان ذاهباً لتحقيق هذا الغرض، كان ابنه قد سحب من الكنيسة من قبل وكلاء الملك، وجرى شنقه من دون أية محاكمة أو قضاء، وعندما كان والده عائداً مع كفلائه، مستعداً لإطاعة القانون في كل جانب، وجد ابنه مشنوقاً، وقد مات، العمل الذي قام به أعداؤه، في سبيل زيادة حزن والده، برؤية ابنه المتوفى، فارتجفت أطرافه من الغضب والألم، وبصعوبة بالغة تكلم، وأخيراً قال متعجباً مندهشاً: «ماهذا ياسيدي الملك؟ هل قمت بالشنق، أو اقتنعت، وسمحت بشنق ابني من دون محاكمة أو قضاء؟ إنني لاأستطيع ضبط مشاعري كأب، أين هو الاحترام المستحق للكنيسة؟ وأين هي عدالة المحاكم الفرنسية؟ إن ماهو عائد لي في فرنسا، بموجب حقوق آبائي، وكذلك ولائي لك، والذي حصلت عليه مؤخراً بسيفي، أتخلى عنه لك، وسوف أغادرك أنا شخصياً، وأتخلى عنك»، وما أن فرغ من كلامه هذا، حتى امتطى مسرعاً على حصان سريع، ولم يوفر مهمازه، حيث هرب إلى أحد السلاطين، وقصّ عليه جميع هذه الوقائع بالتفصيل، وهنا قال له السلطان: «لقد فررت إليّ وأنا سوف لن أتخلى عنك أبداً، وأنا أفتح لك صدر اللجوء والحماية»، ثم التحق على الفور بجيش ذلك المسلم، وصار مرتداً مرعباً، مبرهناً على صدق المثل القائل: «الغضب هو الرغبة بالانتقام»، ومنذ ذلك الحين أوقف نفسه على الانتقام، وتغيرت صداقته إلى كراهية خاصة، وألحق ضرراً بلاحدود بالملك وبجيشه، ولم يتوقف عن قصده حتى قتل الذين شنقوا ابنه، وهكذا أنجب الحسد غضباً، واقترف الغضب القتل.

ووقع حادث مأساوي مماثل تماماً قبل أربعين سنة خلت، عندما قام واحد من الداوية اسمه فيراند Ferrand, وكان رجلاً شجاعاً في القتال، وحكيماً بالرأي والمشورة، بالالتحاق بالمسلمين، نتيجة انتزاع فرس ثمين منه بالقوة، ومن خلاله فقد الصليبيون في المقام الأول دمياط بتعاسة، وأخيراً كل الشرف الذي كانوا قد حصلوا عليه، ولكن عندما كانوا أخيراً على وشك الغرق، تحركت عاطفة الشفقة لديه، وساعد الذين كانوا على وشك الهلاك، في سبيل أن لايشمل الانتقام لغلطة عدة آلاف كثيرة.

وفي هذه الآونة، ابتسمت الرياح الموائمة، بعد انتظار كبير، للملك، وأقلع الملك بعد تقبيله لابنه ادوارد وعناقه له، وعاد الولد إلى أمه، وغادر الملك بأشرعة منشورة.

وصول ملك إنكلترا إلى بوردو

وفي هذه الآونة، أيام الاحتفال بصعود العذراء المباركة، وصل الملك سالماً إلى بوردو، وخرج المواطنون لاستقباله، وقد استقبلوه بكل احترام لائق، وفي الوقت نفسه هرب أعداؤه، أو أغلقوا على أنفسهم قلاعهم للدفاع عن أنفسهم، ثم أمر بحصار لى راؤل، حيث كانت هناك أعداد كبيرة من المتحزبين لعدوه غاستون، وكانوا فيها مختبئين، ذلك أن غاستون نفسه كان قد هرب إلى ملك اسبانيا، الذي أصبح صديقاً له، وحليفاً، واعداً إياه أن تكون ملكية غسكوني وحكمها —حسبما قال— عائدة له، وقام الذين تركهم لحماية لى راؤل، بالاعتماد على هذا التحالف، فدافعوا عن أنفسهم بحماس وشجاعة.

حول مشاعر الشكوك التي شعر بها الفرنسيون تجاه البواتيين

وكان الذين أمسكوا بزمام أمور حكومة فرنسا، يشعرون بالشكوك نحو البواتيين، بسبب غدرهم الذي تبرهن مراراً، وقد باتوا الآن

خائفين، عندما سمعوا بوصول ملك إنكلترا سالماً إلى غسكوني، وصاروا يخشون من أن يقوم البواتيون بالالتحاق به، ذلك أنه كان مولاهم القديم، وسيدهم المحرر لهم الآن، خاصة وأن ملكهم كان على مسافة بعيدة عنهم، ولذلك بعثوا إلى هناك بكتلة من الجنود، ولم يسمحوا للبواتيين بالاستحواذ على ممتلكاتهم، أو أن يكونوا مسؤولين عن قلاعهم ومدنهم، وبهذه الصورة بقي البواتيون، على الرغم منهم، مخلصين، ولم يلحقوا أي أذى بالمملكة الفرنسية، كما أنهم لم يقدموا أية منفعة لملك انكلترا، وهم على كل حال، نصبوا الشباك والأفخاخ لأقدام الانكليز، حسبما سنشرح ذلك بالتفصيل في الصفحات التالية.

رسالة أسقف لنكولن إلى البابا

وفي هذه الآونة، كان البابا أنوسنت الرابع قد بعث برسائل رسولية، أمر فيها أسقف لنكولن بالقيام ببعض الأعمال، التي بدت إلى ذلك الأسقف أنها غير عادلة، ومضادة للعقل، وذلك حسبما اعتاد البابا أن يعمل غالباً معه ومع الأساقفة الآخرين، وبناء عليه قام الأسقف المذكور بكتابة الرسالة التالية جواباً له:

«**تحيات**: ليكن معلوماً بالنسبة لقداستكم أنني أطيع بإخلاص وتبجيل الأوامر الرسولية، مع مشاعر بنوية، وبموجب غيرتي نحو كرامة والدي، إنني أعترض على هذه الأشياء وأقاومها، لأن هذه الأشياء مضادة للأوامر الرسولية، هذه الأوامر التي أنا مرتبط باتباعها وملتزم بموجب الأمر اللاهوتي، لأن الولايات الرسولية وأوامرها ليست، ولايمكن أن تكون غير عقائد الرسول ومولانا يسوع المسيح نفسه، الذي هو معلم الرسل ومولاهم، وتبعاً له، ووفقاً لمراتب الكنيسة يمثل البابا النموذج والشخص الذي يحتل أعلى الدرجات، وذلك بشكل لائق وموائم، لأن مولانا يسوع المسيح قد قال: «الذي ليس معي هو ضدي»، وضده من غير الممكن أن يكون الكرسي

الرسـولي الذي هو أعظم قـداسـة ومكانة لاهوتيـة، وبنـاء عليـه، إن الرسالة المتقـدمة ليست متـوافقة مع القداسـة الرسوليـة، بل مضادة لها تماماً ولاتتماشى معهـا مطلقـاً، لأنه في المدخل إلى تلك الـرسـالة، والرسائل الأخـرى المشابهة لها، التي انتشرت بالطول وبالعـرض، نجد عبـارة «دون التقيـد»، التي أقحمت من دون الحاجـة لإطاعـة القـانون الطبيعي، وعنها قـد صدر وانتشر فيض من عدم الاستقرار، والوقـاحة والغش، وانعـدام الحياء، والكـذب، والخداع، والحاجة إلى وضع الثقـة والأمـانة في أي واحـد، ومن الشرور التي نجمـت عن هذا كله، والتي هي من دون إحصاء تكدرت نقـاوة الديانة المسيحية، واضطرب الهدوء الاجتماعي لبني البشر، وانقلب كليـة، وعـلاوة على ذلك، بما أن ذنب الشيطان، هـو الذنب نفسـه الذي سيكون في نهايـة الحيـاة ذنـب ابن الهلاك، أي المسيح الدجـال، المسيح الـدجـال الذي سـوف يقتله الرب بنفخـة من فمـه، لايمكن أنه كـان أو سيكـون هناك ذنب من أي نوع، معاكساً مثله أو مضاداً لعقيدة الرسل والانجيل، وفي الوقت نفسه مثله كـراهيـة، ومقتاً، وبغضـاً بالنسبـة لمولانا يسـوع المسيح، الذين يميتـون الأرواح ويدمـرونها ويقـودونها إلى الضـلال عن طريق وظائف وأعمال رعـاتهم الكنسيين، وبوسـاطة أكثر البراهين وضـوحـاً في الكتـابات المقـدسـة، يجري اقتراف هذا الذنب من قبل الذين وضعـوا في وظائف الرعاة ومنحـوا سلطات الرعاية والعنـاية، لكنهم قامـوا بالحصول على رواتبهم من حليب وصوف شيـاه المسيح، التي ينبغي أن تنشط وتحفظ بوساطة واجبـات وأعمال الرعاة، وأن لاتستخدم لتلبية حـاجاتهم، لأن عدم القيـام بواجبات الرعـاية، هو بالنسبة للكتـابات المقدسـة، هو قتل الشيـاه وإهلاكها، وإن هذين النوعين من الذنوب، مع أنهما يختلفـان في نوعيهما، هما أسـوأ الذنوب قاطبـة، ويتفـوقان بلا حـدود على كل نوع آخـر مـن الذنوب، حسبما هو واضح منهما، ذلك أن الذنبين وإن كـانا موجودين كما قلنا من قبل، هما مختلفـان بالنوع ولايشبه أحدهما الآخر،

ومضادان لما هو الأفضل، وكـل ماهو مضاد للأفضل هـو الأسوأ، هذا وإنه بالنسبـة إلى الذين يذنبـون بهذه الطريقـة، إن أول الذنوب هو ذبح الرب، وهو الذنب القاضي على كل صـلاح ومضاد له ومن غير طبيعته تماماً، والذنب الثاني هو ذبح الاصـلاح والتعبد الصحيح، الذي بنعمة المشـاركة في الشعـاع اللاهوتي هو أسـاسي، وبشكل طبيعي جيد جـداً، ومن هذا المنطلـق، إنه في أحـوال الأشيـاء الصـالحة، نجـد أن سبب الصلاح قـد عدّ أفضل من النتيجـة والتأثير، ومثل هذا بالنسبـة لقضية السـوء، فسبب السوء أسـوأ من التأثير، وإنه على هذا واضح أن الذين يدخلون عمليات الذبح الشريرة للاصلاح والعبادة والتقوى، بين شياه المسيح في كنيسـة الرب، أسوأ من أسـوأ القتلة أنفسهم، لابل هم حتى أعظم قرباً مـن الشيطان ومن المسيح الدجال، وفي هذا أسـوأ في درجة الشرور تفوق الآخـرين، وبما أن السلطة الأعظم والقدرة اللاهوتيـة قد منحت إليهم من السماء من أجل العبـادة والتأله، وليس من أجل دمـار بني البشر، عليهم أن يشعروا بأنفسهم أن عليهم أن يبعـدوا عن كنيسة الرب، وأن يطردوا مثل هؤلاء القتلة الشريرين، وبناء عليه، إن الكرسي الرسـولي الذي هـو الأعظم قـداسـة، والذي إليـه بشهـادة الرسل قـد منحت جميع أنواع السلطات، من قبل قدس الأقداس، ومن قبل مولانا يســوع المسيح، مـن أجل العبـادة و التأله وليس مـن أجل التـدمير، لايمكنه أن يميل نحــو أي ذنب من هذا القبيل، مثل أن يـأمـر، أو أن يفـرض، أو أن يحاول بأية طريقــة من الطرق، عمل أي شيء، هو على هذه الدرجة من الكراهية، والرفض والمقت، لدى مولانا يسوع المسيح، وهو مهلك مميت إلى أبعد الحدود بالنسبـة للجنس البشري، لأنه سوف يكون بوضـوح ضـلالاً أو فسـاداً، أو تجاوزاً، لسلطاته المطلقـة الأعظم قـداسة، أو ابتعـاداً عن عرش المجـد لمولانا يسوع المسيح، وهو سـوف يجلس في مقعـد الهلاك والعـذاب في جهنـم، إلى جـانب أميري الظلام، اللذين ذكرتهما أعلاه، ولن يكون هنـاك أي واحد من الرعايا المخلصين

للكرسي المذكور، مطيعاً له باخلاص وطهارة، إلاّ إذا فصل نفسه عن جسد المسيح وعن الكرسي المقدس المذكور بالخروج والانشقاق، ولايمكنه إطاعة مثل هذه الأوامر أو الوصايا، أو القبول بذلك صدوراً عن أي ملك، أو أي واحد مهما كان، حتى لو صدرت عن السلطة العليا في انكلترا، بل إنه من الضروري بالنسبة له وواجبه يقضي بأن يقف ضدهم، وأن يقاومهم بأقصى ما أوتيه من قوة، وبناء عليه، مولاي المبجل، إنه بموجب فضيلة الطاعة والولاء المتوجبة عليّ نحو كل من الآباء والكرسي الرسولي الأعظم قداسة، وصدوراً عن اتحادي معه في جسد المسيح، إنني مع رغبتي الكلية بالاتحاد، وعلى الرغم من مشاعري البنوية وطاعتي، أرفض الطاعة، وأقف ضدها، وأقاوم الأوامر التي وردت في الرسائل التي تقدم ذكرها، وهذا بشكل رئيسي، حسبما أوضحت من قبل، لأنهم كما هو واضح يميلون إلى ماهو ذنب بغيض، ضد مولانا يسوع المسيح، ولأنهم الأكثر شراً وضرراً للجنس البشري، وهم كلية ضد قداسة الكرسي الرسولي، وضد الإيمان الكاثوليكي، كما لايمكن لقداستك استخدام أية إجراءات قاسية ضدي، لأن جميع حججي في هذه القضية هي ليست معادية أو متمردة، بل دوافعها مشاعر البنوة لدي، ورغبتي بتشريف أبي وأنت بوساطة طاعة الأوامر اللاهوتية، ولكي أجمل كلامي، وأعرض ماأريده ببضع كلمات، إنني أقول إن قداسة الكرسي الرسولي تمتلك السلطة فقط للإعمار والتهذيب وليس للتدمير، حتى تكون القدرة الوافرة لديها الاستطاعة على بناء كل شيء والارتفاع به، وهذه الأشياء التي يدعونها الاسهامات وأعمال التزويد، ليست من أجل التنوير، لكن من الواضح تماماً انها من أجل التدمير، ولذلك فإن الكرسي الرسولي المبارك لايمكنه أن يقبلهم، لأن الجسد والدم، اللذان لن يتملكا مملكة الرب، قد أوحيا بهم، وليس الأب لمولانا يسوع المسيح الذي هو في السماء».

حول سخط البابا العظيم تجاه رسالة أسقف لنكولن

وعندما وصلت هذه الرسالة إلى البابا لم يستطع أن يضبط غضبه وسخطه، وبعدما أخذ مظهر المتجبر مع نظرة غاضبة قال: «من هو هذا العجوز المخرف، وهذا الأطرش والمجنون الذي يهذي، الذي بوقاحته وطيشه يحكم على أعمالي؟، بحق بطرس وبولص لولا أن كرمي الفطري يمنعني لألقيت به في متاهة لانظير لها من الفوضى والاضطراب، والعار، حتى يكون موضوعاً للكلام، وهدفاً للتعجب والرعب لجميع أنحاء العالم، أوليس ملك انكلترا من أتباعنا، أو بالحري عليّ القول: من عبيدنا؟ ويمكن بأمر منه أن يلقى بالسجن، ويلحق الإهانة بهذا الأسقف العجوز نفسه»، وعندما تليت الرسالة بين اخوانه الكرادلة، استطاعوا بصعوبة ضبط غضب البابا وكبحه بالقول له: «ليس لائقاً بنا ياصاحب القداسة، فرض أية عقوبة قاسية ضد هذا الأسقف، لأننا والحق يقال، إن الذي قاله صحيح، ونحن لانستطيع أن نحكم عليه بالادانة، فهو كاثوليكي، لابل هو مقدس جداً، وأعظم ديانة، وأعظم قداسة، ويمتلك حياة أكثر استقامة منا أنفسنا، وهو في الحقيقة ليس له نظير، ولايوجد من يتفوق عليه بين جميع الأساقفة، وهذا مايعرفه جميع رجال الدين من الانكليز، وكذلك من الفرنسيين، ومعاداتنا له ستكون بلافائدة، ومصداقية هذه الرسالة، التي ربما أصبحت الآن معروفة من قبل أعداد كبيرة، من الممكن أن تثير الكثيرين ضدنا، لأنه يعدّ فيلسوفاً عظيماً، وهو مجيد تماماً لمعرفة اللغتين اللاتينية والاغريقية، وهو غيور على تطبيق العدالة، وعالم في مدارس اللاهوت، وواعظ للناس، محب للاحسان، ومطارد منكل بالمذنبين»، فهكذا تحدث جايل الاسباني وكان كاردينالاً، ومثله فعل الآخرون، الذين تحركت ضمائرهم، ونصحوا البابا بالتغاضي، وأن يعبر بتلك المسائل صامتاً، خشية أن لاتحدث إثارة بسببها، ولاسيما أنهم كانوا يعرفون أن الخروج والتمزق سوف يحدث على الفور.

حول كرم روبرت أوف سوثندون وإحسانه

وقام في هذا العام أيضاً روبرت أوف سوثندون Sothindon, وكان كاهناً ومستشاراً خاصاً للملك، صدوراً عن مشاعر الإحسان، وتقديراً منه للمال الذي جرى صرفه من قبل دير القديس ألبان، فأعطى كنيسة هارتبورن Hertburne, التي كان يمتلكها كلية، ومستحوذ عليها تماماً، قام باعطائها إلى الدير المذكور، حتى يتملكها تماماً، ويتصرف بها بما يفيده، كما أنه أنعم أيضاً بمنفعة مماثلة على كنيسة القديس مارتين أوف باتل Battle, بإعطائها كنيسة جيليلهام Jelelham, ومثل هذا أنعم بكنيسة هوسبنغ Hospinge على فرسان الاسبتارية في دوفر، وبلغ مورد المنحة الأولى سنوياً مبلغاً مقداره ثلاثمائة مارك، أما المنحة الثانية فكانت مائة مارك، أما الثالثة فكانت ستين ماركاً، وعملت المنح الثلاث جميعاً صدوراً عن التقوى، ولزيادة الضيافة وتقديمها ظاهرة إلى كل من الناس والخيول.

موت رالف راعي دير رامسي

في أمسية عيد صعود العذراء المباركة، مات المبجل رالف، راعي دير رامسي، تاركاً ديره عرضة للنهب من قبل مخلوقات الملك في أيام الحصاد، ثم عهد بالعناية بالدير إلى يود Ude, وكان كاهناً من البلاط، وأنا سوف أعبر بأعماله بصمت خشية أن تصل إلى مسامع خصومه، وجرى الاستيلاء على أوعية من الفضة كان وزنها خمسة وثلاثين ماركاً، وخمرة منتخبة، وخيول، وحيوانات من الغابة، من أجل استخدامات أوصياء المملكة، وأبعدوا بدون احترام عن الكنيسة، والذي كان أكثر قسوة وحدة، هو استخراج مبلغ من المال من العاملين في أملاك الدير، وذلك من قبل الذين كانوا متوجب عليهم حراسة الذين لآباء لديهم وحمايتهم، وعلاوة على ذلك جرى ارسال المعلم نيقولا بلمبتون Plumpton والمعلم جون ايرلاندا، وكانا كاهنين

لدى الملك، إلى بلاط روما، في سبيل معارضة ثم إلغاء الوعود الملكية التي تقدم ذكرها أعلاه، وقد تلقيا أوامر بأن لايوفرا نفقة في سبيل تنفيذ غايات الملك، وفي الوقت نفسه، وخلال ذلك العام كله، قام أسقف لنكولن، الذي تنبأ بأن الملك سوف يضلل بوساطة مشورة شريرة حتى يخرق جميع وعوده، لذلك أمر بالتفوه بقرار الحرمان الكنسي ضد جميع الذين سيتولون خرق صكوك الامتيازات المتقدم ذكرها، في جميع أرجاء أسقفيته، وفي أي مكان توفر فيه اجتماع للناس، لكن مما يؤسف له كانت مفاتيح الكنيسة فيما بينهم محل استخفاف وتحدي.

الطوفان المدهش الذي تسببت به الأمطار

ووقعت في حوالي الوقت نفسه واقعة مدهشة، كان حولها هناك أحاديث طويلة، هي أنه على الرغم من أنه كان هناك في ربيع هذا العام وصيفه جفاف كبير وطويل، حدث في نهاية الصيف وفي الخريف فيضان للأنهار، فقد غمرت المياه الشواطىء، وارتفعت إلى مستوى قمم التلال، وغطت المناطق المجاورة، ومجدداً حدث في نهاية الخريف وبعد عيد القديس ميكائيل أن كان هناك فيضان نجم عن أمطار غزيرة، ثم اختفى وأعقبه جفاف كبير ونقص لا بل ندرة في مياه الأنهار والينابيع، إلى حد أن الذين أرادوا طحن القمح أرغموا على حمل حبوبهم إلى مسافة تقارب رحلة يوم من أجل طحنها، ووقعت واقعة مشابهة ومدهشة في ربيع هذا العام نفسه، جاءت معاكسة لطبيعة الفصل، لأنه في أيام الاعتدال الربيعي يكون المناخ كله معتدلاً ولطيفاً، ويكون هناك هدوء لجميع العناصر.

الاحتفال الفخم بعيد القديس إدوارد

اجتمع بناء على أوامر من الملك عدداً كبيراً من الأساقفة والنبلاء، في عيد القديس ادوارد، الذي يحل خلال أسبوعين من عيد القديس

ميكائيل، واحتفل بهذا العيــد من خــلال إدارة الايرل رتشـــارد والملكة بشكل رائع، ووفق طريقة لم يكن هناك قط ما هو أبهى منها.

كيف حصل ملك إنكلترا على ملكية قلاعه في غسكوني

وفي نهاية صيف هذا العــام، حصل ملك انكلترا بعــد بذل كثير من الجهود، وبعد انفاق كبير للمال من دون فائـدة، على تملك قلاعه الخاصة في غسكوني، حيث منح عروضـاً جيدة للذين كـانوا محاصرين فيها، وفي الحقيقـة هو لم يلحق بهم كبيراً من الأذى والأضرار، مع أنهم استحقـوا ذلك كثيراً، واقتصرت الأضرار، كما شاهدوها بأنفسهم، وعرفوها، على تدمير كـرومهم، وقـد رمـى المحـاصرون يوميـاً أحجـار طواحين كبيرة ومقذوفات ذات أحجام مدهشة، على جيش الملك، وقد جرى حمل هذه المقـذوفات إلى انكلترا، حتى يجري عـرضها بمثـابة أشياء غـريبة جـداً، وعندمـا جــرى التضييق عليهم وحـوصروا عن قــرب، أرسلوا مـراراً وبشكل سري رسـلاً إلى ملك اسبانيـا، رجوه فيهـا أن يساعـدهم، على أساس أنهم من رعاياه المخلصين، وفي أثناء حصارهم على هذه الصورة، زادوا من عـدوانيتهم، ولجأوا إلى الغلو في إجـراءاتهم، وعندمـا أرغمـوا على مغـادرة قلاعهم بمثـابة أسرى لدى الملك، ذهب إخوة الملك لأمـه إليه، وطلبـوا منه تسليمهم الأسرى، حتى يتولوا معـاملتهم كما يريدون ويرغبــون، وقـد أثار هذا المطلب الـوقح دهشـة وحفيظة العــديد من أصـدقـائـه، وقـام هو على كل حـال بتـوفير حيـاة الذين كـانوا أعـداءً مكشـوفين له، وذلك بباعث من الرحمة لـديه، وهو الذي واجه متـاعب كبيرة في اخضـاعهـم، وفعل هذا من دون تقـديـر منه لأحكام الانجيل التي تقول: «أحضروا الذين رفضـوا تقديم الطاعة لي حتى أكـون حاكماً عليهم، واذبحوهم بحضوري»، وبذلك مـاتت سمعته الجيدة، وتلاشت كل مظـاهر الاحترام له، بحكـم أنه تولى ظلـم رعيتـــه من أبنـاء بلده، وأظهر اللطف نحو الأجانب.

كيف أرسل ملك إنكلترا سفراء إلى ملك إسبانيا

ثم قام الملك، خشية منه من غدر الغسكونيين وخيانتهم، وأن يقدموا على التخلي عنه والالتحاق بملك اسبانيا، الذي كان له نفوذ كبير عليهم، فأرسل أسقف باث، وجون مانسيل، كاهنه المفضل، بسفارة خاصة إلى ذلك الملك، يرجوان بتواضع الحصول على صداقته والتحالف معه، ويطلبان منه اعطاء اخته لأمه لتكون زوجة لابنه الأكبر، والذي هو ولي عهده الشرعي، أي ادوارد، فهو —أي ملك انكلترا— كان قد تنازل عن غسكوني إلى ابنه ادوارد المتقدم ذكره، ولم يكن ذلك ليختلف كثيراً، أو بعيداً عن المنحة التي عملت، أو التي سوف يجري منحها إلى أخت ملك اسبانيا المتقدم ذكرها، إذا ما تزوجت من ابنه ادوارد، وأوصل السفيران المذكوران مهمتهما إلى التمام، وحصلا بعد متاعب جمة، وقلق عظيم على صداقة ملك اسبانيا وعلى نواياه الطيبة وتمكن أيضاً من الحصول على صك حقوقي فخم، كان وزن الختم الذهبي عليه يعدل وزن مارك من الفضة، وقد ورد في الصك فقرة خاصة، أقحمت فيه خصيصاً، تحدثت وأفادت بأن ملك اسبانيا قد تخلى عن كل ادعاء له مهما كان نوعه أو سيكون في غسكوني، وذلك بموجب فضيلة منحة الملك هنري الثاني، ثم تأكيد ذلك وتثبيته من قبل الملكين رتشارد وجون، وجاء ذلك بفضل الإجراءات البارعة لهذين السفيرين، أو بالحري أن تقول جهود جون مانسيل وحده، وتم الحصول أيضاً على بعض الامتيازات، لصالح الحجاج الذين يذهبون إلى القديس جيمس، ومنفعة حق الإقامة حسب رغبتهم في المدن التي هي تحت حكم ملك اسبانيا، وكذلك شراء الطعام لأنفسهم كما يريدون، دون أن يطلبوا الاذن من الذين يتولون رعايتهم.

ثم إن ملك اسبانيا المذكور طلب وجوب تقديم إدوارد إليه، حتى يتمكن من فحصه والتعرف على براعته ومعارفه، ولينعم عليه بمرتبة

الفروسية، مع جميع التشريفات الجديرة بشاب من مثل هذه المرتبة العالية، وأفرحت هذه النهاية الذكية والإدارة الكاملة لجميع الشؤون، ملك انكلترا، لكنه شعر بخوف عظيم، ولاعجب من ذلك، فقد خاف من ارسال ابنه الأسن، والوريث لجميع أراضيه، إلى ملك اسبانيا، الذي كان يعيش على بعد كبير، وخشي من أن يجري تضليل ذلك الملك باثارة النهم لديه والشرور، فيحتفظ به لديه بمثابة رهينة، أي أن يرتهن لديه ذلك الأمير الذي سلم إليه من دون عناية وتقدير، وأخيراً قدم جون مانسيل —على كل حال— شهادة على صلاح ملك اسبانيا وصدقه، وأعلن أنه لن يقترف، كما أنه لن يسمح باقتراف، مثل هذا الاثم، وارتفعت ثقة الملك، وكان راضياً بعد ذلك بإصدار الأوامر بأن لايذهب ادوارد لوحده، بل أن ترسل ملكته معه، الأمر الذي جرى تنفيذه، وحدث أثناء مدة تلك الحرب كلها، أنه كان كلما اقترف أي انكليزي ذنباً من الذنوب، كان يعاقب بشكل يتجاوز مايستحقه ذنبه، لكن في حال اقتراف أجنبي لإثم من الآثام، كان يعاقب قليلاً، أو حتى كانت القضية تمر من دون عقوبة، وكانت هذه الحقيقة موضع تساؤل، ولم يكن ذلك من دون سبب مسوغ.

حول عدوان حاد قام به المسلمون ضد الصليبيين

وقام في هذه الآونة بعض النبلاء من المسلمين الشرقيين، بحكم كراهيتهم للصليبيين، بالدخول بتحالف في سبيل تدميرهم، وعاثوا في أراضيهم كما أرادوا، واجتاحوها من دون أية معارضة، حتى وصلوا إلى أبواب عكا نفسها، وقد تسببوا بجبروتهم بكثير من الأذى.

حول المجاعة الكبيرة في غسكوني

وفي هذه الآونة أيضاً، عانى جيش الملك من نقص كبير في المؤن، إلى درجة أن الدجاجة الواحدة بيعت بستة بنسات استيرلينية، وبيع مكيال

القمح مقابل عشرين شلناً، والربع من الخمر مقابل شلنين وأكثر، والرغيف الواحد من الخبز الذي وزنه باوند واحد ببنسين أو بثلاثة، وهكذا صار بالكاد يمكن لفارس جائع أن يكتفي بانفاق شلنين من الفضة للانفاق يومياً على نفسه وعلى تابعه وعلى غلامه، وعلى فرسه.

كيف جرى إعفاء راعي دير القديس ألبان والدير معه من الدين المستحق لرتشارد أوكسهي

في الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول في هذا العام، جرى سحب قيد رباط الدين الذي كان راعي دير القديس ألبان والدير خاضعين له بموجب قرض رتشارد أوكسهي Oxhaye من يدي اليهودي الياس اللندني، والدين كله ألغي، وجرى الإعلان عن ذلك في مجمع اليهود في لندن، من أن راعي الدير المذكور والدير قد أعفيا من كل ادعاء ضدهما فيما يتعلق بذلك الجانب، منذ بداية الخليقة حتى ذلك الحين، وجرى الحصول على وثيقة من قبلهم ثم تمّ الإعلان عنها.

كيف انتشرت سمعة ملك إسبانيا في الخارج

وفي هذا الوقت انتشرت سمعة ملك اسبانيا وشهرته، لكن ليس بقدر سمعة ملك انكلترا وشهرته، وجاءت ألقاب الملك الاسباني في وثائقه كما يلي: «ألفونسو، بنعمة الرب ملك قشتالة وليون، وغاليشيا وطليطلة، وميورقة، وقرطبة، وجيان»، وكانت مملكة ملك انكلترا أكبر بكثير وأضعافاً مضاعفة لمملكته، حيث كان قد عهد بايرلاندا مع كثير من ممتلكاته الأخرى إلى ابنه، لكن هذه القضايا تحتاج إلى عرض خاص.

النصيحة الحكيمة التي قدمها ملك إسبانيا إلى ملك إنكلترا

أصبح الآن ملك اسبانيا صديقاً كبيراً للملك انكلترا، وبعدما سمع عن

ممارساته، حزن، وتأثر بروحه اللطيفة وبحكمته، فأرسل رسالة إليه، أي إلى ملك انكلترا، يحثه فيها على أن يحذو حذو الملوك الصالحين والأمراء الجيدين، الذين كان شعارهم منذ العصور الأزلية كما يلي: «هو سيكون حملاً لعبيده وجندياً تابعاً، وأسداً نحو الغرباء والعصاة»، وتمت الإشارة إلى هذا القول الذي ذكره لإثارته وتشجيعه على أن يعمل هكذا، وأن لايستمر بعد الآن في ظلم رعاياه الطبيعيين، وأن يرعى الأجانب والغرباء وأن يدعمهم، لكن:

ماهي الفائدة المتوخاة من بذل الجهد

في إلقاء البذار على أرض قاحلة؟

وكان لدى ملك اسبانيا ثماني ممالك هي: قشتالة، وغاليشيا، واشبيلية، وقرطبة، وميورقة، واشباليا Hispalis, فهؤلاء جميعاً بين يديه وهم يخضعون إلى القوانين المسيحية، ولديه أيضاً ملكين مسلمين يدفعون الجزية إليه، كما ظهر في الصك الذي أرسله إلى ملك انكلترا.

حول المرض الشديد الذي أصيب به أسقف لنكولن

وحوالي ذلك الوقت نفسه، وعندما كانت أيام الشعرى (من أوائل تموز حتى أوائل أيلول) تمارس تأثيرها الشرير، تمدد روبرت أسقف أوف لنكولن مصاباً بمرض شديد، وكان ذلك في عزبة اسمها بوكدون Buckdon, ولذلك استدعى إليه المعلم جون أوف سينت جايل، وكان راهباً من طائفة الدومينيكان، وكان بارعاً في فن الطبابة والمداواة، ومحاضراً متعلماً باللاهوت، من أجل أن يحصل منه على المواساة، لكل من جسده وعقله، لأنه عرف، وكأن ذلك جاء بوساطة إلهام، أن المحن مقبلة لتحل بالكنسية خلال وقت قصير، ونحن غير مجهزين ضدها، ولهذا السبب أمر الكهنة المؤسسين في جميع أرجاء أسقفيته بإعادة قراءة قرار الحرمان الكنسي، من دون توقف ضد الذين يخرقون صكوك

الحريات العظيمة التي فيها امتيازات المملكة، وذلك حيثما وجدوا أناساً مجتمعين مع بعضهم، وقاوم بعض أصدقاء البلاط، والكهنة وكذلك بعض الرجال العلمانيين هذا الأمر بتمرد، وكدسوا الإهانات على رجال الدين، وبناء عليه نحن على يقين أنهم بقيامهم بهذا الإجراء، قد سقطوا في شراك التكفير، وعندما كان الأسقف يتحادث في أحد الأيام مع الراهب جون الطيب المتقدم ذكره، أخذ الأسقف يتحدث عن أعمال البابا، فانتقد بحدة اخوانه الرهبان الدومينيكان والآخرين، كما أنه لم يوفر الرهبان من طائفة الفرنسيسكان، لأن طائفتهم تأسست على الفقر التطوعي، وهو الفقر بالروح، في سبيل أن يتمكنوا من ممارسة حرية أعظم، وليس في تلطيف أخطاء الذين بالسلطة، بل أن يقوموا بلومهم ونقدهم بوساطة حدة الروادع، لأن:

المسافر، الذي حافظة نقوده خفيفة

سوف يغني مع أن قطاع الطرق على مشهد منه.

وقال الأسقف: «إنه بالنسبة لك أيها الراهب جون، وبقيتكم أنتم الدومينيكان، إنكم بقدر ماتحجمون عن نقد ذنوب النبلاء بجرأة، وبقدر ما تتمنعون عن الكشف عن جرائمهم، أنا أعدّكم هراطقة منحطين» وأضاف قائلاً: «ماهي الهرطقة؟ أعطني تعريف محدد للكلمة»، ولأن الراهب تردد في الجواب، ولم يتذكر معنى أصيلاً، أو تعريفاً محدداً للكلمة، استطرد الأسقف مضيفاً معطياً ترجمة صحيحة من الاغريقية إلى اللاتينية قائلاً: «الهرطقة موقف جرى اختياره من قبل المشاعر الإنسانية، هو مضاد للكتابات المقدسة، ويجري التبشير به بشكل مكشوف، ويجري الدفاع عنه بعناد وإلحاح»، والهرطقة في الاغريقية، هي الانتخاب في اللاتينية، وعلى هذا الأساس انتقد الأسقف الأساقفة، خاصة الرومان منهم، من أجل إيكالهم مهام شفاء النفوس والعناية بها إلى أقربائهم، الذين كانوا غير مناسبين، وضعفاء غير أكفاء، بسبب أنهم

كـانوا شبـاباً وبسبب الحاجـة إلى المعـرفـة، واستطرد يقـول: «إن إعطاء وظيفـة العناية بشفـاء النفـوس إلى طفل، هو مـوقف أي أسقف جـرى اختيـاره بوسـاطة المشـاعر الإنسـانيـة، على أسـاس الجسد أو العـلاقـة الدنيوية، وهو مضاد للكتابات المقدسة، التي تمنع أن يتولى الرعاية الذين غير قـادرين على منع الذئاب، ولقـد جرى التبشير بهذا، لأن هذا مـؤيد بشكل مكشـوف بصكوك حـريات تحمل الأختام أو التـواقيع، وجـرى الدفـاع عنها بعناد، لأنه إذا مـا حـاول أي واحد أن يقف ضـدها يجري تعليقـه من شراكة المؤمنين، وحـرمـانه كنسيـاً، وإثارة الحرب ضده أمـر مقـدس ومشروع، وكل مـن ينطبق عليـه تعـريف الهرطقـة وهو متبني لذلك، هو هرطقي، هذا وعلى كل مسيحي مخلص واجب الوقوف ضد الهرطقـة بقدر مـا أوتي من قـوة، وبناء عليه، إن الذي بـإمكانه مقاومـة الهرطقة ولايفعل ذلك، هـو مذنب، وقد أظهـر نفسه أنه يحبـذ الهرطقة، وفقاً لقـول غريغوري: إن الذي يخفق في الـوقوف ضد جـريمة ظاهرة، ليس بريئاً من التهمـة في أنه شريك سري في اقترافها، هذا وإن الرهبـان الفرنسيسكان، وكذلك الرهبـان الدومينيكان، هم فوق غيرهم، يتوجب عليهم الوقوف ضـد مثل هذه العقيدة، وبحكم فضيلة وظيفتهم، لديهم القـدرة على التبشير، وبسبب فقـرهم هم أكثـر حـرية في ممارسـة ذلك العمل، وهم لايذنبون فقط إذا لم يقفوا ضـدها، بل إذا ما حبذوها، لأن الرسول يقول في الفقرة الأولى من رسالته إلى الرومان: «الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستـوجبون الموت لايعملون فقط بل أيضـاً يسرون بـالذين يعملون»، وبناء عليـه يمكننـا الوصـول إلى محصلة، أنه مالم يقـم البابا نفسه بالتـوقف عن اقتراف مثل هذه الخطيئة، وكذلك مـالم يظهر الرهبان المذكـورين أنفسهم أنهم مهتمين بالتخلي عن مثل هذه العقيدة، يستحقـون موتاً سرمـدياً، وهناك أيضاً مرسـوم يقول بأن مثل هذا الإثم يعنـي هرطقـة، وبناء عليـه من الممكن دعـوة البـابا هكذا، لابل ينبغي دعوته هكذا على هذا الأساس».

شكوى أسقف لنكولن من الحبر الروماني

وكـانت الليـالي آنذاك طويلة (لأنها كـانت الليلة الثـالثـة قبل عيـد القديس دينس)، وكان الأسقف قد أنهكه المرض، وكان قد هدّه التعب، لذلك أمـر بإحضـار بعض كهنتـه، علّـه يستطيع الترويح عن نفسـه بالحديث معهـم، وقـام الأسقف بـابداء الحزن الشـديـد حـول فقـدان النفوس، بسبـب شره البلاط البابوي، وقـد خاطبهم بحـزن وأسف كما يلي: «جاء المسيح إلى العالم ليربح النفـوس، وبناء عليه إذا كان هناك أي واحـد لايخاف من تدمير النفـوس، ألا يستحق أن يحمـل اسم المسيح الدجال؟ لقـد عمل الله الدنيا كلها في ستـة أيام، لكن من أجل إصلاح خطيئة إنسـان، عمل لمدة تزيد على الثـلاثين سنة، أفـلا ينبغي —بناء عليه— عدّ المدمر للنفوس عدواً للرب، ومسيحاً دجالاً؟ فلقد قام البابا باعتماده على وسيلة استخدام عبـارة «دون التقيد» إلخ، بإلغـاء امتيازات الأحبـار الرومان من أسـلافه، من دون حيـاء، وهذا لم يقترف من دون إلحاق الأذى والضرر بهم، لأنه بعمله على هذه الشـاكلة، ألغى تمامـاً، ودمّـر الذي بذل كثير مـن القـديسين جهـوداً كبيرة لبنـائـه، لابل إنه استخف بجميع القـديسين وازدراهم، وبناء عليه أوليس من العـدل أن يستخف بالمستخـف وأن يزدرى وفقـاً لكلام اشعيـا: «الـويل لك أيها الـرافـض، أولا تستحـق أنـت أن تـرفـض؟» فمـن الـذي يحافـظ على امتيازاته؟ وجواباً على هذا، إن البـابا، بناء عليه يدافع عن خطيئته، وهو يستحق أن لايمتلك السلطة على الآخـريـن، وبناء على ذلك إن واحـداً اسمـه البـابا لايمكنه أن يرغمني، فأنـا الذي بالفعل أيضـا بابا»، وقـال الأسقف: «إن جـوابي على هذا هو: يبـدو لي أن الذين يبحـرون وسط مخاطر العـالم، والذين فـرحين في أمان الميناء ليسـوا متسـاوين، والتسليم بأن أي بابا يمكن أن يكون محفوظاً، بعيـد عني قول غير ذلك، ذلك أن المخلص يقـول: «إن الذي هو الأدنـى في ملكوت السمـوات هو أعظم

من يوحنا المعمـــدان، وأعلى من الذين لايوجـــد أعلى منهم ممن ولدتهم امـرأة»، وعلى هذا، أوليس أي بابا، أعطي امتيازات أو ثبتهـا أعظم من البابا الحالي؟ من المؤكـد، كما يبدو لي هو أعظم، وبناء عليـه، لديه سلطة على واحـد أدنى منه، ونتيجـة لهذا، ينبغي أن لايقـوم هذا البـابا بإلغـاء قـرارات أسـلافـه، أوليس البـابا هو الذي يقـول في حـديثـه عن معظم أسلافه: كذا وكذا واحد صاحب ذكرى تقية، أو سلفنا، إلخ؟ وغالباً ما يقـول أيضـاً: إننا نسير على خطى سلفنا المقـدس، إلخ؟ فلماذا، على هذا الأساس، يقوم هؤلاء الذين يتبعـون الخطوات بتدمير الأسس التي تولى الذين من قبلهم ارساءها؟ فلقـد قام عدد من الأحبار الرسـوليين بتأكيد كل امتياز جـرى منحه من قبل بلا استثناء، أوليس العـديد الذين جرى انقـاذهم بالنعمـة اللاهوتيـة أكثر مـن واحد فـرد مـايزال تحت الخطر؟ ومجدداً إن آباءنا الأقـدمين، الأحبار الرسـوليين، كـانوا من قبله بالزمن، وقد نالوا الاحترام من قبل العصور القديمة، ورفع شأنهم، ونحن علينا أن ننظر إليهم باحترام، وقـد جـرى الحفـاظ على هـذا النظام من قبل بندكت المقدس، وصاحب الفضـائل، والمبجل، والذي امتلأ بروح جميع القديسين، لدى تأسيسه لنظامـه، لأنه فضل الذين جاءوا أولاً للالتحاق بالطائفة، مهما كانت مراتبهم، وآثرهم على الذين التحقوا فيما بعد، حتى وإن كانوا رجـالاً أصحاب مراتب، وسلطـة، وأمر بتقدير القـدماء وأن ينظر إليهم بالاحترام الأعظم، ولذلـك، من أين نبع هذا الأذى المتهـور الذي يستهدف إلغاء امتيازات مثل هذا العدد الكبير من القديسين.

شكواه المريرة من ظلم الكنيسة

وعـلاوة على ذلك، مع أن كثيراً من الـرجـال الرسـوليين، قـد آذوا الكنيسة، قـد أنزلها هذا الواحد إلى أسوأ درجة من درجـات العبودية، وجعلهـا أدنى من الآخـرين، وزاد كثيراً مـن ارباكـاتها، لأنه بسبب السماسرة، الذين يظهـرون التعـامل بالربا في أيامنـا هذه، حسبما رأينا

وعرفنا، فإن الآباء المقدسين والمعلمين، الذيـن من بينهم: واعظ فرنسا المشهـــور، راعـي دير فلي Flaye الذي هـو من طائفـــــــــة السسترشيان، والمعلم جيمس دي فيتري Vitry, وستيفن المنفي، رئيس أسـاقفة كـانتربري، والمعلم روبرت دي كوركـون Courcon, جرى طردهم من فرنسا، لأنهم بوعظهم قـد أيقظوا المشاعر، وقام هذا البـابا بحماية هؤلاء السماسرة في انكلترا، التـي لم تتعـرض قط من قبل للمعاناة من مثـل هذا الوباء، وإذا ماقام أي واحـد بالشكوى منهم أو بنقـدهم، ينال المتـاعب والخسـارة، كما شهـد على ذلك روجـر أسقف لندن، والعـالم كله يعـرف أن الربا قـد عدّ ممقـوتاً في العهـدين القـديم والجديد معـاً، وهو محرم من قبل الرب، والآن يقـوم تجار البــابا أو وكـلاؤه —في سبيل اغضـاب اليهــود— بممارسـة أعمال الربا بشكل مكشوف في لندن، ويبدعون مختلف الخطـط للظلم ضد عبيد الكنيسة، وبشكل خـاص ضـد الرهبـان، حيث أنهم يـرغمـون الذين تعـرضـوا لضغط العوز، على ممارسة الكذب، وأن يضعـوا تواقيعهم على كتابات مـزيفـة، ومثل هذه الإجـراءات هي اعتراف عملي، وممارسـة لعبادة الأوثان، ومن ثم التخلي عن الحق الـذي هو الرب، وعلى سبيل المثـال إنني أقبل بقـرض مقداره مائـة مارك مقـابل مائـة باوند: وإنني هنا أنا مرغم على إعطاء ورقة مكتـوبة، والتوقيع بالاسم، وفيها أعترف بأنني تقبلت قـرضاً مقـداره مـائة باوند ينبغـي سداده عند نهاية العـام، وإذا مارغبـت أن تدفع إلى مرابي البـابا المال الذي اقترضته خـلال شهر، أو خــلال بعض الوقت الأقل، هو لن يتسلـم منك أقل من المائـة باوند كاملة، وهذه شروط أكثر ظلماً من شروط اليهود، لأنك متى أردت أن تعيــد إلى يهودي المال الذي أقـرضك إيـاه، هو سـوف يتسلمــه منك بتقدير وشكر، ومع فائدة تتوافق فقط مع الوقت الذي أقرض به المال، وعلاوة على ذلك نحن نعلم بأن البـابا قد فـرض على كل من الرهبان الدومينيكان والفـرنسيسكان، أن يحضروا عند الذين يمـوتون ليطلبـوا

منهم بكل عناية، وليحاولوا اقناعهم بإلحاح، ليعملوا وصاياهم لمنفعة الأرض المقدسة ولنجدتها، وليلزموهم بحمل الصليب، من أجل أنهم إذا ما تعافوا من مرضهم، يمكن لهؤلاء الرهبان خداعهم حول ممتلكاتهم الأساسية، أو أنهم إذا ماتوا، وقتها من الممكن استخراج الكثير من المنفذين لوصاياهم، كما أنه باع أيضاً الذين حملوا الصليب إلى رجال علمانيين، مثلما عمل اليهود عادتهم من قبل، بيع الأغنام والثيران في الهيكل، ولقد رأينا رسالة صدرت عن البابا، نجد أنه ورد فيها، أن الذين عملوا وصاياهم، أو حملوا الصليب لمساعدة الأرض المقدسة، سوف يتلقون غفراناً يتماشى مع نسبة المال الذي قدموه من أجل هذا الغرض، وعلاوة على ذلك قام البابا في كثير من رسائله، بتوجيه الأساقفة لتجهيز كذا وكذا شخص بمنافع لاهوتية، وهم أشخاص غرباء وغائبين، وبعضهم غير لائقين تماماً بالمنافع، لكون أحدهم كان لايعرف لغة المحليين حتى يكون بذلك قادراً على الوعظ، أو تلقي الاعترافات، ولايمكنه حتى أن يستقر ويسكن ليتولى تدبر حاجيات الفقراء، ولاستقبال المسافرين، وقد أمر بأن تكون المنفعة واحدة من نوع يجعل هذا الغريب نفسه يفكر ويتمعن فيها إذا كانت تستحق القبول، ومرة ثانية نحن نعلم بأن البابا قد كتب إلى راعي دير القديس ألبان يأمره بتزويد واحد اسمه جون أوف كيمزان Came-zan —هو لم يره قط— بمنفعة موائمة، وفي وقت قصير، وبناء عليه جرى تعيين ذلك الشخص في كنيسة تساوي أربعين ماركاً، وأكثر، سنوياً، وهو لم يكن حتى راضياً بهذا وقانع، لذلك تشكى إلى البابا، ومجدداً، كتب قداسته إلى راعي الدير المذكور، أن يتدبر منفعة أكثر ربحاً ليعطيها إلى الكاهن المذكور، ومع هذا أن يبقي لصالحه —أي البابا— أعطية الكنيسة المتقدم ذكرها.

وبعد مضي أيام قلائل بعد ذلك، ذهب شخصان وضيعان إلى دير

الراعي المذكور، وهما يحملان رسائل من البابا، كان من بين محتوياتها أمراً إلى راعي الدير أن يدفع على الفور باليد، ومن دون أية مشاكل مبلغ عشرة ماركات إلى هذين الشخصين النبيلين، حتى يتمكنا من تدبر شؤونهما، ووضع راعي الدير حداً لتهديداتهما ولكلامهما المتعجرف بدفع المال، وبشأن الرجال المقدسين والمتعلمين، الذين غادروا هذا العالم ولن يعودوا، قام البابا حتى يحاكي الرب، بتعيين جباة لاستخراج المال بحجج متنوعة، وقد تولوا القيام بهذا العمل، وإن كانوا مكرهين، حتى لايظهروا أنهم غير طائعين، وهكذا صاروا مع كونهم دنيويين أكثر دنيوية، ودللت خشونة ملابسهم، التي ارتدوها على كذبهم، وبالقدر نفسه تسترهم تحت غطاء الفقر على سكنى روح التجبر فيهم، وبناء عليه بات من غير الممكن ارسال نائب بابوي إلى انكلترا، مالم يجري طلب إذن الملك من أجله، ويرسل البابا نواباً مزيفين ومموهين، ومع أنهم لايرتدون ملابس حمراء، هم متسلحون بسلطات كبيرة، وليس من الصعب ايجاد مثل يستشهد به، لأن عدداً كبيراً من هذا النوع جاءوا مراراً، أن نتولى ذكرهم بالاسم سوف يكون مؤذياً للسامعين، ومن جديد إن الذي لم أره بالعادة، هو أن البابا قد قام، في سبيل مصلحة دنيوية، فسمح إلى أي واحد بشغل منصب الأسقفية، مع أنه لم يكن أسقفاً، بل منتخب بشكل أبدي، محافظاً أيضاً على الموارد القديمة، الأمر الذي يؤكد الأمر التالي، هو أنه قد سمح له بأخذ حليب الشاة وصوفها دون أن يتولى طرد الذئاب وابعادهم.

وبعد استحواذهم على هذه التجاوزات المقيتة وأشياء مزدراة أخرى، مثل كل نوع من الشره، والربا، والسيمونية، والسلب، وكل نوع من الترف، وممارسة الجنس، والنهم، وحب الزينة، المستبد بذلك البلاط والمتحكم به، وبذلك انطبق بعدل عليهم القول: «أن تشبع

نهمه العالم كله لايكفي، وأن تلبي رغبات مسراته، جميع عاهرات العالم غير كافيات»، ثم قام ذلك البلاط ببذل كثير من الجهود، وقام بكثير من الإجراءات، على أمل أن يظهر بأن الأردن سوف يصب في فمه، ولذلك فغر عن فكين مفتوحين وهو راغب في أن يدعي لنفسه تملك حاجيات أولئك الذين ماتوا من دون وصية، وكذلك أيضاً الذين منحوا بوضوح ممتلكاتهم بموجب وصية، وتصرفوا حتى يفعلوا هذا بحرية أكبر، بأن جعلوا الملك متورطاً معهم وشريكاً في سرقاتهم»، ثم إنه أضاف يقول: «ولن تستطيع الكنيسة أن تتحرر من أغلال عبوديتها، إلاّ بحد السيف الدموي، وهذه الشرور هي الآن خفيفة، لكنهم خلال وقت قصير —خلال ثلاث سنوات كما أخمن— سوف يصبحون أكثر جدية»، وعند الفراغ من هذا الكلام التنبؤي، الذي تفوه به بكل صعوبة، والذي قوطع بالآهات والدموع، انبسط لسانه، وعجز عن التنفس، وأصبح صامتاً، لأنه فقد القدرة على الكلام.

حول وفاة روبرت أسقف لنكولن

وهكذا بناء عليه، غادر من منفى هذه الدنيا، التي لم يحبها مطلقاً، روبرت المقدس، الأسقف الثاني للنكولن، وقد مات في عزبته بوكدون Buckdon, في ليلة عيد القديس دينس، وقام خلال حياته بنقد البابا والملك بشكل مكشوف، وأصلح القساوسة، وقوّم الرهبان، وفيه فقد رجال الدين، المدير، والكاهن، والموجه —العالم والداعم— وفقد فيه الناس الواعظ، وقد أظهر نفسه مضطهداً للعاجزين عن ضبط شهواتهم الجنسية، وفاحص مدقق لمختلف الكتابات المقدسة، مكافح للرومان وماقت لهم، وكان كريماً مضيافاً، ومسرفاً، وأديباً، ومشرقاً، ودمثاً عند المائدة، ومعتدلاً في تناول الأغذية الجسدية، وتقياً مخلصاً عند المائدة الروحية، وباكياً نادماً، وكان في ممارسته لواجباته الأسقفية، لطيفاً، لايعرف التعب، وجديراً بالاحترام.

حول الموسيقى التي سمعت في السموات

خـلال الليلة التي غـادر فيهـا الأسقف المذكـور إلى الرب، سمع فولكس Faulkes أسقف لندن في الهواء من فوق صـوتاً رائعاً، وعظيم القبول، وموسيقى أنعشت أذنيه وقلبه وركز انتباهه على الوقت، وعندمـا كـان يصغي إلى الموسيقى (ذلـك أنه كـان في ذلك الوقت مقيماً قـرب بوكدون) قـال لبعض الأشخـاص الذين كانوا واقفين إلى جنبـه: «هل سمعتم أنتم أيضـاً الذي أنا أسمعه»؟ وبناء عليه سـألوه: «ماالذي تسمعه يامـولانا؟» فأجابهم الأسقف: «إنني أسمع صـوتاً غير اعتيادي، مثل صـوت جـرس دير كبير يقـرع لحناً بهيجـاً في الهواء من أعلى، ومع أنهم أصغـوا بكل عناية، أعلنـوا أنهم لم يسمعـوا شيئاً، وبناء عليـه قـال الأسقف لهم: «بحق الإيمان الذي أدين به للقـديس بولص، إنني أعتقـد أن أبانا المحبوب، وأخانا، ومعلمنا، الأسقف المحترم للنكولن، يعبر من هذا العالم ليـأخذ مكانه في ملكوت السموات، وإن هـذا الصوت الذي سمعته قد قصد منه، تقـديم انذار مكشوف لي حول ذلك، لأنه لايوجد دير قريب من هنا، فيه جرس من ذلك النوع، ومرتفع إلى هذه الدرجة، دعونا نبحث في القضية على الفور، وبناء عليـه قاموا بالتقصي، فوجدوا، حسبما تبرهن بإفـادة جميع آل بيتـه، أنه في تلك السـاعـة بالذات، غـادر الأسقف هذا العالم، وبالنسبـة لهذه الواقعة الرائعـة، أو بالحري، المعجزة الأولى، جـرى الإخبـار بها بمثـابة حقيقـة، وحملت كبينة إلى كـاتب هذا الكتاب، من قبل المعلم جون كراتشيل Cratchale, وهو كاهن وثيق الصلة بالأسقف، وواحد كان مـوضع احترام كبير، وكان صاحب سلطة عالية بين أتباعه وأصدقائه.

حول أصوات الأبواق والأجراس التي سمعت في السماء

وفي تلك الليلة نفسهـا، كـان هناك بعـض الرهبـان من طـائفـة الفـرنسيسكان، مسرعين نحـو بوكـدون، حيث كـان روبرت أسقف

لنكولـن مقيماً (لأنه كـــان المواسي والأب للـرهبـــان الدومينيكـان والفرنسيسكان) وأثناء عبورهم للغـابة الملكية في فوبيرج Vauberge, بما أنهم كـانوا جـاهلين لمتعرجـاتها أضـاعـوا طـريقهم، وعندمـا كـانوا يتجولون ويبحثـون، سمعوا في الهواء أصوات أجراس، ميـزوا بوضوح بينها صوت جرس كان لحنه جميـلاً جداً وحلواً لايشبه أي شيء سمعوه من قبل، وأثارت هذه الواقعـة دهشتهم كثيراً، لأنهم عـرفـوا أنه لم تكن هناك كنيسة قريبـة معروفة، وعندما بزغ نور الفجـر، وبعدما تجولوا هنا وهناك من دون فـائـدة، قـابلـوا بعضـاً من أهل الغـــابة، فحصلوا على التـوجيــه لاسترداد طريقهم الصحيح، وبعـد ذلك سألـوهم عن معنى القــرع الكبير والمهيب للأجــراس، التـي سمعــوها قــادمـــة من اتجاه بوكدون؟ وعلى هذا أجـابهم رجال الغـابات أنهم لم يسمعوا شيئاً، ومع أن الصوت كان مستمراً يملأ الهواء بلطف، لم يكونوا يسمعون أي شيء على الاطلاق، ومع أن الرهبـان ظلوا مندهشين تابعوا سيرهم، فـوصلوا إلى بوكـدون في الوقت المناسب، وهناك جـرى اخبـارهم، أنه في الوقت الذي سمعـوا فيـه تلك الألحان الشجية في الليل والأصـوات اللطيفـة، لفظ روبرت أسقف لنكولن روحه السعيدة.

حول المجاعة الكبيرة في غسكوني

استمرت في هذه الآونة ندرة المؤن في غسكوني وتثبتت، وازدادت إلى درجـة بلغ فيها ثمن مكيـال الطحين عشرين شلناً، والكمية نفسهـا من الشوفـان بعشرة شلنات، وبيعت اللحوم والأسماك بأسعار عـالية، لابل حتى الخمـرة، بيعت كذلك، مع أن غسكوني كـانت فيهـا بالعادة وفـرة منهـــا، ولذلـك أرسل الملك رئيـس رهبـــان نيـــوبري Newbury, وكـان كاهناً نظاميـاً، وبعث أيضـاً روجر سنسـور Censor, مع بعض مستشاريه المخلصين إلى انكلترا للحصول، ومن ثم جلب ما كان ضرورياً لجيشـه، وذهب هؤلاء الرجال وقتهـا إلى لندن، وفرضـوا مبلغاً

كبيراً من المال واستخرجوه من سكان ذلك المكان، ولم يكونوا بطيئين أو غير نشيطين في جباياتهم، وجمعوا الأسلحة، والقمح، واللحوم المملحة، وحملوا جميع ذلك في عدد كبير من السفن، لكن رجال بلاط الملك والجيش كانوا مثل خليج كاريبديس Charybdis الذي لايعرف الشبع، التهموا هذه الأشياء كلها، وفي الحقيقة عدّ الملك انكلترا بئراً لاينضب، وكان عليها أن تدفع من أجل أخطاء وذنوب جميع الجيران وكذلك جميع البلدان المجاورة، وفقاً لقولهم:

عقوبات النزوات الملكية

تقع على أكتاف الاغريق

أما وأصبح الملك Lycurgus ثانياً، اقتلع كروم الأعداء ودمرها، وهي الكروم التي اعتمد عليها الغسكونيون بشكل رئيسي من أجل عيشهم، وأمر بتسوية بيوتهم وقلاعهم مع الأرض، وعندما تبين هذا للغسكونيين اشتكوا من هذا النوع من الانتقام، وعدوه أدنى بكثير من طريقة الفروسية في الحرب التي مارسها سيمون ايرل أوف ليستر، وعدّوا تدمير كرومهم واحراق بيوتهم حروب امرأة عجوز، وليست من حروب الرجال.

حول إطلاق سراح أسرى من قبل الملك

وبعد الاستيلاء على قلعتي لى راؤل وبازاس Bazas, اللتان كلفتا الانكليز الكثير من المتاعب والنفقات، أعطى الملك ملكيتهما بشكل حر إلى بطرس أوف سافوي، وإلى إخوته البواتيين، الذين ما ان أطلق سراحهم حتى التحقوا على الفور بأعدائه.

موت وليم دي فيزي

وهكذا سلبت انكلترا من كل جانب، وجردت من السلاح، والطعام

والمال، والذي كان محزناً أكثر هو تجريدها من فرسانها، لأنه بعدما ذهب الملك إلى القارة مات عدد كبير من أتباعه، كان من بين أعدادهم وليم دي فيزي Vesey, وكان واحداً من أعظم النبلاء وبارونات شمالي انكلترا، فقد غادر طريق الجسد، وقام الملك على الفور بإعطاء المسؤولية التي كانت بعهدته، وكانت ذات أهمية عظيمة، إلى أجنبي، محدثاً بذلك أذى عظيماً ألحقه برعاياه الطبيعيين.

حول آلام فرسان شروبري

وفي هذه الآونة بالذات، رفض بعض فرسان شروبري Shrewbury, لابل هم جميعاً، الانصياع إلى مرسوم الملك الجديد، المتعلق بالممتلكات، التي كان المسافرون قد سلبوها، وذلك حسبما كانت العادة بين السافويين في بلادهم، ولذلك تعرضوا عن طريق العقوبات إلى أعظم استخراج، ولهذا مكثوا لعدة سنوات وهم يجدون صعوبة في تزويد أنفسهم مع آل بيوتهم بالضروريات من أجل الحياة، أو بوسائل زراعة أراضيهم.

حول التجاوزات التي اقترفت من قبل المسلمين

في يوم عيد جميع القديسين، وصلت أخبار مرعبة جداً إلى الايرل رتشارد، الذي كان قلقاً أكثر من الآخرين حول أوضاع الأحوال في الأرض المقدسة، وقد تحدثت —وذلك كإشارة على الغضب العظيم للرب— بأن سلطان المسلمين والقادة الرئيسين بينهم أقاموا سلاماً فيما بينهم أنفسهم، ودخلوا في تحالف اتحادي من أجل تدمير الصليبيين، حيث أخذوا يجتاحون الأرض المقدسة كيفما أرادوا، واستولوا على مقتنيات الصليبيين حسبما رغبوا من دون أية معارضة، أي أنهم دمروا جميع المنطقة عبر عكا، وأزالوا بعض الطواحين التي كانت عائدة إلى سكان ذلك المكان، لأن المسلمين عملوا مؤامرة لمحاصرة عكا، وأسر

ملك فرنسا، مما كان سيشكل عاراً لايمكن رحضه بالنسبة للصليبيين، وعزموا أن يقدموه بعد أسره إلى خليفتهم، الذي كان بالنسبة لهم مثل البابا، وعندما أصبحت هذه الحقيقة معروفة بشكل عام (بين الصليبيين) حزنوا بشكل عميق، وعزوا هذا كله إلى سوء الحظ، وإلى الشره العنيد للرومان، الذين رفضوا بصلف تواضع فردريك وعرضه المساعدات لاسترداد جميع مقتنيات الصليبيين بشكل مسالم، أي جميع الممتلكات التي امتلكها الصليبيون في أي وقت من الأوقات في الأرض المقدسة، ذلك أن الرومان لم يرغبوا بأن يعزى مثل هذا الانجاز العظيم إليه، وما كان مؤلماً أكثر هو أنهم باعوا إلى العلمانيين الصليبيين، فأنهكوا وتحولوا إلى متسولين، وجاء ذلك وفق الطريقة نفسها كما فعل اليهود، حسبما ذكرنا أعلاه، حيث باعوا الأغنام، والثيران، والحمام في الهيكل وهم الذين طردهم الرب، وحدث على كل حال، أنه بإرادة الرب، الذي وإن غضب، تذكر الرحمة، فكان أن ثار بعض المسلمين ضد الذين كانوا ينزلون بالصليبيين غضبهم، وبذلك أخفقت مقاصدهم، وأرغموا على التراجع.

حول حملة كونراد بن فردريك

خلال هذا الوقت كله كان كونراد يلاقي النجاح في حملته في أبوليا، منطلقاً من كراهيته للبابا، فاستولى على مدن كابوا Capwa, ونابل، ومدن أخرى، وأدخلها في طاعته وسحق قوى كثيرين وقفوا ضده، وكان قد سكن في تلك البلاد رجلاً شريراً، وملطخاً بالدماء، وكان واحداً من أهلها أيضاً، اسمه جون الموري Moor, وكان داهية متملقاً، تمكن تحت رداء التظاهر بالصداقة، من أن يسمم بشكل سري، كثيراً من الناس، وقد قيل بأن هذا الرجل قد تمكن بهذه الوسائل من قتل فردريك في الأزمان الماضية، ونصب الآن شباكه السرية المميتة لابنه كونراد.

حول الخلاف بين رئيس الأساقفة بونيفيس والهيئة الكهنوتية في لنكولن

بعدما عاد بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري من حضور دفن روبرت أسقف لنكولن، نشب خلاف بينه وبين الهيئة الكهنوتية في لنكولن، لأنه ادعى بموجب الحق العام أنه يمتلك السلطة في توزيع أوقاف أسقفية لنكولن ومواردها، بعدما حرمت الآن من راعيها، وفي المقابل وقف ضد ادعائه العميد والهيئة الكهنوتية، معتمدين على امتيازهم الخاص وعلى العرف القديم والمعترف به، وقد أيدهم المعلم وولتر بيلستدون Billesdton, وكان رجلاً بارعاً تماماً بالقانون وجديراً بالثقة، حيث قدم بينة إليهم، ذكر فيها ثلاث كنائس، قد جرى منحها من قبل العميد، عندما كان الكرسي الأسقفي شاغراً، ومثل هذا فعل عدد كبير من الأشخاص الآخرين، الذين عرفوا أن تلك كانت القضية الحقة، وقام رئيس الأساقفة، وهو واثق من سلطاته المتنوعة والمضاعفة، بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بجميع الذين وقفوا ضده، وكان وليم وولف Wolff, رئيس شمامسة لنكولن، الذي كان رجلاً كبير المعرفة بالقانون، وفي الأنواع الأخرى من الآداب، وكان صاحب نفوذ كبير، كان هو الرجل الوحيد، الذي وقف مواجهة ضد رئيس الأساقفة، وقد ترافع بدعوى استئناف إلى الحبر الأعظم، لصالح حقوق وامتيازات كنيسته، وأقام نفسه وحدها بمثابة حاجز للدفاع عن ممتلكاته الخاصة وعن امتيازات كنيسته، وقد أرغم على تحمل أشد الآلام تعاسة، حسبما سوف تظهر الرواية التالية:

وكان الكهنة النظاميون قد هدتهم الإجراءات التي جرى تنفيذها في الأزمان السالفة من دون فائدة، ولذلك لم يكونوا قادرين، ولا حتى راغبين في الدخول في قضية مشكوك فيها ضد خصم على درجة كبيرة من القوة، ولذلك أذعنوا لرئيس الأساقفة وخضعوا له، وبقيامهم بهذا

حصلوا على نعمة التحليل من الحرمان الكنسي، وبقي رئيس الشمامسة مصراً على موقفه، وبحث في الوقت نفسه عن مكان للاختفاء، واعتقد أخيراً أن عليه آن يجد لنفسه مكاناً للجوء في مدينة القديس ادموند، لأن العادة جرت بأن يجد المضطهدون الملجأ هناك مع الحماية، وكذلك في منطقة نفوذ كنيسة القديس ألبان، ولذلك حمل نفسه إلى مدينة القديس ادموند المتقدمة الذكر، وذلك بعدما بقي مدة أربعين يوماً بصورة مستمرة، تحت الحرمان الكنسي، بصورة عادلة أو غير عادلة، لايمكننا القول، لكن المطاردة والتنكيل من قبل رئيس الأساقفة لحقا به إلى هناك، ولذلك عوضاً عن أن يجد ملجئاً، وجد سجناً، كما لم يستطع راعي دير القديس ادموند أن يستقبله، أو أن يقدم الحماية له، وأنزل إلى حالة الفقر، وحكم عليه بالنفي، لذلك ذهب رئيس الشمامسة إلى روما، ليطلب المعونة والمواساة من البابا، الذي عندما علم بحقائق القضية آشفق عليه، وأعطاه انصافاً أبوياً، وانتقد بالوقت نفسه خنوع الكهنة النظاميين، وقسوة رئيس الأساقفة، وأثنى على ثبات رئيس الشمامسة، وعند ذلك ارتفعت آمال رئيس الشمامسة، وانطلق عائداً من بلاط روما، لكن لدى وصوله إلى المناطق الواقعة عبر جبال الألب، استبد به التعب والأسى، الذي تحمله في الدفاع عن امتيازات كنيسته، فغادر طريق الجسد كله، ليكون جديراً بالتعايش مع القديس توماس الشهيد، الذي مات في قضية مشابهة، وكان قبل موته قد عانى لمدة تقارب الثلاثة أعوام من المحنة في هذه القضية.

كيف ذهب رئيس الأساقفة بونيفيس إلى دير القديس ألبان

أثناء تلك الآونة التي تقدم ذكرها أعلاه من السنة، عندما كان بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري على طريق عودته من دفن الجسد المقدس لروبرت، أسقف لنكولن، عبر بدير القديس ألبان، وطلب السماح له بالإقامة هناك، وتقدم بطلبه بكثير من اللطف والتواضع،

خشية منه أن يقابل بالرفض، لأن ذلك الدير معفى من تقديم الضيافة، وذلك حسبما كان قد حدث له من قبل في بلفوير Belvoir, وهي رئاسة رهبانية تابعة لدير القديس ألبان، وقام —على كل حال— راعي دير القديس ألبان بإرسال رئيس شمامسته مع بعض من الرهبان لاستقباله، معتذرين أنه لم يستطع القدوم لاستقباله بسبب الضعف وتقدم السن، وبناء عليه ذهبت هذه الفئة لاستقباله مع تشريف عظيم واحترام، وجاء ذلك إثر تسلمهم لرسائله، التي ذكر فيها أنه طلب الضيافة كعمل من أعمال اللطف، وتبعاً لذلك جرى قبوله في يوم محدد بعد العصر، ومع أنه عومل بقلق، رفض قبول أية هدية قدمت إليه من مقتنيات الدير، باستثناء الطعام والشراب، ثم إنه شكر بأدب راعي الدير لأنه استقبله بلطف، ولضيافته الكريمة، وبعدها قام بالمغادرة في الصباح الباكر من يوم عيد القديس مارتين، من دون الدخول إلى قلب الدير أو الكنيسة.

وتصرف وفق الطريقة نفسها، النائب البابوي أوتو، الذي كان حاله في انكلترا بمثابة بابا ثاني، فكتب رسائل، أفاد فيها بأنه طلب الضيافة كعمل إحسان، لكن روبرت أسقف لنكولن أثناء ذهابه إلى هارتفورد، لم يقم بكتابة رسالة من أجل هذا الهدف، ولذلك لم يتم استقباله، فقام في اليوم التالي بتعليق كنائس العلمانيين من شراكة المؤمنين، لكن لأنه انتقد لعمله هذا من قبل النائب البابوي، قام على الفور بإلغاء القرار الذي تفوه به بسرعة، لأنه عمل بناء على نصيحة شريرة.

حول امتياز دير القديس أوغسطين في كانتربري

وإثر مغادرة رئيس الأساقفة المذكور لدير القديس ألبان، تلقى رسالة بابوية، ناوله إياها راهب من دير القديس أوغسطين في كانتربري، وكان الذي جاء فيها أمره أن لايزعج راعي ذلك الدير، أو رهبانه، بوساطة الزيارات التفقدية، أو التعليق من شراكة المؤمنين، أو الحرمان الكنسي،

وهو ما كان قد اقترحه، وحاول أن يقوم به من قبل، وبعدما قرأ هذه الرسائل من دون اهتمام، أمر باحراقهم، ومن الممكن الوقوف على محتوياتهم في كتاب Additaments, ونتيجة لهذا، كان رئيس الأساقفة، وكذلك الذين قدموا إليه النصيحة، مسرورين تماماً، لأنه تصرف بنفسه مسالماً هكذا، وباعتدال في دير القديس ألبان.

كيف ولدت ملكة إنكلترا إبنة

وفي هذه الآونة نفسها، ولدت ملكة انكلترا ابنة للملك في لندن، وقد جرى تعميدها من قبل رئيس الأساقفة، وتسميتها بكاترين، لأنها تنفست للمرة الأولى في يوم عيد القديسة كاترين.

كيف ذهب سيمون إيرل ليستر إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة نفسها، ذهب سيمون ايرل ليستر، الذي كما ذكرنا من قبل، كان قد طلب منه قبول منصب قهرمان فرنسا، بسبب اخلاصه وشجاعته، لكنه رفض على أساس أن «ما من رجل يمكنه أن يخدم بشكل صحيح سيدين»، كان أحدهما معادياً للآخر، ذهب إلى مولاه ملك انكلترا في غسكوني، مقدماً نفسه ومعلناً عن استعداده ورغبته في خدمته، في اخضاع أعدائه العصاة من الغسكونيين، الذين —يمكن القول— كانوا يرتعبون منه مثل الرعب من الرعد، كما أنه أخذ معه قطعة منتخبة من العساكر، جمعها على نفقته، وقد عرض أن يبقيها تحت طلب الملك ووفقاً لرغبته، وشكل الفرسان والجنود الذين كانوا معه حشداً كبيراً، لأنه أثير بروح الإحسان والتواضع، الذي تجاوز حدود المشاعر الإنسانية، بالرد بالخير على الشر، وأن لايفكر شيئاً حول كلمات الغضب الطائش التي صدرت عن الملك، الذي تفوه أثناء حدة غضبه، بكلمات إهانة ضده، لكنه عوضاً عن ذلك أعاد إلى الذاكرة المنافع التي أنعم بها الملك عليه، باعطائه اخته لتكون زوجة له، وبمنحه ايرلية ليستر، وبالعهدة إليه بأمر الوصاية

على وريث غيلبرت أوف همفـــريفيل Gilbert of Humfreville, وكان الايرل قد تلقى نصيحـة حول هذا الموضوع من قبل روبرت أسقف لندن، الذي كان صديقاً خاصـاً به، كما كان أيضاً الأب المتلقي لاعترافات الايرل، وقـد مـال الايرل عن طواعيـة لهذه النصيحـة، واستجـاب لهذه الرغبـة، وأعجب الملك بأريحيـة الايرل، واستقبله بأعظم بهجـة، ولدى معـرفـة الغسكونيين، الذين كـانوا أصـدقاء الحظ، بأن ملـك اسبانيـا قـد تصالح مع ملك انكلترا، وأن الايرل سيمون قـد وصل ومعه تلك القطعة المرعبة من العسـاكر، أصبحوا متواضعين، مع أن ذلك كـان ضد إرادتهم، وعادوا بموجب درجـات وتراجعوا إلى خضوعهم إلى الملك، الذي اقترح بعد هذا العودة إلى انكلترا.

حول الاضطرابات في جامعة باريس

وتفجـر في هذه الآونـة خـلاف كبير بين البـاحثين في جـامعـة باريس والرهبـان الدومينيكان، الذين أصبحـوا كثيرين جداً، وعـلا شأنهم كثيراً، لأنهم صاروا المتقبلين لاعترافات الملك والمستشارين لديه، ولذلك رفضوا الخضوع للأعراف القديمة والمقررة، والاعتراف بامتيازات الباحثين، ولهذا اجتمع البـاحثـون، وجمعـوا المال من بين بعضهم بعضـاً، حيث أسهم كل واحـد منهم حسب إمكاناته، وجرى إلغـاء الدخل الاسبوعي العـام لكل واحـد منهم، في سبيل تلبيـة مطالب بلاط روما وارضـائـه من ذلك المال باسم رجال الدين، وتشجع الرهبان المتقـدم ذكرهم من هذه الواقعة، لأنه كان لديهم أصـدقاء أصحاب سلطة كبيرة في ذلك البـلاط، كان من بينهم الراهب هوغ، الذي كـان من طائفة الدومينيكان، لابل حتى البـابا نفسه، وذلك بالاضافـة إلى عدد كبير آخر، أصحـاب نفوذ رفيع وسلطات كبيرة، ولذلك جـرى صرف مبلغ كبير من المال، وكـانت هناك متـاعب كثيرة تبـددت في هذه القضيـة، حتى أمكن أخيراً إعـادة تأسيس السـلام، بتغيير الأعراف الباريسية.

حول وصول البابا إلى روما

وأثناء هذا الوقت كله أهيج البابا بوساطة كثير من الاضطرابات اليومية، وكان وقتها قد مدد اقامته المؤقتة في أسيسيو Assissio, وإلى هاهنا أرسل إليه الآن طلباً بوساطة رسل خاصين من قبل برانكليون، شيخ الرومان وجميع سكان مدينة روما، بأن عليه العودة من دون تأخير إلى مدينته، لأنه كان راعيهم، والحبر الروماني، وعلاوة على ذلك ذكروا له أنهم يعجبون كثيراً من تجوله هنا وهناك دونما استقرار، وفي المنفى، تاركاً كرسيه الحبري لروما، وهاجراً لشياهه، الذين سوف يقدم عنهم حساباً دقيقاً للقاضي الأعظم، لأنه تركهم لأنياب الذئاب، في حين هو يسعى فقط وراء المال، فضلاً عما تقدم، أوضح شيخ روما مع الشعب الروماني، إلى مواطني أسيسيو، مع التهديد بتدمير لامنجاة منه، إذا مااحتفظوا بالبابا أية مدة أطول، ذلك أن العالم كله قد عرف أنه كان بابا روما، وليس حبرليون، ولابيروجيا، ولاأغنانو Agnano, لأن هذه كانت هي الأماكن التي غالباً ما أخفى نفسه بها، وبناء عليه ذهب سكان أسيسيو أنفسهم إلى قداسته، وعبروا عن هذه الرسالة وأوصلوها كاملة إليه، ولذلك بات واضحاً للبابا، ومفهوماً تماماً، أن عليه بحكم الضرورات الذهاب إلى روما، خشية من أن يجري تدمير شعب أسيسيو من قبل الرومان أثناء سخطهم، فالشيء نفسه كان قد حدث مع شعب أوستيا،وبورتو، وتوسكولوم، وألبانو، وسابينو، وحاليا مع مواطني تيفولي، وبناء عليه برضا منه أو بعدم رضا، حزم حقائبه، وذهب إلى روما، مع أنه كان في حالة من الرعب، لكن عند وصوله استقبل بكل تشريف، وكان الشيخ مسرورا كثيرا، وبوضع نظامي، وفي الوقت نفسه، ظل كونراد بالفعل شوكة في عين البابا، وكان يقترف أعمال تخريب مرعبة، في كل من البر وعلى شاطىء البحر، وضد أسوار نابل

ودفاعـاتها (وهي المدينة التي كـانت من قبل المفضلة للسكنى من قبل فرجيل)، لكن بسبب كراهية البـابا ولعناته، لم يستطع احراز التقدم بما أخذه على عاتقه.

أمثلة على جشع الرومان

وكان الـرومان غير راغبين، لابالحري غير قادريـن على الاستمرار في اخفـاء جشعهم، لذلك بدأوا بعمل شكاوى كبيرة ضـد البابا، وطالبـوا بسرعـة وإلحاح بأن عليه تعـويضهم عن الخسـائر والأضرار التي عـانوا منهـا، بسبب غيـابه، وذلك عن طريق ايجارهم لمسـاكنهم، ولتجـاراتهم، ولرباهم، ومـواردهم، وتجهيزاتهم، وطرق أخـرى لاحصر لها، مما أحزن البابا في قلبه، حيث وجد نفسـه قد وقع في الفخ، فالتجأ إلى الشيخ من أجل المواسـاة، وبناء عليـه قـام الشيخ بضبط غضب الشعب بخطابات لطيفـة، حيث أخبرهم، أنه كان عمـلاً غير إنسـاني، اغضاب البـابا بهذا القـدر وازعاجـه، وهو أبوهم وراعيهم الروحي، وقـد استـدعي بشكل مسـالم من قبلهم، ليتـولى العناية بأرواحهم، وبهذه الوسـائل خفت ثورة العاصفة وخمدت.

حول الأحوال المضطربة للأنواء وللبحر

وفي اليـوم الذي أعقب عيد القـديسة لوسيـا في هذا العام، انهمـرت السحب بكميـات وافرة مـن الثلج، وأعطت الرعود الشتـوية الانطبـاع وأشارت إلى انذارات مرعبة.

حول طرد شعب لى راؤل ونفيه

وأيضــاً في هـذا الوقت بالتهام أديـن جميع الناس الذيـن سكنوا في لى راؤل، وفي القــلاع الأخـرى التي وقعـت تحت الحصــار، ثم جــرى اخـراجهم منها أثناء المجـاعـة، وحكم عليهم بنفي دائم رجالاً ونسـاءً، ولذلك أخذوا يتجولون في البلدان المجاورة بمثابة متسولين.

حول فيضانات البحر والأنهار

وفي هذا العام أيضاً فاض البحر والأنهار عدة مرات، وتجاوزت المياه حدودها، محدثة أضراراً لايمكن تعويضها للمنطقة المجاورة.

حول المعجزات التي صنعت في كنيسة لنكولن

تكدست المعجزات فوق المعجزات وتضاعفت يومياً في كنيسة لنكولن، وقد عملت من قبل الرب من خلال فضائل الأسقف روبرت، ونهض القديسان الآخران اللذان كانا متمددان مرتاحان في الكنيسة نفسها، وهما القديس ريمي Remy, والقديس هوغ ليضفيا المنافع على المؤمنين، وكان الناس قد توجهوا بالدعاء إليهما، فاستجابا لهم بوساطة الصلوات والتضرعات، وينبغي أن لايندهش أي إنسان تجاه بعض أعمال العنف التي اقترفت من قبل هذا الأسقف نفسه خلال حياته، والتي رويت أخبارها في هذا المجلد، وقد كان واحداً من هذه الأعمال رغبته الملحة بالقيام بزيارة تفقدية للكهنة النظاميين في لنكولن، مما ألحق بهم أذى كبيراً وأغضبهم كثيراً، وعلاوة على ذلك كان روبرت هذا نفسه يوجه تهديدات مخيفة ضد العاملين في الرهبنة، خاصة الراهبات من النساء، ولاشك أن دافعه كان غيرة صحيحة، لكن ربما من دون تمييز صحيح، وأنا يمكنني أن أؤكد بأن فضائله قد أرضت الرب بدرجات أعلى بكثير من عدم رضاه تجاه أخطائه، كالشيء نفسه الذي حدث في قضية داود وبطرس، فأنا امتدح لطف داود، لكنني أشجب عمل الغدر الذي اقترفه نحو أوريا الذي كان من رعيته المخلصين، وأنا أيضا أطري ثبات بطرس، لكنني لاأرتضي بإنكاره ربنا ثلاث مرات، فالأول كان قريباً جداً إلى قلب الرب، وجرت تسمية الثاني رئيساً للرسل.

خلاصة أحداث العام

كان هذا العام بمجمله خصباً وافراً بالقمح والفواكه كثيراً إلى حد أن سعر مكيال القمح نزل إلى ثلاثين بنساً، لكن المنفعة التي تمّ الحصول عليها على الأرض ضاعت بالدمار الذي أحدثه البحر، عندما فاض، وتجاوز حدوده، فهو قد أهلك فجأة بفيضانه الناس والمواشي، وعندما حدث ذلك أثناء الليل، أغرق المزيد أكثر فأكثر، وكان هذا العام عام دمار بالنسبة للأرض المقدسة، وعام سفك للدماء بالنسبة لفلاندرز وللبلدان المجاورة لها، وعام خسارة واهانة وشقاء بالنسبة لفرنسا، وعام غضب واضطراب بالنسبة للبابا ولمؤيديه، وبالنسبة لانكلترا كان عاماً مشحوناً بالاضطراب، وقدم ميلاً نحو الضغط على شؤونها الروحية والدنيوية.

كيف أمضى الملك الشتاء في غسكوني

في عيد ميلاد عام ١٢٥٤ لتجسيد الرب، الذي و افق العام الثامن والثلاثين من حكم الملك هنري الثالث، كان الملك المذكور في بازاس Bazas في غسكوني، ليس بعيداً عن لى راؤل، واحتفل هناك برفقة نبلائه بذكرى حلول الميلاد بأبهة عظيمة، وبمهابة كبيرة، وقدم أيضاً بعض الهدايا الثمينة من الملابس، والأشياء الأخرى التي لها قيمتها إلى الغسكونيين، الذين كانوا متشوقين لشم رائحة أمواله، وأقامت الملكة التي قامت معافاة من ولادة، حفلاً رائعاً جداً، وكان ذلك في يوم عيد القديس ادوارد، حيث توافق ذلك مع ذكرى طهارتها، وكان موعد ذلك عشية عيد الغطاس، وكان موجوداً في ذلك الاحتفال، عمها رئيس الأساقفة، وأسقف إيلاي، والايرل رتشارد، وايرل غلوستر، وعدد كبير آخر من نبلاء انكلترا، وفي هذا الوقت بالذات، أرسلت الملكة أيضاً إلى الملك هدية السنة الجديدة مبلغ خمسمائة مارك، من الموارد الملكية المتسلمة، حتى تساعده على متابعة الحرب، ولكي يتمكن من تحرير نفسه من تعهداته.

انتخاب هنري ليكسنغتون لأسقفية لنكولن

وفي اليوم التالي لعيد القديس توماس الشهيد، انتخب الكهنة النظاميون في لنكولن لأسقفيتهم المعلم هنري ليكسنغتون Lexington, الذي كان عميد الكنيسة نفسها، و قد قام هذا بعد انتخابه بالذهاب إلى القارة لرؤية الملك، ولكي يرى من قبله وينال الموافقة منه، لأنه امتلك سلطة المو افقة وعدم الموافقة على المنتخب، وكذلك على الانتخاب، وكان طوال الوقت خائفاً من الظهور أمام الملك، الذي كما جرت عادته، كان قد تقدم برجاء، بإلحاح، وتوسل إلى العميد المذكور، وإلى الهيئة الكهنوتية بمجملها، من أجل أن يختاروا أسقفاً لهم، وراعياً لأنفسهم هو أسقف هيرفورد، لكن هذا قد توجب رفضه من دون تردد، ليس فقط لأنه كان أجنبياً، ولايفهم اللغة الانكليزية، بل لأنه كان معروفاً بشكل مكشوف أنه أكثر الناس عدوانية وعدم اخلاص للمملكة، وعلى هذا المطلب الذي حثهم الملك عليه، وضغط عليهم، رفض الكهنة النظاميون والمنتخبون الإصغاء والقبول به، فهو بالحقيقة كان قد فرضه بالقوة فأدخل إلى أسقفية هيرفورد، وأيضاً بوساطة القوة العلمانية، وبعدما سمن نفسه على حليب وصوف، وثروات القطيع الذي عهد به إليه، تخلى عن ذلك القطيع وهجره، وعن الرهبان ورجال الدين والعلمانيين وذهب إلى القارة (حيث عاش، وأنا آسف أن أقول: من دون كرامة) ليكونوا جميعاً عرضة لأنياب الذئاب، وعلى كل حال، بما أن الملك لم يستطع العثور على أي سبب لرفض الانتخاب الذي تقدم ذكره، والذي قام به الكهنة النظاميون، قام بقبوله، لكن بمشاعر راضية من قلبه.

حول ظاهرة مدهشة في السماء

وفي حوالي منتصف الليل من يوم عيد ختانة ربنا، كان القمر في اليوم الثامن من عمره، وكانت قبة السماء مرصعة بالنجوم، وكان الهواء هادئاً

تماماً، ظهر آنذاك في السماء منظراً رائعاً أن تصفه، وكان على شكل سفينة كبيرة، تصميمها جيد، ولها نموذج مدهش ولون، وجرت مشاهدة هذه الظاهرة من قبل بعض رهبان دير القديس ألبان، الذين كانوا مقيمين في دير القديس أمفيبالوس Amphibalus للاحتفال بالعيد، وهم الذين كانوا ينظرون نحو السماء لمشاهدة النجوم، لمعرفة فيما إذا كان الوقت قد حلّ لترتيل الأناشيد الليلية، وقد قاموا على الفور بدعوة جميع رفاقهم وأتباعهم الذين كانوا في الدير لمشاهدة تلك الظاهرة الرائعة، لكنها بعد أمد بدأت بالتلاشي واختفت، ومن هنا جاء الاعتقاد، بأن الذي كان هو مجرد غيمة، لكن واحدة رائعة وغير اعتيادية.

ولاية مخادعة

وفي السابع والعشرين من كانون الثاني، في هذا العام، وهو يوم عيد القديس يوليان، اجتمع تقريباً جميع نبلاء انكلترا في بارلمان، حيث ظهر أمامهم روجر بيغود، وايرل ميرسكال Mareschal, وغيلبرت سيغريف Segrave, بمثابة رسل خاصين من الملك، للاعلان —ربما أن ذلك قد فرض على أنفسهم فرضاً— لجماعة انكلترا كلها، عن الرغبات التي شعر بها الملك داخلياً وعن مقاصده، وكان بين الحضور أيضاً في هذا الاجتماع: رتشارد ايرل أوف كورنوول، أخو الملك، وايرل وينكستر، مع الملكة، وجميع أساقفة انكلترا، باستثناء أسقفي: درم، وباث، فقد كان الأخير مع الملك في غسكوني، ولدى اكتمال اجتماعهم كلهم، نهض المتحدث باسم الملك، وخاطبهم كما يلي: «أصدقائي وسادتي، الذين بصدورهم يضع مولانا الملك ثقته،، الذي ليس لديه، في الحقيقة، من ملجأ غير رعيته المخلصين، وأنتم تعرفون كيف عرّض نفسه باخلاص وثبات إلى مخاطر البحر، التي لاتوفر إنساناً، وأيضاً لمخاطر الحرب، ليحافظ على قوة المملكة، فقد وجد أعداءه يتحركون ضده، ومعادين له بشجاعة، وقد قام بسحق بعضهم،

بينما بقي بعض آخر يحتاج إلى غلبة وقهر»، ثم أضاف المتحدث حتى يثير المستمعين إليه ويحركهم قائلاً (مع أنه بقوله جانب الصدق والحقيقة) بأن: «ملك قشتالة، الذي كان الملك يتوقعه، ويأمل بأن يجده أعظم أصدقائه، لكونه متحالفاً معه بالدم، وجده غير ذلك تماماً، حيث تبرهن أنه أكثر الأعداء دموية، حتى أنه تحدى ملك انكلترا واستخف به، وقد مال الغسكونيون إلى ملك قشتالة المذكور، وآثروه وفضلوه وهو اسباني لأن يكون سيدهم الطبيعي ومولاهم، وبناء عليه هو يطلب مساعدة فعالة منكم، لأنه هكذا موجود في وضع حرج»، وبرهاناً على أمانتهم،وتصديقاً لكلماتهم، جلب بعض رسل الملك، بعض النشاب، من حجم مرعب، وهو الذي رموه بوساطة القسي الزيارة، وهو النشاب الذي يدعى عادة باسم مربع اليأس (من الممكن تسمية القسي بالنسبة لحجمها الكبير باسم عوارض، وتسمية النشاب بنوع من دعامات الحائك)، وتجاوباً مع طلب الملك، ولكي يضرب مثلاً مشجعاً للآخرين، قال الايرل رتشارد (لأنه وثق بحكاية الرسل المذكورة أعلاه وصدقها): «بما أنني أكثر قدرة، وعليّ يتوجب تقديم المساعدة أكثر من بقيتكم، سوف أساعد بشكل فعال مولاي وأخي، بتزويده بثلاثمائة عسكري يقاتلون من أجله لمدة سنة على حسابي»، ووعد ايرل غلوستر بتقديم مساعدة، حسب أفضل مايستطيعه، وأضاف بأنه لن يساعد الملك من أجل الحصول على مناطق، لكن إذا ماقام ملك قشتالة بمهاجمته، هو سوف يقدم المساعدة لانقاذه، وقام الايرل رتشارد أيضاً، فوضع قيداً مشابهاً على وعده بالمساعدة، وأضاف قائلاً: «إذا كان الذي أخبرنا به صحيحاً»، ووجد جمهور المجتمعين بأن فخاً كان منصوباً لهم، ولذلك أجابوا على كلام أولئك المتحدثين قائلين: «واأسفاه، واأسفاه، لماذا يسعى سادتنا إلى خداعنا بمثل هذه الحجج البارعة؟ فنحن نجد واضحاً وضوح النهار، واقعتين متعارضتين، ذلك أن الملك قد بعث خلف ملكته، وابنه الكبير، وولي عهده، وهما شخصان ضعيفان، وغير

موائمين للتعرض لمخاطر الحرب، وطلب حضورهما إليه، بأقصى سرعة ممكنة، وهذا أمر ما كان لـه ليفعله ولابشكل من الأشكال، لو أنه على وشك شن الحرب ضد ملك قشتالة، لابل إنه بالحري أنهما لو كانا معه، لأرسل بهما عائدين إلى انكلترا من أجل السلامة الأكبر، أولم يتقدم الذكر عن زواج خاص سوف يجري عقده بينهما؟ وهذا كله يتناقض مع ما أفاد به الرسل و ذكروه من قبل»، وهكذا حوّل الملك نفسه إلى واحد لايمكن تصديقه، وغير جدير بالثقة، وارفض المؤتمر من دون أية نتيجة، وبناء عليه أرسل الايرل رسالة إلى الملك حول هذا الموضوع، انظرها في كتاب Additaments عند علامة القيثارة.

كيف ذهب بعض المسلمون إلى فرنسا حتى يجري تعميدهم

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً، قدم بعض المسلمون الذين كانوا قد تحولوا إلى العقيدة المسيحية إلى فرنسا، وكان بعضهم قد جرى تعميدهم من قبل، والبقية على نية التعميد، وكان سبب تحولهم هو كما يلي: كانوا قد رأوا بأن الملك الفرنسي قد جرى بالفعل تحريره بشكل اعجازي من يدي سلطان مصر القوي، والسلطان نفسه قد جرى قتله على الفور، بعد أسر الملك، وشاهدوا —علاوة على ذلك— صبر الملك في الشدائد، وثباته الذي لايتزحزح عن مقاصده، فهو حتى بعدما وقع أسيراً، بقي في الأرض المقدسة، وتابع أعمال تحصين القلاع، وتمتين المدن ضد أعداء الرب، وشهدوا أيضاً قوة إيمانه، وأنه كان مثل أيوب، في عدد كبير من البلايا والشدائد، ومع ذلك هو لم يذنب حتى بشفتيه، وبالاضافة إلى هذا، قدروا حقيقة، أنه قام في سبيل حبه لربه يسوع المسيح، قد تخلى عن مملكته الجميلة، مملكة فرنسا، ليعرض نفسه لمخاوف البحر والرياح، ولمخاطر المعارك والحروب في الممالك الأجنبية والبعيدة، صارفاً كل جهوده وانتباهه إلى كسب أرواح الكفار، وهذا كله ماكان له أن ينجح بفعله من دون عون الرب، ومواساة الجلالة اللاهوتية، وقد تعلموا

أيضاً من تبشير الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان أن شريعة محمد (صلى الله عليه وسلم).. كانت مسممة لأرواحهم، وجلب هؤلاء المتحولون رسائل معتمدة من الملك، فيها أوامر بأن يجري الإنفاق عليهم من الصدقات الملكية، حتى يعود هو نفسه إلى بلاده، فعندها سوف ينعم عليهم بالمزيد من الانفاق ويزيد من تجهيزهم.

حول وصول غرباء إلى إنكلترا كانوا لايعرفون لغة الإنكليز وعاداتهم

في أيام الصوم الكبير من هذا العام، وصلت بعض المراكب الأجنبية، وقد ساقتها إلى هنا قوة الرياح، وجاء ذلك على الرغم من جهود الذين كانوا مسؤولين عنهم، ولم يكن لدينا أياً من السفن مثلهم، فقد كانوا مراكب واسعة، وجميلة، وبنيت بقوة، وكانت مجهزة بجميع أنواع الأسلحة والمؤن، وكانت أشبه بمخازن حربية، وقد دفعت إلى السواحل الشمالية لانكلترا، قرب بيرويك Berwick، وقد شوهدوا على الفور من قبل خفر السواحل، كما تمت مشاهدة الملاحين الذين كانوا فيهم، وقد توجسوا أن يكونوا أجانب، أو جواسيس، أو أعداء من نوع من الأنواع، ولدى القيام بتفتيش دقيق في المراكب، وجد الذين اعتقلوهم أنهم كانوا مليئين بكميات كبيرة من الأسلحة، مع دروع، وخوذ، وترسة، ورماح، وقسي وسهام، وقسي عقارة ونشاب، وكذلك كميات من المؤن كانت كافية لجيش، ولدى سؤالهم، لم يخبروا النواب الملكيين من هم، أو من أين جاءوا ولماذا جاءوا، ولم يستطع أي من النواب الملكيين فهم لغتهم، وكانت هناك أيضاً مراكب أخرى مشاهدة في البحر، وعندما خيّل لجميع الذين كانوا في المراكب بأنهم سوف يعدمون، سمح لهم بالمغادرة بسلام، حتى لايبرهن الرجال عن أنفسهم أنهم أكثر قسوة ووحشية من العاصفة، وربما للخوف من الانتقام، إذا ماألحقوا بهم أية أضرار.

حول مؤامرة في بيون

وفي هذا العام نفسه، وفي حوالي أيام عيد طهارة مريم المباركة، كان غاستون أوف بيرن Bearn قد جمع حشداً من أعداء الملك، وحاول بوقاحة أن يشق طريقه حتى يستولي على مدينة بيون Bayonne, وكانت بيون هذه مدينة غنية، وكانت هي الثانية من حيث الأهمية في غسكوني، وكانت تمتلك ميناء مطروقاً بكثرة من قبل السفن، وكانت مقطونة بأعداد كبيرة من الأشخاص المحاربين، وكذلك من قبل تجار الخمرة، وكان معظم سكان المدينة يكرهون الملك، بسبب الأضرار الكبيرة التي ألحقها بهم في انكلترا، وقد جرى السماح لبعض الأعداء بالدخول إلى المدينة، عندما كانت عرضة للخطر، وقد تمّ اعتقالهم من قبل أتباع الملك المخلصين، وجاء ذلك بوساطة بعض الذين كانوا من الطبقات الدنيا، الذين أحبوه، وهكذا دخل كثير منهم بشكل خياني إلى مكان العقوبات وفقاً لاستحقاقاتهم.

حول دفن جون هانسارد

في يوم عيد القديس غريغوري، الذي يقع في مثل هذه الأيام، جرى حمل جسد الفارس جون هانسارد Hansard خلال بلدة القديس ألبان على طريقه إلى الجزء الذي ولد فيه من البلاد، وكان ذلك في الشمال، حتى يدفن هناك بالتشريف اللائق، لأنه كان لتقديرات كبيرة يعدّ بين نبلاء ذلك الجزء من البلاد، وكان قد فقد حياته في المصيبة العامة، أثناء حضوره الحملة.

حول الصقيع الذي لم ينقطع

وفي اليوم نفسه أيضاً، توقفت حدة الصقيع، الذي استمر من دون انقطاع طوال الشتاء كله تقريباً، ولقد تواصل تقريباً منذ ليلة عيد الختانة، وقت مشاهدة الظاهرة الرائعة للسفينة في السماء، أو الغيمة التي

كانت تشبه السفينة تماماً، وساد الاعتقاد في ذلك الوقت لدى مشاهدة الظاهرة، بأن ذلك علامة على قدوم مناخ عاصف، وعلاوة على ذلك، تبع هذا الصقيع مرض مميت بين الأغنام، والحيوانات البرية، إلى حد أن حظائر الحيوانات باتت فارغة من الأغنام، والغابات بلا حيوانات متوحشة، وفي الحقيقة كانت هناك قطعان كبيرة، نصفها بالكاد هو الذي بقي حياً.

حول إصلاحات البابا

وتبين في حوالي الوقت نفسه للبابا، الذي كان مايزال في روما، بأن العلوم العقلية، قد تحولت كلياً تقريباً إلى علوم مكر وبراعة في سبيل الربح، وصار من الممكن بحق القول عن الفلسفة «بأنها بطحت نفسها مثل عاهرة تنتظر من يكتريها»، واكتشف أيضاً أن جميع العلماء قد أهملوا مبادىء النحو، وتخلوا عن دراسة المؤلفين والفلاسفة، وكانوا متعجلين لدراسة القوانين، التي كما كان واضحاً لم تكن مشمولة بين أعداد العلوم العقلية، لأن العلوم العقلية قد سعى الناس من أجلها، وطلبوا الحصول عليها من أجلها، لكن القوانين درست من أجل الحصول على الرواتب، وفي الحقيقة بات واضحاً للجميع، أن الشباب، الذين كانوا فقراء بالمعرفة، كانوا ما ان يكتسبوا القدرة على معرفة الثرثرة حول قليل من السفسطات في الاجتماعات الصاخبة، والاعتلاء على كراسي المعلمين، من أجل اغتصاب اسم معلم، حتى كانوا ينتفخون تيهاً، لأنهم أصبحوا في أوضاع تجعلهم يطلبون المزيد من الاحترام، من أجل الارتقاء إلى أوضاع أكثر ارتفاعاً، من دون أية أسس لدعمهم، ثم يغادرون مدارس القانون، أو الشهادات، ليطيروا إلى المراتب الوظيفية الحبرية، حيث سيكون الوضع أحسن، وأكثر منفعة، أي أن تنال الخبرة أولاً من المدارس، وبذلك ترتقي إلى المناصب ذات الأوضاع العالية، وأن يحكم عليهم من قبل الآخرين وفقاً لاستحقاقاتهم، ولذلك رغب البابا في

تقـديم نصيحــة صحيحـة ونافعـة إلى الذيـن يسيرون على هذا الطريق، ونشر مـذكرة مـوائمة وجـديرة بالاحترام، وكتب حـول القضية رسـالة بليغة، بدأت كما يلي:

«من أنوسنت، الأسقـف، إلخ، إلى جميع الأسـاقفـة المعينين في ممالك فرنسـا، وانكلترا، وسكوتلندا، وويلز، واسبانيـا، وهنغاريا، حتى يتمعنوا في القضـايا، ويتفحصوها، تحيـات، مع مباركـات رسوليـة: لقد تذكـرنا بحزن» إلخ، إلخ، انظرها في كتاب Additaments.

ومجدداً عمل البـابا عمــلاً تقـوياً آخـر بتلطيف الـزيارات التفقـدية، والمظالم التي كـانت تنشأ عنها، وانظر أيضـاً الكتاب نفسـه، عند علامـة الحمامة الأولى، وجاءت بداية الرسالة على النحو التالي:

«من أجل التذكير، وفي سبيل المراعاة الدائمة، وضد المظالم» إلخ.

ومن جـديد عمل البـابا انوسنت عمـلاً تقـوياً آخـر، تعلق بالقضـايا الواردة في رسالة كتبت في الكتـاب المذكور، عند عـلامة الحمامة الثـانية، وهي الرسالة التي تبدأ كما يلي:

«إلى جميع إخـواننا المحترمين، والبطـارقــة، ورؤســاء الأســاقفــة، والأساقفة، وإلى أبنائنا المحبوبين رعاة الديرة» إلخ.

ووفق الطريقة نفسها، جرى تقديم هاتين الرسالتين، في هذا الكتاب، عند نهاية السنة الجارية، عند علامة الحمائم.

حول الحلم المرعب الذي رآه البابا انوسنت الثالث

وفي أحد الأيام من هذا العام نفسه، رغب البابا وهو في حالة غضب شديد، على الرغم مـن معارضة جميع إخـوانه الكرادلة، بأن يرمي بعظام روبرت، أسقف لنكـولن، خـارج الكنيســة، وأن يطوح بـه حتى يكون سيء السمعـة إلى أبعـد الحدود، ومنحطاً، من أجل أن يكون قـادراً على

إعلانه كافراً، وعاصياً متمرداً في جميع أنحاء العالم، وأمر بإعداد رسالة، ذكر فيها مقاصده هذه كلها، وأن تكتب وترسل إلى ملك انكلترا، عالماً أنه سوف يقبل وهو راغب بالتنفيس عن غضبه ضد الأسقف، وأن ينزل سخطه على الكنيسة التي كانت مفتوحة وجاهزة حتى تنهب لكن في الليلة التي أعقبت ذلك النهار، ظهر حلم للبابا عندما كان متمدداً من دون راحة في فراشه، فقد ظهر له أسقف لنكولن المذكور، وهو لابس لثيابه الكهنوتية، واقترب منه وهو مقطب ينظر إليه شذراً، وخاطبه بصوت مرعب، ووخزه بالوقت نفسه برأس عصا الأسقفية التي حملها، وصرخ قائلاً، وتكلم وكأنه شبح: «سينبولد Senebald: أيها البابا النذل، هل تنوي أن ترمي عظامي من الكنيسة، حتى تلحق الإهانة بي وبكنيستي في لنكولن؟ من أين نشأ هذا العمل الطائش من قبلك؟ إن الجدير بك، وأنت الذي رفع الرب شأنك وشرفك، أن تتولى رعاية عباد الرب الغيورين، حتى وإن كانوا أمواتاً، إن المولى لن يعطيك من الآن فصاعداً أية سلطة عليّ، فلقد كتبت إليك بروح التواضع مع العاطفة، راجياً منك أن تقوم بتصحيح ذنوبك المتوالية، لكنك عاملت نصائحي الصحيحة بتجبر، واستخفيت بهم في قرارة قلبك الساخط والحاقد المليء بالسموم، الويل لك أيها المستخف، ألن تكون أنت عرضة للاستخفاف»؟، ومع الفراغ من هذه الكلمات، غادر الأسقف روبرت تاركاً البابا نصف ميت، ذلك أنه كان يتأوه ويتنهد بألم وأنين وكأنه قد طعن برمح في كل مرة كان يوخز بها بالعصا كما ذكرنا أعلاه، واعترت الدهشة حجابه لدى سماعهم لتأوهاته وأنينه، وسألوه ماذا يريد، فأجابهم وهو مستمر بالتأوه والأنين: «إن رعب هذه الليلة قد أزعجني كثيراً، وأنا لن أعود مطلقاً إلى وضعي الصحي الماضي، آه، آه، انني أشعر بألم عظيم بجنبي، وكأنني قد طعنت برمح من قبل الشيطان»، وهو لم يأكل في ذلك اليوم ولم يشرب، متظاهراً بأنه كان يعاني من حما متوقدة، كما أن غضب الرب وانتقامه لم يتوقف عند هذا الحد.

حول هزيمة جيش البابا

وبعد هذا بأمد وجيز، واجه البابا انتكاسات في الحملات الحربية، ذلك أنه أعطى اهتمامه إلى الشؤون الدنيوية، وقليلاً من الاهتمام لانذارات الرب من خلال عبده، وكان قد اهتم بتلك الحرب اهتماماً عظيماً، وأولاها الكثير من الجهد والنفقات، ذلك أن سعد الحرب ذهب ضده، أو بالحري ضد قائد جيشه، الذي كان قد أرسله ضد الأبوليين، مقابل نفقات عالية، تحت قيادة حفيده وليم، فلقد هزم الجيش تماماً، وتفرق جمعه، وأصيب قائده بجرح مميت، ولقد قيل بأنه قتل هناك أربعة آلاف مسيحي شجاع من الفرسان والجنود، الذين كانوا مستأجرين من قبل البابا، وقد بكت منطقة روما كلها من أجل هذا السفك الكبير للدماء المسيحية، وكان البابا في تلك الأثناء راكباً الطريق إلى نابل، مع أنه كان يعاني من الآلام والضعف في جانبه، وكأنه مصاباً بذات الجنب، أو بجرح رمح، ولم تقدم له البراعة الطبية للكاردينال ألبو Albo أية مساعدة، لأن روبرت أسقف لنكولن لم يوفر سينبولد الجنوي، الذي لم يصغ إلى انتقاداته عندما كان حياً، ولقد شعر الآن بضرباته بعد موته، ولم يتمتع هذا البابا قط فيها بعد بأي يوم عبر كاملاً وهو في صحة جيدة، أو بازدهار، ولم يمر به يوم لم يكن فيه مضطرباً ومن دون راحة.

كيف جرى تثبيت انتخاب أسقف لنكولن

في الثامن والعشرين من نيسان، قام بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري بتثبيت انتخاب هنري أوف ليكسنغتون، عميد لنكولن، الذي خلف سلف نبيل جداً، وأعطى بذلك آمالاً إلى الذين كانوا من حوله شخصياً، لكن ما ان جرت ترقيته إلى السلطة والمكانة التي كان يحتلها سلفه حتى ظهر أنه أدنى منه في أعماله الإحسانية والخيرية.

موت أسقف كارلآيل

وفي الشهر نفسه، أي أن تقول في الخامس عشر من أيار، مات سيلفستر أسقف كارلآيل، وكان سبب موته حادث، ذلك أنه عندما كان ممتطياً ظهر حصان حرون، اصطدم الحصان بكتلة متجمعة من أعشاب الأرض، فسقط الراكب على ظهره فانخلعت أطرافه ومفاصله.

موت وليم إيرل فيرير

في الرابع والعشرين من آذار في هذا العام مات وليم فتز —وليم ايرل فيرير Ferrers, وكان رجلاً حكيماً، وجيد المعرفة بقوانين البلاد، وعاش هذا النبيل منذ سنين حياته المبكرة في ظل ضعف قدميه الذي يدعى داء المفاصل، مثلما كان حال والده قبله، فمنه ورث هذا المرض، ولوضعه هذا كان بالعادة ينقل من مكان إلى آخر على محفة أو على عربة، وعندما كان في أحد الأيام مسافراً، تسبب خدمه الذين كانوا يسوقون عربته، بسبب الاهمال، بانقلابها على جسر، ومع أنه نجا بحياته في ذلك الوقت، لم يعد قط صحيحاً بجسده بعد ذلك، ومالبث بعد هذا، أن غادر طريق الجسد كله.

وفي هذا العام أيضاً، جرى إعداد الميرون، في كنيسة القديس ألبان، من قبل رتشارد المبجل، أسقف بانغر.

وفي حوالي أيام عيد الفصح، انتخب الكهنة النظاميون، في كنيسة القديس بولص المعلم وولتر اللندني، ليكون عميدهم، عوضاً عن المعلم هنري أوف كورنهل Cornhill.

وانتخب الكهنة النظاميون في لنكولن، أسقفاً لهم المعلم هنري أوف ليكسنغتون، وهو عميد تلك الكنيسة نفسها.

حول كراهية الصقليين هنري بن فردريك

وفي هذه الآونة نفسها، كان هنري ابن فـردريك وايزابيلا أخت ملك انكلترا، في مقتبل شبـابه، وكان بسبـب نبالتـه الفطرية وأصـالته، يظهـر عواطفـه نحو الانكليـز، وكان يدفع بمصـالحهم ويرتقي بها، مستخـدماً غـاية قـدرته، وقـد أصبحت هذه الحقيقـة معـروفـة لدى الصقليين والأبولويين، ولذلك قالوا فيما بينهم: «ماذا تظن أيها الشاب أنك سوف تكون؟ إنه منحـدر من الدم الملكـي لانكلترا، وإذا مـاتابع الازدهار كما بدأ، سوف يقهرنا نحن جميعاً، وعندما سيقهرنا، سيدوس علينا بقدميه»، كما أنهم سمعوا بأن البـابا قد أعطى مملكتهم، إلى الإيرل رتشـارد، خال الشاب هنري، ولذلك بـاتوا ساخطين إلى أبعد الحدود، وامتـلأوا غضباً ضـد البابا، وضـد هذا الشـاب البريء، وحسبما كـانت عادتهم أبدعـوا خطة لدس السم له، كما ذكرنا أعلاه.

الحرب المؤلمة على تخوم فلاندرز

وفي هذه الآونة نفسهـا، وقعت معـركـة هي الأكثـر دمـوية عـرفتهـا أبوليـا، وجـرى القتـال على تخوم فـلاندرز وبرابانـت، بين الفـرنسيين والفلمنكيين وحلفائهم من جـانب، وكونتسة فلاندرز وحلفـائها: وليم صاحب هـولاندا وملك ألمانيا، وعدد آخـر من مقدمي برابـانت وألمانيا من الجانب الآخر، وكـانت بسبب ولدي الكونتسة المذكـورة وزوجيها، وفي هذه المعركـة المؤلمة، التي يظل المرء يبكي من أجلهـا لأجيال، سقط أشجع المقاتلين، حيث إما قد قتلوا في المعـركة، أو غرقوا في البحر أو في الأنهار، وكانت المذبحـة من على الجانبين بلا حدود، حتى أنه من سكان إحدى مدن فلاندرز قد قتـل عشرة آلاف، وما من واحد نجا، ليتحدث عن الفاجعة، وأخيراً، بعـد سفك الكثير من الدماء آل النصر إلى جانب الملك وليـم المتقـدم الـذكـر ومعـه الألمان، في حين لحقت الهزيمـة بالفـرنسيين، وجـرحـوا، وقتل الشطر الأكبر منهم، ونالوا أسـوأ نتـائج

القتال، وعانوا من خسائر لايمكن تعويضها، وكذلك من العار، فغرقوا في متاهة اليأس، وعدم الثقة والدمار، وأيضاً أضيف إلى ذلك ما كان قد لحق أبناء و طنهم من قتل كبير في الأرض المقدسة، وحول هذه الهزيمة الأخيرة على أيدي جيرانهم، الذين باتوا الآن، يمتعون بالنصر ويتصرفون ضدهم كما يريدون، أرسلوا بكل سرعة رسالة إلى ملكهم الذي كان في البلدان الأجنبية، والذي قام بناء على نصيحة الداوية والاسبتارية، بجعل مدن تلك البلدان تحت وطأة ديون كبيرة، من أجل فديته، وحثوه على العودة إلى الوطن بأقصى سرعة ممكنة، لأنهم أخبروه بأن تاج فرنسا بات في مهب الرياح، من خلال جبروت امرأة، هي كونتسة فلاندرز، التي اعتمدت على ولديها وعلى زوجيها، وباتت مملكة فرنسا كلها عرضة للخطر، وأن مملكتي ألمانيا وصقلية تترنحان، وفوق كل شيء، هو أن ملك انكلترا قد أذعن لرغبة البابا، وأنه قد قوي كثيراً بالتحالف مع ملك اسبانيا، وقد ظهر على حدود نورماندي، حيث قدم نفسه، وهو مدعوم بقوة من الاسبان، وبناء عليه بات يهدد بمهاجمة فرنسا، وعندما تسلم ملك فرنسا هذه الأخبار، قام على الرغم من أسى جميع سكان الأرض المقدسة، وضد رغباته الشخصية، فعمل الاستعدادات لعودة سريعة إلى الوطن، متخذاً جميع الإجراءات الاحترازية الموائمة، لأنه كان يخاف من البيازنة والجنويين، الذين طردهم بطيش عند الاستيلاء على دمياط، والذين علاوة على ذلك، كان مداناً لهم بمبلغ كبير من المال، ولذلك تابع الفرنسيون إشغالهم على اليابسة، في سبيل أن يتمكن ملكهم من العودة بأمان أعظم.

سبب الحرب في فلاندرز

حتى هذا الوقت، لم تتوقف الكراهية، والغدر، والنار، والقتل عن الاستشراء بين الألمان والفرنسيين، والفلمنكيين، والبرابنتيين، والفريزيين، الذي استمروا يفترسون بعضهم بعضاً ويلتهمون، ليلاً

ونهاراً، وبما أن هذه الحرب كـانت منتجـة لكثير من سفك الـدمـاء إلى جميع العـــالم المسيحي، أعتقــد أنــه من الموائم، أن أتولى شرح سببهـــا الأساسي إلى قرائي، والآن كانـت البذور الأولى للخلاف قد زرعت كما يلي: عندما كانت مرغريت كـونتسة فلاندرز ماتزال صبية صغيرة، ومن دون أي أمل بالوصول إلى حكم تلك المنطقة، عقدت عقد زواج بشكل سري مع بـوشـــارد Bouchard أوف أفيسني Avesnes, وقـد أنجبت منه ثلاثة أولاد هـم جـون أوف أفيسني مع اثنين آخـرين، وتذكـر بوشارد الآن نفســه أنه كـان شماسـاً، وأن زواجه بالتـالي لم يكن شرعيـاً وينبغي فكه، أو ربما تحرك ضميره في قــرارة نفسـه، فـذهب إلى رومـــا ليحصل على تثبيت للزواج من البـــابا، أو الضغط عليـــه، حتى يتغاضى عن هذه المسألة، وتـم الآن اكتشاف أن أخت مرغريت المذكورة التي كانت متسلمة للكـونتية كانت عاقراً، وبذلك تـوفرت آمال أنه مع مرور الوقت سـوف يؤول الميراث إليها بنفسها، وكان هناك رجـلاً آخر اسمـه وليم دامبير Dampier, نبيـــلاً من أسرة فـرنسيـــــة (وهو كذلك كان نائب شماس) قد تطلع نحـو نيل حكم فلاندرز، لذلك عقد مقـابلة سرية مع مـرغـريت المذكورة، وتعـاقـد بعـد ذلك بشكـل مهيب بالزواج منها، في حين كـان الرجل الآخر يتابع أعماله في رومـا، وعندما سمع بوشـارد المتقدم ذكـره للمرة الأولى بهذا الخبر، عـدّه بمثابة تقـرير زائف، لكن بعـد ذلك جعله تتـــابع الأخبـار يقتنع بالحقيقـة، ويصـدق الخبر، فكتب إلى مرغـريت المذكورة يلومها، ويرجوها بحـرارة أن تعود إلى عقلها ومداركها، وقامت وهي متمتعة تماماً بزواجها الثاني، أكثر من زواجها الأول، فتعاملت مع مطالبه بالرفض، ولكي تتولى نقده وملامته كتبت مجيبـة له بلهجة سخـرية واستخفـاف وقالت: «على بوشـارد، أن يخدم من الآن فصـاعـداً الكنيسة في طائفـة اللاويين، وعليـه أن يمسك بالقـربان، في حين تتمتع مـرغـريت بعناق زوجهـا الجديد الذي انتظرته ورغبت به كثيراً»، وبعـدمـا سلم بـوشـارد رسـالتهـا، وادراكـاً منه أنه

لايستطيع فعل شيء، عـاد إلى روما، يرجو ويعمـل في سبيل عدّ أولاده من الكونتسة أولاداً شرعيين، وولدت مرغـريت من زوجها الثاني ثلاثة أولاد هم: وليم دامبير وأخـــويه، وعندمـــا وصل الأولاد مـن الأبوين المختلفين إلى سن الرجـولة، وكـانت أمهم قـد حصلـت على كـونتيتي فلاندرز وهينولت Hainault بعد وفاة أختها، بدأوا يختلفون فيما بين أنفسهم حول الميراث، وقد قالت الأم بأن أولادها من الزوج الأول كـــانوا أولاد زنـا غير شرعيين، وأن أولادها من الزوج الثـــاني كـــانوا شرعيين، ذلك أن كراهيتهـا لزوجها الأول تعـدته فوصلت إلى أولادها منه، وعند وفـاة الأبوين، وصـل الخلاف والتقـاضي بين الشبـاب إلى أقصى الدرجـــات، وأعلنت الأم وكـــذلـك الرجـــال الشبـــاب دناءة وانحطاط كل طرف منهما وبعضهما بعضـاً، وأخيراً حملت قضية الخلاف إلى محكمـة بلاط فرنسـا، وأخضع الطرفـان أنفسهـم إلى قـرار ملك تلك البـلاد، وقام هو، تقـديراً لقـرابة الجسـد والدم (لأن وليم المذكور كـان قـريبـاً لـه) فأعطى قـراره، بأن لايكون الميراث كله عـــائـداً إلى أي من الطرفين: الأول أو الثـاني، على انفراد، بل ينبغي قسمتـه، وقضى —على كل حـــال— بأن تكون فـــلانـدرز إلى وليم، وهينولت إلى جـــون، ولم يستطع جون تحمل هذا القـرار، ورد على الملك قائـلاً: «لقد أعطيتني يا صاحب الجلالة الذي لايمكنك أخذه مني، وأخذت مني الذي يمكنك أن تعطيني إياه، لأن فـلاندرز موجـودة تحت سلطانك، وهينولت تحت سلطة الامبراطورية»، وبحكم أنه مـا كـان باستطاعته الحصـول على أي شيء، لأنه كـان مـرتبطاً بتعهدات بالالتـزام بالقـرار الذي يتخـذه الملك ويصادق عليه، غادر البلاط غاضبـاً، وقرر الحفاظ على انفعالات غضبه وكتمهـــا إلى وقت مناسب، ومكـان مـوائـم، وفي سبيل الاحتراز، ومن أجل تقـوية حـزبه، اقترن بحفيـدة الذي كـان آنذاك دوق برابانت، التي كـانت أخت وليم صـاحب هولاندا، وقـويت قضيته أكثـر بوفـاة وليم [دامبير] الذي كان قد قتل في احدى مبـاريات المبارزة، كما أن أخا وليم

الأخير هذا، هلك وسط جيش الفـرنسيين وهو الذي كـان من المفترض أن يخلفه في كونتية فلاندرز.

حول المذابح الكبيرة التي تسببت بها مرغريت كونتسة فلاندرز

ووقع الصراع الـذي يتـوجب أن يبكى لأجلـه لأجيـال، على تخوم فـلاندرز، في حـوالي منتصف الخريف، وبذلك تمكن الشيطـان من جني موسم وافر، وجمع الكثير من الأرواح لعظم أعداد الذين ماتوا، فقد هلك هناك بطرق مختلفة أكثر من عشرين ألفاً من الرجال المحاربين، الذين كانوا قد احتشدوا من مختلف مناطق المملكة الفرنسيـة ومقاطعاتها، وكذلك من الامبراطورية، أي أن تقول من ألمانيا التي تضم كثيراً من المقـاطعات، وقد مـات هؤلاء جميعاً على حسـاب امـرأة واحـدة غير خلوقة، ومثلما حـدث لطروادة كلها، أو بيرغاموس Pergamus (التي مصدرها كلمتي: Per ومعناهـا خـلال، و gamus, ومعناهـا زواج) حيث تحولت إلى رماد من خلال امرأة، وبلاد الاغريق التي أخليت من سكانها، بناء على إثارة فينوس، كـانت هذه المأساة التي وقعت في يوم جمعـة (الذي هو يوم فينوس)، وعمّ الاضطراب والفوضى والحزن جميع فرنسا، وألمانيا، وفـلاندرز، وبالاضـافـة إلى هذا، عـانت زوجـات القتلى، وأولادهم، وأقـربائهم، وأصـدقـائهم، وتألموا مثل التألم من نوع آخـر من الموت، وفي هذه الآونة، جـرى إرسـال جـون رئيس رهبـان دير نيـوبري، الذي كـان مستشاراً خـاصاً لملك انكلترا، وقـريباً منه، ارساله إلى هـذه المناطق، ليقوم بترتيب بعض الأعمال الصعبة العـائدة إلى مليكه، وقد جـرى إخباره بهذه الوقائع من قبل النبلاء، وقد أودع التفاصيل كتابة.

حول قسوة الكونتسة مرغريت ووحشيتها

وإنه لأمـر حقيقي أن أخت مرغـريت هذه الكونتسة المتـوحشة، قـد حصلت بوسـاطة ذنوبها العظيمة على اسم قـاتل الآباء من قبل كثير من

الناس، وبالقـدر نفسـه وللأسبـاب ذاتها استحقت ذلك، التي أخضعت نفسها من دون حيـاء إلى المعانقة المحرمـة لرجلين، وتسببت بموت مثل هذه الأعـداد الكبيرة، وهي بالحقيقـة تستحـق اسم قـاتلة أولادها، لأن ابنها الكبير قد قتل من قبلها، وقد كسرت رجلي ابن آخر.

حول الذين قتلوا وأخذوا أسرى في المعركة المتقدمة الذكر

وكـان بين الذين وقعوا بالأسر في هذه المعـركـة الدموية كـونت بار، الذي كان يقاتل بحدة راغباً بالانتقام لنفسه، بسبب جراحة لحقت به في معركة مـاضية أثناء الحرب، حيث فقد وقتهـا احدى عينيه (لأن الحرب استمـرت لقـرابـة ثلاثة أعـوام)، وكـونـت غـوسني Guisnes, وكـونت غـولدري Gueldres, وكـونت جـوغني Joigny في شـامبين، وسيمون دي كليرمـونت Claremont وجون دي غيني Giny, وروبرت دي بوسك Bosk, وهو نبيل من أعلى المراتب بين السـويسريين، مع عـدد كبير آخـر من النبـلاء، الذين لانتـذكر أسماءهم، ومن المراتب الأدنى كـان هناك حشد كبير جـداً من الفـرنسيين، وفي الحقيقـة كـان عـدد الـذين أسروا، والذين قتلوا، بما في ذلك: النبلاء، والفرسان، والخدم والأتبـاع، والجنود العاديين قد بلغ كما قيل مائـة ألف رجل، أو أكثر مـن ذلك، وما كان لِيَ أن أقحـم تفاصيل هذه الأحداث في حوليـات تواريخ انكلترا، لولا أنه فرض عليّ أن أفعل ذلك، بسبب هذا السفك المرعـب للدمـاء المسيحيـة، وهي الدمـاء التي سفحت في منطقة مجاورة لانكلترا.

حول الأمراء الذين كانوا مسؤولين عن الحرب في فلاندرز

وفي هذه الأثناء، كـان أعـداء الرب من المسلمين مسرورين، فهـذا مـايشعرون به عـادة لدى سماعهم بأية خسـائـر كـابد منها المسيحيـون، واهتزت دويلات جميع أمراء ألمانيا حتى الأعماق، وفي المقام الأول كانت

أعظم الخسائر وأقساها، هي التي عانى منها ملك فرنسا الذي كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وهو الملك الذي لم يكن هناك ملكاً آخر أقوى منه، كما تسببت هذه الخسائر بعودته من تلك البلاد، لأنه جرى استدعاءه نتيجة لوقوع هذه الكارثة، وكان هناك عدداً كبيراً من مقدمي فرنسا ممن عانى أيضاً من الخسائر، فدوق بافاريا، الذي كان يتسلم منذ زمن قديم مائة ألف مارك كولوني بمثابة دخل سنوي، بل إن هذا المبلغ قد ازداد مؤخراً، قد أنفق أمواله كلها في هذه الحرب، وكان من بين الذين عانوا، دوق غسكوني أيضاً، وقد كان صاحب مكانة عالية مثل الدوق الذي ورد اسمه أخيراً، وكان قريباً بالنسبة لملك انكلترا، وكذلك دوق برونزويك Brunswick, الذي كان قريباً للملك نفسه، ودوق برابانت ولوفين Louvain, والذي وضع نفسه دوقاً على اللورين، ودوق ليمبورغ Limbourg, ودوق سوابيا، ودوق النمسا، ودوق ليونبورغ Luneburg, ونبيلة عالية المكانة والقوة اسمها صوفيا، كانت الحاكمة لشطر كبير من ثورونجيا، ومركيزين، كان الأول بينهما مركيزاً لهذا الجانب من سكلافونيا Sclavonia, وكان الثاني مركيزاً للجانب الآخر أي بوهيميا، وهو كان أيضاً ملك بوهيميا، ودوق بولاندا، الذي قتل من قبل التتار، وأيضا اللاندغريف لثورنجيا وسينت اليزابث، ولاندغريف ثورنجيا، وابنة ملك هنغاريا، فقد كان كل واحد من هؤلاء المذكورين أعلاه قد بعث مساعدة إلى وليم صاحب هولاندا، وملك ألمانيا، ضد الجيش الفرنسي، وأسيئت معاملة الفريزيين الذين قدموا للالتحاق بالجيش من قبل وليم، الذي كان متكبرا، وغير مكترث بصداقتهم، وكان علاوة على ذلك قد صار غنياً بوساطة الأموال التي تسلمها من البابا، وغضب الفريزيون من هذا، وتآمروا ضده، حسبما ظهر فيما بعد، وكما سنوضح في الرواية المقبلة، وكانت أموال البابا على كل حال —هي أموال جنيت بطرائق غير صحيحة— بلا فائدة له، لابل على العكس ألحقت به ضرراً

كبيراً، وهكذا كانت أوربا كلها تقريباً في أوضاع مضطربة من أجل متعة امرأة، ومن خلال مكر الشيطان ودسائسه الذي يضحك —لسبب جيد لديه— للمآسي التي تلحق بالإنسان، وفي هذا العام أيضاً، عانى الرهبان من طائفة السسترشيان من خسائر كبيرة، بسبب دمار فلاندرز، حيث لم يستطيعوا الحصول على ماكانوا يحصلون عليه بالعادة من مادة الصوف، وأعتقد أنه يتوجب عليّ عدم حذف الخطاب الوحشي الذي ألقته هذه الكونتسة مرغريت، التي هي ميديا Medea ثانية ولم تخجل من التفوه به.

الخطاب الوحشي للكونتسة مرغريت

وحدث بعد ذلك على الفور، أن تمكن جون أوف أفسني، ابن الكونتسة المتقدم ذكرها أعلاه، من أسر اثنين من اخوته لأمه، أي أولادها، بوساطة كمين نصبه، وقد فرح لحسن حظه، وأمل بالوصول إلى اتفاق سلام مع أمه، وقد بعث رسالة إليها مع رسل اعتقد أنهم سوف يكونوا مقبولين لديها، وقد كتب إليها وفق الصيغة التالية: «أمي العزيزة، إنك إذا لم تختاري الاشفاق علي، أشفقي على الأقل على أخوي لأمي، اللذان هما أسيرين بين يدي، ووافقي على شروط عرض السلام التي سوف تكون مفيدة لك»، وأجابته على هذا الالتماس قائلة: «إن أخويك، ولدي بين يديك وإنني لن أتحول عن هدفي بسببهما أو من أجلهما، وهما تحت ارادتك، وطوع رغباتك، اقتلهما أيها الوغد المتوحش، وكلهما، واطبخ أولهما مع التوابل، واشو الثاني مع الثوم»، وجرى تناقل هذا الكلام من فم إلى فم بين الناس، مما ألحق العار بجميع النساء، خاصة بالأمهات، ولكن حتى لانلوث الهواء، دعونا نترك هذه القضية، وأن نستخدم قلمنا لتدوين القضايا المرتبطة بتاريخ انكلترا.

حول اجتماع نبلاء إنكلترا في لندن

ومجدداً اجتمع نبلاء انكلترا في لندن، ومن جديد أرسل الملك رسالة إليهم، بأنه بحاجة إلى المال، وإلى قوات كبيرة لصدّ هجمات عدو كبير، قادمة ضده، وختمت هذه الرسالة بالختم الملكي، وأجابوا فردياً وجماعياً، بأنه مضى عليهم وهم ينتظرون لمدة ثلاثة أسابيع من دون هدف أو محصلة، وهم ينتظرون وصول الايرل رتشارد، وبعض النبلاء الآخرين، الذين تأخر غيابهم كثيراً، وأنهم غالباً ماأرهقوا باستخراجات الملك، إلى حد أنه بات صعباً عليهم التنفس، وقالوا —على كل حال— بأنهم سوف لن يتوانوا عن الذهاب شخصياً لمساعدة الملك، إذا مااقتنعوا تماماً، حول الوصول العدواني لملك اسبانيا، الذي يهدد بالقيام بذلك، وتساءلوا قائلين، بأن ملك قشتالة نفسه لم يطالب قط بغسكوني، أيام سيمون ايرل ليستر، أي عندما كان حاكماً لغسكوني، وعندما أبقى كثيراً من العصاة تحت السيطرة، ومن هذه الحجج، وحجج أخرى كثيرة ورد ذكرها أثناء عقد البارلمان الأخير، وكذلك من معرفتهم حقيقة القضية من الايرل سيمون، الذي كان قد عاد آنذاك من القارة، لذلك احترزوا ضد دهاء الملك، وخططه الماكرة، الذي أغنى الأجانب على حساب ثروة انكلترا، في وقت حاجتها، ويقال بأن هذه المؤامرة الماكرة قد صدرت عن النبع السام لنصائح البواتيين، وعلى هذا ظل النبلاء منزعجين كثيراً، وغادروا وهم في حالة سخط عظيم.

حول شقاء اليهود وتعاستهم

وفي حوالي الوقت نفسه فيما بين عيد الفصح وأيام الابتهالات، قام الملك الذي كان لايعرف الاستقرار، فنفس عن غضبه ضد الرعاع اليهود التعساء إلى حد أنهم وصلوا إلى درجة كرهوا فيها حياتهم، فقد دعاهم الايرل رتشارد إلى اجتماع، وطلب منهم من أجل استخدامات الملك —الذي كان كما قال غاضباً كثيراً عليهم— مبلغاً كبيراً من المال، وذلك

تحت طائلة السجن، والموت المهين، ونتيجة لهذا عقد الياس اللندي، الذي كـان الكاهن الأعظم لليهـود، والذي غـالباً مـا دفع برضـاه أو من دون رضاه مبـالغ كبيرة، اجتماعاً تشاورياً مع أتباعـه اليهود، ورد على المطالب قـائلاً مـايلي: «مـوالي وسادتي، إننا نرى بوضـوح أن الملك يريد اقتـلاعنا واجتثـاثنا من تحت السماء، فبـاسم الرب، نحن نطلب اذنه وأمـاناً منه لنا لنغادر ونسافر من مملكته، حتى نبحث عن مكان للاقامة في موضع آخر، في ظل أمير لديه مشاعـر رحمة، وسيتولى بشكل صحيح الالتـزام بالصدق والأمانة، ودعـونا نغادر من هنـا ولانعود مطلقا، وأن نترك خلفنا بيـوتنا والحاجيات الموجـودة فيها، إذ كيف يمكن أن يحبنا نحن اليهـود التعساء، أو أن يوفرنا، وهـو الذي دمر رعاياه الطبيعيين؟ فهـو لديه تجارا بابويين، أو بالحري تجارا خـاصين به (أنا لن أسميهم مـرابين) الذين يتـولون جمع كميات هائلـة من المال، دعو الملك يعتمد عليهـم، ويسعى للحصول على منافعـه من خلالهم، فهـؤلاء هم الذين دمـرونا وأفقـرونا، وأخفى الملك معرفته بهذا، وطلب منا مالا نمتلك القـدرة على إعطائه إياه، حتى لو قام باقتـلاع أعيننا، أو سلخ جلودنا، وقطع أعناقنا بعد ذلك»، وبعـدما تفـوه بهذا الخطاب، الذي كـان قـد تخلله تنهـداته ونحيبـه، صمت، وسقط من دون حيـاة، وكأنه أصيب بانفجار، وعنـدما جـرى إعلام المسـؤولين عن العدالة بقرار اليهود هذا، لم يسمحوا لهم بمغادرة المملكة حيث قالوا لهم: «إلى أين ستفـرون أيها الأشقيـاء؟ فملك فـرنسـا يكرهكـم، وقـد حكم عليكم بالنفي الـدائم، فهل تودون النجـاة من خطر حتـى تقعـوا فيما هو أخطر؟ وهكذا جرت بالقوة مصادرة مـا كان قد بقي لديهم من قليل من وسائل العيش، والتي لو بقيت لهم لما كفتهم إلاّ للعيش بكفاف شديد.

حول المعركة بين الفرنسيين والألمان

وفي هذه الآونة نفسها، وقعت معـركة بين الفـرنسيين، وحلفائهـم من الجانب الأول، والألمان وحلفائهم من الجانب الآخـر، وذلك تحت إمرة

وليم صاحب هولاندا، وملك ألمانيا، وبالنسبة للفريزيين، الذين بقيوا على الحياد، فقد تعرضوا للهجوم من قبل وليم صاحب هولاندا، الذي أخبر بأنهم يخططون لعمل خياني ضده، وبصعوبة بالغة أنقذوا أنفسهم بالفرار.

حول تكريس الأسقف المنتخب للنكولن

وفي السابع عشر من أيار، جرى تكريس هنري أوف ليكسنغتون، الأسقف المنتخب للنكولن، أسقفاً لتلك الأسقفية، من قبل بونيفيس، رئيس أساقفة كانتربري، وتمّ ذلك في القارة.

حول الغارات التي قام بها بعض الويلزيين الذين كانوا في جيش الملك

وفي هذه الآونة نفسها قام بعض الجنود الويلزيون الذين كانوا في جيش الملك في غسكوني، تبعاً لما اعتادوا عليه، بغارات على أراضي أعداء الملك، وأطلقوا لأنفسهم العنان بالنهب، ولذلك جرى اعتقالهم من قبل إخوة الملك، وأسقف هيرفورد، وجرت معاقبتهم بشدة أكبر مما استحقوا، لأنهم كانوا في ذلك الوقت قد أحدثوا قليلاً من الأذى أولم يحدثوا شيئاً البتة، كما لم تفد الشكاوي حول هذه القضية، التي عرضت على ايرل هيرفورد، الذي كان، ومابرح يمتلك منذ القدم وظيفة قسطلان جيش الملك، وبما أن غير المتشكين كانوا سيتضررون من حكم الايرل المذكور، تحدوه، ووقفوا ضد قانون الجيش وأعرافه، ونتيجة لذلك تقدم الايرل بشكوى إلى الملك، لكنه لم يقابل بأي شيء غير الإهمال، وبات الانكليز غاضبين تجاه هذا التصرف، وبصعوبة بالغة حبسوا أنفسهم عن مهاجمة البواتيين، وتمزيقهم إرباً إرباً، ذلك لأن الملك قام وهو خائف يرتجف، وبيدين مقبوضتين، فالتمس بتواضع العفو عن خطيئته، ومع ذلك حتى ذلك الوقت ضبطوا أنفسهم وغضبهم

المتصاعد، الذي لو أنه انفجر لتسبب بسفك الكثير من الدماء، وانتشر التذمر في جميع أرجاء الجيش، بأن الملك يسعى من جميع الجوانب أن يسير على خطى أبيه، وأن أتباعه قد تخلوا عنه، لأنه تصرف بشكل غير مستقيم وأمين، وأنه عائد إلى الوطن، ذلك أنهم رأوا أن الوصول إلى أي سلام دائم بعيد المنال مطلقاً، وحصل بعض نبلاء انكلترا، وكان منهم الايرل روجر بيغود، ووليم دي سي Saye, وآخرين كثرة على إذن الملك، وساروا على خطى سيمون، ايرل أوف ليستر، الذي كان قد عاد قبلهم.

حول إلغاء حكم غير عادل ضدّ امتيازات دير القديس ألبان

وجرى في هذا الصيف سحب وإلغاء الحكم الجائر، الذي أصدره هنري دي مير Mer, رجل العدالة المتجول، وعاقب به دير القديس ألبان بمبلغ مائة باوند، وحدث هذا عندما كانت الملكة مع الايرل رتشارد نائبي المملكة، وذلك أثناء غياب الملك في غسكوني.

رسالة تتعلق بإلغاء هذا الحكم نفسه

«من هنري، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وصاحب ايرلاندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، إلى جميع من سيصل إليهم هذا البيان، تحيات:

بناء على ماتبين لنا، من خلال العودة الفاحصة لصكوك أسلافنا من ملوك انكلترا، التي هي بين يدي راعي دير القديس آلبان، والقاضية بعدم إلزام أي من أتباع الراعي المذكور بتجاوز الامتياز الممنوح لراعي الدير المذكور، بحيث لاتجوز دعوتهم في أية مناسبة من المناسبات للظهور أمام أي من الجهات القضائية، أو التحقيق معهم، وقد حررنا راعي الدير المذكور من دفع المائة باوند التي جرى بها تغريم بلدة القديس ألبان مع امتياز الدير، لأن الذين يسكنون في ذلك

الامتياز، لم يمثلوا أمـام رجلي العدالة المحبـوبين من قبلنا، وهما هنري دي مير، ووليـم أوف ويلتـــــون Wilton, في تشيسترهنس Chesterhunce, الموجودة خارج الامتياز المتقدم ذكره، وذلك بهدف القيام ببحث يتعلـق بعنف متبادل، ولإنزال العقوبـة حول هذا العنف نفسـه، وألغينا أيضـاً بالنسبـة لراعي الدير المذكـور، مـاتعلق بالسوقين ونصف السـوق، الأمر الذي من أجله جرت معاقبـة نيقولا السمان، والاسكندر ستـــولي Stoyle, ووليم ســانـــــدروغي Sandruge, وريتالد صائغ الذهب، وهم من أتباع راعي الدير المذكور، وقد جرت معـاقبتهم وتغريمهم أمام هنري ووليم، من أجل التجاوز الذي تقدم ذكره، وشهادة على هذا لقد منحنا بأنفسنا رسائلنا هذه المعتمدة إلى راعي الديـر المذكور، وشهد على ذلك أيضـاً رتشارد ايرل أوف كورنوول، أخونـا، وكان ذلك في ويستمنستر، في هذا اليوم الثالث عشر من تشرين الأول، في العام الثامن والثلاثين من حكمنا».

تثبيت امتيازات دير القديس ألبان

وختمت هذه الرسـائل التوثيقيـة، المتعلقـة بامتيازات دير القـديس ألبان بالختم الأصغر، لأن الملك كـان آنذاك في القارة، وكانت المملكة تحت وصاية الايرل رتشارد والملكة، وفيما إذا كان الايرل أو الملكة قد أخذا أية أمـوال مقابل منح هذه الرسـائل، يكونا قد اقترفنا اثماً عظيما ضـد الشهيد ألبـان، وضـد مولاهما الملك، لأن هذه الامتيـازات، مع امتيازات أخرى قد جرى منحها منذ العصور القديمة من قبل الملوك، وجـرى تثبيتهـا مـن قبل البـابا، ومن المعـروف أنهم بقيـوا حتى هذا الوقت من دون خـــرق، وهذا سـوف يشـاهد مـن قبله الذي لايخفى عليه شيء.

حول التثبيت الأمتن لهذه الامتيازات نفسها

وفي سبيل أن تكون هذه الامتيازات مضمونة بشكل أمتن، تبع الرسالة المتقدمة أعلاه رسائل أخرى، وقد جرى ايداعها في كتاب Additaments, وهي قد بدأت وفق مايلي: «قام عمدة هيرفورد بتقديم حساب بمائة باوند وباوند واحد من بلدة القديس ألبان».

حول التقارير الزائفة التي وردت في رسائل جاءت من غسكوني

وجاء بعد الرسائل التي تقدم ذكرها أعلاه، والتي وضعت في الكتاب نفسه، رسالة قصيرة من غسكوني وهي التي حوت الأخبار المزيفة والمضللة التالية: «من هنري الذي هو بنعمة الرب، إلخ:

لقد وعدنا باخلاص وصدق ايرلات مملكة انكلترا، وباروناتها والنبلاء الآخرون، أن يكونوا في لندن بعد ثلاثة أسابيع من عيد الفصح المقبل، وهم مجهزين بالخيول والأسلحة، ومستعدين للانطلاق من دون تأخير إلى بورتماوث، من أجل الالتحاق بنا في غسكوني، والوقوف معنا ضد ملك قشتالة الذي هو على وشك القيام بغارة على أراضينا في غسكوني، في الصيف المقبل» إلخ، إلخ، وأضاف حامل هذه الرسالة أيضاً، بأن ملك قشتالة المذكور، قد وصل مع آلاف كثيرة من الجنود، بلغت حداً أنه لن يخاف من قوى انكلترا، أو فرنسا، غير أنه لم يستطع الوصول إلى هناك بأية وسيلة من الوسائل، لأنه كان إذا مافكر بالزحف نحو مقاطعات غسكوني مع مثل ذلك الجيش، إنه من الضروري بالنسبة له، أن يكون على علاقات طيبة واتفاقات صديقة مع المالك التي سوف يمر بها، من ذلك مثلا مملكتي نافار وآرغون، ومقدمين آخرين كثر وزعماء وأعيان كبار، هم سوف يسمحون بمثل هذا الزحف، وعلاوة على ذلك، إن المسلمين الذين كانوا في حالة حرب معه، سوف بسيرون خلفه، حيث سيجدون الأراضي التي أخذت منهم، معروضة أمامهم بمثابة هدية مقدمة إليهم، ومجدداً، كما

ذكرنا من قبل، هناك حقيقة ارسال الملك وراء الملكة وابنه الأسن، فهذا يظهر دهاء هذا الملك وخداعه، وكما يقال: «إن الشباك المرئية بوضوح تام من قبل الطير، تجعله يتجنبها»، ثم إنهم حزنوا في قلوبهم، من دون أمل بالمواساة، لأن مولاهم وحاكمهم سعى بذرائع كثيرة لتدمير رعاياه الطبيعيين، بوسائل سواء أكانت قانونية أم غير قانونية، ومن الذي يستطيع بسرعة أكبر أو بسهولة أعظم، تعريض السفينة إلى الخطر أكثر من القبطان، الذي هو على العكس ملتزم بالتحكم بدفة المركب؟

حول الامتياز الذي منح إلى رعاة دير ويستمنستر

عملت في هذا العام نفسه منحة من قبل الملك هنري، باسمه وباسم خلفاته، بأنه يتوجب أن يحصل رعاة دير ويستمنستر وخلفائهم، الذين من الممكن أن يظهروا أمام أي رجل عدالة تابع للملك، سواء من المتجولين أو الآخرين، يحصلوا على خلاصات عن أحكام رجال العدالة المذكورين، فيما يتعلق بالعقوبات والغرامات من جميع الأنواع، التي توقع على التابعين لهم، وأيضاً على أثاث التابعين المذكورين، الذين هم مطاردين أو مدانين، شريطة عدم تسليم الخلاصات المذكورة إلى خازننا، بل ينبغي أن تسلم باليد من رجال العدالة المذكورين إلى وكلاء رعاة الديرة المذكورين، أو إلى الدير، الذي يكون فيه الأشخاص المتقدم ذكرهم، أي الذين سوف يعاقبون أو يغرمون، وجرى تدوين صك من أجل هذه الغاية، ومنح إليهم في سنة النعمة ١٢٥٢، وفي ذلك العام نفسه، جرى أيضاً منحهم صك قضى بوجوب أن يستحوذ التجمع الرهباني على كل ماهو عائد إليه أثناء وجود شاغر، ونسخ عن هذه الصكوك من الممكن الوقوف عليها في كتاب Additaments, ومن الممكن أن يشاهد في المكان نفسه أيضاً الصكوك التي سلف أن منحت إلى راعي دير وولتهام ورهبانه، في تاريخ آخر من العام نفسه، لكنه لم يصل إلى علم كاتب هذا الكتاب في الوقت الذي رغب فيه.

كيف عملت ملكة إنكلترا الاستعدادات من أجل الذهاب إلى القارة

بما أن الملكة تستعد الآن للابحار إلى القارة، أرسل سكان يارماوث Yarmouth سفينة واسعة وجميلة، مشحونة بثلاثين من البحارة البارعين، والمسلحين بشكل جيد، حتى تكون بخدمة الأمير ادوارد، لاصطحابه مع أعوانه وخدمه عبر القنال بأمان كبير، وأعدّ شعب وينشيلسي Winchelsea بعض السفن لنقل الملكة، وعندما وجدوا بأن السفينة التي أرسلت إلى الأمير كانت أكثر اتساعاً وأعظم جمالاً من سفنهم، شعروا بالغيرة والحسد، وقاموا بشكل غادر ومفاجىء بالهجوم عليها، ودمروا السفينة وقتلوا وجرحوا بعضاً من ملاحيها، وفي سبيل التنصل من جريمتهم وطمسها، أخذوا سارية المركب المدمر، وثبتوها إلى سفينة الملكة، وكأن الذي فعلوه كان لصالحها ومنفعتها، وبناء عليه تقدم سكان يارماوث بشكوى ثقيلة حول هذا الإجراء، ورفعوها ليس فقط إلى الملكة بل إلى الايرل رتشارد أيضاً، وكذلك إلى حكام الموانىء الخمسة، وهذا قد أثار المملكة كلها بشكل عادل للانتقام لهذه الجريمة.

كيف أبحرت الملكة إلى القارة دون أن تتقيد بأوامر الملك

أثناء وقوع هذه الاضطرابات غير المنتظرة، التي أزعجت الملكة وأقلقتها، وصلت رسالة ثانية كانت مستعجلة من الملك، أمر فيها الملكة بعدم عبور القنال، وهكذا تعرضت للعناء من جانبين، فقالت وهي تشعر بالسخط: «لقد ثارت المشاكل من كل جانب، فها هو كل شيء جاهز للاقلاع والابحار، وقد قلت وداعا للجميع، وهبت الريح بشكل موائم، فهل سأرجع؟ لا»، ثم أنها أخفت غضبها تجاه هذه الوقائع، وأقلعت من بورتماوث في التاسع والعشرين من أيار، وكان يوم جمعة،

وذلك قبل أحد الشعانين، وأخذت ولديها معها: ادوارد، وادموند، وكان برفقتها أربعين فارساً، وحاشية من النبلاء، وكانت تحت قيادة وتوجيه عمها رئيس أساقفة كانتربري، وكتبت في الوقت نفسه إلى الايرل رتشارد حاثة إيّاه على السعي بكل حكمة من أجل تسوية الخلاف وتهدئة الإثارة التي نشأت بين شعب الموانىء الخمسة، لأن ذلك مشحون بالخطر بالنسبة للمملكة، وقد جرى تنفيذ هذا فيما بعد بكل سعادة، ووصلت الملكة سالمة إلى بوردو في اليوم الأخير من أيار، وكان قد جرى تعيين وولتر دي غري، رئيس أساقفة يورك، نائباً للمملكة في مكان الملكة، لكنه لم يقم بممارسة هذه الوظيفة، لأنه شعر بنفسه بأنه كان منهكاً بسبب المرض وتقدم السن، وكان هناك بعض النبلاء قد فضلوا السفر براً على الرغم من التأخير، على السفر مباشرة بحراً، وكان من هؤلاء —على سبيل المثال— جون وارني، وادموند دي لاسي، فقد عبرا البحر عند دوفر، ومن ثم أخذا طريقهما مباشرة نحو بوردو، ووقعت في هذا العام واقعة غريبة بالنسبة للريح، وكانت، بأن الريح هبت بشكل متواصل من الشمال —الشرقي، أو من الشمال لمدة ثلاثة أشهر وبضعة أيام، وقد دمرت فواكه وورود الربيع، وفي حوالي الأول من تموز، وهو موعد الانقلاب الصيفي، سقطت أمطار عنيفة جداً، وكانت هناك عاصفة برد ثقيل، مثلها لم نشاهد من قبل، وقد استمرت هذه العاصفة لمدة ساعة أو أكثر، وقد اقتلعت القرميد والألواح الخشبية للأسقف، وأتلفت أغصان الأشجار.

حول وفاة هنري ابن الإمبراطور فردريك

وفي شهر أيار من هذا العام، مات هنري، أمل الانكليز ومجدهم، وكان شاباً وسيماً جداً في مظهره، وهو ابن الامبراطور فردريك والامبراطورة ايزابيلا، اخت ملك انكلترا، وقد فقد حياته —حسبما ذكر أعداء كونراد ملك صقلية— من خلال دسائس هذا الملك نفسه،

لكن هذا الخبر مستبعـــد، ويبـدو أنه غير جـدير بالتصـــديق، لأن الملك المذكور قـد عامل هنري بعـاطفة آخويه، وقـد قدم براهين على عـاطفته نحوه، وذلك حسبما أفاد أيضا في إجاباته على تهم جادة أثيرت ضده من قبل البابا، حيث قـال بأنه قد شعر عند وفـاته بأنه قد فقد جزئـاً رئيسياً منه شخصياً، وكـان المقترف الحقيقي لهذه الجريمة الشقي الشريـر جداً، الذي عـرف باسم جـون الموري، فهو الذي دس السـم إليه، وفيما بعـد عندما كان مايزال يتنفس وفي آلام الموت، تولى خنقه، وبعد وفاة أخيه لم يظهر كونراد أنه هادىء مستقر كما كان من قبل.

حول الخلاف بين البابا وبين كونراد ملك صقلية

وفي شهـر آبار من هذا العـام تفجـر خـلاف شـديد بين البـابا، وبين كونراد ملك الصقليين، ذلك أنه كان هدفـا للكراهية من قبل البابا، الذي لم يتقيد بمرضه، وأنه قد تعرض للنقد الشديد من قبل الأسقف روبرت، أسقف لنكولن، واهتم قليـلا بالاصـلاح، أو بالحري لم يهتم مطلقا، وقـد اتهم كونراد بعدد كبير من الجرائم، ومنحته كـراهيته لفردريك الأرضيات لتـوجيـه الاتهامات، لأن رمـاد النيران لم يكن خلوا من بقـايا وقيـد النار بينها، وقد رد الملك على كل واحدة من الاتهامـات باعتدال، وقد أنكرهم جميعا بشكل مكشـوف وثابت تماما، وقـد اتهمه البـابا بأنه كان مهـرطقا، ومجرما قاتلا، وواحـدا جاحدا لمفاتيح الكنيسـة، ورجلا تسبب في ممارسة الخدمات اللاهوتية في آيام الحرمان من شراكة المؤمنين، كما أنه اتهمه بقتل واحد اسمـه فردريك، بالسم، وكـان حفيدا له، وأيضـا بقتل أخيه هنري وذلك بوساطة جـون الموري، الذي دس السم إليه أولا، ثم عندمـا وجد آن موته قد تأخر، تولى خنقه بوساطة منديل.

وآلح البـابا على هذه التهـم ورددها كثيرا، في سبيل إثارة ملك انكلترا ضـد كونراد، ومن الممكن الوقـوف على تهم البـابا، وعلى أجوبة كـونراد عليهم في كتاب Additaments, عند علامة المرساة الحمراء.

عدم إلتزام الملك بمراعاة الامتيازات التي غالباً ما أقسم يمينه واعداً بمراعاتها

لقد كانت هناك آمال عظيمة شعر الناس بها، بأن يقوم الملك مخلصاً بمراعاة صكوك الامتيازات التي تقدم ذكرها، حيث اعتقد الجميع بأنها استقرت على أرضية ثابتة، لأن الملك الذي غالباً ما كان قد أقسم من قبل على الالتزام بها، لأنها منحت من قبل أسلافه، هذا الملك بات الآن في عمر أكثر نضوجاً، وكان يخاف من التورط بقرار الحرمان الكنسي الذي جرى التفوه به، لكن على الرغم من ذلك، فإنه أذعن الآن إلى نصيحة الرجال الأشرار، فلم يتردد في خرقها وتجاوزها، معتقداً أنه يستطيع بوساطة مبلغ صغير من المال الحصول على التحليل من ذنوبه وتجاوزاته.

حول زواج إدوارد ابن ملك إنكلترا من أخت ملك إسبانيا

وجرى في هذه الآونة ارسال ادوارد بأبهة عظيمة، وبفخامة كبيرة، إلى ألفونسو ملك اسبانيا، الذي تولى استقباله بتشريف واحترام، واتحد في بورغوس Burgos بالزواج من إليانور الأخت الصغرى للملك، وتسلم المرتبة الشرفية للفروسية من الملك نفسه، الذي كان مسروراً تجاه المظهر الوسيم، وحسن التصرف لدى الأمير الشاب، ثم عاد ادوارد إلى أبيه مع زوجته التي كان قد تزوج منها حديثاً، واستقبل بسرور عارم، وكأنه ملاك قادم من عند الرب، وجلب جون مانسيل أيضاً معه، صكاً من ملك إسبانيا مختوم بالذهب، فيه تخلى باسمه وباسم ورثته عن الادعاء بغسكوني كلها، إلى ملك انكلترا وورثته، وبناء عليه قام ملك انكلترا عند ذلك بمنح ابنه وزوجته مقاطعة غسكوني، وايرلاندا، وويلز، وبريستول Bristol, وغراهام Graham, وبذلك أظهر نفسه ملكاً صغيراً بشكل مضاعف، ثم إنه منذ ذلك الوقت، بدأ

الملك باستعداداته لعـودة سريعة إلى الوطن، بما أن المشـاكل الصغيرة قد جرت تسـويتها حسب رغبته، مع أنه ظهر للرجـال العقلاء بأنه لم يربح شيئاً لصـــالـح المملكة، بل بالحري جلـب أضراراً كبيرة للمملكة، لأن ماهي النجـدة أو ماهو العون، الـذي يستطيع ملك، كان على مثل تلك المسافـة البعيدة، عمله ضد ملك فـرنسا، الذي منه يشتكي ملك انكلترا كثيراً؟ وفي الحقيقة كـان محاطاً من جميع الجهات بأعـداء داخليين تآمروا ضده، ولم يكن بإمكانه مقاومتهم بشكل جيد، وكيف يمكنه ذلك وعدد كبير جـداً مـن البلدان والممالك تعترض سبيله وتفصلـه عن غسكوني، وعـلاوة على ذلك كـان الملك متـوائماً مع أخـلاق الاسبـان وعـاداتهم وديانتهم، وكـان يعرف بأنهم حثـالة بني البشر، فقـد كانوا قبيحـون في الوجـوه، وضيعين بالسلوك، وممقوتين في أخـلاقهم، وقد تبين فيما بعـد بوساطة براهين لايمكن دحضها، بأن الملك الانكليزي قد أنفق في حملته غير المثمرة في غسكوني، حيث لم يـربح شيئاً، ماعدا الذي كـان من قبل بين يديه، أنفق من دون فـائـدة مليـونين وسبعمائـة ألف باوند وزيادة، وذلك باستثناء الأراضي والموارد التي كـان قـد أعطاها من دون تقـدير لأشخـاص لايستحقـون، أشخاص كـانوا على استعـداد لإلحاق الأذى والضرر به وبمملكتـه، وكـانوا أيضـاً يرغبـون في التهـام جميع ثروات البلاد، وعلاوة على ذلك، هو أعطى إلى إخوته لأمه، البواتيين الحقيقيين بالأصل وبالأخـلاق ثلاثين ألف مـارك، وذلـك إلى جـانب الأراضي، والموارد، والوصـايات، والبيـوت، والجواهر الثمينة، وهكـذا، هكذا يالـلأسف انكشـف أنه أنفق في إطـار عـدة سنوات خلـت كثيراً من الأمـوال على حملتـه إلى بواتو التي خسرهـا، والآن في غسكوني، التي استطاع بصعـوبة كبيرة الاحتفـاظ بها، وقـد بذر كثيراً من المال على تربة قاحلة، وكـان ذلك أكثر مما يمكن أن يـدفعه أي مشتري أو مثمن أمين، ثمنا لكلا البلديـن، لو أنهما عـرضـا للبيع، وهكذا حـدث أن حـرمت انكلترا من الكرامة، وجردت من ثروتها من خـلال فسولة ملكها، الذي

عنه روي بأن ميرلين Merlin قد قال: «يمضي الوشق نحو الأمام خارقاً كل شيء، حتى لو كان ذلك قد قصد به دمار بني جنسه»، وفي الحقيقة خرق الوشق كل شيء، حيث ليس هناك ولا حافظة نقود في انكلترا، لم يتم خرقها، ونفضت حتى أفرغت من محتوياتها، وجرى إعلامه بهذا الانفاق الهائل للمال من قبل بعض أصدقائه المقربين، وعندما سمع بذلك أصيب بالدهشة وتملكه الغضب، وأجاب وهو يتنفس بصعوبة قائلاً: «بحق رأس الرب (حتى نستخدم عبارته المعتادة) ماهذا بالنسبة له؟ لاتنشروا خبر ذلك إلى أي واحد، حتى لايسبب العجب والدهشة لعقول الناس».

كيف تطلع الملك نحو الاستحواذ على العشور التي منحت إليه

وفي الوقت نفسه، لم يكن من الممكن ضبط الملك بوساطة النصائح والملامات التي وجهت إليه من قبل الناس الصالحين، بل تطلع بجشع شديد إلى جباية العشور، التي وعد بها مشروطة من قبل الجماعة لمدة ثلاثة أعوام، حتى تمكنه من القيام بالحج، من أجل نجدة الأرض المقدسة، وفي الوقت نفسه لم يقم تقديراً للوعود التي غالباً ماقطعها على نفسه بالالتزام بصكوك الامتيازات والحريات سليمة، وبعدم خرقها، وهذه أمور كثيراً ماورد ذكرها من قبل.

كيف ذهب أسقف نورويك إلى كنيسة القديس ألبان لجباية العشور

في أيام عيد نقل القديس بندكت، قام أسقف نورويك، بناء على أمر البابا، وكذلك أمر الملك، بالذهاب إلى كنيسة القديس ألبان، ليجبي عشور جميع ممتلكات تلك الكنيسة، باستثناء البارونية، وذلك من أجل استخدام الملك، وبناء عليه جمع كل قساوسة الكنائس في منطقة القديس ألبان، وكذلك جميع الخوارنة والأوصياء على الكنائس نفسها، بما في ذلك

كنيسة غوبول Gopwell أيضاً، حيث تعيش الراهبات حياة عزلة أبدية مع القليل من وسائل العيش، وكذلك كنيستي القديس يوليان وكنيسة القديسة مريم في الحقول، وكان يعيش في الكنيسة الأولى عدد قليل من الرهبان التعساء، ويعيش في الكنيسة الثانية بقايا راهبات فقيرات، يعشن حياة تعيسة، حيث كن لايمتلكن بالكاد أي شيء يكفي لإقامة أودهن، ودعي هؤلاء الناس للاجتماع مع بعضهم ليجري فرض الضرائب عليهم بكل دقة، حيث جرى تحليفهم حول الاقرار بما يمتلكون من وسائل الحياة، كما أنه جمع كل الذين يشغلون مناصب، في ظل كنيسة القديس ألبان، حتى الذين يقدمون الصدقات، وفرض عليهم ضرائب دقيقة حول ممتلكاتهم، معلناً أنه سوف يجري فيما بعد بحث وتدقيق، ليتم معرفة فيما إذا كان الإحصاء غير عادل، وقد عرض الاجازات والتفاويض التي كان يمتلكها: المأخوذة من البابا وكذلك من الملك، وأضاف قائلاً ان القيام بهذه الوظيفة جاء كثيراً ضد إرادته، وأنه تحمل هذا العبء المزعج والثقيل رغماً عنه، وأنه كان مكرهاً على التصرف هكذا بحكم فضيلة طاعته، وقد قام بتنفيذ الواجب باعتدال كبير، وبلطف، آه، ماهذه البدعة التي لم يسمع بمثلها من قبل، فإلى هذا الوقت كان العلمانيون يدفعون العشور بالعادة إلى رجال الدين، والآن بانتكاس المفاهيم وانقلاب أنظمة الأشياء، جرى ارغام رجال الدين، بالاكراه، على دفع العشور إلى العلمانيين، وقد وجدوا على كل حال تعزية واحدة أثناء معاناتهم، هي الاعتقاد —حسبما تقدم الوعد إليهم— بأن المال الذي سوف تجري جبايته من هذه العشور، سوف يتم صرفه، في سبيل نجدة الأرض المقدسة وفي سبيل تشريف الرب ومن أجل كرامة الكنيسة، وكذلك أيضاً سوف يجري الالتزام ببنود صكوك الامتيازات، وفقاً للوعد، لكن: «الأمل يتجدد، وكذلك خداع الشخص الذي يتصوره».

وعلاوة على ذلك، قبل أن يجري إخبارنا بذلك، قام الرومان ووكلاء

الملك، في سبيل تتويج خداعهم، قاموا باتفاق عام، وبشكل سري، بإضافة عامين إلى الثلاثة أعوام، وعلى هذا فإن تلك العشور التي جرى منحها والوعد بها لمدة ثلاثة أعوام، باتت الآن معطاة لمدة خمسة أعوام، على أساس شرط لم يجر الالتزام به من جانبهم.

حول الفيضان غير المعتاد للبحار الشرقية

ووصل في هذه الآونة، بعض وكلاء الملك من سوق القديس بوتولف Botulf, وقد ذكروا بأن شعوب المناطق الشرقية من أوربا، الذين ندعوهم Estrichales و Gutlanenses, قد عانوا من الكارثة التي عانينا منها نحن أنفسنا، وجاءت معاناتهم من البحار الشرقية، التي تجاوزت حدودها المعهودة وغطت السواحل إلى مسافة بعيدة، وما كان مدهشاً أكثر، هو أنه على مسافة من الشاطىء، حيث البحر بالعادة عميق، تراجعت المياه، تاركة بقعة رملية جافة، مثل جزيرة، لم تشرق عليها أشعة الشمس قط من قبل، وبناء عليه يبدو أن الأمور غدت على عكس ما كان مشروعاً من قبل حيث نقرأ في المزمور مايخص البحر قوله: «أنت أعطيت إليهم حداً (يعني إلى المياه) لن يتجاوزه»، هذا وعلينا أن نقر أن كل شيء ممكن مع الرب، وليس للإنسان أن يعرف ذلك، وكأن مثل هذه الأمور الاستثنائية قدمها الرب بمثابة انذارات لنا، لأنه يقول: «سوف تكون هناك علامات في الشمس»، إلخ.

عودة الملك الفرنسي من وراء البحر

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في أيام عيد نقل القديس بندكت، عاد ملك فرنسا من الأرض المقدسة، مع أن ذلك كان ضد رغبته، لأن نبلاءه كانوا قد استدعوه بإلحاح شديد، من أجل غاية خاصة هي إنهاء الشقاق الذي أثير بوقاحة امرأة، تسببت بموت أكثر

من مـائــة ألف رجل، فجعلت الأطفـال أيتـامـاً، والعقيـلات أرامل، وحولت البلاد الجميلة، وجعلتها بدلاً عن ذلك أشبـه بصحراء، وبعدما نجا الملك الفرنسي، تحت حماية الرب، من غـدر بعض أعدائه في البحر، وصل سـالماً إلى أحـــواز مـرسيليـا، إلى قـــرب مـونتبللير Montpllier (حيث تنتعش العلوم الطبيـة)، وبقي هنـاك لبعض الوقت للاستراحـة، وليتعافى من متـاعب رحلته البحرية، لأنه قال بأنه لم يختم حجـه بعد ولم يكمله، بل إنه اكتفى بتعليقه لبعـض الوقت، ولهذا السبب ارتدى شعار الصليب بشكل علني، وأعلن قائلاً بأنه قدم مسرعاً إلى مملكته، بناء على إلحاح نبـلائــه، لأنه بصعـوبـة كبيرة جـداً، أمكن اقناع وليم صـــاحب هولاندا، وملك ألمانيا، بالقبـول بهدنة قصيرة، والمحافظة عليها من دون مهـاجمة الفلمنكيين والفـرنسيين بألمانه المتهـورين، ولدى وصـول الملك الفـرنسي التقي إلى مملكته، بعـد الكثير من المخـاطر التي كـابدها في بلد أجنبي، وفي البحـر، والآن في بلاده، على الرغم من كل ماعـانى منه من متـاعب وخسائـر، جرى استقبـاله بتشريف لائق وباحترام، وشرع على الفور في اشغـال نفسه في تقـدير الطريقة التي سـوف يتبناها، أي إما أن يتولى اخضـاع أعدائـه القريبين في الوطن بـالقوة، أو أن يقوم بتهـدئتهم بوسيلة العـدل، لكن لم يكن بإمكـانه تهدئـة مثل ذلك العـدد الكبير من العواصف والزوابع من دون التشاور الدقيق والطويل مع مستشاريه.

وفاة هوغ أسقف إيلاي

وغادر هذه الحياة، في هذه الآونة أيضاً، هوغ الصالح، أسقف إيلاي، الذي كـان من قبل راعي دير كنيسة القـديس ادموند، وهو الذي قـاتل بجـدارة وفائـدة، في سبيل الرب، في الكنيستين لمدة أربعين عـاماً، وقـد مـات في عـزبته في التـاسع من آب، وقـد حمل جسـده بكثير من العناية والاحترام إلى إيلاي، حيث جرى دفنه في كنيستـه في بيت مشيخي فخم كـان قـد أسســه وبناه بالـرخـام على حسـابه الخاص، ومن بين الأعمال

التقوية الأخرى التي كان قد أنجزها، بناء قصر كبير من الحجارة، غطاه بسقف رصاصي، وكان ذلك في إيلاي، كما أنه شيد بعض الأبنية الواسعة والفخمة في أماكن أخرى، وفي الوقت نفسه تجاوز هذا كله ولم يتقيد به، حيث أعد لنفسه قصراً سماوياً بإعطاء الصدقات، وبأعمال خيرية أخرى، وبالطريقة نفسها، مثلما أظهر تقواه عند المائدة الروحية، أي عند المذبح، وبينابيع من الدموع تدفقت من مقلتيه، كذلك فعل عند مائدة التغذية للبدن، حيث أظهر نفسه مضيافاً، وكريماً، ومشرقاً، وهادئاً، وبوفاته ماتت زهرة المعلمين والرهبان، فمثلما كان راعي الرعاة في انكلترا، مثل هذا أشرق وأشع فكان أسقف الأساقفة.

رعد وبرق غير اعتيادي

في عشية عيد صعود مريم المباركة، في هذا العام، وفي حوالي الساعة السادسة، وفي وسط سقوط ثقيل غير اعتيادي للمطر، سمع زئير رعد، وشوهد برق، ترافق معه، وقد وقع على برج كنيسة القديس بطرس في سينت ألبان، فخرق الجزء الأعلى منه بضربة ساحقة مرعبة فتل بها المواد السنديانية، وكأنها كانت مجرد شبكة، ومن المدهش القول، سحقها، وحوّلها إلى شظايا صغيرة، وخلفت النار وراءها رائحة نتنة من الدخان لاتحتمل في جميع أرجاء البرج.

انتخاب توماس أولدبردج لأسقفية كارلآيل

وفي حوالي الوقت نفسه، انتخب الكهنة النظاميون في كارلآيل المعلم توماس أولدبردج Oldbridge بمثابة أسقف لهم، وراعياً لأرواحهم، مع أن الملك استخدم أكثر الالتماسات إلحاحاً مع المطالب الملكية إلى الهيئة الكهنوتية العامة، لانتخاب واحد آخر، إذا كانوا يقدرون منفعة كنيستهم، وكان هذا الآخر هو رئيس رهبان نيوبري، وكان كاهناً نظامياً أيضاً، ومستشاراً خاصاً به، ورجلاً عاقلاً وحكيماً.

وصول نبلاء اغريق إلى بلاط روما

قدم في صيف هذا العام بعض النبلاء والأشخاص ذوي المراتب العليا، من الامبراطورية الاغريقية، وهم يرتدون ثياباً ثمينة، ويمتطون خيولاً جميلة، وقد أحاط بهم حاشية مجهزة بشكل جيد، مع حوالي الخمسين من خيول التحميل، ومثل هؤلاء الأشخاص أمام البابا، واتهموه بعبارات قاسية باقتراف ذنوب كثيرة في العقيدة، وبسلوكه جعل جميع اللاتين يفعلون الشيء نفسه، لأن اللاتين يقولون بأن الروح القدس قد جاء من الأب والابن وصدر عنهما، في حين كان الموقف المعتمد من قبل الاغريق، أنهم أثبتوا أنه صدر عن الأب فقط، وهذا الذنب القديم للاغريق، والذي رفضه اللاتين وشجبوه، قد ثبت برأيهم بوساطة بينات دينية وتقاليد قوية ومنطقية، مملة حتى نذكرها، وكان الموضوع الآخر للخلاف فيما بينهم يتعلق فيما إذا كان اصطلاحي «انبثاق» و«رسالة» لهما المعنى نفسه، أم يختلفان في معناهما، ونحن ندع هذا للمناقشة من قبل الجدليين.

وقالوا أيضاً بأن «السيمونية» و«الربا» متأصلان في البلاط الروماني، وهذا مايمكن أن يبرهنوا على صحته بأوضح البراهين والأمثلة، وحول هذا انتشر تقرير في الخارج، من الصعب القول أنه جانب الحقيقة، أو على الأقل ابتعد عن الإيمان الإنساني، وعلى كل إنه من دوافع التقوى الاعتقاد بأن مثل هذه الأعمال التي اقترفت بناء على نصيحة الأشرار، ينبغي التغاضي عنها وعدم إلغائها بقرار بابوي، ولدى فحصهم حول قواعد إيمانهم وقداساتهم، أعطوا أجوبة مقنعة ومرضية، وعندما كانوا في موضع الشك، تقبل بعضهم طواعية التوجيهات، وقدم البابا إليهم هدايا ملابس قرمزية ثمينة، لها حواشي بفراء ثمين، وأحزمة حريرية مرصعة بالذهب والفضة، ولها أبازيم غالية، وبذلك كان يمكنهم أن يكونوا فخورين بذلك.

كيف منح البابا مملكة صقلية إلى ملك إنكلترا

وفي هذه الآونة، عاد المعلم ألبيرت إلى بلاط روما، حاملاً رسالة إلى البابا، بأنه لم يستطع ولابطريقة من الطرق التأثير على الايرل رتشارد، حتى يقبل مملكة صقلية وأبوليا، التي منحت له، أو أن يعرض نفسه وجميع مقتنياته للمخاطرة، مالم يقدم البابا أولاً رهائن جيدين من أسرته بمثابة ضمانة على الاخلاص والصدق، وعلاوة على ذلك، أن يساعده بمبلغ محدد من المال، وذلك حتى ينطلق بالحملة، وأن يسلمه أيضاً بعض القلاع، التي بين يدي البابا، وهم على الحدود، حتى يمتلك أماكن آمنة للتراجع، ورأى البابا من الصعب عليه العمل في ظل تلك الشروط الصعبة، فلم يوافق عليها وقال: «إننا لن نخضع لمثل هذه الشروط الكثيرة»، ثم أضاف المعلم ألبيرت قائلاً: «لقد أخبرني الايرل، بأنك إذا لم تفعل وفق الشروط المعروضة أعلاه، سوف يكون كما لو أن واحداً قال له: إنني أعطيك —أو أبيعك— القمر، تسلق إليه وخذه»، فوجد البابا أن مبادرته مع الايرل لم يكن لها نتيجة، لذلك أضاف قائلاً: «نحن لسنا مهتمين بشأن الدخول بأية معاهدة معه، أو أن تكون لنا أية مصلحة عامة معه»، وكان قانعاً بما عمله حتى الآن، «حيث رمى بشبكته أمام الطيور من دون فائدة»، فأرسل رسلاً سريين إلى ملك انكلترا، سعياً منه لاستغلال بساطته (لأنه عرف بأنه كان سهل التصديق، نزاع نحو خسارته الذاتية»، وعرض عليه مملكة صقلية وأبوليا، وأن يعطيه مساعدة كبيرة للحصول عليها وتملكها، بحيث يمكنه تنفيذ ذلك من دون إلحاق أي ضرر به نفسه، أي أنه لتحقيق تلك الغاية، هو سوف يحول جميع الصليبيين عن هدفهم الأساسي بالابحار إلى الأرض المقدسة، وسوف يقنعهم باتباعه —ملك انكلترا— ومساعدته في الحصول على امتلاك صقلية وأبوليا، وعندما سمع الداوية والاسبتارية، وبطريرك القدس، وجميع الأساقفة، وسكان الأرض

المقـدسة، الذين كـانوا واقفين في وجـه أعداء المسيح، بهذه الإجـراءات حـزنوا في قلوبهم، لأنهم سئمـوا من زيف الحبر الروماني، وخـافـوا من وقوع الأسوأ، وابتهج الملك —على كل حال— كثيراً تجاه الوعد الفارغ للبابا، وانتفخ قلبه كثيراً بسرور فارغ، وأظهر فرحة نفسه في صوته، وفي حـركته، وفي ضحكتـه، وبشكل مكشـوف أطلق على ابنه ادمـوند لقب «ملك صقلية»، ودعـاه كذلك، معتقـداً أن الاستحواذ على تلك المملكة بات حقيقـة ناجـزة، وهمس رسول البـابا باذنه، بأن لايبـوح بهذا السر، خشية أن يصل إلى علم أصـدقائه، الذين كـانوا على دراية بمكر البلاط الرومـاني، فبـذلك يجعلونه يحذر ويتخـذ احتيـاطـاته، وعند ذلك أرسل الملك إلى البابا جميع الأموال التي كـان يمكنه سحبها من خزانته، أو من المسؤول عن أمـواله، وكذلك كل مـا كان بإمكانه أخـذه من اليهود، أو استخراجه بوساطة رجال عدالته المتجولين، وذلك من أجل شن الحرب ضـد كـونراد، واخضـاع الصقليين والأبوليين، وبالنسبـة لكونراد، فقـد حـزن لأن ملك انكلترا وقع في شبـاك البـلاط الرومـاني، وشكر الايرل رتشارد لعـدم السماح لنفسه بالوقـوع بالشباك، وأعطاه في الوقـت نفسه الانطباع، بأنه تصرف بشكل حكيم، بعـدم الوثوق بوعود البـابا، وبعدم الاقبـال على انفـاق أمـواله، لأن كـونراد كـان قـد ألمح، أنه حيث كـان للايرل القـدرة على انفاق قطعة من الفضـة، فإنه سوف ينفـق قطعة من الذهب، وكان البـابا معتمداً على ثرواته الكبيرة جـداً، ولذلك ارتقى إلى درجـة الوثوق بالذات، ولهذا حشـد جيشـاً كبيراً من المرتزقـة، هو تولى الدفع له، وعهـد بقيادته إلى الكاردينال أوكتـافيان، ووزع بكرم المال بين الجنود، وأرسل رسـالة إلى ملك انكلترا، عندمـا نقصت لديه الأمـوال، وأطاع هذا الملك محرضـات الشيطان ونهمـه، فكتب إلى البـابا رسـائل تعهـد مختـومة بالختم الملكـي، مخولاً إياه أن يستديـن مافيـه الكفـاية من الأمـوال، وبكميات وافـرة، من التجار الايطاليين، وأوصـاه أن لايكون خائفـاً حول كميـة المال المطلوبة، أو حـول الفائدة العـالية، لأنـه سوف

يسدد عنه جميع ديونه، وتعهد بنفسه بفعل ذلك، تحت طائلة عقوبة فقدانه لميراثه وحرمانه منه، ووافق البابا على هذا كله، وقبل بأوامره وقال: «إنه إذا عمل جيداً، فإنه يترك ذلك إلى الرب —الذي هو قاضي القضاة جميعاً، والذي يتولى العناية بالجميع— ليقرره، وإنه ليس لي الحكم على أعمال البابا، وبناء عليه أمر بعمل إعلان عام، وكأن ذلك بموجب مذكرة امبراطورية أو ملكية، ووجه بذلك الدعوة إلى كل من أراد الحصول على دفع جيد، للالتحاق بالجيش البابوي، لأن لديه الآن مبلغاً كبيراً جداً من المال، حيث كان قد استدانه من المرابين الايطاليين، وبناء عليه تدفق حشد كبير من الناس وتجمعوا مع بعضهم، من أجل الدفع البابوي، وتشكل من الايطاليين المنحطين والجهلة، والعاطلين عن العمل، ومن المخلوقات غير المؤهلين للحرب، والخالين من الصدق والوفاء، الذين لم يتطلعوا نحو منفعة ملك انكلترا أو البابا، بل كان همهم وشاغلهم جمع المال، فهذا ما سوف تظهره نتائج شؤون هذه القضية.

وفاة كونراد ملك صقلية

وأعد الملك المذكور، في الوقت نفسه، ذاته للتصدي للفئات المذكورة أعلاه بنشاط، ودعا واستنفر رعاياه الطبيعيين، وسكان صقلية وأبوليا، وأتباعه من الجنود الذين معه، وطلب منهم الوقوف بشجاعة وأن يقاتلوا في سبيل بلادهم، وأن لايطأطئوا رقابهم لنير السادة الأجانب، وقام يومياً بانقاص تعداد جيش البابا واضعافه، غير أن حب المال الانكليزي زاد حشود أعدائه، لأن البابا لم يوفر حافظة نقود الملك، بل أنفق مبالغ هائلة، في رغبته لقهر ملك صقلية، ولإبداله بملك انكلترا في حكم تلك البلاد واحلاله محله، ومع ذلك رغب في إزالة الجميع من التاج، وجعل ادموند ملكاً وحيداً، حتى يمكن أن يعمل وفقاً لإرادته، وأن ينفذ رغباته، لأنه هو الذي أوجده، وأوجد كل ماهو عائد إليه،

وأساء البابا في الوقت نفسه إلى سمعة الملك كونراد كثيراً، واتهمه باقتراف جرائم عظيمة —من ذلك على سبيل المثال قتله لأخيه هنري— من أجل أن يثير ملك انكلترا ضده، ومعه جميع الانكليز، واتهمه بالتعامل مع مفاتيح الكنيسة بالرفض والتحدي، كما اتهمه بجرائم أخرى كثيرة، ليس من الضروري أن نذكرها، حيث أنها جميعاً عرضت في كتاب Additaments, وقد سلف ذكرها من قبل في هذا الكتاب، وأثرت الأعمال العدوانية، والتهديدات واللوم على التصرفات، والتشهير بالسمعة، التي تكدست عليه من قبل البابا، كثيراً على الملك كونراد، لابل إنها تجاوزت الحدود، لذلك بدأ يتلاشى تحت ثقل الأسى، وأصيب بعلة شديدة فقد قيل تبعاً لبعض التقارير، بأن السم دس له، وأنه أخيراً التزم فراش موته، ونفس آنذاك عن أساه بالكلمات التالية: «واأسفاه، واأسفاه، كم أنا إنسان تعيس وشقي، لماذا ولدتني أمي؟ ولماذا أنجبني والدي، حتى أكون عرضة لمثل هذا العدد الهائل من الآلام؟ والكنيسة التي توجب أن تكون أماً لأبي ولي، هي بالفعل زوجة أب، والامبراطورية التي ازدهرت منذ ميلاد المسيح حتى الآن قد أخذت الآن بالتلاشي، وقد قضي عليها بالزوال»، ثم إنه لعن يوم ميلاده، ومن ثم لفظ روحه التعيسة والمتألمة.

سرور البابا العارم بوفاة الملك كونراد

وعندما تأكد البابا من موته، عقب على ذلك وهو يشعر بسرور عارم في قلبه، مع ابتسامة ظاهرة على محياه، وعلى نبرة صوته وهو يتحدث مسروراً، حيث قال: «أنا مسرور إلى أقصى الحدود، وعلينا نحن جميعاً، وأبناء الكنيسة الرومانية أن نبتهج، لأن اثنين من أكبر أعدائنا قد أخذا من بيننا، أولهما رجل كنيسة، وثانيهما علماني، فالأول هو روبرت أسقف لنكولن، والثاني هو كونراد ملك صقلية، وقد مات الملك كونراد المتقدم ذكره في شهر حزيران، وقام البابا على الفور بالزحف شخصياً إلى

المقاطعات الداخلية لأبوليا، وتمكن في مدة قصيرة من الوقت من الاستيلاء على تلك المملكة كلها تقريباً، وأخضعها لنفسه، واغتصب حكمها وسيادتها، غير أن نبلاء المنطقة، التي كانت دوقية من قبل، قد شعروا بالغضب الشديد تجاه هذا الإجراء، فوجهوا الدعوة إلى ابن طبيعي لفردريك اسمه مانفرد Manfred, واتحدوا معه، وقدموا إليه ولاءهم، وعاهدوه وبايعوه على أنه مولاهم، وبذلك أصبحت الغلطة الأخيرة أسوأ من الأولى، ونهض أعداء البابا وانبعثوا وانتعشوا.

كيف جرى إرسال اثنين من رهبان كنيسة القديس ألبان إلى روما

وفي هذه الآونة أيضاً جرى ارسال اثنين من رهبان كنيسة القديس ألبان إلى روما، لمقاومة صلف ووقاحة بعض الأساقفة الذين كانوا يسعون للقيام بزيارات تفقدية في الكنيسة نفسها، على عكس ماقضت به بنود امتيازاتهم، وكان هذان اللذين أرسلا بهذه المهمة هما: وليم أوف هنتنغدون Huntingdon رئيس رهبان هيثفيلد Heathfield, واللورد جون دي بوليم Bulim, اللذان انطلقا في رحلتهما في اليوم التالي للاحتفال بصعود القديسة مريم، وعادا سالمين.

قحط الأرض بسبب فيضان البحر

في هذا العام نفسه، وفي أيام فصل الخريف، عندما يقطف الفلاحون —كما جرت العادة— ثمار جهودهم وأتعابهم، قد وجدوا أن جميع الأراضي الواقعة في أحواز البحر، على الرغم من زراعتها بكل عناية، وجدوها خاوية من أي نوع من أنواع الثمار، وهي مبللة مشبعة بالملح، لأنه حدث —كما ذكرنا من قبل— أن استولى البحر، أثناء الشتاء، على الشواطىء، وعلى الأراضي المجاورة لهم، لذلك لم يكن مرئياً هناك لاقمح، لابل حتى الأشجار والبساتين، لم يشاهد عليها لاأوراق،

ولأغصان، أو فـواكه، ويمكن لنا أن نتصـور مدى الخسـائر من ضرب مثل واحد من بين أمثلـة القضايا الكثيرة، هو أن رئيس رهبان سبـالدنغ Spalding, لم يستطع التفاخر بأنه جنى حزمة واحدة من القمح، من كل تلك الأرض المجاورة لشـاطىء البحر، أما بالنسبـة للأشجار في الغابة، وكذلك أشجار الفواكه، فقد جفوا تماماً، وأصبحوا فقط موائمين للقطع، وعـانت فـلاندرز أيضـاً، وجميـع المناطق البحـرية، من الخسـارة نفسها، وما من إنسـان عجوز كان بإمكانه أن يتذكـر أنه شاهد قط مثل هذا الشيء من قبل، وكانت هناك حقيقة مدهشة قد لوحظت أثناء ذلك الطوفـان الاستثنائي وغير الاعتيـادي، من قبل البحـارة وصـائـدي الأسماك، أثناء ممارستهم لكثير من أعمالهم في أجـزاء ومناطق كثيرة من البحر، وتمثل ذلك باكتشـافهم أثناء إلقاء المراسي، أو خـلال السفر، بأن البحر قد غـادر قيعان تجمعه المعتادة، أو الأقنية، وتـرك بقايا من الرمال فقط في وسط المحيط، وذلـك حيث كـان الماء بالمعتـاد له أعماق كبيرة، هذا وقد تقدم ذكر هذه الأمور من قبل.

أسر بعض النبلاء في بونز في بواتو

وقـــرر في ذلك الـوقت نفســـه جـــون دي بليست Plessets, ايرل أوف وورويك Warwick وغيلبيرت سيغـريف مع نبـــلاء آخرين، أنه بما أن كل شيء هـادىء —حسبما بدا— في غسكوني، قرروا الحصـول على اذن بالعـودة إلى الوطن، وبناء عليـه، حصلوا على جـواز مرور للعبور بسلام خـلال المناطق الخاضعة للحكم الفرنسي، وإثر ذلك ركبـوا الطريق، وانطلقوا مسـافرين وهم يشعـرون بالأمان خـلال تلك البـلاد، يريدون انكلترا، وقرر الايرل، الذي كـان من أصل نورمـاندي، أن يسافـر خلال نورمـاندي، ولدى وصولهم إلى مدينـة في بواتو اسمها بونز Pons, وهي التي كـانت قبل سنوات قليلة مضت مـدينة أثيرة لدى الملك الانكليزي، فقد جرى استقبالهم بمظاهرة فرح من قبل

السكان، الذين اصطحبوهم إلى مساكنهم وقدموا إليهم هدايا جميلة تعبيراً عن الاحترام، وجرى إخبار الذين عسكروا عندهم بأن يستولوا في الغد على الدروع والأسلحة التي كانت مع الانكليز، وأن لايعطوهم إياها ثانية، لكن توجب عمل ذلك بالخفاء، وغدراً، وفقاً لعادات البواتيين، وبناء عليه، عندما كان الايرل وغيلبيرت سيغريف يحتفلان بكل أمان مع الذين كانوا بضيافتهم، قدم بعض سكان المدينة يركضون إليهما، وهم مرعوبين كثيراً، والكذب في أفواههم يقولون: «انظروا، انظروا، لقد أحدث أصحابكم وأتباعكم اضطراباً في المدينة، ونحن لم نستطع تهدئة الموقف والتعامل مع هذا الاضطراب، وبرفقة الايرل، وغيلبيرت سيغريف، كان آنذاك مقيماً في المدينة بعض الانكليز المشاهير، من جملتهم بارونات وفرسان وأتباعهم، وكان من بينهم فيليب مارميم Marmim, ووليم مانديم Mandim, وعدد كبير آخر، كان من جملتهم حوالي الأربعين فارساً إلى جانب عدد كبير من الأتباع، مساوين في المرتبة للفرسان، وكان بإمكان هؤلاء الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد، لو أنهم تسلموا تحذيراً من قبل، واستشرى الاضطراب، وارتفعت صرخات «إلى السلاح»، وطلب الضيفان من مضيفيهم اعطاءهما دروعهما على الفور، لكن الأخيرين لم يفعلوا ذلك، بل احتفظوا بهم مخزونين بعيداً، وفجأة هجمت قوة كبيرة من السكان، كانت شاكية السلاح تماماً، وانقضت على الضيفين غير المتنبهين، وغير المسلحين، واعتقلوهما، ولم يفدهما شيئاً عرض جوازات السفر الممنوحة لهما من ملك فرنسا، من أجل السفر بسلام وأمان خلال تلك المنطقة، وكان بإمكان بعض أفراد تلك الفئة المغادرة، لكنهم لم يفعلوا ذلك، مالم يتم السماح للجماعة كلها التي قدمت برفقة الايرل بالذهاب بعد اطلاق سراحها، ولدى سماع ملك انكلترا بهذه الأحداث غضب كثيراً، لكنه لم يظهر الذي يتوجب عليه فعله، لو أنه امتلك قلب ملك حقيقي، وقام على كل حال بالكتابة لصالحهم إلى سكان بونز، الذين كانوا أصدقاءه

من قبل، وكانوا مواطنين مخلصين، لكنهم عاملوا رسالته بالرفض واحتفظوا بأسراهم في سجن مضيق عليهم، وعاني الأسرى أثناء سجنهم من المزيد من الآلام، لأن ملك انكلترا، الذي كان مولاهم الطبيعي، كان قد كدس عليهم من قبل الكثير من المنافع، وكان غيلبيرت رجلاً نبيلاً وغنياً، وصاحب سمات رفيعة، وعندما كان هناك معتقلاً أصيب بعلة لم يبرأ منها بعد ذلك مطلقاً، بل عاش حياة تعيسة أمضاها حتى موته، وبهذا العمل المكشوف صار البواتيون معروفين مفهومين من قبل الجميع، من الفرنسيين ومثل ذلك من الانكليز، ووضح كم من الغدر مقيم في قلوب البواتيين.

وفاة وليم كانتلوب

وفي حوالي أيام عيد القديس ميكائيل من هذا العام نفسه، مات وليم كانتلوب Cantelupe, وكان رجلاً غنياً، وشاباً وسيماً، مما سبب الحزن لكثيرين، وكان هذا هو الثالث من أسرة كانتلوب، الذي أخذ من بيننا في اطار سنوات قليلة.

حول ولاية غير اعتيادية من الملك

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في عيد القديس ادوارد، صدر عن محكمة قاضي القضاة الملكية، الاجازة غير الاعتيادية التالية، التي كان من غير الممكن تعليق أي أمل عليها أو توقعه منها:

«**من هنري، الذي هو بفضل الرب، إلخ**: ينبغي القيام بعملية فحص دقيقة في عزب الطوائف الرهبانية، لمعرفة كم هو عدد الفدادين الموجودة فيها، والموائمة لزراعة الأرض المتملكة، وكم عدد الفدادين العادية ينبغي أن يكون هناك، وفيما إذا كان من الممكن عن طريق انقاصهم، أن يجهزوا فداناً في العام، أو أكثر أو أقل، ويتوجب مثل هذا عمل بحث بشأن الفدادين المشكوك بها، وينبغي أيضاً عمل تفتيش لإحصاء الكمية التي

تنتجها كل ملكيـة بنفسها كل عام، محذوف منهـا النفقات الضرورية التي يتم دفعهـا، وينبغي أيضاً إجراء تفتيـش لإحصاء كمية العمـل والخدمات التي يقدمهـا الفلاحون سنوياً إلى سادتهم، على حسـاب أراضيهم، وأيضاً مـاذا، وكم، وأي نوع هي الموارد لكل من عزبهم سنوياً، وينبغي أن يقـوم بأعمال التقصي هذه أربعـــة رجـــال مستقيمين، والذي سيكـون العمــدة للمكان، ينبغي اختياره من كل عزبة من بين الطوائف الرهبانية.

حول وليم أوف كيلكني الذي شغل منصب قاضي القضاة

وشغل منصب قاضي القضاة في هذه الآونة، واللقب الذي حمله، من قبل وليم كيلكني Kilkenny, وذلك باعتـدال ومن دون ملامــة، وكان كـاهناً ومستشاراً خـاصاً للملك، ورجـلاً ضليع المعرفة بـالقانون ووسيماً في مظهره، وفصيحاً في خطاباته.

انتخاب وليم أوف كيلكني لأسقفية إيلاي

وبعـد هذا بـوقت قصير، أي إثر الاحتفـال بعيــد القـديس ادوارد، انتخب رهبان إيـلاي [أسقفاً لهم] المعلم وليم كيلكني، لأنه كـان رجلاً مستقيماً وحكيماً، وواحداً بارعاً في القـانون، وكان في ذلك الوقت قاضي قضاة الملك، أو أنه كان يمارس واجبات قاضي القضاة.

موت ثلاثة من رعاة الديرة

وفي حوالي الوقت نفسه، أي أن تقول في إطـار شهر وعدة أيام، مات ثلاثة رعـاة ديرة في أراضي السبـاخ Marshlands, وهذه حقيقة غـريبـة ومــدهشـة، وهؤلاء هم: راعي دير كـــرويلاند Croyland, وراعي ديـر ثورني Thorney, ووليم هـاشـــــولت Hacholt, راعي الدير الصـــالح لرامسي، الذي مـات في الســابع عشر من تشرين الأول، وهو لم يشغل وظيفة حكم كنيسة رامسي إلاّ لسنة واحدة.

حول رعد ومطر في الشتاء

في اليـوم التـالي للاحتفـال بعيـد القـديسين: كـريسبين Crispin وكـريسبين، انزعجت مسامع الناس جميعـاً وقلوبهم برعد مـرعب، ومع أن ذلك كان في الشتاء، فقد ترافق مع أمطار غزيرة جداً.

اضطرابات في الأنواء

وفي هذا العام أيضـاً، حدث أنه من يوم الصعـود حتى يوم عيد جميع القـديسين، أنه بالكـاد مرّ يومـان أو ثلاثة أيـام من دون الإثارة ببعض اضطرابات الأنواء.

حالة الأسى والقنوط لدى الملك الفرنسي

شعر الملك الفرنسي بحـالة من الأسى والحزن العميق في قلبه، وظهر وكأنه يرفض كل أنواع العزاء والمواسـاة:وهكذا لم تعد الآلات الموسيقية تمنحـه السرور، ولم تتمكن الخطابات المسليـة أو كـلام المواسـاة تنتـزع الابتسـامـة منه، ولم يشعـر بالبهجـة لدى عـودتـه لزيارة بلاده الأصيلة ومملكتـه، ومثل ذلك تجاه تحيـات الاحترام التي تلقـاها، وكـذلك لدى تلقيه هـدايا الاعتراف التي قدمهـا له رعاياه بحكم أنه مـولاهـم، بل إنه بنظرات نفس مهانـة، مع حزن عميق، وآهات متواليـة، تفكر بأسره من قبل المسلمين، ومن خلال ذلك العار الذي لحق بالمسيحية بشكل عام.

وأخيراً خـاطبه أسقف مستقيم ومقـدس بكلمات مواسـاة قال فيهـا: «احـذر يامولاي المحبـوب ومليكي من إلقاء نفسك في مثل هذه الحيـاة الحزينة المرهقة، فهي مناقضة لبهجة الروح، وهي الأم العقوق للنفوس، وهذا ذنب كبير ولايغتفر، وأذى وانحطاط بالنسبـة للروح القدس، أعد إلى بصيرتك صبر أيوب، وتحمل يوستاس» "Eustace", ثم قص عليـه أخبـار كـامل تاريخ الرجلين، وكيف أن الـرب كـافأ كـلاً من الرجلين، وعلى هذا ردّ عليـه الملك، الـذي كـان أعظم ملوك الأرض

تقــوى قــائــلاً: «لو أنني كنت لـوحـدي الذي تـألمت من الاضطراب والمهــانة، ولو أن ذنوبي لم تقع على الكنيســة المسكونيــة، لكان بإمكاني تحمل ذلـك بصبر واتزان، لكـن الويـل لي، حيث من خــــلالي غلفت المسيحيـة كلها بالاضطـراب والعار»، ولذلك جـرى ترتيل قـداس على شرف الروح القـدس، حتى يتمكن الملك مـن تلقي المواسـاة منه، الذي هو فـوق جميع الأشيـاء، ومنذ ذلك الحين فصـاعـداً، تقبل بفضل نعمـة الرب الصحة، والمواساة والنصيحة.

كيف جرى تعيين رؤساء الرهبان من الطائفة السوداء رجال عدالة بناء على مبادرة من الملك

وفي هذا الوقت نفسـه، أرسل الملك رجال عدالة إلى عـدة مناطق من انكلترا، لسماع القضايا، ولإعطاء كل واحـد الحق العائد إليـه، ولتحرير البـلاد من اللصـوص وقطاع الطرق، وكـان واحداً من رجـال العـدالة هؤلاء رئيس الرهبــان لمنطقــة بيتربورا Peterborough, الذي التحق بهم بمــوجب فضيلة الطاعــة، التي دان بها ليـس للرب، وليس لطائفـة القـديس بندكت، بـل لملكه الأرضي، وقـد شـاركهم في مـرابح عزبه، ولعله لهذا السبب، جرى تعيينه بالأصل، ولم يحدث هذا في قضية رئيس الرهبـان المذكور فقط، لكن ذلك حـدث أيضاً مع عـدد آخر من رهبــان الطائفــة الســوداء، لإلحاق المزيد من الأذى الكبير بـأحكام اختصاصهم، وكذلك بالنسبة لكنائسهم.

كيف سدّد الملك ديونه من خلال ممتلكات رئاسات الرهبانيات الشاغرة

وفي الوقت نفســه مـدّد الملك اقـامته غير المثمـرة في غسكوني، منفقـاً مبلغاً هائلاً من المال، ليس فقط الذي كان معه، لابل الذي كان بإمكانه الحصول عليـه، ولقد ورط نفسه، ومملكته، والكنيســة الانكليزية بديون

ثقيلة، ونحن نعتقد لو أن غسكوني كانت معروضة للبيع، ما كانت لتجلب مبلغاً مساوياً لهم، وعندما أخبر بوفاة رؤساء الرهبان الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وببعض الأساقفة الذين كانوا قد توفوا قبل ذلك، منهم مثلاً أسقف إيلاي، ورئيس رهبان سيلباي Selby, مع عدد كبير آخر نحن لانتذكرهم في الوقت الحالي، أمر بتحويل ممتلكات كنائسهم إلى خزانته، وأن تكرس لدفع الفوائد التي هو مدان بها، غير خائف من القرار الرهيب، الذي جرى التفوه به في لندن، ولم يلتزم مطلقاً ببنود صكوك الامتيازات، حسبما كان قد وافق عليها.

كيف طلب الملك السماح له بالعودة إلى الوطن خلال فرنسا

واستعد الملك في هذه الآونة لعودة سريعة إلى الوطن، بعدما نجح في ترتيب شروط سلام فعالة مع ملك اسبانيا، ولأن الرحلة بالبحر كانت محاطة بمخاطرة كبيرة، قرر تفضيل السفر براً، إذا كان يمكنه ذلك من دون فرصة التعرض للخطر، لكن إذا تمكن من الحصول على الاذن من ملك فرنسا، وكانت لديه أيضاً رغبة برؤية المملكة الفرنسية، ومدنها، التي كان يعرف آنذاك أسماءها فقط، ولذلك قام بعد ذلك بإرسال رسل إلى ملك فرنسا، واختار لهذه الغاية، الذين عدّهم أهل لهذه المهمة، والذين نظر إليهم نظرة عالية، وقدرهم تقديراً سامياً، وبما أنه نجح بالحصول على الاذن بالسفر كما أراد، استعد للعودة إلى الوطن من خلال مملكة فرنسا.

كيف عبرت كونتسة كورنوول القنال لزيارة أختيها

وعندما سمعت كونتسة كورنوول بأن ملك انكلترا على وشك العبور خلال فرنسا، مصاحباً بالملكة أختها، وأن ملكة فرنسا، وهي أخت أخرى لها، سوف تلتقي بهما، حصلت على الاذن من زوجها الايرل رتشارد، حتى تقابل أختيها، وأقلعت محاطة بحاشية كبيرة جداً

ومشهـورة، من أجل أن لاتظهر أحـوالها أدنى من أختيهـا الملكتين، وفي الحقيقـة كان جميـع الذين رافقوها، فـرسـاناً مشهـورين، يمتطون أفضل الخيـول، مع أفضل التجهيـزات، وهم يرتدون مـلابس ثمينـة، وكـانوا محاطين بأتباع كثيريـن، حتى يظهروا أنهم يستحقون الاعجـاب من قبل الفرنسيين.

كيف ظلم الأسقف المنتخب لوينكستر رهبانه

كـان في الوقت نفسه أخـو الملك ايثيلمار، الأسقف المنتخب لوينكستر يمارس أقسى أنواع الظلم ضد رعاياه الرهبان، وإذا ما أقدم الإنسان على ذكر ذلك بالتفصيل، سوف تنهمر دموعه رحمة بهم، فقد أبقاهم محبوسين في كنيستهم صـائمين لمدة ثلاثة أيام وزيادة، وكان ذلك قبل حلول عيـد القـــديس ميكـائيل، ولذلك فـإن بعضهم هدهـم الجوع، وآلام الروح، ومرارة النفس، ولذلك لم يعودوا مطلقاً بعد ذلك إلى أوضاعهم الصحية الصحيحة، وبناء عليـه بحث رهبان الدير عن أماكن أكثر أمـاناً للالتجاء إليهـا، وذلك انتظاراً لأوقـات أفضل، وتفـرقوا في حـالة من التعـاسـة، وذهب بعضهم إلى ديـر القـديـس ألبـان، وبعضهـم إلى ردنغ، وبعضهم الآخر إلى أبنغـدون Abingdon, وذهب آخرون إلى ديـــرة أخرى تابعة لطائفـة الرهبان السـود، ذلك أنهم أرغموا على الذهاب إلى المنفى، والتسول، وأرغمـوا على العيش على صدقـات الآخرين، ولدى افتراقهم قـال أحدهم لـلآخر وهم يبكون: «إننا بعـدل نستحق الذي نعـاني الآن منه، لأننا أثناء قيامنا بالانتخـاب خفنا من الإنسان، ولم نخف من الرب، وذلك بترقيتنا إنسـاناً غير جدير بذلك تمامـاً، حيث رفعناه إلى مثل ذلك المنصب العـــالي، ووضعنـاه في مكان شغله فيما مضـى عـــدد كبير من القـديسين، والأشخـاص ذوي النفوذ، فلقـد قبلنا إنسـاناً شـاباً، سنوات عمره قليلة، انساناً قيل بأنه لم يمـدّ يده قط إلى العصا في المدرسة، وهو لم يستمع قط إلى مبـادىء العلوم الفكرية، أو حتى للقـواعـد، وهو رجل

نهب الأسقفية التي استولى عليها، حتى قبل أن يكون أسقفاً، وهو إنسان جاهل بلغتنا، وبالكتابات المقدسة وبالواجبات الكهنوتية، وهو إنسان لايعرف حتى كيف يتكلم، أو كيف يتلقى الاعترافات، أو أداء أي واجب روحي نحو الرب»، وجرى استقبالهم في دير القديس ألبان وفي أماكن أخرى بلطف، ووجدوا صدر اللجوء مفتوحاً لهم، بين الرهبان، وقام الملك الذي كان قد تولى بوساطة التماساته الملكية، وبضغوطه غير الأخلاقية والقانونية، فارتقى بالأسقف المنتخب إلى المنصب الأسقفي، قام بمخاطبته لصالح الدير، وانتقده واتهمه بالعقوق، وأنه جلب على نفسه العار، مقابل التكريم الذي أضفي عليه، وأنه دفع مقابل المنافع المضاعفة، جميع أنواع الشرور، وأن هذا التصرف والسلوك مضاد لوعود الملك المقررة، ولم يصغ الأسقف المنتخب إلى أوامر الملك أو التماساته، بل كدس التهديد فوق التهديد، ووضع مكان الذين غادروه وتخلوا عنه، وعمل رهباناً من الرعاع الجهلة، وأشخاصاً غير مناسبين بالمرة، وذلك في سبيل إهانة الدين مع جميع الطوائف الرهبانية، وجرى فرض أحد الأشخاص بالقوة ليكون رئيساً للرهبان، وذلك بسبب تملقه، فتولى احلال الفوضى وقلب مفاهيم الأشياء كلها، وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه رئيس الرهبان الصحيح يبحث عن مكان للجوء، حيث ذهب إلى روما ليبقى حتى يهدأ غضب الأسقف المنتخب، وتمكن هناك بسبب وضوح عدالة قضيته من الحصول على كثير من الحظوة، مع أن ذلك لم يكن من دون دفع للمال، لكن كل جهوده تحولت لأن تكون من دون فعالية، بوساطة هدايا الأسقف المنتخب، (الذي منعت وكالته العدالة بشكل عام، وخاصة عدالة روما)، وجرى تبديد مقتنيات وممتلكات تلك الكنيسة الفخمة، وتلاشت الطائفة الرهبانية،ولخجلنا وعارنا يمكن القول بأن جميع الاحترام والتوقير للدين بات قليل القيمة، وكانت هذه هي الكنيسة الثالثة في انكلترا، التي أعطيت بسبب الزواج من قبل ملك انكلترا إلى أجانب (لأن ولاية الأمير نقضت الامتياز،

وإرادته خرقت المنطق)، وهذه الكنائس هي الكنيسة الكاتدرائية الفخمة في هيرفورد، وكنيسة وينكستر التي هي أكثر فخامة، والأكثر فخامة من الجميع هي رئاسة أساقفة كانتربري، وقد عدّت هذه الكنائس الثلاث هي الأكثر شهرة في انكلترا، ومن المتوجب أن يكن تحت حكم وحماية الذين ينبغي عدّهم الأكثر جدارة وصلاحاً من بين السكان المحليين، لكن خشية من أن يجلب ذكر الحقيقة العداوة (الأمر الذي غالباً مايحدث) فإن هذه الأشياء مع أنها حقيقية وواضحة، ينبغي المرور بها صامتين، لأن هذا أمر صعب في قضية كتّاب التاريخ، ذلك أنهم إذا ماكتبوا الحقيقة، أثاروا الناس، وإذا ماقاموا بتدوين ماهو زائف، يكونون غير مقبولين من قبل الرب، الذي يفصل مابين الذين يقولون الحقيقة والذين يتملقون، ويفرق بينهم.

كيف رهن الملك بطيش نفسه ومملكته للبابا

وفي هذه الآونة أيضاً، تصرف الملك وعمل بشكل غير لائق وغير نافع، فرهن نفسه ومملكته للبابا (وهو عمل أيضاً ما كان يجوز ولاينبغي عمله) تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث والتجريد من الملك، وذلك بتعهده بدفع جميع الأموال التي سوف ينفقها في حملته الحربية لصالحه —الملك— وحثه الملك أن لاييأس من التزود بالمال، بل عليه متابعة تنفيذ ماتولى القيام به من دون تردد، وأن يردع جميع الذين يقفون ضده في تنفيذ خططه، وفي سبيل ذلك سوف يزوده بكميات وافرة من جميع الأشياء المحتاجة، من بئر انكلترا الذي لاينضب، وبناء عليه قام البابا الذي لايمتلك أية عاطفة نحو انكلترا، فاستدان بشكل واسع، لابل في الحقيقة بشكل تبديدي، من المرابين الايطاليين، الذين يتجولون باسم تجار، وأصبحت انكلترا الآن بوساطة استخراجات البابا، وخداع الملك وغشه، أمة مسترقة من أدنى المستويات، وقد أرغمت على دفع هذه الديون، لكن بقدر من الرب وحكمة منه، لم يجلب هذا المبلغ الهائل

من المال، الذي نهب واستخـــرج على هذه الصــــورة، أيـة منفعــة على الإطلاق، لاإلى البــــابا، ولا إلى الملك، حسبما ستظهـــر الحكايـة المقبلة بتفصيل أكبر، في وقتهـا المناسب، آه كم هو رأي جـديـر بالثناء وكم هو أكثر صلاحـاً، ويستحق التصديق الرأي التالي، مع أنه صـدر عن شاعر كـافـر ومشرك، لكنه لم يكن من دون إيمان بـذاته عندمـا قـال: «مـا من نتيجة صالحة تنتج عن غنيمة قذرة تم اكتسابها بالحرام».

موت البابا أنوسنت الرابع

وفي هذه الآونة أيضاً، أي في اليـوم التالي لعيد القديس نيقـولا، مات البابا انوسنت الرابع في نابل، حيث أصيب بعلة مضاعفة مزدوجة، فهو منذ أن تلقـى الضربة على جنبــه من عصـــا الراعي روبـرت، أسقف لنكولن، أثناء غضبــه، كما ذكـرنا من قبل، أخـذ يعـــاني من ذات جنب متعذرة الشفـاء، كما أنه منذ أن هزم جيشه، وجـرى تفريقـه وتشتيته من قبل عدوه كـونراد، لم ينعم بالصحة، لاعقليـاً ولاجسدياً، ولذلك أذعن بشكل منطقـي لنفــوذ الموت وقبل بـه، وعندمـــا تمدد وهو بين الموت والحياة، ورأى أقرباءه واقفين من حوله يبكون وينوحون، وكانوا حسبما كـانت العادة هناك يولـولون، ويمزقـون شعـورهم وثيابهم، رفع عينيـه وعليها غشاوة الموت، وقال لهم: «لماذا تبكون أيتها المخلوقات التعيسة؟ ألم أترككم جيمعـــاً أغنيـاء؟ مـــاالذي تريدونه أكثـــر من ذلك»، وبهذه الكلمات لفظ روحه ليمضي إلى مواجهة القضاء القاسي للرب.

حول رؤيا مرعبة تتعلق بالبابا نفسه

وحـدث في الأسبوع نفسـه، الذي غـادر فيـه انوسنت الرابع هذه الحيـاة، أن شوهدت رؤيا رائعـة مـريعة من قبل واحـد من الكرادلة، الذي أخفي اسمـه لأغـراض احترازية، فقـــد ظهـر له، بأنه كـان في السماء، أمام جلالة المولى، الذي كان جـالسا على كرسي القضاء، وقد

وقفت على يمينه أمه العذراء المباركة، في حين ظهر إلى يساره امرأة ذات شخصية نبيلة، ومظهر محترم، وكان ذراع هذه الأخيرة ممدوداً، وقد حملت بيدها اليسرى نوعاً من أنواع المعابد، كتب على واجهته بأحرف من ذهب «الكنيسة»، وسجد انوسنت الرابع أمام الجلالة اللاهوتية، ثم إنه جثا على ركبتيه، وسأل العفو، ويديه متشابكتان، ومرفوعتان، وأن لايحاكم، وعلى كل حال، تكلمت السيدة النبيلة ضده قائلة: «آه، أيها الحكم العدل، أعط حكماً صحيحاً، لأنني أتهم هذا الرجل بثلاث نقاط: وكانت النقطة الأولى، هي أنك عندما أسست الكنيسة على الأرض، أوجدتها مع الامتيازات التي صدرت عنك نفسك، فلقد قام هذا الرجل بتحويلها إلى أذل أنواع العبيد، والنقطة الثانية هي أن الكنيسة تأسست من أجل انقاذ المذنبين، ولتكسب نفوس التعساء، لكنه جعلها مائدة صراف للمال، والنقطة الثالثة هي أن الكنيسة بُنيت على ثبات الإيمان، وعلى العدل، وعلى الصدق، لكن هذا الرجل جعل الإيمان والأخلاق يترنحان، وأزال العدالة كلياً، وغطى الصدق ووضعه في الظل، وبناء عليه قدّم لي حكماً عادلاً»، ثم قال الرب: «اذهب وتسلم جزاءك وفقاً لاستحقاقك»، وهكذا حمل وأبعد، وخاف الكاردينال وارتعب من صدور هذا القرار الرهيب، ولذلك أفاق مذعوراً وهو يصرخ بصوت مرتفع مع الخوف، وأصبح مثل إنسان فقد السيطرة على نفسه، لابل بالحقيقة فكر الجميع بأنه بات مجنوناً، وعلى كل حال، عندما بدأ حزنه يخف، شرع يحكي تفاصيل رؤياه بشكل كامل، حتى أصبحت منشورة في ذلك الجزء من المنطقة، وأزعجت هذه الرؤيا (التي لاندري فيما كانت من ابداع الخيال أم لا) وسببت رعباً عظيماً لكثير من الناس، ليجعلها الرب مؤثرة حتى يصلح الناس أنفسهم ويقوّموا سلوكهم.

كيف جرى جعل الاسكندر الرابع بابا

أما وقد جرى نقل البابا انوسنت من بيننا، جرى تعيين رجل آخر مكانه، الذي كان حسبما أفاد أحد التقارير لطيفاً ومتديناً، ومواظباً على الصلوات، ودقيقاً في تقشفه، ومن السهل التغرير به، وقيادته بعيداً بهمسات الاطراء، وكان ميالاً إلى الاصغاء إلى الاقتراحات الشريرة من الأشخاص الشرهين، وكان من قبل أسقفاً لأوستيا، وحفيداً للبابا غريغوري، الذي توفي مؤخراً، حيث كان هو الذي ارتقى به إلى أسقفيته، وقد اتخذ الآن لنفسه اسم الاسكندر الرابع، وقام فور تعيينه بالكتابة إلى جميع أساقفة الكنائس، يرجوهم بتواضع الصلاة من أجله، حتى يعطيه الرب القدرة، والنعمة والارادة، ليحكم الكنيسة بشكل موائم، من أجل منحه لقب نائب رحيم للرب، وخليفة لائق لبطرس، وأعطى بطريقة التصرف الجديدة هذه (لأن ما من واحد من خلفاء ذلك الرسول تصرف هكذا) آمالاً جديدة، وبعثها في قلوب الكثيرين، لكن هذه السذاجة سمحت على الفور للتعرض للخديعة من قبل اخوانه الكرادلة من حول شخصه، واعتماداً على احدى الروايات تمت ممارسة عملية تزييف غير اعتيادية بوساطة ختمه للمراسيم، وقد عزي ذلك ونسب إلى سذاجة البابا، ومع ذلك أنا لاأعفيه في هذه القضية، ولاأقدم له العذر، لأن البابا ينبغي أن يكون إنسانا لايخدع ولايمكن خداعه، لأن هاتين السمتين، غير مقبولتين في رجل يحتل مثل ذلك المنصب الرفيع، وعرضة للملامة، فبناء على نصيحة بعض الأشخاص الذين وثق بهم ثقة عمياء، وصدقهم من قلبه، وكذلك بناء على اقناع وضغوط سلفه البابا انوسنت الرابع، الذي عندما كان على وشك الموت حث الكرادلة على ذلك، قام بمتابعة الحرب بنشاط، الحرب التي سلف شنها ضد شيعة فردريك، وخاصة ضد مانفرد، الابن الطبيعي، لكن الشرعي لفردريك، ولقد كان —في الواقع— من الصعب بالنسبة للبابا

في بداية ولايته معارضة مثل هذه الوصايا، وعدّ النصائح التي قدمت إليه من قبل الرجال الدنيويين، صحيحة ومقبولة، ولاسيما وأنهم كانوا منصرفين نحو الأبهة الدنيوية، ولذلك أخبروه بشكل خاص، أنه سوف يكون أمراً متناقضاً، ومعاكساً لديانة الكنيسة، السماح ببقاء مدينة في الأراضي المسيحية مسكونة، لابل محشوة ومليئة من قبل المسلمين، وهي المدينة التي كان فردريك قد أسسها، وبناء على التعليل المخادع اتخذ البابا قراره، وكذلك بناء على تعليل آخر، قال إنه من غير المنطقي، ولايجوز إنسانياً احباط ملك انكلترا في آماله، حيث تصور بناء على وعود الكنيسة، بأنه سوف يحصل على مملكة صقلية، ففي سبيل ذلك كان قد أنفق مبالغ لاحدود لها من المال.

رغبة الرومان بتهديم نوسيرا

منذ بعض الوقت الذي مضى، كان الامبراطور فردريك قد بنى المدينة، التي أشير إليها أعلاه، والتي سميت نوسيرا Nucera [منصورة؟]، وقد أسكنها بالمسلمين، وباتت بيتاً، وملجئاً، وموضع ثقة بالنسبة له، وقد وجهت الملامة إليه بحدة على هذا العمل، وكان يرد على منتقديه، بتقديم حجة قوية دفاعاً عن خطيئته، من أنه يؤثر أن يعرض مثل هؤلاء الناس إلى مخاطر الحروب، التي قد تتفجر في المملكة أو في الامبراطورية، على تعريض المسيحيين، لأنه بالنسبة لسفك دماء المسيحيين، عليه أن يقدم حساباً دقيقاً أمام المحكمة الرهيبة للحاكم الأعظم، وبناء عليه سمحت الكنيسة بها، وتغاضت عنها، ولكن بما أنها أصبحت في الأيام الأخيرة، موضع لجوء، ومصدر اعتماد وثقة لكونراد المتوفى أخيراً، والآن وفق الطريقة نفسها مكان لجوء ونجدة لمانفرد، صارت مثل شوكة في جنب الكنيسة الرومانية، فالناس الذين قطنوا في نوسيرا كانوا مسلمين، ولقد كان بينهم نحواً من ستين ألف جندي، جاهزين للدخول في القتال، وكانوا مخشيين أكثر، لأنه كان من عادة

المسلمين في الحرب، استخدام رماح مسمومة، والنفوط، وأنواع أخرى من الأسلحة الشائنة وأدوات الحرب.

الحصار غير المثمر لنوسيرا

وبناء على موافقة الإخوة الكرادلة، وبناء على نصيحة مركيز منحط وخائن، جعل من نفسه صديقاً خاصاً للكنيسة، وذلك بقدر ما أمكن بالمظهر، جمع البابا جيشاً كبيراً، وأعاد حشد وتجميع الجيش الذي كان قد هزم بشكل مهين، وتمزق، وكان تحت قيادة الكارينال وليم، حفيد البابا انوسنت الرابع، المتوفى أخيراً، الذي أنهى الرب حياته الضعيفة بموت سريع، وتمكن البابا من حشد قوة كبيرة، وجدها قد وصلت إلى ستين ألف رجل محارب، وقد أمطرهم بكميات كبيرة من المال، حيث لم يظهر الرحمة نحو خزانة ملك انكلترا، وعهد بقيادة هذا الجيش العملاق إلى الكاردينال أوكتافيان Octavian وإلى المركيز المتقدم ذكره، وأرسل هذا الجيش من أجل تدمير مدينة نوسيرا، وسحق قوة مانفرد وأعوانه وحلفائه من الصقليين والأبوليين، وعندما وصل جيش البابا إلى أمام المدينة المذكورة، لم يتجرأ —على كل حال— على مهاجمته، كما أن سكان المدينة لم يتجرأوا على الخروج منها، ومهاجمة هذا الجيش، ومع أن رجال البابا عزموا على الشروع بالعمل، لم يحرزوا أدنى تقدم، بل أضاعوا وقتهم في التأخيرات، مما سبب المزيد من النفقات والأضرار لملك انكلترا، ولقد قاموا على كل حال بتهدئته وتطمينه بوعود بأشياء عظيمة.

كيف قام ملك إنكلترا بنقل جسد أمه في داخل الكنيسة فونتفرولت

وفي هذه الآونة أيضا، وصل الملك إلى دير فونتفرولت Fon-tevrault النساتي الفخم، حيث قدم صلواته عند قبور أجداده

الذين كانوا مدفونين هناك، ولدى وصوله إلى قبر أمه ايزابيلا، الذي كان في المقبرة، تدبر نقل جسدها إلى داخل الكنيسة، وقد بنى فوقه ضريحاً، وقدم هناك، وكذلك في أماكن أخرى في الكنيسة نفسها، بعض الأقمشة الحريرية ذات الثمن المرتفع كثيراً، وبذلك نفذ وصية ربنا بقوله: «أكرم أباك، وأكرم أمك» إلخ.

كيف ذهب الملك إلى بونتغني لتقديم صلواته

وشعر الملك بنفسه أنه لم يكن على مايرام، ولذلك مثلما فعل من قبل، ذهب الآن إلى بونتغني، وبعدما صلى عند مزار القديس ادموند، استرد صحته، وهناك أيضاً قدم طيلسانات وبعض الهدايا الملكية الأخرى الثمينة.

كيف جرى السماح للملك بالسفر خلال فرنسا

رغب ملك انكلترا منذ زمن طويل رغبة شديدة بزيارة المملكة الفرنسية، ولزيارة عديله بالزواج ملك فرنسا، وكذلك ملكة فرنسا، التي كانت أختاً لملكة انكلترا، وأن يشاهد أيضاً مدن فرنسا وكنائسها، وأخلاق وطبائع وعادات الفرنسيين، وأن يرى أيضاً بيعة الملك المشهورة في باريس، مع الآثار المقدسة غير الاعتيادية التي تحتويها هناك فيها، وبناء عليه أرسل رسلاً خاصين إلى الملك الفرنسي، فحصل على إذن مفتوح وجواز سفر وأمان، وبناء عليه قام على الفور بحشد أهل بيته وحاشيته، ووجّه طريقه نحو مدينة أورلين.

استقباله التكريمي في جميع أرجاء فرنسا

وأعطى الملك الفرنسي، صاحب القلب اللطيف، في الوقت نفسه، أوامر دقيقة إلى نبلاء البلاد، وإلى سكان المدن، التي من خلالها سوف يمر ملك انكلترا، حتى يزيلو الأوساخ، وقطع الأخشاب الحاجزة، وكل شيء مزعج ولو إلى حد بسيط، وبتزيين الشوارع بالأعلام،

وواجهات الكنائس والبيوت بالأوراق، وبأغصان الأشجار، وبجميع أنواع التزيينات الأخرى الممكنة، وباستقباله لدى وصوله بقرع النواقيس، والموسيقى، وبمظاهر الفرح الأخرى، وأن يلبسوا ملابس الأعياد، وأن يقوموا بخدمته أثناء اقامته في أي مكان.

كيف ذهب الملك الفرنسي إلى استقباله

وعندما علم الملك الفرنسي بوصوله، ذهب لاستقباله في تشارترز Chartres, ولدى رؤية أحدهما الآخر، اندفعا نحو العناق، وضم أحدهما الآخر بين يديه، وبعد تبادل التحيات، دخلا في المحادثات، وأمر الملك الفرنسي أيضاً بكرم منه، بتقديم كميات وافرة من الامدادات الجيدة والثمينة إلى ملك انكلترا، على حسابه الخاص، وذلك طوال اقامته في مملكته، ومن جهته تقبل ملك انكلترا ذلك بلطف وشكر، وكان في حاشية الملك ألف فرس جميل، امتطاها رجال ذوي مكانة ومراتب، وذلك بالاضافة إلى العربات، وحيوانات التحميل، وكذلك عدد كبير من الخيول المنتخبة، وسبب جمال رتل موكب الملك وجدته دهشة عظيمة إلى جميع الفرنسيين، الذين تزايدت أعدادهم بشكل مدهش يومياً، مثلما تزداد مياه النهر بالروافد، لأن ملكة فرنسا قدمت مع أختيها كونتستي أنجو وبروفانس، لاستقبال اختيهم والترحيب بهما، وهما ملكتي انكلترا، وكونتسة كورنوول، اللتان كانتا مع ملك انكلترا، وكانت أمهم حاضرة لذلك اللقاء، أي الكونتسة بيترايس صاحبة بروفانس، التي كانت مثل نيوبي Niobe أخرى يمكنها أن تنظر بزهو نحو بناتها، حيث لم يكن هناك بين النساء في جميع أرجاء الدنيا، ولا أم يمكنها التفاخر بثمار رحمها، مثلما كان يمكنها أن تفعل بالنسبة لبناتها.

وصول ملك إنكلترا إلى باريس

عندما علم الباحثون في باريس، خاصة الذين كانوا من أصل انكليزي، بوصول هؤلاء الأشخاص المشهورين: الملكان، والملكتان، والنبلاء، علقوا دراساتهم ومناقشاتهم لبعض الوقت، لأن ذلك كان تماماً موسماً للاحتفال، فجهزوا شموعهم، وثياب الاحتفالات (التي تعرف بشكل عام باسم Cointinses) وجميع الأشياء المحتاجة لاظهار سرورهم، ثم حملوا أغصان أشجار وورود، ومضوا يغنون مصحوبين بأدوات موسيقية، وساروا لاستقبال الزوار القادمين، وكان تعداد الواصلين، والذين خرجوا إلى استقبالهم كبيراً جداً، ولم يشاهد قط من قبل في العصور الماضية، مثل هذا الفرح والمشاهد الاحتفالية، مثلما حدث في المناسبة الحالية، فخلال ذلك اليوم كله، والليل، واليوم التالي، كانت المدينة مزينة بشكل جميل جداً، وأمضى الباحثون وسكان المدينة الوقت، وسط تعاريش زاهية من أوراق الأشجار والورود، وانشغلوا بالغناء والفرح، مع كل أبهة هذا العالم وسروره.

كيف اتخذ ملك إنكلترا مقراً لإقامته في المعبد القديم

وعندما وصل الملكان وأتباعهما (الذين يمكن أن يعدا جيشاً كبيراً) إلى باريس، واستقبلوا بمثل هذا العدد الكبير من الشطر المتميز من المجتمع الباريسي، شعر الملك الفرنسي بسرور عارم، وشكر الكهنة لتقديم مثل ذلك التشريف العظيم، ثم إنه خاطب ملك انكلترا قائلاً: «ياصديقي إن مدينة باريس موضوعة تحت تصرفك، فأين تود وترغب اتخاذ مكان إقامتك؟ هناك قصري في وسط المدينة، فإذا أحببت اتخذ مكان اقامتك هناك، فإذا كانت هذه رغبتك فإن رغبتك سوف تنفذ، أو إذا كنت تفضل اتخاذ مكان اقامتك في المعبد القديم، خارج المدينة، الذي هو أكثر سعة، أو في أي مكان آخر، فذلك يمكن اعداده»، واختار ملك انكلترا، مكان اقامته في المعبد القديم، لأن

حاشيته كان عددها كبير جداً، وكـان يوجد في ذلك البناء غرفاً كافية، لإقـامـة جيـش، ففي بعض الأزمـان الماضيـة والمناسبـات كـان جميع الداوية الدوليين يجتمعون هناك، في هيئة كهنوتية عامة، فكانوا يجدون وفرة من المرافق هناك، فلقد كان ضرورياً بالنسبـة إليهم جميعاً الإقامة في بناء واحد، لأنهم كانوا أثناء اجتماعاتهم الكهنوتيـة العامة يتباحثون في قضـاياهم وأعمالهم أثناء الليل، ومـع أنه —على كل حـال— توفـر هناك أماكن كثيرة في ذلك البلاط، لقد كان عدد الذين اجتمعوا هناك كبيراً في هذه المناسبـة إلى حـد أن كثيرين أرغمـوا على النوم في الهواء الطلق، ولم تكن البيـوت المجـاورة، والممتـدة إلى الشـارع وتدعى الـ Greve، كافيـة لإقامتهم فيها، ووضعت الخيـول في أبنية أفضل جرى تكييفها لتكون اسطبلات.

كيف أمر ملك إنكلترا بإعداد احتفال للفقراء

وبعدما اختار ملك انكلترا، المعبد القديم ليكون مكان إقامته، أعطى أوامر بأنه ينبغي في الصبـاح المقبل دعوة الفقراء للاحتفـال هناك، بقدر ما يمكن للمكان أن يستوعب، ومع أن عدد الضيوف الذين قدموا كان كبيراً جـداً، فإنهم جميعاً، لابل كل واحـد منهم جرى تزويده بوفـرة من اللحم، والسمك، والخبز، والنبيذ.

زيارة الملك للأماكن المقدسة في باريس

وفي الصباح التـالي، عندما كان الفقـراء يجري تزويدهم بالأطعمة، في الساعة السابعة والتاسعـة، قام الملك الانكليزي بتوجيه وقيادة من الملك الفـرنسي بزيارة البيعة الجميلة، في قصر الملك الفـرنسي، وبعـدما شـاهد الآثار المقـدسـة المعـروضـة هناك وتفقـدها، أدى صلواته، وقـدم بعض الهدايا الملكية، ووفق الطريقة نفسها أيضاً، زار أماكن أخرى مشهورة في المدينة، حيث صلى بتقوى صحيحة، وقدم تقديمات.

كيف اشترك الملكان مع عدد كبير جداً من النبلاء في وليمة هناك

وجرى في اليوم نفسه، حسبما كان مرتباً من قبل، أن قام الملك الفرنسي والملك الانكليزي وعدد كبير آخر من المرافقين، تألفوا من حاشية الملكين، بعمل وليمة في القصر الكبير في المعبد القديم، وكانت جميع الأجنحة في البناء مليئة بالضيوف، ذلك أنه لم يكن هناك أية بوابين أو جباة للرسوم عند الباب الكبير، بل تركت المداخل مفتوحة للداخلين، وجرى تقديم وجبة غنية إلى جميع القادمين، وكانت هناك كميات كافية من جميع أنواع اللحوم، منحت الشبع لجميع الآكلين، وبعد تناول الطعام أرسل ملك انكلترا، إلى النبلاء الفرنسيين، في أماكن اقامتهم، كؤوساً ثمينة من الفضة، والأبازيم الذهبية، والأحزمة الحريرية، وهدايا أخرى، كانت لائقة بالتقديم من قبل مثل ذلك الملك القوي، وقد تسلمها النبلاء بالشكر.

حول فخامة الوليمة

لم يحدث قط فيما مضى من أيام، أن جرى إقامة مثل هذه الوليمة الفخمة، لافي أيام عيد الفصح، ولا في أيام آرثر، أو شارل، لأن هذه الوليمة كانت مجهزة بأنواع غنية من الأطعمة، وكميات وافرة من المشروبات اللذيذة، والخدمات الجاهزة للخدم، والتنظيم الذي شمل الضيوف، والهدايا الكبيرة والجميلة، وكان حاضراً فيها أيضاً شخصيات استحوذوا على التبجيل الأعلى والاحترام، ولم يكن أعظم منهم وأعلى ولايمكن أن يكون هناك، ولا من يساويهم، لابل كان من الصعب أن تجد مثلهم في أنحاء العالم.

النبلاء الذين حضروا الوليمة

وقدمت الوليمة في القاعة الكبرى في المعبد، وهي التي كان معلقاً فيها —وفقاً لعادة القارة— أكبر عدد من الترسة، كان يمكن للجدران

الأربعة أن تستوعب، وكان بين الترسة المشاهدة هناك ترس رتشارد، ملك انكلترا، وحوله قال أحد الأشخاص الأذكياء الذين كانوا حاضرين لملك انكلترا:

«لماذا دعوت يامولاي الفرنسيين لتناول الطعام معك في هذا البيت؟ انظرفهناك ترس صاحب القلب النبيل، الملك رتشارد، فضيوفك لن يستطيعوا الأكل دون خوف وارتجاف»، لكن لم يزد على هذا، وقد انتظم الضيوف وفق النظام التالي: فقد جلس الملك الفرنسي، الذي كان ملكاً على جميع ملوك الأرض، بسبب الميرون السماوي الممنوح له، والذي مسح به، وأيضاً بسبب قوته، وعظمته بالفروسية، جلس في الوسط، بينما جلس ملك انكلترا على جانبه الأيمن، وملك نافار على جانبه الأيسر، وعندما حاول الملك الفرنسي وسعى لعمل ترتيبات أخرى، وأن يضع ملك انكلترا في الوسط، وعلى مقعد أكثر تميزاً، قال الأخير له: «ليس هكذا ياسيدي إنه أكثر لياقة، ومواءمة أن تجلس في الوسط، لأنك مولاي، وهكذا سيكون الأمر، والسبب واضح»، وعلى هذا رد الملك الفرنسي بصوت منخفض قائلاً: «يمكن لكل واحد أن يحصل على حقه دونما ضرر، لكن التجبر الفرنسي لن يسمح بذلك»، وعلى كل حال، يكفي ماقيل حول هذا، فقد جلس بعدهم الدوقات، وفقاً لتسلسل مراتبهم، وكان هناك آخرون، كان تعدادهم خمسة وعشرين، وقد احتل هؤلاء وشغلوا أكثر الأماكن تميزاً، حيث أنهم مزجوا مع الدوقات، وإلى جانبهم كان هناك اثني عشر أسقفاً حاضرين المأدبة، وقد نال بعضهم الأفضلية على بعض الدوقات، غير أنهم ظلوا متمازجين مع البارونات، ولم يتم تعداد مشاهير الفرسان الذين كانوا حاضرين، وكان هناك ثماني عشرة كونتسة، ثلاث منهن كن أخوات للملكتين المتقدمتي الذكر، وكن: كونتسة كورنوول، وكونتسة أنجو، وكونتسة بروفانس، وكن جميعاً جديرات بالمقارنة بالملكتين، وكانت هناك أيضاً الكونتسة

بيترايس، أمهن جميعاً، وبعد احتفال فخم وغني، مع أن اليوم كان مخصصاً لأكل السمك فقط، اتخذ الملك مأواه لإمضاء الليلة التالية في قصر الملك الواسع، الذي هو موجود في وسط مدينة باريس، فهكذا قرر بشكل حاسم الملك الفرنسي، الذي قال مازحاً: «ليكن ذلك على هذه الصورة، لأنه من الموائم بالنسبة لي أن أقوم بتأدية جميع واجبات اللياقة والعدل»، وأضاف يقول مبتسماً: «أنا سيد، وملك في مملكتي، ولسوف أكون سيداً في بيتي»، وبذلك قبل ملك انكلترا وأذعن.

كيف عرض ملك انكلترا نفسه على شعب باريس

وبعدما سار ملك انكلترا في الشارع الذي اسمه Greve, انتقل إلى شارع باتجاه القديس جرمين لى أوكسروي Germain, L'Auxerrois وانتقل بعد ذلك إلى جسر كبير، حيث تفحص البيوت الجميلة، المعمولة في مدينة باريس من الجص أو الجبس، وتأمل البيوت التي كانت هناك التي تألفت من ثلاثة طوابق لابل حتى من أربعة طوابق، وأكثر، وعند نوافذ هذه البيوت ظهرت أعداد كبيرة من الناس من الجنسين واحتشدت أيضاً جماهير من الناس، واندفعت على شكل كتل بشرية كبيرة، وتنافس بعضهم مع بعض في مسعاهم لرؤية ملك انكلترا في باريس، فقد كانت شهرته قد وصلت إلى السماء لدى الفرنسيين، بسبب هداياه الكبيرة، وأعمال ضيافته في ذلك اليوم، وصدقاته الكريمة، ولأن ملك فرنسا كان متزوجاً لأخت، وكان هو، أي ملك انكلترا متزوجاً من الأخرى، وقد قال له ملك فرنسا التقي: «أولسنا متزوجين من أختين، وإخواننا من الأخوات الباقيات؟ إن جميع الذين سيلدون منهن، من كل من الصبيان والبنات، سوف يكونوا إخوة وأخوات، آه لو أمكن أن يكون هناك مثل هذه المصاهرات والقرابة بين الفقراء، لتوفر تعاطف عظيم بينهم، وبالروابط القلبية كانوا سيتحدون، وأنا آسف، والرب يعلم، أن مشاعر تعاطفنا لايمكن تمتينها حول جميع

النقاط، ذلك أن عناد البارونات لن يتزحزح، وهم لن يذعنوا لي، لأنهم قالوا بأن النورمان لم يعرفوا كيف يحافظون على حدودهم، وعلى تخومهم من دون خرق، وابقائها آمنة، والبقاء بسلام، لذلك لايمكنك أن تسترد حقوقك»، وعلى كل حال في هذا كفاية، ورافق الملك الفرنسي الملك الانكليزي وشيعه لمسافة يوم، وبعدما افترقا، تبين بعملية حساب صحيحة، بأنه بدد ألف باوند من الفضة على نفقاته في باريس، وذلك بالاضافة إلى هدايا لايمكن تقدير ثمنها تقريباً، وقد أخرجها من خزانته، وقد أضر ذلك بها كثيراً، لكن سمعة ملك انكلترا، لابل في الحقيقة سمعة جميع الانكليز، قد ارتفعت كثيراً وارتقت.

المحادثات بين الملكين

وفي أحد الأيام، عندما كان الملكان يتحادثان، قال ملك فرنسا لملك انكلترا: «ياصديقي كم هو جميل الاصغاء إلى حديثك، دعنا نمتع نفسينا بالحديث معاً، فلربما لن نمتلك الفرصة بعد الآن للقيام بذلك»، وأضاف قائلاً: «كم كانت الآلام لروحي التي تحملتها، عندما كنت في حجي، في سبيل حبي للمسيح، وإنه ليس عملاً سهلاً اخبارك بذلك، ومع أن كل شيء استدار ضدي، أنا أعيد الشكر إليك، أنت الذي في أعلى عليين، وفي تأمل مني لقلبي، وتكرار فحصي له، إنني مبتهج ومسرور من الصبر الذي تفضل الرب فمنحه لي، أكثر مما لو أن العالم كله وضع تحت طاعتي».

افتراق الملكان

وبعدما تماشى الملكان مع بعضهما لسفر يوم، افترقا، وكانا —على كل حال— قبل افتراقهما، قد خرجا قليلاً عن الطريق، وعقدا محادثات سرية خاصة، وفق ظروف ودية، وقال الملك الفرنسي وهو يتنهد: «لو أن النظراء الاثني عشر لفرنسا من البارونات، قد وافقوا على رغباتي،

لكنا آنذاك صديقين لايمكن فصلهما عن بعضهما، هذا وإن خلافاتنا تعطى سبباً للسرور وللتجبر للرومان»، ثم إنهما بعدما تبادلا القبل، وتعانقا، افترقا، حيث عاد ملك فرنسا إلى أراضيه، ووجه ملك انكلترا مساره نحو بلاده، ولدى وصول هذا الأخير إلى شاطىء البحر، أرغم على الانتظار طويلاً ضد ارادته، من أجل ريح طيبة (لأن البحر والرياح لم يكونا مطيعين له)، وزار أثناء اقامته هناك كنيسة القديسة أوف بولون Boulogne, لمشاهدة الآثار المقدسة هناك، ومات في ذلك المكان بطرس تشيسبور Chacepore وكان من أصل بواتي، وكان محاسباً ومستشاراً أثيراً عند الملك، وخازناً للملكة، وقد أنهى حياته بموت سعيد.

اختصار لوقائع العام

كان هذا العام، خلاله كله خصباً بالفواكه والحبوب، ولذلك نزل سعر مكيال القمح إلى شلنين، ومثل ذلك الكمية نفسها من الشوفان، وبقية أنواع الحبوب والقطاني، حيث نزلت أسعارها لصالح الفقير ومنفعته، وبالنسبة للايطاليين، والفرنسيين، والفلمنكيين، كان هذا العام عام حرب وعدوان، وعام توجس في انكلترا، فقد اضطربت البلاد من منتصف الخريف حتى الربيع بالزوابع إلى درجة أنه حدث في بدفورد Bedford أن هلك أكثر من أربعين رجلاً مع عدد كبير جداً من المواشي.

كيف بقي الملك ينتظر ريحاً طيبة

عام ١٢٥٥ لتجسيد الرب، كان الملك في بولون، بعد عودته من غسكوني، ينتظر هبوب ريح طيبة لعبور القنال إلى انكلترا، ووافق هذا العام، العام التاسع والثلاثين لحكمه، وقد قام في الوقت نفسه، وفقاً لعادته التطوعية بزيارة الآثار المقدسة، التي كانت هناك كمية كبيرة منها

محفـوظة في كنيسـة القـديسـة مـريم في بـولون، ودفع الاحترام لها وتشريفهـا، وتولى هناك دفن جسـد محاسبـه الأثير، بطرس تشيسبـور بشكل محترم، وأمر بإقامة قداس دفن مهيب له، وكان بطرس هذا نفسه قد عمل وصية نبيلة، أشهد عليهـا، قبل ثلاثة أيام من عيد الميلاد، وكان بين ما أوصى به (بين منح أخـرى، اعطاء ستمائة مارك، لشراء أرض في انكلترا، حيث من الأسهل الشراء، وبناء كنيسـة عليهـا، لصـالح طائفـة رهبـانيـة، تتألف من كهنة نظاميين يجري اختيـارهم مـن دير ميرتون Merton, وذلك في سبيل عبـادة الـرب بشكل لائق وصحيح إلى الأبد، وأن يجري يوميـاً تقـديم أضحيـات للرب من أجل روحـه، ومن أجل أرواح جميع المسيحيين، وقـد غـادر هذه الحيـاة عشيـة عيـد ميـلاد الرب، ووقع يوم الميـلاد في هذا العـام في اليوم السـادس من الأسبـوع، وقـد أكل بعض الأشخاص لحماً صـدوراً عن الاحترام للمسيح، وكـان ذلك بسبب أن كلمـة «أصبح جسداً»، جـرى التفوه بها في ذلك اليـوم، بمثابة ضياء للعـالم، وبناء على ذلك، قد يصرخ أحدهم باعجـاب قائلاً: «آه، لقد منحت الكرامة إلى الجسد».

عودة الملك إلى إنكلترا

وفي يوم الأحـد الذي جـاء بعـد ذلـك مبـاشرة، صـار البحـر والريح صالحين، فكان أن أقلع الملك، وبعد رحلة ناجحة وصل إلى دوفر، ولدى وصوله إلى ذلك المكان استقبل بسرور من قبل أخيـه الايرل رتشارد ومن قبل النبلاء الآخرين، الذين جاءوا من مسافة بعيدة، لأنهم استدعيوا لهذه الغاية قبل بعـض الوقت، وكانوا ينتظرون على السـاحل الانكليزي بقلق كبير، ولدى وصوله، قاموا على الفور بتقديم هدايا ثمينة له، ومثلهم فعل الأسـاقفـة أيضاً، ولاسيما رؤسـاء الرهبـان ورعـاة الديرة، لأنه كـان من الضروري بالنسبة إليهم أن يدفعـوا، وأن يفعلوا ذلك، لأنه عمل مطالب ملكية مستعجلـة، مثل رجل كان جـائعاً إلى الطعام، ولـذلك قدمـوا إليه

أفضل الاختيارات، وهدايا ثمينة من الذهب والفضة، وأشياء أخرى يمكن أن تأسر النظر، وتعجب المتطلع إليها، وكان بإمكان الملك بهذه الهدايا جمع مبلغ كبير من المال، لكن ذلك كله لم يكن كافياً لدفع جميع ديونه التي تعاقد عليها، ولاحتى لو جرت مضاعفتها مائة مرة، لأنه قد قيل بأن ديونه كانت أكثر من ثلاثمائة ألف مارك.

تعيين هنري وينغهام حافظاً للختم الملكي

وحوالي الوقت نفسه، كان الملك قد صادق على انتخاب المعلم وليم كيلكني، الذي كان يشغل وظيفة حافظ الختم الملكي مع الثقة، وعهد بالحفاظ عليه نفسه إلى المعلم هنري أوف وينغهام Wẹngham الذي كان محاسباً أثيراً لديه ومستشاراً، وكان يثق باخلاصه كثيراً.

رفض الملك هدية سكان لندن

وعندما تأكد سكان لندن من وصول الملك استقبلوه بسرور، وكانوا أثناء غيابه قد قدموا صدقات وافرة، وقدموا صلوات مستمرة من أجل سلامته وازدهاره أثناء وجوده في القارة، وكانوا يرغبون بحرارة بعودته إلى انكلترا، وبعدما استقبلوه، قدموا إليه هدية مقدارها مائة باوند، ولأن هذه التقدمة جرى من قبل تكرارها مراراً، فقد عدّها الملك بأنها أصبحت عادة، ولذلك نظر إليها على أساس أنها ليست هدية تهنئة، بل بالحري دفعة لما هو مستحق، ولذلك لم يمدح اخلاص السكان ولا هديتهم، ولم يرد عليهم حتى بشكر فارغ، ولأنه عرض للنقد من قبل واحد من الذين كانوا واقفين هناك لجحوده، أجاب قائلاً: «إنني لم أقدم الشكر لسكان لندن لأنهم أحضروا إليّ ماهو حق متوجب لي، وقد سدّدوا إليّ ديناً، لكن يتوجب عليهم أن يقدموا إليّ هدية فخمة بمثابة تهنئة، ولتكن هدية مشرفة ووقتها سوف أقدم إليهم الشكر بشكل منطقي».

سعي سكان لندن إلى إرضاء الملك بهدية أخرى

وعندما جرى اخبار سكان لندن بهذا، قاموا رغبة منهم بإرضاء الملك وتلبية رغبته، فاشتروا بمبلغ مائتي باوند كأساً ثميناً جداً بديع الصنعة والمادة، صدف أن كان معروضاً آنذاك للبيع في لندن، وقدموه مع احترام لائق إلى الملك بمثابة هدية امتنان وعاطفة، ووقتها قدم إليهم الشكر حقيقة، لكن ليس بقدر قيمة الهدية الجميلة، وقد تسلم الهدية، لكن —على كل حال— ليس مع نظرة راضية ومسرورة.

كيف طالب الملك لسبب سكان لندن بدفع ثلاثة آلاف مارك

وبعد مرور عدة أيام، حدث أن هرب من السجن واحداً من الكهنة، قيل وفقاً لأحد التقارير كان متهماً بجريمة قتل، وكان قد وضع في السجن في لندن، ونتيجة لذلك فرض الملك إجراءات حادة ضد سكان لندن، وطالبهم (مع أن السبب كان خفيفاً وتافهاً) بدفع مبلغ ثلاثة آلاف مارك تحت عنوان ضريبة وعقوبة، لأنهم لم يحرسوا سجنهم بعناية أكبر، وكان الهارب واحداً من رجال الأدب، قد اتهم بقتل رئيس رهبان من طائفة الرهبان السود في القارة، وقد سجن في لندن في نيوغيت Newgate, وكان رئيس الرهبان المقتول قد ادعى أنه من أقرباء الملكة، لذلك غضبت من فرار القاتل، وأصرت على الانتقام، واشتكت إلى الملك، وفرّ الهارب من السجن والتجأ إلى اخوانه من طائفة الفرنسيسكان الذين فتحوا صدر الرحمة إليه، واستقبلوه فيما بينهم، وحلقوا شعره، ومنحوه الرداء الرسمي لطائفتهم الرهبانية، وبناء عليه أصبح السكان غاضبين، وأنزلوا غضبهم بالرهبان، وألحقوا بهم أضراراً بالغة، لأنهم آووا الهارب، وعندما استدعيوا بعد ذلك من قبل الملك، حول هذه القضية، أجابوه مع خوف عظيم، بأنه هو نفسه قد سلم السجين إلى أسقف لندن، الذي طالب به، بحكم أنه كان كاهناً محترفاً ومكرساً، وبما أن الأسقف لم يكن لديه مكان موائم للسجن، فقد

رجـاهـم بالسماح له باستخـدام سجـن نيـوغيت، لأنه سجـن قـوي ومضمون، يمكن فيـه إبقاء السجين آمناً حتى يمكن محاكمتـه، والتوصل إلى قرار حـول ماينبغي أن يعمل معه، وقـد قام السكان من باب اللياقة والأدب تجاه الأسقف فاستجابوا لطلبه، وأن السجين قـام بالوقت نفسه بخـداع الحراس الذين عهـد إليهـم الأسقف بحـراسته، وبناء عليـه إن الملامـة والمسؤولية عن نجـاته ينبغي عـدم إلصـاقهـا بالسكان، ولذلك التمسـوا من الملك بتـواضع أن يكـون رحيماً فيخفف من غضبـه، الذي أنزله بهم من دون تقـدير صحيح ومن دون إثارة، وأن يتـذكر اخـلاص السكان ومشـاعرهم الطيبـة نحـوه، وأن لاينسى أيضاً امتيـازات المدينة، التي كان ملتـزماً بالحفـاظ عليها، وعـدم خرقها، بوسـاطة أيمان مكررة، وبصكوك حريات، وقرارات قضت بعقوبة الحرمان الكنسي لغير الملتزم، وتجاه هذا ازداد غضب الملك، وأصبح أكثر حدة، وأقسم يميناً رهيباً بأنه سـوف يستخـرج ذلك القـدر، أو أكثـر من سكان لندن، الذين دعـاهم باسم عبيد، لابل قام بأكثر من هذا، فأمر باعتقال بعضهم وسجنهم.

موت آرنولد دو بوي

وفي اليوم السادس من شبـاط لهذا العام، مات النبيل آرنولد دو بوي Bois, وكـان من أعلى المسؤولين عن الغـابات في انكلترا، وكـان رجلاً شجاعاً في الحرب، وفصيحاً بالخطاب، ومتحلياً بأفضل الصفات، وقـد دفن في دير لطـائفـة السسترشيـان في بيكليسـدن Becclesden أمام المذبح العالي.

كيف جرى تجريد اليهود من أموالهم

وعندما اقترب حلول موعـد الصيام الكبير، طالب الملك بإلحاح كبير وبسرعة عظيمة بأن يدفع له اليهـود الذين سلف له افقارهم، على الفور ثمانيـة آلاف مـارك، تحت طـائلة الشنق في حـال عـدم الـدفع، ولدى

مشاهدة اليهـود أنه ليس أمامهم سـوى الهلاك والدمار، وأن ذلك محيق بهم، قام اليهـود بالاجماع بالرد عليه وعلى طلبه بالعبارات التـالية: «أنت ترى يـاصـاحـب الجلالة أنك لم تـوفـر لامسيحيين ولايهود، بـل إنك جعلت شغلك الشـاغل بمختلف الحجج القيام بافقـار الجميع، ولم يبق أمل لنا التنفس بصورة حـرة، فقد حلّ مرابو البـابا محلنا، ولذلك اسمح لنا بالمغادرة مـن مملكتك بموجب أمان منك، ونحـن سوف نبحث عن مكان اقامة آخـر، من نوع من الأنواع»، وعندما أخبر الملك بهذا الكلام صرخ بلهجة مخاصمـة قائلاً: «ليس عجبـاً أنني أتولى جمع المال، لأنه أمر مرعب التفكير بالديون التي أنا متورط فيها، فبحق رأس الرب، إن هذه الديون تصل إلى مبلغ مائتي ألف مارك، لابل إنني عندما أقول ثلاثمائة، لاأتجاوز حدود الصـدق، فلقد خدعت من كـل جانب، وأنا ملك أبتر وناقص متـلاشي، لابل أنا بالحقيقـة، الآن مسحـوق إلى قطع صغيرة، لأنني عند قيـامي بحساب دقيق للمـوارد والنفقات، وجـدت أن مورد ابني ادوارد يصل إلى أكثر من خمسة عشر ألف مارك، ولذلك أنا مضطر تحت ضغط الحاجـة، إلى العيش على المال الذي تـمّ الحصـول عليـه من جميع الجهـات، ومن أي واحد من الناس، وبأية طريقـة من الطرق مهما كـانت ويمكننـي بها الحصـول على المال»، وهكذا أصبح تيتـوس آخـر أوفسبسيـان، حيث باع اليهود لبضـع سنوات إلى أخيه الايرل رتشـارد، وذلك حتى يتمكن الايرل من تجويف أولئك الذين كان الملك قد سلخ جلودهم من قبل، وقـام الايـرل على كل حـال، بتـوفيرهم، تقـديراً منه لتناقص قدرتهم، ولفقرهم المدقع.

كيف أقرض الإيرل رتشارد الملك مبلغاً كبيراً من المال

وقام الايرل رتشـارد، بناء على طلب ملح من أخيه، وعلى تقـدير منه لحاجتـه القصوى للمال، فأقـرضه مبلغـاً كبيراً من المال، وتسلم على كل حال ضمانة له من الذهب.

حول التساقط المستمر للأمطار الغزيرة

وحدث في هذا العام منذ عيد القديس فالنتاين، ولمدة شهر تلاه، أن الريح هبت بعنف، وقد ترافقت بتساقط أمطار غزيرة في كل من النهار والليل، مسببة هياجاً وفيضاناً ليس فقط على الأرض، ولكن أيضاً على البحر.

حول تنين بحر مدهش

وقذف البحر في الوقت نفسه في المناطق العائدة لأسقفية نورويك تنيناً بحرياً هائل الحجم، حيث أنه أزعج بوساطة الهيجان العنيف للأمواج، وقد قتل —كما هو معتقد— من الضربات والجراحات التي تلقاها، وكان هذا التنين أكبر من حوت، ولم يعدّ من أنواع الحيتان، وقد أغنى جسده جميع المنطقة المجاورة.

حول فيل في إنكلترا

وجرى في هذا الوقت نفسه أيضاً، ارسال فيل إلى انكلترا، من قبل الملك الفرنسي، بمثابة هدية إلى ملك انكلترا، ونحن نعتقد بأن هذا كان الفيل الوحيد، الذي شوهد قط في انكلترا، لابل حتى في البلدان الواقعة على هذا الجانب من الألب، وبناء عليه تدفق الناس مع بعضهم، وتجمعوا لرؤية هذا المشهد الجديد، وأعطت مرغريت ملكة فرنسا إلى ملك انكلترا طاووساً، أو أن تقول حوض تغسيل عجيب، كان على شكل طاووس، وقد رصع بحجارة ثمينة، تعرف بشكل عام باسم اللؤلؤ، وبالاضافة إلى هذا وجدت تزيينات أخرى عملت بشكل فني على جسد الطائر، بالذهب والفضة والزفير أيضاً، في سبيل أن يشبه طاووساً حقيقياً عندما يمد ذنبه على شكل دائرة، وكانت الجواهر المستخدمة فيه ثمينة وكثيرة، وكانت جديدة، وكان العمل رائعاً، إلى حد أنه أوجد العجب في عيون الذين شاهدوه.

كيف ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان

وفي التاسع من آذار في هذا العام، وعندما كان ادوارد ابن الملك مايزال في غسكوني، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، ومكث هناك ستة أيام، وخلال ذلك الوقت صلى ليلاً ونهاراً بخشوع وتقوى، والشموع مضاءة، وجاءت صلواته إلى القديس ألبان، بحكم كونه مقدم شهداء المملكة، وجاءت صلواته عن نفسه، وعن ابنه ادوارد، وعن آخرين من أصدقائه، وعمل أيضاً تقديمات للرب، وللشهيد المبارك، كانت عبارة عن ردائين ثمينين، مما ندعوه نحن باسم Baudkins, وكأسي قربان جميلين مزينين بالذهب، ويتوجب التبيان، أن ما من واحد من ملوك انكلترا، حتى الملك أوفا نفسه Offa, مؤسس دير القديس ألبان، ولا أي واحد من أسلافه، لابل ليسوا معاً مجتمعين، قد قدموا مثل الذي قدمه هنري الثالث ملك انكلترا، وأعطاه لوحده من الطيلسانات لتزيين جدران تلك الكنيسة، فهذا مثبت في داخل كتاب صغير في الكنيسة نفسها، حيث فيه رواية وافية حول الطيلسانات المعطاة، والخواتم، والجواهر الثمينة.

مقتل أحد الفرسان من أجل ميراثه

خلال أسبوع الآلام من هذا العام، تسبب واحد اسمه وليم، وكان ابناً حقيراً وشريراً لفارس، بمقتل والده، حتى يحصل على ميراثه في الحال، وبعد ادانته بالجريمة، سحب إلى المشانق في لندن، وشنق، وبالنظر لبشاعة جريمته، ولأنه تجرأ على اقتراف جريمة قتل أبيه في أسبوع الآلام، لم يسمح لجسده بالدفن، ولم يشفق عليه من قبل أحد من الناس، فترك ليجري التهامه من قبل الكلاب والطيور الجارحة، كما أنه لم يحصل على طقوس الدفن المسيحية، وكان اسم الفارس المقتول جون، وكنيته دي سيلدفورد Seldeford, وكان عائداً إلى امتياز كنيسة القديس ألبان، وهذا يوضح القول المفرح للشاعر، عندما تكلم عن

الذين يعتنون، ويهتمون، ويغنون ورثتهم مثلهم أنفسهم، أو بالحري أكثر من أنفسهم، وهو الذي قال: «إن الذي من أجل وريثه يحرم نفسه ويضيق عليها هو شبيه بالأحمق وقريب له»، وكان قد جرى مع قتل الفارس جون المتقدم ذكره، كاهن نظامي كان قسيسه.

حول المعجزات التي عملت عند قبر القديس روبرت في لنكولن

وحدث في هذا الوقت نفسه أيضاً، أن عدداً كبيراً من مختلف المعجزات المؤكدة يقينياً والواضحة قد عملت في كنيسة لنكولن، وكأن المعترفين القديمين المقدسين، الأسقفين: ريميغوس Remigius وهوغ، كانا مبتهجين مع القديس روبرت، الذي غادر مؤخراً إلى الرب، وقد تباروا بين بعضهم بعضاً في اضفاء إحسانهم على المسيحيين، وكان من بين كثير من المعجزات، التي هي كثيرة جداً لايمكن ذكرها، وعددها عظيم إلى حد لايمكن فيه كتابتها، هناك عشرين معجزة واضحة، قد جرى فحصهن بكل دقة أمام أشخاص موثقين ولهم نفوذهم في الهيئة الكهنوتية لكنيسة لنكولن، (لأننا نعلم أن زيف هؤلاء في مناصبهم مكروه من قبل الرب)، وإن شهاداتك وبراهينك، آه أيها الرب هي موثوقة بالحقيقة، وبات من المؤكد أنه حدث لواحد من الناس، واحد جدير بالثقة مشاهدة رؤيا في الليل (ليست مجرد إبداع من الخيال) أثناء حياة أسقف لنكولن المذكور، وذلك قبل أربع سنوات من وفاته، فقد بدا له أنه سمع صوتاً يقول بوضوح وتمييز الكلمات التالية: «أحب الرب ادموند في طيب رائحة لطفه، وأحب الرب روبرت في طيب رائحة إيمانه»، وقد سمح له بمعرفة هذا بالروح، حتى يتمكن من فهم أن هذه الكلمات قد قيلت فيما يتعلق بالأسقفين المباركين: ادموند المعترف، وروبرت.

رؤيا البابا الاسكندر

أخبرنا في الصـوم الكبير من هذا العـام بأمـر حقيقي، هو أن منامـاً شـوهد من قبل البـابا الاسكندر، عندما كـان مستلقيـاً في نوع عميق، وكان ذلك في إحـدى الليالي بعد متـاعب النهار، فقد ظهـر له أنه أخذ إلى قصر كبير وواسع في الأسفل، قـد جلس في مكـان مـرتفع رجل صاحب سلطـة ومنظر مهيب، وكذلك امـرأة ذات مظهر محترم وسيهاء مبجلة، مع عـدد كبير من الخدم والأتبـاع من حـولهم من كل جـانب، وفجأة جلب إلى أمـامهما نوع من أنواع النعوش، محمـولاً من قبل حملة ذوي منظر قبيح، حيث ألقـوا نظرة ازدراء على الجثـة، ثم قامت الجثـة وسجدت بنفسها أمام الذي جلس على المقعـد المرتفع، الذي كان يشبه مقعـداً من مقاعـد الحكم، وقال بصـوت منتحب: «أيها الرب الأعظم قـدرة والأعلى تقـوى، كن رحيماً بي»، وفي رد على هذا الدعـاء، بقي القاضي صـامتاً، لكن المرأة قـالت: «إن زمن التوبة والرحمة قـد مضى، وقد حلّ الآن الوقت للحكم عليك، إن دعواتك جاءت في غير وقتها وغير مـوائمـة، الويل لك، لأنك سـوف لن تجد رحمة، والحكم عليك هو مـاتستحقه، فلقـد قمت أثناء حيـاتك بازعاج كنيسـة الرب، فما أن أصبحت رجـلاً بجسـد، حتى ازدريت المراسيم المقـدسـة، وألغيتهـا وجعلتهـا غير نافذة، وفعلت الشيء نفسـه بالنسبة للمنافع التي جـرى الانعـام بها من قبل أسلافـك المقدسين، الأمـر الذي ألحق الأذى بهم، ولذلك جـرى الحكم على أعمالك بالإلغاء والمحق»، ولدى الفـراغ من هذا الكلام نظر الذي جلس قـاضيـاً نظرة حادة، وبدا عليـه الغضب، وتكلم بصـوت مـرعب، وقـال للحـاملين للنعش: «إنني بعـد بعض الوقت، سـوف أحكم عليـه وفقـاً لقوانين العـدالة، لقـد انتهى وقتـه، ووقت الحكم عليه قد حلّ بالنسبة له» وأضاف القاضي يقول: «اذهب وتسلم جـزاء وفـاقاً، تبعـاً لأعمالك»، ومـا أن تفـوه بهذا الحكم، حتى

جرى حمله بعيداً، وابعـاده من حضرة القاضي إلى مكان غير متفق عليه ومقرر بالنسبة لنا، إنما كما هو متوجب أن نعتقد تقوياً، ربما جرى حمله إلى المطهرة، وعندما قـام البابا الاسكندر، الذي إليه أبيحت هذه الرؤيا (سواء أكـانت حقيقية أم إبداع من الخيال) بالسـؤال بصوت منخفض ومرتجف، وتوجـه بالسؤال إلى دليله: من كـان ذلك المخلوق التعيس؟ أجيب: «إنه البابا انوسنت الذي مـات مؤخراً، والذي كـان يعرف من قبل باسم سينبـولد، الذي غـادر هذه الحياة متـلاشيـاً من الحزن، ليس على ذنوبه، بل بسبب هـزيمـة جيشـه وتدميره»، وبعـدمـا سمع البـابا الاسكندر هذا كله (وهو الذي كـان الخليفـة المباشر لأنوسنت المتقـدم الذكر) أفـاق من نومه (إذا كان من الممكن تسمية الذي كـان به نوماً) في رعب كبير وخـوف، وأصبح وكأنه قـد حـرم من عقله ومـداركـه، واحتاج إلى عـدة أيام حتى استرد صحته وعـاد إلى عافيتـه، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، أمـر هذا البابا التقي بتقديم صدقات، وإقامـة قداسات لصالح انـوسنت المتوفى، وألغى بعض قراراتـه، في سبيل الحصول على تلطيف لعقوبته، وكان إذا عرض عليه أي واحد هدايا ثمينة للحصول على أية كنيسة قد رغب بها، كان البـابا الاسكندر يجيبه: «لاياأخانا، إن بائع الكنائس ميت»، وأيضـاً من ذلك الوقت طلب مـن الأساقفـة أن يتفضلوا عليه بالـدعاء له، وقد كتب إلى كثير منهم كما ذكـرنا من قبل، وإنه —على كل حال— من المعتقد، أنه لو لم يجر انذاره، وتقويمه بهذه الرؤيا، لكان عـرضـة لمواجهـة حسـاب أشـد أمـام الرب، لكن الرب اختـار أن يعمل هذه الرؤيا له —كما هو معتقـد— لإنذاره ولتقويمـه، ولتكون مـؤشراً على عواطفـه الأبوية، وأصدر البـابا أيضاً، على الفـور مـرسومـاً قضى بأن أي كاهن يعتقل من أجل جـريمة تتطلب عقـوبة جسـدية ينبغي تجريده من الامتيـازات اللاهوتيـة، إذا لم يكن تحت أية روادع كهنوتية وقانونية.

حول الرغبة العامة لعقد تحالف مع ملك إنكلترا

ورغب في هذه الآونة نفسها وليم صاحب هولاندا بأن يملأ صناديق ماله —مثلما فعل آخرون كثر— بالمال، الذي كان الهدف الرئيسي لرغباته، فأرسل مبعوثين خاصين إلى ملك انكلترا، يرجوه عقد تحالف معه، بسبب قرابتهما، وجاء في الوقت نفسه أيضاً جون أوف أفسني Avesnes من فلاندرز مسرعاً، مع التماس ملح جداً إلى الملك ليساعده في حربه، وأعلن الملك على كل حال بأنه كان مشغولاً بمشاغل صعبة تتعلق بمملكتي صقلية وأبوليا، ولايريد أن يبتعد بتفكيره بالتركيز على عدة قضايا في آن واحد، ولكن عندما يفرغ من القضية الأولى أولاً، وقتها سوف ينصرف إلى قضية أخرى فأخرى حسب الترتيب، وبذلك يصل بهم إلى نهاية مفيدة.

حول البارلمان العظيم الذي عقد في لندن

في أسبوعي عيد الفصح، اللذان يعرفان بشكل عام باسم Hokeday, اجتمع جميع نبلاء انكلترا، ورجال اللاهوت وكذلك العلمانيون، في لندن، ولم يكن قط من قبل مثل هذا الحشد الكبير، ولم يشاهد مثله يجتمع مع بعضه هناك، وفي هذا الاجتماع (حتى نختصر الكثير بعدة كلمات) اشتكى الملك من أنه متورط في كثير من الديون، ولايمكنه تخليص نفسه من دون مساعدة فعالة من نبلائه، وبناء عليه طلب بعنف وإلحاح، مساعدة مالية، مقترحاً بأنه يرغب باستلام الجزء الكامل من العشور، الذي جرى منحه من قبل من البارونات لمساعدته، وأنه ملتزم بتقديم شكر كامل وموائم مقابل ذلك، وكان من الواضح أن هذا الإجراء سوف يكون مدمراً للمملكة، لأنها عندما تجرد من أموالها سوف تكون مهجورة وعرضة لكل من يرغب بالاستيلاء عليها وتملكها، وبما أن هذا التصرف لايمكن تحمله بأي شكل من الأشكال، قام المجتمعون بالتشاور فيما

بينهم، وقرروا بين بعضهم، بأنهم سوف يأخذون على أنفسهم القيام بحمل عبء عظيم، وهو الالتزام من ذلك الوقت فصاعداً، ومن دون أية اعتراضات تافهة، بالصك العظيم، الذي غالباً ماوعد بالالتزام به وأقسم على ذلك، وربط نفسه بأن يفعل وينفذ، وأقسم بروحه بطريقة هي الأكثر قانونية، وعلاوة على ذلك، طلبوا الاذن، في أن يختاروا لأنفسهم، بموجب الرأي العام للمملكة: رجل عدالة، وقاضي قضاة، وخازن، حسبما هي العادة من العهود الخالية، ولأن ذلك امتيازهم بشكل محق، وأنه لايجوز عزلهم من وظائفهم ما لم يكن ذلك لجرائم واضحة، وأن يعلن عن ذلك، إثر مداولات كافية وصحيحة، وبموافقة عامة من المملكة بشكل مطلق في مؤتمر معقود: لأنه يوجد في انكلترا كثيراً من الملوك الصغار، حتى بدا الحال وكأن العصور القديمة قد جرى تجديدها هناك، ولقد كان منظراً عاماً أن ترى الأسى منتشراً بين الناس، وفي الحقيقة لم يعرف الأساقفة والنبلاء كيف يضمنون بروتوس Proteus الخاص بهم، أي الملك، حتى لو عملوا كل هذه التنازلات، لأنه في أعماله كلها قد تجاوز حدود الصدق، وحيث لايوجد صدق لايمكن وضع اعتماد ثابت أو مؤكد، وبالاضافة إلى هذا، لقد سمع المجتمعون من حجاب الملك الخاصين، بأن الملك سوف لن يمنحهم بأي شكل من الأشكال مطالبهم فيما يتعلق بقضية رجل العدالة، أو قاضي القضاة، أو الخازن، ومجدداً كان الأساقفة مقهورين بالأسى، لأنهم أرغموا، بسبب حالة العبودية المطلقة، التي هبطت إليها الكنيسة، على دفع العشر، الذي وعدوا به فقط على أساس شروط معينة، وتمزق النبلاء حتى قلوبهم بسبب الاستخراج الذي سيحيق بهم، وتوصلوا أخيراً إلى قرار جماعي، بأن يبعثوا برسالة إلى الملك، باسم الجماعة كلها، بأنه يتوجب توقيف القضية كلها وتعليقها حتى عيد القديس ميكائيل، من أجل أن يروا ويتملكوا براهين على لطفه، وعلى اخلاصه وصدقه في الوقت نفسه،

وعلى ذلك إنه إذا تمكن من نيل إرادتهم الطيبة، والقيام بمكافأة صبرهم بالالتزام بشروط الصك، الذي غالباً ما وعد بذلك، وكثيراً جداً ما حنث بوعوده، إنهم سوف يطيعون إرادته، بقدر ما يمتلكون من قدرة، وسوف يساعدونه في أوقات حاجته، ويقال بأن الملك لم يقبل بهذه الشروط، وأظهر بصمته أنه لم يوافق عليهم، وهكذا جرى بعد مناقشات طويلة وعقيمة، أن ارفض المؤتمر في حالة من الانزعاج واليأس، وأصبح النبلاء الآن أخساء، وعادوا إلى ديارهم.

الأنواء غير الرحيمة أثناء انعقاد البرلمان

كانت الأنواء في هذه الأيام ليست في موسمها تماماً، فقد هبت الريح الشمالية التي هي عدو كبير لبراعم الورود والأشجار، طوال الربيع كله تقريباً، ولم يتوفر قط، ولاندى مرطب، أو مانح على الأقل شيئا من الانتعاش إلى الأرض العطشى، ولذلك صام النبلاء يوماً بعد يوم، وكانوا يحركون الهواء من دون فائدة، وأصيب كثير منهم بمختلف أنواع الأمراض والأسقام، وصار المناخ قاسياً وغدت الأجواء جافة بسبب هبات الريح الشمالية الساخنة، وأيضاً بسبب الرياح الاستوائية، فأخذت شكلاً يشبه لون الليمون، وسببت الكثير من الأمراض.

وفاة وولتر دي غري رئيس أساقفة يورك

وكان وولتر دي غري Gray رئيس أساقفة يورك، مثل البقية، قد ضغط عليه بمختلف أنواع المنغصات والاضطرابات أثناء عقد البارلمان المتقدم ذكره، وقد أصيب بمرض في مخه، من الصوم اليومي، وفي سبيل استرداد صحته، بعد المتاعب، والأعمال التي جاءت بلاثمار، ذهب إلى فولهام Fulham, وهي عزبة عائدة إلى أسقف لندن، وجاء ذلك بناء على طلب الأسقف المذكور، ولكن بحكم أنه قد أنهك بسبب تقدم السن، وكذلك بسبب الأحزان، ومتاعب الأعمال الأخيرة،

قد فقد قابليته للأكل تماماً، فأصبح ضعيفاً جداً، فمات في اليوم الثالث لوصوله إلى فولهام، وجاء ذلك بعد تلقيه جميع القوانين المقدسة، التي تشكل جزئاً من واجبات المسيحي، وقد أدار بشكل صحيح كنيسته في يورك لحوالي الأربعين سنة (يعني أن تقول أنه كان هناك فقط ثلاثة أشهر وثلاثة أسابيع حتى تكتمل تلك المدة)، وكان بإمكانه أيضاً أن يحكم المملكة بشكل لايمكن انتقاده فيه، وقد غادر طريق الجسد كله في الأول من أيار.

كيف جرى حمل جسد رئيس الأساقفة المتقدم الذكر إلى يورك ودفن هناك

بعدما جرى فحص جسده بدقة، جرى حمله بكل تشريف إلى يورك، تحت اشراف وولتر أسقف درم الذي كان نائبه، وهو الذي قام بكل واجب إنساني واحترام، وبقدر ما أمكنه، وسير أمام جسد ذلك الأسقف العالي المقام تقديم الصدقات، وتأدية مأتم يومي، وأخيراً جرى وضع الجسد في القبر بتشريف لائق، في كنيسة يورك.

حول الجفاف الكبير

عمّ في هذا الصيف نفسه جفاف، بسبب استمرار الرياح الاستوائية، التي أوقفت تماماً أنداء الصباح، وخنقت أنداء المساء، واستمرت من منتصف أيار حتى الأول من حزيران، وأصبح بإمكان الإنسان رؤية سنابل القمح مرمية في الرمل كلياً، وليست مائلة كما هو معتاد، لتزداد طولاً، ولإعطاء المزيد، وحدث أخيراً على كل حال، بفضل الذي بلطفه ينزل المطر على المستقيم وغير المستقيم، والأرض بجذورها شبه الميتة، فانتشعت البذور بأمطار موسمية وفيرة، وبالأنداء، وهكذا كان بنعمة من الرب أن تحول الجفاف إلى انتعاش إحياء، وعادت جميع الأماكن إلى الحياة، وقدمت وعداً بوفرة من الفواكه والحبوب.

المعجزات التي عملت في كنيستي لنكولن وشيكستر

وفي حــوالي الـوقت نفســه، أصبحت كنيستــا: لنكولن وشيكستر مشهــورتين بوســاطة المعجــزات التي عملـت هناك لتمجيــد الرب، ولتمجيـد الحبرين: روبرت، ورتشـارد، وقـد أشعت في كنيسـة لنكولن عشرون معجـــزة كبرهان، لأنها فحصـت، وذلك دون الحديـث عن المعجـزات الأخـرى التي لايمكن تعدادها، وحـدث في شيكستر العـدد نفســه، أو أكثـر، وعملت واضحـة، وقـد أضيف كل يوم إلى عـددهم، وكل واحد يرغب أن يرى روايـة حول المعجزات التي جـرى فحصها، يمكنه أن يعثر على كتابات تتعلق بهم في كنيسة القديس ألبان.

حول تعيين رئيس شمامسة لنكولن محل وليم وولف

وفي حــوالي الوقت نفســه أيضــاً، أرسل المعلـم هوغ مــورتايمــر Mortimer, الذي كـان مسـؤولاً عن دير كـانتربري، أوامــر إلى الهيئة الكهنوتيـة في لنكولن، لإلغـاء انتخـاب وليم وولف، الذي جـرى تعيينه مـؤخراً رئيساً لشمامسـة لنكولن، وأن يقـوموا بتعيين واحـد آخر محله من دون تأخير، وإذا لم يحدث هـذا، فإن المعلم هوغ ســوف يقــوم بموجب السلطات الـرسولية، وبمـوجب سلطات سيده رئيس أسـاقفة كانتربري، وسلطـاته شخصياً، بمعاقبـة الكهنة النظاميين لعدم الطـاعة، وقـام الكهنة النظاميـــون، طاعـة منهم لهذه الأوامـر، فــانتخبـوا رئيس شمامسـة جـديد، ووقف المعلم وليم وصمـد بشجـاعـة من أجل حـرية الكنيسـة وامتيــازها، وتحمل هذا كله بصبر، وهرب للجـوء إلى صـدر الرحمة لدى البابا، الذي هو بالعادة مفتوح للمتضررين.

حول تحطيم جيش البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسـه، سار البـابا الاسكندر على خطى سلفه انوسنت في متـابعـة الأعمال المتعلقـة بمملكة صقليـة وأبوليـا، فكان أن

أرسل الكاردينال أوكتافيان مع جيش كبير، مؤلف من ستين ألف رجل مسلح، لتدمير مدينة نوسيرا تدميراً نهائياً، مع مانفرد الذي كان متخفياً هناك، وأيضاً لتدمير جميع سكانها، وكان يوجد في المدينة أكثر من ستين ألفاً من المسلمين، كان الامبراطور فردريك قد حشدهم من أجل تعريضهم لمخاطر تقلبات الحرب، ولهم أعطى تلك المدينة مكاناً للإقامة، وفتحت هذه المدينة صد راللجوء لمانفرد ولبعض الآخرين من شيعة فردريك.

وبناء عليه رتب أوكتافيان قواته ونظمها، بمساعدة مركيز بارع ومحب للحرب (على نصيحته ومساعدته اعتمد الجيش البابوي كلية) ورعى هو والبابا آمالاً كبيرة بأنهما سوف يحصلان على غايتهما،ولكن عندما صار هذا الجيش الذي لايقهر كما اعتقد على بعد أميال قليلة من المدينة، استولى رعب مفاجىء وخوف على الطرفين، وبناء عليه لم يتجرأ سكان المدينة على الخروج ومهاجمة الغزاة، كما لم يتجرأ الغزاة على مهاجمة السكان أو المدينة، وهكذا أضاعوا لعدة أيام كثيرة وقتهم من دون فائدة، وكان الجيش البابوي كبيراً جداً ومرعباً، وكان يتلقى يومياً المدفوعات من صندوق مال ملك انكلترا، وكان يعيش وسط توقعات كبيرة، نتيجة لوعود البابا، فعلى هذه الصورة كانت أوامر وترتيبات البابا انوسنت، المتوفى أخيراً، وكل هذه الإجراءات شهدت القيام معه، وجرى تنفيذها من قبل الكرادلة، وبعد انتظار طويل، مكث فيه الطرفان من دون عمل، ذهب هذا المركيز الخائن، الذي كانت لديه كتلة كبيرة من الأتباع في الجيش، إلى أوكتافيان وقال له: «لماذا نحن يامولاي واقفون هكذا من دون عمل لهذه المدة الطويلة؟ إننا نقوم بتبديد مبلغ كبير من المال، لندع ثلث الجيش ينصرف، لأنه لامانفرد ولاجيشه سوف يتجرأ على الخروج من المدينة والقيام بهجوم، فهم محاصرون ومضيق عليهم، وقوة صغيرة سوف تكون كافية لإبقائهم من دون

حـركة وخـائفين»، ومجدداً بها أن سكان المدينة لم يقـوموا بالانقضـاض، فعل المركيـز الشيء نفسه فـأنقص تعداد جيش البـابا، إلى حـد أن الذي بقي منه بالكاد كان تعداده عشرة آلاف أو اثني عشر ألفاً من الجنود، ثم إنه قام في إحدى الليـالي، فركب فرساً سريعـاً وذهب إلى مدينة نوسيرا، وتوجه بنفسه بالخطاب إلى مانفرد قائـلاً: «ياصديقي العزيز، لقد أخذت انطبـاعاً، وفهمت بأنني قـد آذيتك، ومازلت جـاهزاً لفعل ذلك، وإنني أعجب كيف أنك أصغيت لمثل هـذه الأقـاويل الدنيئة، ولماذا صـدقتهم بأي حال من الأحوال، وسموك يعرف كيف قدمت الخدمات باخلاص إلى والدك في أيام المخاطر، أعني الامبراطـور فردريك، فكيف يمكن أن أعـذب ابـن مـولاي الحبيب، ووالدك المحترم؟ ولســوف تكتشف على الفور الولاء والاخلاص وهو ماشعـرت به منذ زمن طويل نحوك، لقد نقص الجيش البـابوي وتبـدد بوسـاطتـي، وبالكاد بقي منه عشرة آلاف رجل مقاتل مع أوكتافيان، ومن هؤلاء جزء كبير عائد إليّ، لاتتأخر، دع جميع المخلصين لك في المدينة يسلحون أنفسهم على الفـور، واللحاق بي عن قـرب، فإنك سـوف تتخلص من أوكتـافيـان ومن أتبـاعـه كما تراه مناسبـاً»، وبناء عليـه خرج مـانفـرد من المدينة منقضاً يحيـط به أتباعـه، وحمل جميع سكان المدينـة السـلاح، وباتـوا شـاكين السـلاح تمامـاً، واحتشـدوا في أعـداد مسـاوية لجيش كبير، واقتربوا من عسـاكـر البـابا بسرعة تماثل سرعـة عاصفـة من الريح، ولكن عندما كـانوا يعيشون مع أمل أسر جميع أعدائهم، مثل طيـور أمسكت في الشبكة، في ذلك الوقت بالذات جرى انذار أوكتـافيان من قبل بعض الأصدقاء، وجـرى اخباره بالذي كـان على وشك الحدوث، فقام بـالنجاة، لكن بصعـوبة، في حين تعـرض جيشـه للقتل أو الأسر أو التمـزيق، باستثنـاء أتبـاع المركيـز وأصحـابه، فهـؤلاء جرى تـوفيرهم، وبعد هـذا الانتصار، بدأ مـانفـرد يزدهر يوماً بعد يوم، مما ألحق الاضطراب والأذى بالكنيسة، وفي الوقت نفسه عاش البابا وعاشت الكنيسة الرومانية كلها بحالة من الحزن، وقد

قهرا من الأسى والكارثة التي شعرا بها من الأخبـار، وخاصة بسبب أن الكنيسة قد وعدت بإعطاء مملكة صقلية وأبوليا إلى ملك انكلترا،لصالح ابنه ادموند، الذي إليه حول البابا خاتم الولاية، بوساطة أسقف بولون، وبسبب أن مستشاريه قد ألقوا بأموال انكلترا في حفرة عميقة، مما سبب دماراً لايمكنه جبره لتلك البلاد، وعمل الأسقف المذكور الذي كان قد عبر الجبال كل سرعـة للوصول إلى انكلترا، عالماً بأن عليـه إرضاء الملك وافراحه، ومن ثم استلام هدايا ثمينة، وكان جاهلاً تماماً بأخبار الكارثة التي تقدم ذكـرها أعلاه، وكـان متحمساً، مرتفع الآمـال ويشعر بسرور مزيف، وبفرح فارغ.

وهكذا تتسابق القدرة اللاهوتية مع الأشياء الإنسانية

مناجاة نحيب على ظلم البلاط الروماني

كم هو عظيم نحيبك، وكم هـو أعمى طمـوحك، آه، يابلاط رومـا، فبقدر ما أنت مقدس، أنت غالباً ماخدعت بآراء الأشرار، لماذا لاتضبط عنقك بلجـــام التعقـل؟ لماذا أنت لم تتعلم بالماضي وتتصلـح بكثير من المصائب؟ عجبـاً ألا تعلم أننا بخسارتك، نحن جميعـاً نعاقب، لأننا نتألم جميعـاً، ونشعر جميعـاً بالفضيحة العـامة وبالنقـد، لقد حـاولت الآن أن توجد امبراطورين في ألمانيا، بترقيتك الذي أنت مرغم على الانفاق عليه مبلغـاً كبيراً جـداً من المال، جـرى نهبـه من جميـع الاتجاهات، مع أن الطرفين لم يكونا متـأكـدين مـن ذلك المنصب الرفيع، وجـرى الآن في أبوليـا، تدمير الجيش البـابوي مـرتين، بشكل مهين، الأولى تحت قيـادة الكاردينال وليم، والآن تحت قيـادة أو إمـرة الكاردينال أوكتـافيـان، ولذلك تعـرض جميع أبناء الكنيسة المسكونيـة للقهر بوسـاطة الخسائـر، وغطاهم العـار، وتقطعت قلوبهم بالأسى، ولكي نجمل الأمـور ببضع كلمات: إن الكنيسـة المسكونية التي من واجب البـلاط الروماني الدفـاع عنها، وحمايتها، تتشكى من أنها تأذت كثيراً في كثير من النقاط من قبله.

حول الإعلان المتعلق بمراعاة صك الامتيازات لإنكلترا

وجرى في هذه الآونة نفسها عمل إعلان في الكونتيات، وفي المجامع الكنسية، وفي الكنائس من أن الصك العظيم، الذي جرى منحه من قبل الملك جون، والذي قام الملك الحالي بتأكيده وتثبيت منحه مرات كثيرة، تتوجب مراعاته والالتزام به من دون خرق، وجرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي، بشكل مهيب ضد جميع الذين يقدمون على خرقه من الآن فصاعداً، وإلى هذا بقي الملك لايبدي اهتماماً بل قام بشكل غير إنساني بتبديد ممتلكات كنيسة يورك، وأيضاً غالباً ماقال: «لماذا لايقوم هؤلاء الأساقفة والنبلاء في مملكتي، بالالتزام بهذا الصك نحو رعاياهم، الأمر الذي عملوا حوله صراخاً كثيراً وشكاوى»؟ وعلى هذا تلقى الرد المنطقي التالي: «عليك ياصاحب الجلالة أن تضرب المثل في مراعاة يمينك، وبناء عليه سوف يقلدك الجميع ويحذون حذوك، لأنه كما قال الشاعر:

حيثما يوجه الأمير خطواته

يقوم الرعاع الضعفاء باتباعها»

حول الاتهامات التي عملت ضد روبرت روس وجون بالأويل

وعملت في هذه الآونة أيضاً اتهامات جدية ضد روبرت روس Ross, وجون بالأويل Baliol بأنهما عملا بلا اخلاص وبلا عدالة نحو مملكة سكوتلندا، وكذلك نحو كل من الملك والمملكة لتلك البلاد، حيث كانت الوصاية عليهما قد أسندت إليهما، وكان الملك في ذلك الوقت في نوتنغهام Nottingham في المقاطعات الشمالية لانكلترا.

كيف عمل رينالد باث الذي هو طبيب اتهاماً ضد السكوتلنديين

لقــد كــان هناك طبيب اسمــه رينــالد باث Reginald Bath, وكـان بارعاً في فن الطبـابة، وقد أرسـل ليتولى رعـاية الصحة الجسـدية لملكة سكوتلندا، وذلك من قبل ملكة انكلترا، التي كانت قلقـة إلى أبعد الحدود على ســلامـة ابنتهــا، وحسن أوضــاعهــا، التي كــانت ملكة سكوتلندا، وكـذلك حول زوجهـا الملك الذي أحبتـه وكأنه ابن متبنى، وعندمــا وصل المعلـم رينالد المذكــور إلى قلعـــة دامسل Damsels, التي تعـرف بشكل عـام باسـم أدنبره، أوضح سبب قـدومـه، وعـرض رسائل من ملك وملكة انكلترا، فيهـا برهان حول الموضوع نفسـه، وقد استقبل بلطف، ولدى تركـه منفرداً مـع الملكة، حسبما كانت العـادة مع الطبيب، سأل عن سبب غيظهـا وشحـوبها، لأنه وجـدها حـزينة، وقـد ردت عليه قـائلة: «إنه من المواثم كشف أسرار الجسد إلى الطبيب، مثلما يجري كشف أسرار القلـب إلى الكاهن»، وعنـدمــا فهم المعلم رينـالد أسبـاب اضطراباتها النفسيـة والجسـدية، وجّه اللـوم بشدة إلى خـدمهـا والأوصياء عليهـا، وبعد كثير من الخصـام والاتهامات المتبـادلة واللوم، لابل حتى التهــديـدات، اتهم النبــلاء والأوصيــاء على الملك، والملكة بالخيانـة، وهدّدهم بالعقوبة بتهمـة الخيانة، وبعد مضي عـدة أيام أصيب هذا الطبيب رينالد بمـرض مميـت، وحمل إلى فـراشـه، وقـد كـان هناك بعض ذوي الظنون الشريرة، الذين قالوا بأنه تعـرض للتسميم، وعندما رأى رينالد نفسه قد اقترب من عتبـات الموت، كتب إلى الملك، وكذلك إلى الملكة، حيث ذكر بأنه قـدم إلى سكوتلندا تحت طالع غير سعيد، لأنه شــاهد بأن ابنتها تعــامل بشكل غــادر وغير إنســاني، بين هؤلاء السكوتلنديين الذين لايستحقـون، ولأنه أقـدم على توجيـه اللوم إليهم، أقدمت هذه المخلوقات الشماليـة على دس السم له، وعندما تسلم الملك هذه المعلومـات، غضب غضبـاً عظيماً، وفكر بعمق حـول الانتقـام لهذه

الجريمـة الكبيرة، وبعدمـا تقيأ هذا الطبيب سم عدم الوفـاق، الذي هو أصل شرور المستقبل، والأضرار التي لايمكن تعـويضهـا، لفظ روحـه التعيسة.

حول فقر بعض الكنائس في إنكلترا

وفي حوالي الوقت نفسه لحق كنيسة كانتربري اضطراب عظيم، وظلم شديد، وقـد لحقها ذلك عن استحقـاق بوساطة إجـراءات أولادها، أي رهبان الكنيسة المذكـورة، لأنها على الرغم من احتلالها للمكان الأول في انكلترا، تولت رفـض النبـلاء والرجـال المستحقين من أهالي البـلاد، وقبلت أجنبياً ليكـون بمثابة الوصي عليها، وبناء عليـه، لم يكن من دون استحقاق، أن الذين تصرفوا على هذه الصورة قـد وقعوا في حالة الفقر، الفقـر الشـديد في الحقيقـة، إلى حـد أنهم تـورطوا في ديون وصلت إلى مـايزيد على أربعة آلاف مـارك، وعندمـا رأى الرهبان بأن الدمـار محيق فـوق كنيستهم، قـاموا حتى لايقعـوا في مهـاوي الاضطراب والارباك، فأعطوا ستـة من أفضل عـزبهم إلى واحـد اسمـه جـون دي غيتـدن Gatesden، وكـان فـارسـاً، وتخلوا عنهم وعهـدوا إليـه بهن، بأن يتـولاهن وفق شروط مفيدة له، لكنهـا مؤذية جـداً وظالمة لهم أنفسهم، وذلك إلى أن يتمكنوا من الخلاص من الديون، وفي الوقت نفسـه كانت رئاسـة رهبانية روكستر متورطة في ديون لانهاية لها، وبناء عليـه عهد بها إلى جـون نفسـه وإلى ممولين آخـرين، وألغى الرهبـان عـلاوات الطعـام واللبـاس العائـدة إليهم، وبالكاد احتفظوا لأنفسهم بضروريات الحيـاة، ومجدداً كانت رئاسة رهبانية القديسة سويثن Swithin في وينكستر مثقلة بخسائر لايمكن تعويضها، وقد ازدادت جراحاتها لأنها استحقت ذلك، ذلك أنها آثرت فضل الملك على الخوف المتـوجب من الرب، وقد اختارت راعياً كان تماماً غير موائم لإدارة مثل تلك الكنيسة المهمة، لأن الأسقف المنتخب أقحم واحداً وجعله رئيسـاً للرهبان، وفـرق الرهبان،

وقبل في الطائفة الرهبانية، بعض الجهلة، ومنح اللباس الرهباني إلى أشخاص لايصلحون لشيء، وأحلّهم محلّ الذين تولى طردهم، وكانوا رجالاً جديرين بالرفض وليس بالاختيار، وهو إجراء جاء لإلحاق العار بالديانة وبالحياة الرهبانية الصحيحة، وفي الحقيقة كان هناك ثلاثة عشر راهباً، كانوا لاشيء البتة، سوى مجرد ارتداء القلنسوة، وهل يتوجب عليّ ذكر فوضى واضطراب الكنيسة الديرية للقديسة مريم في يورك، والكنائس الفخمة الأخرى، أم الاكتفاء بإظهار أن غضب الرب قد ظهر نحو الناس، بسبب تراكم ذنوبهم؟

حول الخسوف غير الاعتيادي للقمر

ومجدداً في سبيل أن لاتختلف أحوال الأجساد السماوية عن أوضاع هؤلاء الذين هم بالأسفل، تعرض القمر إلى خسوف غير اعتيادي وكامل، في شهر حزيران، وكان ذلك في الليلة التي أعقبت عيد القديسة مرغريت، وبدأ الخسوف قبل ساعتين من منتصف الليل، واستمر لمدة أربع ساعات تقريباً.

وفاة وارن دي مونتشينسل

ومات في حوالي الوقت نفسه البارون النبيل وارن دي مونتشينسل Montchensil الذي كان الأكثر نبلاً وحكمة، أو على الأقل كان واحداً من الأكثر حكمة والأعظم نبلاً بين جميع نبلاء انكلترا، وكان وارن هذا نفسه محامياً غيوراً على السلام وعلى امتيازات المملكة، وعند موته ترنح أقوى أعمدة المملكة، وكان علاوة على ذلك متملكاً لمبلغ كبير من المال، وجرى تقدير ممتلكاته بأنها وصلت إلى مائتي ألف مارك وزيادة، وعهد الملك على الفور بالوصاية على وريثه وليم إلى وليم صاحب بلنسية، الذي كان أخوه لأمه، والذي كان قد تزوج من ابنة وارن المتقدم ذكره، ليصبح صهره، وبهذا، ياللأسف أخذت نبالة انكلترا تتلاشى يومياً.

حول مرض جون الفرنسي

أصيب الآن جـون الفـرنسي، الذي كـان واحـداً مـن كهنة الملك ومستشـاراً رئيسيـاً لديه، بشلل لايمكن الشفـاء منـه، لكن هذا لم يدفع أحـداً إلى البكاء شفقة وحـزناً عليـه، بين رهبـان دير القديسـة مـريم في يورك وسيلباي Selby.

حول مغادرة جون دي غري للبلاط

وحـدث في هذا الـوقت نفسـه أيضـاً أن جـون دي غـري Gray, الذي كان فارساً ورجلاً معتدلاً ومستقيماً، وربما مهذباً قد تعلم الحكمة، حدث أنه انسحب من بين مستشاري الملك، ومن متاهة البلاط.

كيف ذهب الملك إلى سكوتلندا
حيث أثير لأن يفعل ذلك بشكاوي ابنته

وفي هذه الآونة صار الملك أكثـر فأكثر انزعاجاً، واشتـد ضيقه نتيجة الشكاوى اليوميـة لملكة سكوتلندا وخدمهـا وأتباعها، وبناء عليـه حشد جيشـاً ووجـه زحفه نحـو سكوتلندا، مع نيـة المطالبـة بتقـرير دقيق من روبرت روس وجون بالأويل، اللذان كانا فارسين، ورجلين صاحبا قوة كبيرة ونفوذ، لأنهما حسبما جـرى اخباره —كما قـال— بوساطة رسـائل سرية من أصـدقـائـه، تصرفـا بشكل معـاكس لوعـودهما، وحكما مملكة سكوتلندا بشكل غير صحيح، وأسـاءا معـاملة الملك والملكة، وعندمـا اقترب من سكوتلندا، بعث رتشارد ايرل أوف غلوستر، وجون مانسيل الذي كان محاسباً أثيراً ومستشـاراً، وجعلهما يسيران قبله ليكتشفا فيما إذا كان روبرت روس قد سـوغ بأعماله الشكاوي التي صدرت ضده، وفيما إذا كان قـد تجرأ على التمرد للدفـاع عن أخطائه، والجرائم التي عـزيت إليه، وعما إذا كـان ينوي العمل ضده، وبنـاء عليه، سار الايـرل وجون مقدمـاً، بناء على أوامر الملك، ترافقهما حراسة كبيرة ومنتخبـة، وقد علما

بأن ملك وملكة سكـوتلندا كـانا آنذاك مقيمان في قلعــة دامسيل، لذلك توجها على الفـور إلى هناك، دون التسبب بأي إثارة، وتركـا أتباعهما مع أوامـر باتباعهما مـن على بعد، ولذلك تمكنا مـن العبور بنفسيهما بمثـابة فارسين متواضعين من حاشية روبرت دي روس، وبذلك خدعا البواب وبقيـة الحرس، وشقـا طريقهما إلى داخل القلعـة، ومـا لبث أن لحق بهما أتبـاعهما، وبذلك شكلوا قـوة كبيرة، حتـى إذا مـا أراد الذين تركـوا في القلعة لحراستها مقـاتلتهما، لن يشعر هذان المتسللان بالخوف، ثم ذهبت ملكة السكوتلنديين إليهما بكل ثقـة، وشكت إليهما بمـرارة، بأنها أبقيت بشكل غير لائق تحت الحراســة، أو بالحري مسجـونة في تلـك القلعـة، والمكان المعــزول، الذي ليس فيــه هـواء صحي، ومحروم من مشــاهد الحقـول الخضراء، لأن القلعة كـانت على مقربة من البحـر، وأنه لم يكن مسمـوحاً لها بالسفـر خـلال مملكتها، أو امتـلاك خدم خـاصين بها، أو الاحتفاظ بشـابات ليكن بمثابة وصيفات لقـاعتها ليتولين خـدمتها، كما أنه لم يسمح لـزوجهـا بـالاقتراب منهــا، أو التمتع بامتيــازات الزوج، ولانعـرف عما إذا كـانت هناك قضايـا أخرى مـزعجـة أضيفت إلى هذه الشكاوى، وحاول الايرل جون، وكان رجلاً فصيحاً ومستقيماً مهذباً أن يهدئهـا، وأن يوقف دموعهـا ونحيبهـا، وواساها بـوعدها بأن عقـوبات محددة، ســوف يجري انزالها من أجـل هذه الجرائم، وقــام على الفــور بترتيب الأمـور لكي ينام ملك وملكة سكوتلندا معـاً في فراش واحـد، كزوج وزوجـة، واستدعي روبرت دي روس للمثـول بشكل خاص في محكمة بلاط انكلترا، لكي يجيب على الشكاوي التي عملت ضده، لكن لأنه كـان خائفـاً على نفسه، بقي بعض الوقت متـوارياً، لكنه أصبح فيما بعــد أكثـر تـواضعـاً، فأطـاع وذهب إلى هناك، وأصبح بعض النبــلاء السكوتلنديين غاضبين فعليـاً، لأن الايرل وجون، قد فعـلا الذي فعلاه فجأة من دون معارضة من أي واحد، وتمكنا من الاستيلاء على قلعتهم، التي هي المدخل إلى أراضيهم، وشكلت نوعـاً من أنواع الحواجـز لحماية

مملكتهم كلها، وعـزموا على الانتقـام، فاقتربوا من القلعـة مع عدد كبير جداً من الأتباع، وأحاطوا بها، لكن عندما علموا بأن الملك والملكة كانا بخير، وأنه من الحماقة محاصرتهما انسحبوا، وهكذا جرى تسوية كل شيء بسـلام، ووعـد روبرت دي روس بناء على بعض الشروط بالقـدوم إلى محكمة بلاط الملك للاجابة على التهـم التي رفعت ضده، لكن الملك قام بناء على نصيحـة بعض الأصـدقاء الذين سـايروا حظه بالاستيـلاء على أراضيه، ووضعهم تحت وصاية دقيقة.

حول الخلاف بين جامعة باريس والرهبان الدومينيكان

وفي تلك اللآونة نفسها أيضاً نشب خلاف جاد بين جماعة الباحثين في باريس والرهبان الدومينيكان الذين كانوا يعيشون هناك، فقد أراد هؤلاء الرهبان، مراغمـة للعرف القديم المؤسس للمدينـة وللجامعة، ومن دون موافقة المدينة والجامعة، واستهـدفوا زيادة عدد المحاضرات في اللاهوت التي كانت حتى ذلك الحين محدودة، وتمكـن هؤلاء الرهبان الدومينيكان أخيراً من الحصـول على النتيجـة الأفضل من هذا النزاع، وذلك دون أن يعبأوا بالملـك الفـرنسي، وبسكان باريس الـذين سعـوا للحفـاظ على امتيـازات الجامعـة، وذلك لأن هؤلاء الرهبـان كـانوا مكرسين أنفسهم للبابا، ولأنهم قدموا كثيراً من أنواع الخدمـات لبلاط روما، لذلك تمتعوا بحظوة كاملة في أعين هذا البـلاط، وبناء عليه أعطى البابا قـراره لصالح الرهبـان الـدومينيكان والرهبـان الآخـرين، في أن يتملكـوا الحرية للمحاضرة في اللاهوت، من دون التقيد بأعداد المحاضرات، التي كانت حتى الآن منذ زمن طويل مضى، محصورة بعدد مقيد.

كيف عمل جون بالأويل سلاماً مع الملك بدفع مبلغ من المال

وفي هذه الآونة نفسهـا أيضاً كـان جون بالأويل، الذي كـان فارسـاً ورجلاً غنيـاً، (والذي كان والده رجـلاً شجاعـاً في الحرب، وقدم كثيراً

من الخدمات للملك جون، وغالباً ماقـدم المساعدة إليه في أوقات الريبة والمصاعب) متهماً مثـل روبرت بجرائم ثقيلة، ولقد تمكـن ببراعة ودهاء من صنع سلام مـع الملك، بتزويده في وقت حاجتـه بالمال، الذي امتلك منه كثيراً.

عودة الملك من سكوتلندا

أمـا وقـد فـرغ الملك من ترتيب كل شيء بسـلام وذلك بما يرضيـه، وبعدما تمتع هو وملكته بأحاديث كافية مع ملك وملكة سكوتلندا، بادر ملك انكلترا بالعودة مسرعاً إلى الأجـزاء الجنوبية من انكلترا، وزار على الطريق الديرة ورئاسـات الرهبانيات، وعهد بنفسـه لصلوات الأساقفة، وأغنى في الوقت نفسه، ذاته بأموالهم.

كيف استولى الملك على بعض المال الذي كان مودعاً في درم

وعندما وصل الملك إلى درم، دخـل إلى الكنيسة، وصلى لوقت قصير عند ضريح الأسقف المبـارك، والمعترف المجيـد كـوثبيرت Cuthbert, وهناك علم مما ذكـره له أحد المخبريـن، بأنه كان هناك مبلغـاً كبيراً من المال مودعـاً في الكنيسة، وهو عائـد إلى الأسقف نيقولا، أسقف إيلاي، ولبعض الكهنـة، الذيـن صـــدوراً عن احترامهـم وثقتهم بـالأسقف كوثبيرت وبكنيسته، قد أودعوا ثروتهم هناك، تحت رعاية رئيس الرهبان والمجمع الرهباني، وبناء عليـه أمر الملك وكـلاءه اللصوص، على الرغم من معارضة الرهبان ومن عدم طلب الموافقة من أصحاب المال، أمرهـم بشق طـريقهم بالقـــوة، وبكسر جميع الأغـــلاق والأختـام، ومـن ثم الاستيلاء على أي مال سوف يجدونه في الخزائن، وفي الصناديق، عادّاً أن المال لم يصادر ولم يتم الاستيلاء عليه بالقوة، بل أسلف إليه، وهكذا هو لم يخف من خـرق سـلام الكنيسـة، كنيسـة مثل ذلك القـديس العظيم، وأيضاً الكنيسة المسكونيـة للرب، التي غالباً ما أقسـم على الحفاظ عليها

سليمـة، وحـدث على كـل حـال أنه بعـدمـا تفكـر، أعـاد دفع المال إلى أصحابه، وهو المال الذي استلفـه بهذه الطريقة، لكن من دون ترضيتهم بالنسبة للأذى الذي لحق بهم.

تكريس وليم كيلكني أسقفاً على إيلاي

وفي تلك الآونة نفسهـا، أي أن تقول في يوم صعـود مـريم المباركـة، جـرى تكريس وليم كيلكني الأسقف المنتخب لإيلاي، تكريسه أسقفـاً لإيلاي، وكان ذلك في بولنزا Polenza, من قبل رئيس أساقفة كـانتربري، الـذي كـان آنذاك مقيماً في القـارة، وعندمـا جـاء الأسقف المنتخب إليه في بلاده، أعطاه رئيس الأسـاقفة تشريفاً له امـدادات وافرة من جميع الحاجيـات الضرورية، كما أنـه تلقى المديح أيضـاً والمعـاملة بالتشريف من قبل بطرس سافوي، حتى لايظهرا أنهما كانا في حالة عوز في بلادهما، لكن أساقفة انكلترا وكذلك رهبان دير كانتربري، قد حزنوا من هذا الإجراء، لأنه كان مؤذياً لهم، لأن العـادة كانت قد قضت دوماً بتكريس الأساقفة في انكلترا، وعلاوة على ذلك كانوا خائفين كثيراً، من أن يتخـذ رئيس الأسـاقفـة نتيجة الإجـراء الجديد عـادة، وهو الإجـراء الذي كان رئيس الأساقفة هذا نفسه قد عمله في قضية كنيسة لنكولن.

وصول الأسقف المنتخب لطليطلة إلى لندن

في ثمانية عيـد ميلاد مريم المبـاركة، وصل إلى لندن الأسقف المنتخب لطليطلة، الذي كان اسمه سانشو، وكـان عمره عشرين سنة، وكان أخاً لملك قشتـالة، وجاء بصحبتـه أيضاً رجل صـاحب نفوذ كبير في اسبـانيا اسمـه غـارسيـا مـارتين Garcias Martin, ولم يكن سبب قدومهما معلومـاً، لكن قد قيل من أجل زيادة مـواردهما بوساطة الهدايا الثمينة التي من الممكن لهما الحصـول عليهـا مـن الملك، الذي جعل من ممارساته القيـام بالتوزيع من دون تمييـز بين مثل هؤلاء الناس كل الذي

كـان بإمكانه استخراجـه من رعاياه الطبيعيين، وكـانت أخلاق وطبـاع، وأتبـاع هذا الأسقف المنتخب تختلف تماماً عما كـان متـوفراً وقـائماً بيننا، لأنه كـان شـاباً يرتدي خـاتماً في اصبعـه الأول، ويقـدم المبـاركـات إلى الناس، وقد زين مكان إقامته الذي كان في المعبد الجديد، وشمل التزيين أرض الغرفة أيضـاً، بالسجاد، والطيلسانات، والستائـر، ومع ذلك كان لديه أتباع وخـدم متوحشين وغير عاديين، واحتفظ معـه بعدد قليل من الخيـول، مع أنه كـان لديه عدداً كبيراً من البغـال، وعندمـا سمع الملك بوصـولهما، أعطى أوامر دقيقـة، بوجوب استقبـالهما بأعلى تشريف، وأن مـامن شيء مزعج مهما كـان، ينبغي أن يشاهداه، ولكن عندمـا اكتشف سكان لندن عاداتهما وأخلاقهما ضايقوهما وأهانوهما، ووصموهما بالشره والترف، وكان الملك في الوقت نفسه يشعر بالمجد بوساطة الزواج الذي جـرى عقده بين أسن أولاده ادوارد، وأخت ملك قشتـالة، وكأنه كـان على وشك الحصـول على جميـع امتيـازاته وممتلكاته في القـارة بـوسـاطة الزوجـة الجديدة لابنه، مع أن ذلك الزواج لم يكن نافعـاً له، أو لمملكتـه بأية طريقة من الطرق.

زواج ابن ملك فرنسا من ابنة ملك قشتالة

عندمـا وصلت المعلومات عن حلـف الزواج الذي جرى ترتيبـه بين ملك قشتـالـة وملك انكلترا، إلى ملك فـرنسـا، بدأ هـذا الملك تسـاوره الشكوك حـوله، ولذلك بعث برسـول خاص إلى ملك قشتـالة، فطلب ابنة الملك لتتزوج مـن ابنه، وسعى الرسول لاقناعـه بفعل ذلك، ورجاه أن لايجاوب بالرفض، الرغبـة بالتحـالف عن طريـق الزواج من رجل عظيم كهذا، وقـد عرض عليـه شروطاً أفضل من شروط ملك انكلترا، الذي حصل على أخـت الملك لأنه لتكون زوجـــة لابنه الأسن ادوارد، وهكذا نجح في رغبـاته، وهنأ المعطي نفسـه على الشرف الذي ناله بهذا الطلب.

الخطط المتنوعة التي كانت بلافائدة حول تبديد الأموال والتي وضعت قيد الممارسة من قبل ملك إنكلترا

وفي الوقت نفسه كانت النفقات تتم يومياً، من أجل دعم الحرب في أبوليا، وحول هذه المعركة التي تقدم ذكرها أعلاه، والتي كانت بفائدة صغيرة، أو من دون فائدة، ومن أجلها أنفق الملك مبلغاً كبيراً من المال، كما أن أسقف طليطلة قد أنفق أيضاً من عشرة إلى اثني عشر ماركاً يومياً من أموال الملك، والآن جاءت إلى الوجود طريقة جديدة لتبديد الأموال، لأن توماس، الذي كان من قبل كونت فلاندرز، وهو عم الملكة، وأخو رئيس أساقفة كانتربري، قد أثار حرباً جديدة ضد مدينتي: تورين وأستي Asti,وفي سبيل دعم هذه الحرب واستمرارها، كان الملك وكنيسة كانتربري، لابل حتى الملكة نفسها، مرغمين على الاسهام بمبلغ كبير جداً من المال، وهكذا فإن الملك الذي أنقص مؤخراً كثيراً من موارده، لإعطاء شطر منها إلى ابنه، تعرض الآن للضيق وللضغوط والقلق من كل جانب.

المشورة الشريرة التي أعطيت من قبل أسقف هيرفورد

وفي هذه الآونة نفسها ذهب بطرس ايغبلانك Egeblank, أسقف هيرفورد (الذي تثير ذكراه أبشع الروائح وأكثرها قذارة) إلى الملك الذي عرف حاجته إلى المال، وأنه كان متعطشاً للحصول على المال بقدر ما أوتي من قوة، وهمس في أذنه المشورة المسممة التالية قائلاً: «وافق يامولاي على خطتي، فأنا لن أفرج عن عوزك فقط، بل سوف أعطيك الوسائل للحصول على المال بكميات وافرة جدا، لأنك إذا حصلت لي —وكأن القضية من أجل عمل صغير— على ثلاثة أو أربعة أختام عائدة للأساقفة ذوي النفوذ في انكلترا إنني —كما آمل— سوف أتمكن بوساطة تفسير جديد من اقناع البابا بالقيام بإرغام كل واحد

منهم، مع جميع أساقفة انكلترا، حتى بالقوة وضد إرادتهم، على دفع مبلغ كبير من المال، وذلك مايلبي حاجتك تماماً»، وأعطى الملك لهذه الخطة موافقة قلبية، وكان الاثنان مسرورين كثيراً، ولذلك شرع الأسقف على الفور بالعمل على عبور الألب، ليتولى تنفيذ وعوده، وقد تمت مرافقته من قبل واحد اسمه روبرت ويلران Walerann, من أجل تنفيذ سحره بشكل أكثر فعالية مع البابا، ولدى وصوله إلى روما وجد البابا في حالة يأس وحزن مفرط نتيجة الكارثة التي تعرضت الكنيسة إليها مؤخراً، وكان علاوة على ذلك متورطاً بديون بلغت حداً، أن كل من سمعوا بكمياتها أصيبوا بالدهشة، وهذه الديون كلها كان ملك انكلترا ملزماً بدفعها، تحت طائلة عقوبة الحرمان من الميراث، وعلاوة على ذلك أخذ تجار عبر الألب مع المرابين يضغطون بشدة وإلحاح واستمرار مطالبين بدفع الديون المستحقة لهم، وهي الديون التي كانت تزداد كميتها يومياً بالربا، وبالعقوبات، والفائدة، ولدى تعبير البابا عن أساه حول هذه القضايا، أجابه الأسقف قائلاً: «لاتدع قداستك تنزعج حول مبلغ ديونك الكبيرة، حتى وإن كانت عظيمة، لأننا قبل أن نغادر انكلترا، جهز الملك وأنا هذا الفارس البارع طريقة سليمة ومؤكدة من أجل دفع جميع الديون من دون صعوبة، شريطة السماح لي بفضل منك وإذن، القيام بتنفيذ الخطط المشبعة بها نفسي، لأن الملك مخلص جداً إليك وإلى الكنيسة الرومانية، وهو جاهز بكرمه نحو الكنيسة واللاهوتيين فعمل كثيراً من أنواع الوظائف، وأضفى عليهم كثيراً من المنافع، على شكل منح من الحرير، وكذلك ببناء الأبنية، وإهداء الشموع، وهدايا أخرى ثمينة، لأن لديه النية الصالحة والرغبة باسداء المعروف إلى جميع البشر، ومثل هذا أنعم هو بكثير من الأعطيات على نبلائه، من الأراضي، والمصنوعات، والموارد، ولذلك تمتع بحق بالعواطف العظيمة للجميع نحوه، فهو عندما اجتاز خلال فرنسا مؤخراً، أعطى إلى الكنائس كثيراً من الكؤوس الفضية،

والطيلسانات، والعقود، وأعطى إلى النبلاء والأساقفة كثيراً جداً من الهدايا، من كؤوس، وخواتم، وأحزمة، وأبازيم، ثمينة في موادها وكذلك في صنعتها، وبذلك نال ثناء واعجاب الفرنسيين، وعلى هذا ارتفع الاسم المشهور للانكليز حتى السماء، وبناء عليه فإن الانكليز لديهم رغبة عارمة، وسوف يكونون مسرورين كثيراً بأوامركم، بصرف أنفسهم وتحميلها، وأن يربطوا أنفسهم، وكأنهم قد أرغموا بالرغبات التقوية في سبيل تحرير ملكهم المحبوب من ديونه»، ثم أظهر الرسائل، التي كتبت بمكر الثعالب، واستخرجت من بعض الأساقفة، والتي ختمت بأختامهم، وبهذا أعطى مظهر الصدق للتصريحات والافادات التي تقدم ذكرها أعلاه، وجعلت البابا أكثر استعداداً للاصغاء إلى زيفه، وفي جواب على كلامه قال البابا: «صديقي المحبوب، وأخي، اعمل في هذه القضية كل الذي تراه مناسباً بالنسبة إليك، ونحن نثني كثيراً على جهودك وبراعتك».

حول خيانته غير الاعتيادية

وانضم الآن إلى أسقف هيرفورد، واحد من الكرادلة، الذي توفرت لديه حرية الوصول إلى الختم البابوي العظيم، والذي بموجب مشورته قام البابا بتنفيذ الأعمال الشريرة لسلفه، ففرض واجبات ثقيلة على أساقفة انكلترا الذين لم يكونوا على دراية تامة بخديعته، بحيث لو أن جميع المظالم الماضية جمعت مع بعضها، لعدت خفيفة بالمقارنة مع هذه النازلة، ويوجد في الرسائل التي أقحمها بعض الأدلة على التزييف، من ذلك أن كل واحد من الأساقفة، لابل هم جميعاً، كانوا ملزمين بالدفع إلى فلان وفلان من تجار سيينا Sienna أو فلورنسا مبلغاً كبيراً من المال، كانوا قد قبلوه بمثابة دين، من أجل تسوية نافعة لبعض الأعمال المتعلقة بكنائسهم، مع أن ما من واحد منهم عرف قط أي واحد منهم أو رآه، ولم يرد أي ذكر للمال، وإذا لم يدفعوا الذي فرض

عليهم خلال مدة وجيزة من الزمن، فإن هؤلاء المرابين (الذين يطلق عليهم الفرنسيون عادة اسم bougres) سوف يمتلكون السلطة الكاملة بمعاقبة العبيد الأبرياء للرب، وأساقفة الكنيسة، بكل أنواع العقوبات، وبادانتهم بدفع غرامات ثقيلة، وبظلمهم بمختلف الطرق، وذلك حسبما ستظهر الرواية المقبلة وترويه في الوقت المناسب والمكان الموائم.

وصول زوجة إدوارد إلى دوفر

وفي تلك الآونة من أيام عيد القديس دينس في هذا العام، عندما كان الملك عائداً من شمالي انكلترا إلى لندن، حتى يكون حاضراً الاحتفالات المهيبة المقامة تشريفاً للقديس ادوارد، وفي اسبوعي عيد القديس ميكائيل، وصلت اليانور، أخت ملك اسبانيا، وزوجة ادوارد إلى دوفر وسط أبهة عظيمة ومع حاشية كبيرة جداً، إلى حد أن وصولهم بعث الشكوك في انكلترا كلها، وشعر الجميع بالخوف من أن البلاد سوف يجري الاستيلاء عليها كلها بالقوة من قبلهم، وبناء عليه أصدر الملك أوامره بوجوب استقبالها بأعظم تشريف واحترام في لندن، وكذلك في الأماكن الأخرى، لكن بشكل خاص في لندن، حيث جرى الاحتفال بوصولها، بالمسيرات، والتزيينات، وقرع الأجراس، والأغاني، وجميع الوسائل الخاصة للتعبير عن الفرح والاحتفال، وبناء عليه، عندما اقتربت من المدينة، خرج السكان لاستقبالها، وقد ارتدوا ثياب الأفراح، وامتطوا على خيول مزينة بشكل ثمين، وعندما وصلت النبيلة زوجة ابن الملك إلى المكان المعين لها للإقامة، وجدته مثل مكان إقامة الأسقف المنتخب لطليطلة، معلق على جدرانه الطيلسانات الحريرية والسجاد وذلك مثل معبد، لابل حتى الأرض كانت مغطاة بالأقمشة المزركشة، وتولى عمل هذا الاسبانيون، لأن تلك كانت عادتهم في بلادهم، لكن هذا التجبر المسرف، قد أثار ضحك وازدراء الناس، ولدى قيام

أشخاص جادين وعقلاء بالتفكر حول حوادث المستقبل، حزنوا بعمق من التقدير الكبير الذي يبديه الملك لدى حضور أية أجانب، وفي الحقيقة أثار التكريم الذي أبدي نحو الاسبان دهشة وعجب الجميع، ولاغرابة في ذلك، ولذلك بكى الانكليز وانتحبوا لأنهم وضعوا في مكان أقل تقديراً من شعب أية دولة أخرى، وذلك من قبل ملكهم، وبحزن تصوروا بأن دمارهم الذي لايمكن جبره بات وشيكاً.

حول الأوضاع التعيسة لمملكة إنكلترا

علاوة على ذلك تحققت صحة بعض التقارير التي انتشرت، والتي أفادت بأن نائباً بابوياً، أو بالحري كاهناً بابوياً، مسلحاً بسلطة نائب بابوي، قد جرى إرساله معتمداً من قبل البابا، وأن وصوله بات وشيكاً، حيث أنه كان فقط ينتظر ريحاً طيبة، وكان هذا المبعوث مستعداً وراغباً في المقام الأول بمساعدة الملك ودعمه في جميع مشاريعه، وبعد ذلك أن يغل بأغلال التكفير جميع الذين يعارضون رغبة الملك، وطغيانه حسبما كان حاله، وعلاوة على ذلك صار النبلاء مرعوبين، وقد غرقوا في متاهة اليأس، لدى رؤيتهم كيف تمكن الملك بمكر لايمكن وصفه من جذب الأجانب ونشرهم من حوله بموجب درجات، وكيف أنه دفع إلى التحالف معه كثيراً من نبلاء انكلترا، لابل في الحقيقة هم جميعاً تقريباً، من ذلك على سبيل المثال ايرلات: غلوستر، ووارني، ولنكولن، وديفون، وذلك بالاضافة إلى عدد كبير آخر من النبلاء الآخرين، وكيف قد جرد الآن رعاياه المحليين، وأغنى إخوته، وأقرباءه، وأهله، ولو أرادت الجماعة الانكليزية كلها بشكل عام، أو تجرأت على الوقوف ضده، لن يكون لديها القدرة أو الوسائل للردع، أو الوقوف ضد الملك وأجانبه، وكان الايرل رتشارد، الذي عدّ على أنه المقدم لجميع النبلاء، على الحياد، ومثله كان العديد من الآخرين، حيث لم يتجرأوا على التذمر،وكان رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان من المتوجب عليه أن

يكون ترساً ضد العنف العدواني للملك، على مسافة نائية في القارة، منشغلاً في كثير من المشاكل الدنيوية المتنوعة، ويقدم اهتماماً قليلاً لرعيته في انكلترا، وكان أصحاب العقول العالية والمدافعين الغيورين عن المملكة، وأعني بذلك رئيس أساقفة يورك، وروبرت أسقف لنكولن، ووارن دي مونتشينسيل وعدد آخر من أمثالهم، قد أخذوا من بيننا، وفي الوقت نفسه حصل إخوة الملك، والبواتيون، والبروفانسيليون، والآن الاسبان والرومان على الثروة بوساطة الموارد، وهذه الثروة تزداد يومياً، وجرى غمرهم بالتشريفات إلى حد الحرمان الكامل للانكليز.

كيف جرى منح إدموند ابن ملك إنكلترا مملكة صقلية

بعد عيد القديس لوقا، اجتمع عدد كبير من النبلاء مع بعضهم، وذلك بعدما جرت دعوتهم بوساطة رخصة ملكية، لأن أسقف رومانا Romagna قد جاء إلى الملك باسم البابا، وعوضاً عن قداسته، جالباً معه خاتماً، أعطاه إلى ادموند ابن الملك، وبهذا العمل المهيب، ولاه على مملكة صقلية وأبوليا، وامتلأ الآن قلب الملك بالفخر والسرور الكامل، وكأنه قد فرغ من تلقي ولاء الصقليين والأبوليين، وقد أصبح سيد مدنهم وقلاعهم، وابنه ادموند قد جرى تتويجه ملكاً، وفي الحقيقة أقدم علناً على دعوة ابنه ادموند باسم ملك صقلية، ولم يكن الأسقف المتقدم ذكره —كما هو معتقد— على دراية بأن جيش الحملة البابوية قد جرى تدميره، وأن أموال ملك انكلترا قد تمّ انفاقها كلها، وأكثر من هذا، أنه قد أثقل بشكل مرعب بالديون، ولو أنه كان يعرف كان قد أخفى بمكر معرفته بذلك، حتى لايخسر الهدايا التي أعدت له، والحقيقة لم يكن الملك بالفعل والنبلاء معه يعرفون، وعاد الأسقف إلى وطنه مثقلاً بالهدايا الثمينة، وحدث ذلك قبل أن تصبح الأوضاع الحقيقية للقضية معروفة في انكلترا، وكان الملك قد قام على كل حال، بسرعة كبيرة جداً بالاقتراب من المذبح بحضور نبلائه، وأقسم بحق القديس

ادموند، وهو معتمد على مساعدة البابا وواثق منها، بأنه سوف يذهب إلى أبوليا، وشاغله فقط صعوبة معرفة كيف يمكنه السفر خلال فرنسا بأمان مع جيشه وأمواله، وشرع على الفور بالتفكير حول الذي ينبغي أن يرسله إلى الملك الفرنسي للحصول على اذن بالعبور خلال أراضيه، ثم إنه فكر وفق طريقة سلطوية ملكية، أن يطلب من الملك نفسه ممتلكاته في القارة، والسعي إلى استردادهم بالقوة إذا كان الأمر ضرورياً، لأن بين أبوليا وانكلترا هناك فرنسا التي سوف تسحق بين حجري الطاحون، وأخيراً أرسل جون مانسيل إلى هناك، وهذا أمر سوف نذكره فيما بعد في وقته الموائم.

كيف أعاق الملك انتخاب رئيس أساقفة يورك

واستخدم الملك في هذه الآونة كل الوسائل التي كان بإمكانه استخدامها لتأخير وإعاقة انتخاب رئيس أساقفة ليورك، في سبيل أنه كلما امتلك المزيد من الوقت، امتلك الحرية الأعظم لنهب ممتلكات رئاسة الأساقفة تلك، حيث قال: «لأنني لم أفرغ بعد من وضع رئاسة الأساقفة تلك في ممتلكاتي، لذلك ينبغي أن أنتبه إليها حتى لاتضيع مني بسرعة»، وبعد لأي قام الكهنة النظاميون فانتخبوا، لابل بالحري رشحوا إلى تلك الوظيفة المعلم سيول Sewal, الذي كان عميد تلك الكنيسة وكان معتدلاً، ورجلاً مقدساً، وجيد المعرفة بالقانون وبالعلوم الأخرى، ثم إنهم بعثوا المعلم روجر هولدرنس Holderness, وكان رجلاً متعلماً، وواحداً له حظوة عالية في روما، وقد جلب القضية إلى نهاية سعيدة، حسبما سنروي في الصفحات المقبلة.

المعاملة الوحشية لليهود لأنهم صلبوا صبياً

وفي هذا العام نفسه، في حوالي أيام عيد الرسولين: بطرس وبولص، سرق يهود لنكولن طفلاً عمره ثمانية أعوام، كان اسمه هوغ، وقد

حبسوه في غرفة بعيدة عن الطريق، حيث غذوه بالحليب وبأطعمة الأطفال الأخرى، وبعثوا تقريباً إلى جميع مدن انكلترا حيث عاش اليهود، واستدعوا بعضاً من طائفتهم من كل مدينة ليكونوا حضوراً لشهود تقديم القربان الذي سيجري في لنكولن، لأنهم حسبما قالوا هناك طفل مخفي بهدف صلبه، واستجابة للدعوة قدم كثير منهم إلى لنكولن، وبعدما اجتمعوا عيّنوا على الفور واحداً يهودياً من لنكولن بمثابة قاض، ليأخذ موضع بيلايطس، الذي بناء على حكمه، وبناء على موافقة الجميع، أصبح الطفل عرضة لمختلف أنواع التعذيب، فقد ضربوه حتى تدفق الدم منه، وهو مايزال حياً تماماً، وتوّجوه بالشوك، وسخروا منه، وبصقوا عليه، وعلاوة على ذلك لقد طعن من قبل كل واحد منهم بسكين من خشب، وجعلوه يشرب شراباً مراً، وقهروه باللوم وأرهقوه بالشتائم ودعوه مراراً باسم يسوع النبي الزائف، وفعل ذلك معذبوه الذين أحاطوا به، وهم يصرون بأسنانهم ويكشرون عن أنيابهم، وبعدما عذبوه بمختلف الطرق صلبوه، وطعنوه حتى قلبه بوساطة رمح، وبعدما قضى الطفل أنزلوه من على الصليب وجوفوه، لأي سبب لانعرف، غير أنه تأكد أنهم فعلوا ذلك بقصد ممارسة عمليات السحر والكهانة، وكانت أم الطفل تبحث عنه بحرص وحذر، واستمرت تفعل ذلك لمدة أيام بعد غياب ابنها، وبعدما جرى اخبارها من قبل بعض الجيران بأنهم رأوه مؤخراً يلعب مع بعض الأطفال اليهود من عمره، وأنه دخل إلى بيت واحد من تلك الطائفة، قامت بشق طريقها فجأة إلى ذلك البيت، فرأت جسد الطفل في بئر كان قد ألقي فيه، وجرى استدعاء نواب الملك بحذر، وتمّ العثور على جسد الطفل، وجرى سحبه واستخراجه من البئر،وعند ذلك شاهد الناس منظراً غير اعتيادي بالمرة، وذلك في الوقت الذي كانت فيه أم الطفل تبكي بصوت مرتفع وتولول، وبذلك أثارت حزن وشفقة المواطنين الذين تدفقوا مع بعضهم إلى ذلك المكان، وكان موجوداً في ذلك المشهد

واحداً اسمه جون أوف لكسنغتون Lexington, وكان رجلاً متعلماً، وحكيماً، ومستقيماً، وقد خاطب الناس قائلاً: «لقد علمنا بأن اليهود لم يترددوا في محاولة اقترافهم لهذا العمل بمثابة شتيمة وسخرية بربنا يسوع المسيح، الذي كان قد صلب»، ثم إنه خاطب اليهود الذين جرى اعتقالهم، والواحد الذي كان الطفل قد دخل إلى بيته عندما كان يلعب، والذي كان بذلك هدفاً لمزيد من الشكوك أكثر من الآخرين، وقال له: «أيها الرجل الشقي، ألم تعرف بأن موتاً سريعاً هو بانتظارك؟ فجميع ذهب انكلترا لن يكون كافياً لانقاذك، والحفاظ عليك، والحيلولة دون منيتك، وإنني على كل حال سوف أخبرك —مع أنك لاتستحق— كيف يمكنك الحفاظ على حياتك، والحيلولة دون تقطيع أوصالك، فهذان أنا سوف أكفلهما لك، إذا ما قمت من دون خوف أو تردد، فكشفت لي، من دون أي زيف، جميع الذي وقع في هذه المناسبة»، واعتقد اليهودي الذي كان اسمه كوبين Copin, أنه وجد وسائل للنجاة فقال: «يامولاي جون إذا كانت أعمالك سوف تسدد لإفاداتي، سوف أكشف لك أشياء رائعة»، ثم جرى حثه وتشجيعه بفصاحة جون لأن يفعل ذلك، ولذلك تابع يقول: «إن الذي يقوله المسيحيون هو صحيح، ففي كل عام تقريباً يقوم اليهود بصلب طفل بمثابة إهانة لاسم المسيح،ولكن ذلك لايجري اكتشافه في كل عام، لأنهم ينفذون هذه الإجراءات بشكل سري، وبعيداً عن الأماكن، أما بالنسبة لهذا الطفل هوغ، فقد قام يهودنا بصلبه من دون رحمة، وبعدما مات، وعندما رغبوا في اخفاء جثته، قدروا بأن جسد طفل هو بلافائدة لاستخراج العرافة من خلاله (لأنهم لهذه الغاية قد جوفوه)، وهم لم يستطيعوا اخفاءه تحت الأرض كما رغبوا أن يفعلوا، لأنهم وجدوا في الصباح، عندما اعتقدوا بأنه أخفي عن الأنظار، أن الأرض قد لفظته وأخرجته، وظهر الجسد غير مدفون فوق الأرض، الواقعة التي أصابت اليهود بالرعب، وأخيراً ألقي في بئر، لكن حتى هناك لم يكن من الممكن

حجبه عن الأبصار، لأن أم الطفل، بحثت في هذه الجرائم، فاكتشفت جثة الطفل وأخبرت النواب الملكيين»، وبعدما سمع جون هذه الأسرار، حبس اليهودي في سجن شديد الحراسة.

وعندما وصلت أخبار هذه الواقعة إلى علم الكهنة النظاميين للكنيسة الكاتدرائية في لنكولن، طلبوا جسد الطفل، وقد أعطي إليهم، وبعدما جرى عرضه كمشهد أمام عدد كبير من الناس، جرى دفنه بتكريم في كنيسة لنكولن، وكأنه جسد شهيد ثمين، ويتوجب أن يكون معلوماً بأن اليهود قد احتفظوا بالطفل لمدة عشرة أيام، يغذونه طوال ذلك الوقت على الحليب، حتى يتمكن أثناء حياته من تحمل الكثير من أنواع العذاب.

ولدى عودة الملك من شمالي انكلترا، جرى اخباره بهذه الواقعة، فوجّه اللوم إلى جون لأنه قام بتقديم الوعد إلى مثل ذلك المخلوق الشرير بالحفاظ على حياته وأطرافه، حيث لم يمتلك الحق في أن يفعل ذلك، لأن كافراً وقاتلاً مثله يستحق الموت مرات ومرات، وعندما رأى الرجل المجرم أنه لامندوحة أمامه من العقوبة، وأن العقوبة محيقة به، عند ذلك قال: «موتي بات وشيكاً، ولايمكن لوعد جون أن ينقذني من الهلاك، وسوف أخبركم الآن بالصدق كله، فلقد وافق تقريباً جميع يهود انكلترا على ذبح هذا الطفل، الذي هم (اليهود) متهمون به، فقد جرى اختيار اليهود تقريباً من كل مدينة في انكلترا يسكن بها من طائفة اليهود، واستدعيوا ليكونوا حاضرين أثناء التضحية به، وتقديمه قرباناً في يوم عيد الحصاد»، وبعدما فرغ من التفوه بهذه الكلمات وكلمات تجديف أخرى، تم ربطه إلى ذيل حصان، وسحب إلى المشانق، حيث ترك جسده ونفسه إلى الأرواح الشريرة للهواء، أما بقية اليهود الذين كانوا شركاء في هذه الجريمة، وكان عددهم واحد وتسعين شخصاً، فقد حملوا إلى لندن في عربات، وألقي بهم في سجن محروس بدقة وشدة، ولم

ينالوا أبداً الشفقة من أي مسيحي، كما أنهم لم يثيروا دموع الرحمة بين المرابين، المنافسين لهم.

كيف جرى جرّ ثمانية عشر يهودياً إلى المشانق وشنقوا

وجرى بعد ذلك تحقيق من قبل رجال العدالة الملكيين، وبناء عليه تمّ الاكتشاف وتقرر أن يهود انكلترا، قد وافقوا جميعاً على صلب وقتل طفل بريء، بعدما جلدوه لعدة أيام، هذا وبالنسبة لهذا العدوان المجرم، وبناء على شكوى أم الطفل المتقدم الذكر، وتقديمها التماس إلى الملك حول جريمة القتل المذكورة، قام الرب، إله الانتقام فأنزل بهم عقوبات تتوافق مع الذي يستحقونه، لأنه في يوم عيد القديس كليمنت، تم جر ثمانية عشر من أغنى يهود مدينة لنكولن وأعلاهم مكانة، إلى المشانق الجديدة التي أقيمت خصيصاً لهذه الغاية، وجرى شنقهم، ومنحوا إلى الرياح، وأبقي أكثر من ثمانين آخرين أيضاً في سجن مضيق عليهم، وتحت حراسة شديدة في برج لندن، بانتظار مصير مشابه ومماثل.

وصول المعلم روستاند إلى إنكلترا بمهمة من البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، أرسل البابا الاسكندر معاون شمامسة، المحامي المعلم روستاند Rustand, وكان غسكوني المولد، أرسله إلى انكلترا، معطياً إليه السلطات، وأرسل أيضاً رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف هيرفورد، لجباية العشور من انكلترا، وسكوتلندا، وايرلندا، لصالحه (البابا) ولاستخداماته، أو لصالح الملك واستخداماته من دون تمييز، وقضى بأوامره «**بعدم التقيد بأية رسالة أو غفران أو إعفاء تقدم منه وإرساله، في أي شكل من الأشكال جرت صياغته وتوجيهه، ومهما كان السبب الذي من أجله تمّ الحصول عليه، أو أي عائق يمكن أن يفهم حول ذلك**»، ومنح البابا إلى الفئة نفسها سلطة تحليل ملك انكلترا من أي تعهد قطعه على نفسه من أجل الحملة الصليبية والذهاب إلى

القـدس، من أجل أن يتمكن من القيـام بحملة إلى أبوليـا، لشن الحرب ضـد مانفـرد، ابن الامبراطور الراحل فـردريك، الذي كـان عدواً قـوياً لكنيسة رومـا، وفي الحقيقة كان البـابا قد تسلم وعـداً مقروناً بيمين من ملك انكلترا، بأنه سـوف يفعل ذلك، وجـاء هذا من خـلال أسقف بولون، الذي كان قد أرسل من قبل قداسته خصيصاً لهذه الغاية، وأيضاً لتولية ادموند مملكة صقلية، حسبما تقدم الذكر أعلاه.

البارلمان الذي عقد إثر مهمة روستاند

في عيد القديس ادوارد في هذا العام، اجتمع تقريباً جميع نبلاء انكلترا في ويستمنستر، وظهر الملك بينهم، وخاطب أخـاه أولاً، ملتمساً بحرارة تقديم مساعدة مالية إليـه، وكان البابا قد أرسل أيضاً رسائل التماس إلى الايرل المذكـور رجاه فيهـا تقـديم المساعـدة إلى أخيـه بقرض مقـداره أربعين ألف [مـارك]، وقـد أبقى حقيقـة أنه قـرض سرية، من أجل أنه بقيـام المذكور بتقـديم أعطيتـه، سوف يضرب مثـلاً إلى الآخـرين، لكن الايرل لم يصغ لا إلى التماسات الملك أو البابا، وبشكل خاص بسبب أن الملك كان مسحـوراً بالإثارات الخفية من مستشـاريه الذين هم من عبر الألب، وأنه تولى القيـام بالحملة إلى أبوليـا من دون طلب نصيحتـه، أو مـوافقته (الايرل) أو مـوافقة ونصيحـة البارونات، ولدى عـرض طلب المساعدة أمام الآخـرين، أجابوا، أنهم لم يجمعوا كلهم في ذلك الوقت بما يتماشى مع بنود الصـك العظيم، وأنهم بذلك من دون نظرائهـم، الذين كـانوا غائبين، لايمكنهم اعطاء جـواب، أو منح مساعـدة»، ولذلك لجأ الملك إلى حججه الماكرة المعتادة، ليرغـم النبلاء على الموافقة على رغباته، وأخر الأعمال التي من أجلها انعقد البـارلمان لعدة أيام، وبذلك تأخرت القضايا التي كـانت قيد المناقشة بحجج مختلفة زائفـة لمدة شهر، وأخيراً بعدمـا أفرغـوا محافظ نقودهم في مدينة لنـدن، حرضهم، —وبالحري لم يستـدعهم— للاجتماع وعقـد مـؤتمر في مكـان آخـر، هذا وقـام الايرل

رتشارد، وكـان رجلاً حـذراً وحكيماً، فوجّـه الملامة بحـدة —وهو محق بذلك— إلى أسقف هيرفـورد وصـاحبـه روبـرت ويلران بفتنهم الملك وتسبيب الخبل إليـه على هذه الصـورة، ممـا سيـؤدي إلى الدمـار الكامل للمملكة، وبذلك عـاد جميع النبـلاء إلى مــواطنهم وهم في حـالة ضيق وارباك، ومن دون أن يفعلوا شيئاً، وينبغـي أيضـاً أن يكون معلومـاً أنه عندمـا عـاد الملك من غسكوني، كـان متـورطاً بديون وصلت إلى مبلغ ثلاثمائة ألف وخمسين ألف من الماركات، وهو على كل حال، على الرغم من هذا المبلغ لم يتـوقف عن الاصغـاء إلى النصائح السيئة، وعن تبـديد الأمـوال يومياً بين الأجـانب، وهي الأمـوال التي كانت لديه، وكـذلك كل الذي اعتقـد أنه يمكنه استخـراجـه من انكلترا، التي عـدها بئراً لاينضب، فهـو قـد أعطى إلى الأسقف المنتخب لطليطلة دخـلاً ومبلغـاً كبيراً من المال، وكــذلك فعل بالنسبــة لأسقف بولـون، وأيضـاً إلى روستاند، وذلك إلى جانب بعض الهدايا الثمينة جداً، وأعطاه أيضاً وقفاً غنياً في كنيسة يورك.

كيف أمر المعلم روستاند بالدعوة إلى حرب صليبية ضد مانفرد

وفي هذا الوقت أيضاً، أصدر المعلم روستـاند أوامر إلى جميع المؤيدين الغيورين للكنيسة المقدسة، للتبشير بصورة علنية من أجل حملة صليبية، أولاً في لندن، وبعد ذلك في أماكن أخرى، وتوجيه ذلك ضد مانفرد بن فـردريك، الامبراطور الأخير الراحل لـلامبراطورية الرومـانيـة، بحكم كـونه عـدو الرب، وعـدو كنيسة رومـا، وعـدو ملك انكلترا، وحليفـاً للمسلمين، ومحرضاً لهم على اقتراف الشرور، وحاميـاً، وأيضاً لأنه محتل غير شرعي لمملكة واحد آخر، أمـا الذين سوف يلتحقون بتلك الحملة، فقـد وعـدوا بالحصول على غفـران كـامل لذنوبهم، وكأنهم قـد ذهبـوا للحج إلى الأرض المقـدسـة، وعندمـا سمع المسيحيـون الحقيقيـون بهذا الإعلان، اعترتهم الدهشـة لأنهم سلف ووعدوا بالشيء نفسـه من أجل

سفك دماء المسلمين، والآن وعدوا بالشيء ذاته من أجل سفك دماء المسيحيين، وقد أثارت كلمات المبشرين الضحك والسخرية، وفي أحد الأماكن عندما كان المعلم روستاند يقوم بالوعظ، أضاف في نهاية قداسه يقول: «كونوا أبناء الطاعة، واعهدوا بأنفسكم إلى كذا وكذا من التجار، من أجل كذا من مبالغ المال»، وحدث هذا بين رهبان كانوا مجتمعين في هيئتهم الرهبانية حيث لم يكونوا قد سمعوا من قبل بمثل هذا الإجراء، ولاانزعجوا بمثله.

حول الهدنة التي عملت في الأرض المقدسة

ووجد سكان الأرض المقدسة أن البابا مهتم قليلاً، بتحرير الأرض المقدسة، التي كرسها الرب نفسه بحضوره، وأخيراً بدمه، ولذلك عقدوا هدنة مع سلطان مصر، الذي كان في حالة حرب مع سلطان دمشق، وأطالوا تلك الهدنة فجعلوها لمدة عشر سنوات.

كيف تعرض رئيس الأساقفة المنتخب ليورك للمضايقة من قبل الملك

بات الآن المعلم سيول عميد يورك، الذي جرى مؤخراً انتخابه بشكل صحيح رئيساً لأساقفة تلك الكنيسة، حزيناً إلى أبعد الحدود، وبشكل لايقبل المواساة، وذلك لأنه رأى مقتنيات تلك الكنيسة تنهب، وتدمر، ويجرى تبديدها، وعلاوة على ذلك قام الملك بسبب أن العميد المذكور لم يلد من خلال زواج شرعي، بالسعي، اعتماداً على بعض الحجج التافهة، إلى إعاقة ترشيحه وانتخابه إلى رئاسة الأساقفة.

انسحاب جون دي غري من البلاط

وحدث في هذا الوقت أيضاً، أن قام جون دي غري، وكان فارساً صاحب أخلاق حميدة، وعظيم الشجاعة، ومستشاراً أثيراً لدى الملك،

قام بالانسحاب من البلاط، ولعل ذلك كان بسبب أن مشاعره الداخلية وضميره قد انزعج تجاه مهام البلاط، والقلق الذي كان خاضعاً إليه، وأيضاً بسبب تقدمه بالسن، الذي جعل شعر رأسه أبيض اللون، ويبدو —كما هو معتقد— قد أخذ حذره ضد حوادث المستقبل، لأنه كان خائفاً من أن مستشاري الملك لابد من أن يكونوا في يوم من الأيام عرضة للوم الشديد بسبب أخطائهم المتوالية.

رسالة البابا التي حصل عليها أسقف هيرفورد

بدأ الآن أسقف هيرفورد، بالتعاون مع حليفه روستاند، بالتنفيس عن غضبه بإنزاله على أساقفة انكلترا، خاصة على الطوائف الرهبانية، وكان مدعوماً بقوة، واقعياً بالسلطات الرسولية، وبالرسالة التالية: «من **الاسكندر، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أسقف هيرفورد، إلخ:** بما أننا نعلم بأنك بحاجة كبيرة لتحمل نفقات كبيرة من أجل فائدة ومنفعة رئيس رهبان، ورهبان دير القديس ....ودير القديس.... الأمر الذي من أجله جئت إلى الكرسي الرسولي، وفي سبيل أن لاتكون شؤونهم عرضة للاهمال، بسبب الحاجة إلى الوسائل التي تكفل الانفاق عليهم، نقوم نحن بموجب فضيلة هذه العروض، بمنحك ياأخانا، سلطة كاملة، بابرام عقود دين من أجل هذه الغاية، تصل إلى مبلغ خمسمائة، أو ستمائة، أو سبعمائة، أو أكثر، من الماركات الاستيرلينية، باسم رئيس الرهبان المتقدم ذكره، والرهبان والدير، وأن ترهنهم: رئيس الرهبان، والرهبان،وخلفائهم، والمقتنيات العائدة للدير المذكور، للمقرضين، وبالتخلي عن مبدأ الإعلان لمدة يومين الذي تقرر في المجمع العام، وعن منفعة إعادة التأسيس كاملة، وعن الرسائل الرسولية، وعن الغفرانات التي تمّ الحصول عليها، أو سوف يتم، وكذلك عن استدعاء القضاة، وعن جميع الرسائل الرسولية مهما كانت محتوياتها ومقاصدها، التي قد يحدث ويتم الحصول عليها منذ الآن فصاعداً حول هذه القضية باسم

المقـرضين، وهكذا سوف يكونوا هم وخلفـائهم ملزمين بدفع هذا المال إلى المقـرضين، وإذا لم يلتـزمـوا بدفـع المبلغ نفســه، في المدة المحـددة من قبلك، يتـوجب عليهم تعـويض جميع الخسـائـر والنفقـات، ودفع جميع الفـوائد، وفيما يتعلق بذلك تقضي ارادتنا بأن عليك تصـديق يمينهم، أو يمين أي واحــد منهم، من الـذين أقــرضــوا المال، من دون طلب أي برهان، وأيضاً بالنسبـة للمقرضين المذكورين بناء على حجة أي مـرسوم سواء أكـان لاهوتياً أو مدنياً، أو أي امتيـاز، أو اعفاء، ينبغي التعبير عنه تعبيراً كـاملاً في رسـائلنا، وفي سبيل أن لايكونوا هم ولاخلفـائهم بعـد الآن قـادرين على الدفـاع عن أنفسهم بأية طريقـة من الطرق، لن تكون هناك حاجة لتقديم برهان بـأن ذلك المال قد وضع قيد استخدام رئيس الرهبـان المذكـور، والرهبـان، والديـر. صـدر، إلخ»، وفي الوقت نفسـه طلب البابا منحـه قرضاً من الايرل رتشـارد، يصل إلى مبلغ خمسة آلاف مـــارك، لدفع قضيـة ادمـــوند ابن أخي الايـرل ورفع شأنها، وعلى هذا الطلب أجـاب الايرل قـــائـلاً: «أنا لن أقـرض أي مـــال إلى رئيس، أنا لايمكنني أن أرغمـه على الدفع لي»، وصـدرت هذه الإجـراءات المقيتـة وغيرها، والتي هـي مهينة لنا، والمؤسف أن نقــول إنها نبعـت من النبع الكبريتي السام للكنيسة الرومانية.

حول المجمع الذي عقد في لندن من قبل أساقفة إنكلترا

وقام في هذه الآونة روستاند، بموجب تخويـل البابا وسلطاته، بتوجيه الدعـوة إلى جميع أساقفة انكلترا لـلاجتماع في لندن، خلال أسبوعـي عيد القـديس ميكائيل، من أجـل سماع رسـالة من قـداستـه، ولمناقشـة بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالملك، وبالبـابا أيضاً، وأن يقوموا بحكم كونهم أبناء الطاعـة، باعطاء جـواب عقـلاني ومفيـد على المطالب التي عملت، وأيضـاً على المطالب التـي سـوف تعمل، وعندمـا اجتمعـــوا في الزمـان والمكان المحـددين، جـرى أولاً قـــراءة وشرح الذي تعلق بصـلاحيـات

روستاند وسلطاته، ثم قام ذلك الشخص بإلقاء خطاب فيهم، حيث طلب مبالغ كبيرة من المال منهم جميعاً، أن نقوم بكتابة أذاها كلها وظلمها، سوف نجرح بعمق قلب الإنسان الأكثر صبراً، ولو أن هذا المال قد جرت جبايته من كنيسة انكلترا، لتحولت المملكة في الحقيقة كلها، ولنزلت إلى أدنى درجات العبودية، ولتسبب ذلك بفقر لايمكن الخلاص منه، فلقد كان عبئاً لايمكن حمله هو الذي فرض على الآخرين حمله، ومع ذلك كان على غير استعداد لتحريك اصبع واحد لمساعدتهم، ومن دون القيام بذكر جميع القضايا، لقد فرض على دير القديس ألبان لوحده، وجوب دفع ستمائة مارك إلى البابا، بالاضافة إلى فائدة وإلى بنود قاسية وشروط، تولى فرضها هؤلاء التجار المرابون، الذين إليهم قد جرى منح سلطات ظلم الكنائس كما يرغبون، مع إمكانية ارغام الدير المذكور، وعلاوة على ذلك سعى روستاند، وأسقف هيرفورد والمتعاونين معهما، إلى اختصار المدة الممنوحة للدفع تحت طائلة عقوبة التعليق من شراكة المؤمنين والحرمان الكنسي، وكان الموعد الذي جرى تحديده، من غير الممكن لأي من المفروض عليهم الالتزام به، وعمل هذا في سبيل إرغام هؤلاء الأساقفة على استدانة المال من أولئك التجار، حتى يكونوا خاضعين لشروط فوائدهم الربوية، وهي شروط بدت لكل واحد منهم، لابل لهم جميعاً، ليست فقط صعبة، لابل مستحيلة، وبعد مداولات دقيقة استمرت لعدة أيام، تحدث فولك أسقف لندن بقلب مليء بالأسى، وخاطب المجتمعين قائلاً: «قبل أن أعطي موافقتي على أن تكون الكنيسة خاضعة لمثل هذه الحالة من الأذى والعبودية، سوف أقطع رأسي، وأحرر نفسي من هذا الظلم الذي لايطاق»، ولدى سماع هذا الكلام الشجاع والحازم صرخ وولتر أسقف ووركستر بصوت مرتفع قائلاً: «أما بالنسبة لي، فقبل أن تخضع الكنيسة المقدسة لهذا الاستخراج المدمر، سوف أحكم على نفسي بالشنق»، وتشجع الأساقفة بهذه الإعلانات السليمة، ووعد الجميع بثبات بأن يسيروا خطوة خطوة، على

طريق القديس توماس الشهيد، الذي سمح بضرب رأسه في سبيل حرية الكنيسة، لكنهم كانوا مطوقين من كل جانب، وعرضة للضغوط، فالملك كان ضدهم، وكان البابا بشرهه إلى المال عدوهم، ولم يشعر النبلاء بالشفقة تجاه أمهم الكنيسة، وقام روستاند وكان متعلماً وقادراً على إلحاق الأذى بهم بإثارة أعدائهم ودفعهم نحو الالتزام بهذه الإجراءات، أما رئيس أساقفة كانتربري، الذي كان من المفترض الداعم للكنيسة المترنحة، وربان مركب بطرس، الذي كان تحت رحمة الأمواج العاتية، فكان متورطاً بأعمال دنيوية في مناطق نائية فيما وراء البحر، وأدار رعيته بعناية أقل مما ينبغي، وكان رئيس أساقفة يورك رجلاً عميق التفكير، وحكيماً بآرائه، لكن كان قد أذعن لمنيته، أما الأسقف المنتخب لوينكستر فكان موضعاً للريبة، وبالتالي جرى تجنبه، لأنه كان بواتياً، وأخاً للملك، الذي يتولى قمعهم، وأيضاً لأنه لم يكن أسقفاً، وفي الوقت نفسه لم يكن أسقف هيرفورد موضع ريبة فقط، بل كان يعدّ بمثابة عدو معلن، وبناء عليه قاموا بالتوجه بالدعاء إلى الروح القدس لمنحهم المواساة والسلوى، وقرروا الترافع إلى البابا —الذي يتوجب أن يكون كهف اللاجئين والحامي لكل واحد مظلوم— حول قضية الاستخراج التي لاتحتمل وكانت غير اعتيادية، وأعدوا أنفسهم للوقوف ضد استبداد، واجحاف، وتهديدات المعلم روستاند، وبناء عليه عُمل إعلان على الفور، قام بتعميمه المنادي في لندن، وذلك بموجب سلطة أسقف تلك المدينة، أنه يتوجب أن لايقوم أي إنسان بتنفيذ إجراءات المعلم روستاند، أو إطاعة ماورد في رسائله وذلك لمدة عدة أيام، وعندما وصل هذا الإجراء إلى علم روستاند، عمل شكاوي كبيرة إلى الملك، وذكر له بأن أسقف لندن قد أثار الأساقفة الآخرين وشجعهم على الوقوف ضد إرادة البابا، وضده هو أي الملك.

وغضب الملك غضباً شديداً، فكدس الملامات فوق أسقف لندن،

وأعلن أنه لاهو ولاأي واحد من أسرته قد أحب الملك أبدا مع أنه ملكهم، وأنه سوف يسعى، بقدر مايمتلك من قوة، لجعل البابا يتولى ردعه ومعاقبته، وعلى هذا رد الأسقف قائلا: «ليقم البابا والملك، اللذان أقوى مني، بانتزاع أسقفيتي، الأمر الذي لايمكنهما فعله بعدل، ودعوهما يأخذان هذه القلنسوة، فالخوذة سوف تبقى»، وحدث في هذا الوقت نفسه، أن جرى التهامس من أذن إلى أخرى لكثيرين، بتقرير غير معقول (سوف يكون تناقضاً وشراً تصديقه)، وأفاد هذا التقرير وتحدث عن خداع معين، وأعمال تزييف مهينة جرت بسوء في استخدام الختم العظيم للبابا، وأنه وضع على جداول بيضاء، يمكن لكل من يرغب أن يكتب عليهم فيما بعد، هذا وقال الناس أحدهم للآخر: «لاسمح المسيح، من غير المعقول أن يقوم البابا، الذي هو بلاشك رجل هو الأكثر قداسة، بالموافقة على هذا الاثم العظيم، لأن من الواضح والجلي أنه جرت ترقيته إلى منصبه الرفيع بوساطة نفوذ لاهوتي، وعلاوة على ذلك لقد فعل مالا نذكر أي بابا أقدم على فعله، لأنه طالب بأن تقدم صلوات الكنيسة إليه، ثم كيف يمكن التصديق بعد هذا أنه يمكن أن يفعل أشياء أسوأ من أعمال سلفه؟ لاسمح الرب بذلك»، وهكذا سعى الناس وراء الحصول على مايواسي جهلهم واضطراباتهم، فبوساطة عباءة هذا النقد المنطقي عزوا هذه الأعمال الحمقاء ونسبوها إلى مزيفين».

كيف سعى أسقف هيرفورد والمتعاونين معه إلى إثارة شقاق ديني بين الأساقفة

وفي الوقت نفسه سعى أسقف هيرفورد، وروستاند مع الآخرين من حلفائهم من ماوراء الألب، إلى إثارة شقاق ديني وتمزق بين أساقفة انكلترا، مستخدمين جميع الوسائل التي كانت تحت تصرفهم، ذلك أنهم خافوا من أنهم إذا ما وقفوا إلى جانب بعضهم بعضاً باخلاص، قد يتمكنوا من توجيه البابا، وجعله يسير في طريق الصدق، وأنهم بذلك

سوف يعاقون في مشاريع نهمهم لجمع المال، وبذلك تصرفوا وعملوا وفقاً لقول الانجيل: «كل مملكة منقسمة على نفسها سوف تكون مهجورة».

عودة إدوارد من غسكوني

وفي تلك الآونة نفسها، أي عشية عيد القديس أندرو، عاد ادوارد من غسكوني، واستقبل في اليوم نفسه من قبل عدد كبير جداً من نبلاء انكلترا، ومن قبل سكان لندن، الذين تولوا تزيين مدينتهم بشكل ثري، من أجل المناسبة، وجرت مرافقته من قبلهم إلى قصر ويستمنستر، مع أبهة كبيرة، وكثير من الهتافات.

حول ترتيبات السلام فيما بين أسقف درم وجون بالأويل

وعمل في هذا العام أيضاً، سلام فيما بين وولتر أسقف درم، والفارس جون بالأويل Baliol, حول عدة قضايا خلافية قامت بينهما، ومثل هذا أعيد تأسيس السلام فيما بين رئيس رهبان دير التاينماوث، وجون المذكور، وكان جون هذا نفسه شرهاً، وجشعاً، وعنيداً، أبعد مما كان يليق به، ومما هو نافع لروحه، وقد قام لمدة طويلة بمضايقة كنيسة التاينماوث وإلحاق كثير من الأذى بها، ومثل ذلك بكنيسة درم، كما أنه قام بحجج مختلفة مشكوك بها بازعاج كنائس أخرى وإلحاق الأذى بهن، وفعل الشيء نفسه بفرسان آخرين ولاهوتيين، وبجيرانه، وبذلك انطبق عليه القول:

كل قوة

أو

كل جبروت

يغار من شريكه

وبطريقة مماثلة وبسلوك مشابه، قام هذا الرجل الشره، الذي لم تكن ممتلكاته كافية لاقناعه واشباعه بالاستيلاء على ممتلكات الآخرين، وعلم الملك بأن جون المذكور يمتلك كميات وافرة من المال، فاتخذ إجراءات قاسية ضده، وكما ذكرنا من قبل، لقد أمل في انقاص أكوام ماله عن طريق رغبته في إعادة تأسيس السلام فيما بينهم، وكان روبرت دي روس متورطاً أيضاً بإجراءات مماثلة، ولقد لحقه لذلك كثيراً من الأذى، وأصابه الفقر.

إصلاح جامعة باريس

وفي هذه الآونة أيضاً، جرى إعادة تأسيس جامعة الكهنة في باريس وإصلاحها، وكانت عرضة للخطر، بسبب تعليق المحاضرين فيها، وبسبب الخلافات، وتفرق كثير من الباحثين فيها، نتيجة الاضطراب الذي تسبب به الرهبان الدومينيكان، الذين رغبوا بتغيير العرف القديم المؤسس للجامعة، غير أن وضع هؤلاء الرهبان، الذين كانوا مؤيدين مدعومين بالصدقات وأعمال الإحسان، قد تغير نحو الأسوأ وفي الوقت نفسه إنه بسبب إهانات وملامات الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، توفر كثير من الفقر وازداد، وشُعر به من قبل رهبان دير السسترشيان الذين كانوا يدرسون في باريس، وهو الدير الذي سلف تأسيسه من قبل رئيس رهبان كليرفو، الذي كان انكليزياً من حيث المولد، واسمه ليكسنغتون Lexington, وكان سلوكهم المشرف والمستقيم قد أعطى السررو للرب، وإلى الأساقفة، وإلى الناس، فهم لم يتجولوا مثل عصابات الرعاع في المدن والبلدات، كما لم يكن المحيط حاجزهم وحدهم، بل إنهم مكثوا هادئين محبوسين داخل جدران بيتهم، يطيعون رئيسهم، وفقاً لأحكام القديس بندكت، التي لاشك ستنال ثناء كل واحد يختار أن يدرسها لأن القديس ميّز في مطلعها بين مختلف أنواع الرهبان، ووجه النقد إلى Sarabaitas و Gyrivagos,

وقام هؤلاء الرهبان أنفسهم —على كل حال— بالالتزام بمتابعة ممارسة أعمال التبشير، وبذلك أضعفوا سلطة المبشرين العاديين، ونالوا ثناء كثيرين وقبولهم، وذلك في الوقت الذي جعل كثير من الآخرين أنفسهم أهدافاً للنقد، لأن كثيراً منهم أخذوا بالوقاحة في جنحهم، لأنهم لم يكونوا مرغمين على الاعتراف بذنوبهم إلى كاهنهم، وهنا كان الأذى: حيث أن بعضهم رفض الاعتراف لكاهنهم الرسمي، لأنه ربما كان سكيراً، أو من أجل أسباب أخرى سرية، ولذلك لجأوا إلى القيام باعترافاتهم تحت مظلة أجنحة المواساة والتعزية، وانتشر هذا الرأي من عندهم إلى الدومينيكان والفرنسيسكان، فأي علاج وفائدة نتجت عن ذلك؟.

موت الكاردينال جايل الإسباني

ومات في هذه الآونة الكاردينال جايل الاسباني، وكان قد وصل إلى سن المائة، وبرهن هذا الرجل المدهش، الذي لم يكن له نظير، عن نفسه في بلاط روما أنه عمود الصدق والعدل، ورفض قبول الهدايا التي تحرف بالعادة الناس وتبعدهم عن الالتزام والعدل، والاستقامة.

حول غضب الإيرل مارشال ضد الملك

وأثناء المؤتمر الذي تقدم ذكره أعلاه، والذي مدّد من دون فائدة لمدة عدة أيام، تسبب روستاند، في سبيل أن يجعل الملك خاضعاً أكثر إلى إرادته، بنشر تقارير لاأساس لها، أفادت بأن جيش مانفرد قد تفرق، وأن مانفرد نفسه قد دس إليه السم، وأنه بات على عتبات الموت، وأنه نتيجة لذلك قد تواضع، ولأنه عرف أوضاعه التعيسة، بادر مسرعاً وبإلحاح إلى التماس السلام من البابا، وبناء عليه امتلأ بلاط روما كله ببهجة عظيمة وبسرور عارم، وبات أفراد هذا البلاط واثقين بأنهم سوف يحصلون على مارغبوا به بالنسبة لقضية أبوليا، وبسماع هذه

الأخبـار فرح الملك فـرحاً كثيراً، وامتـلأ قلبه بسرور لاأسـاس له، إلى حـد أنه أطلـق على ابنه اسم ملك، وبادر مسرعـاً إلى أقــرب مـذبح، فأقسم عنده بأنـه سـوف يذهب إلى أبوليـا ليتـولى الاستحـواذ عليهـا لصالح ابنه ادموند.

وفي هذا البـارلمان ألقى الايرل مارشـال خطبة لتسـويغ روبرت دي روس والدفاع عنه (وهو الذي كان متهماً بجريمـة جادة، وهي جريمة كانت تهدد حيـاته بالخطر) وجاء ذلـك عندما كدس الملـك أقوال لوم وتوبيخ مهينة على روبرت وعلى الايرل، وأعلن أمام الناس بأن الايرل هو خـائن، ولـدى سماع هذا التـوبيخ غضب الايرل غضبـاً شـديداً، وتوجه بنظرة حادة نحو الملك وأجـابه قائلاً: «أنت تكذب، أنا لم أكن، ولن أكون خـائناً»، وأضاف قـائلاً: «ماالذي يمكنـك فعله بالنسبة لي؟ كيف يمكنـك إلحاق الأذى بي إذا حكمت بالعـــدل»؟ وعلى هذا رد عليـه الملك قـائـلاً: «أنا يمكننـي الاستيـلاء على حبـوبك، وجمعهـا في البيادر ودرسها وبيعهـا، وبذلك سوف أخضعك وأذلك»، وعند ذلك قـال له الايرل: «إنني سـوف أقطع رؤوس الذين سيـدرسـون حبـوبي وأرسلهـم إليك»، وعند هذا بات مخشياً بأن المسـائل سوف تتطور نحو الأســوأ بين الايرل والملك، لذلـك تدخل أصــدقـاء الطرفين بينهما، وفصلوهما، ومع أن خطاباتهما التهـديـدية قـد قـوطعت، هما لم يسكنا، وكان الغضب والكراهية هما نتيجـة هذا الشجار، وفي هذا المؤتمر الذي كــان بـلاثمار، والذي لم يعمل بـه شيء من أجـل المسألة الـرئيسيــة المعروضـة، قام البارونات في اليوم الأخير لجلسـاته فأجابوا: «بأنهم لن يستمـــروا كما فعلوا حتى الآن في افتقـــار أنفسهـم من أجل منفعـــة الآخرين، ورفضـوا مناقشة أية أمـور صعبة أو سرية عـائدة للمملكة، لأنهم قالوا بأنهم رأوا بأن كل شيء كان مليئاً بالريبة، وبالغدر الثعلبي، وكـانت مــدينة لندن مليئة حتى آخـر الحدود، ليس فقـط بالبـواتيين،

والرومـــان والبروفـــانسيين، بل والاسبـــان، الذين ألحقـــوا أذى كبيراً بالانكليـز، وخـاصة بسكان مـدينة لندن، حيث كـانوا يقترفـون الزنا، والفسوق، ويهينون الناس، ويجرحـونهم، لابل حتى كانوا يقتلونهم، في حين لم يقم الملك بردعهـم، لابل بالحري قـام بالدفـاع عنهم، ولذلك فإن المؤتمر —إذا جـاز أن يطلق عليـه اسـم مـؤتمر— ارفض بحـــزن وأسى.

وفي يوم عيـد القديسـة لوسيـا، غادر لوكـاس Lucas رئيس أسـاقفـة دبلن طريق الجسـد، وكان هذا الـرجل قد جـرت ترقيتـه إلى رئـاسة الأسـاقفة بوسـائل الإرغام من قبل هيـوبرت دي بورغ، الذي كان مسؤولاً عن العدالة من قبل، والذي كان قسيسه هو لوكاس هذا، ولكن الرب أراد أن يعـــذبه، وحثـه على التـوبة، فتفقـــده بأن أنزل به العمى، وظل يعاني من هذه المصيبة بتعاسة لمدة سنوات عدة.

كيف التحق بمانفرد كثير من الأعوان لأنه كان منتصراً

في الوقت الذي كـانت فيه هذه الأشيـاء تعبر في انكلترا، دار دولاب الحظ في مناطق ماوراء الألب، وأحدث تغييرات هائلة، لأن الذين كانوا قبل وقت قصير مضى مسرورين، جـرى قـذفهم في متـاهـة الفـوضى والاضطراب، لأنه بعـد تفرق جيـوش البابا، كـان الأبوليون قـد علموا بأن البـابا كان قـد أعطى بلادهم من دون موافقتهم إلى رجل انكليـزي غير معـروف، وأجنبي بـالنسبـة إليهم، ولذلك غضبـــوا غضبـاً عظيماً، وظلوا يشعرون بمـزيد من الانزعاج لأن البابا كان قـد حول الصليبيين عن غرضهم الأساسي، ورغب بإرسـالهم ضدهم (أي الأبوليين)، وكأنه مـــرســـلاً بهم ضـد المسلمين، وذلـك بهدف إبادتهم، ولذلك خضعـــوا لمانفـرد، ووقفوا إلى جـانبه، وفعل ذلك حتى الذين كـانوا قد وقفـوا إلى جانب البابا، وقد شكلوا الآن جيشاً كبيراً ضده.

الاجتماع الثاني للأساقفة أمام روستاند

وفي حوالي الوقت نفسه، اجتمعت كتلة أساقفة انكلترا كلها ثانية بحضور المعلم روستاند في لندن، وبعد مناقشات متنوعة يوماً بعد يوم، تقرر بالنظر لغياب رئيس أساقفة كانتربري الذي كان في القارة، ولشغور كنيسة يورك، التي كانت هي الثانية في المرتبة في المملكة، ولغياب بعض الأساقفة، تأجيل اعطاء جواب حاسم للمطالب التي عملها البابا من خلال المعلم روستاند، حتى عيد القديسة هيلاري، فوقتها يمكن أن يجتمعوا كلهم لإعطاء جواب حاسم ومحدد، وهكذا فإنه بعد كثير من الخسائر، والمتاعب، والنفقات، افترقوا جميعاً وعادوا إلى مواطنهم، دون أن يعرفوا المتوجب عليهم فعله، لأنه إذا جرى بصورة عادلة أو غير عادلة تعليق أي واحد منهم، أو حرمانه كنسياً من قبل المعلم روستاند، كان هناك الملك مثل أسد كامن رابض، يتطلع إلى من يمكنه افتراسه، فهو وقتها سيقوم بمصادرة كل ممتلكات جميع الفئة التي صدر قرار بحقها والاستيلاء عليها، وسوف يفعل ذلك بعد مهلة مقدارها أربعين يوماً، وكان البابا والملك مثل الراعي والذئب، وكانا متحالفين مع بعضهما في سبيل تدمير الشياه، من ذلك الوقت فصاعداً، ثم إنهم افترقوا وكانوا أشبه برجال عميان يلتمسون طريقهم بوساطة الجدار، وكل واحد منهم همّه سلامته، وذلك حسب عادة الانكليز، ولو أنهم (الأساقفة) قاموا باتفاق جماعي فأرسلوا إلى البلاط الروماني ممثلاً عنهم، أو نائباً لهم، يتحدث من أجلهم جميعاً، لكانوا تمتعوا بسلام سعيد.

مغادرة كل من الأسقف المنتخب لطليطلة وأسقف بولون لإنكلترا

ومع أن الأسقف المنتخب لطليطلة، وأسقف بولون، كانا متأكدين من أن قوة البابا قد ضعفت وتحطمت، وأن الملك سوف يسقط في حالة من

الفوضى الكاملة، والدمار بسبب خسائره، مع هذا كله لم يكشفا له حقائق القضية، بل ما أن أصبحا غنيين من خلال هداياه الثمينة، حتى قاما بالمغادرة واحداً بعد الآخر، وعادا إلى وطنيهما بصورة سرية، ومثل ذلك فعل جميع الذين أثاروه وأوهموه بوساطة وعود زائفة، وذلك باستثناء المعلم روستاند، الذي كان محتفظاً به من قبل الملك من خلال سذاجته، ولكن مع ذلك عندما أخيراً تمت البرهنة للملك على أن خداع البابا وعاره كانا أمراً حقيقياً، لم يشعر بالأسى إلى أبعد الحدود ولم يحزن، لأنه لم يعرف كيف يحزن، ولم يعرف كيف يخجل، ولو عرف ذلك لشعر بعمق المرارة في قلبه، ذلك أنه لو امتلك أي قلب، لقام بعدما أثير إلى حد عظيم بالأضرار والخسائر التي لحقت به، وأصر على الانتقام المناسب، لكن لفسولته وأوهامه، استمر بعد جميع الخسائر التي عانى منها والخداع، ملتزماً بالاستماع إلى نصائح الأجانب، وأعداء المملكة، ولم يتنازل بالاستماع إلى النصائح المقنعة والصحيحة لرعاياه الطبيعيين، ومن الممكن معرفة هذه الحقيقة من الكلام المتناقض والمهين التي ألقاه روستاند عند نهاية المؤتمر المتقدم الذكر، وكان ذلك بحضور الجميع، وجاء رداً على واحد من الذين اشتكوا من الغرامات غير العادلة للبابا، حيث قال: «لولا احترامي للأساقفة الموجودين هنا، لما بقيتم من دون عقوبة، طالما يوجد شعر على رؤوسكم»، ويستدل من هذا الكلام الطائش والوقح، ويمكن الفهم بأنه أظهر مظاهر الوقاحة لثقته بحماية الملك، وجواب مماثل جرى تقديمه من قبله إلى المعلم ليونارد Leonard الذي كان المتحدث باسم الأساقفة عندما سأله: «هل رقيت من قبل الآخرين لتتكلم كما فعلت؟ أم أنك تتكلم على مسؤوليتك الخاصة؟»، ثم أمر بتدوين خطابه كتابة، وكأنه أراد بذلك أن يذكره إلى الحبر الأعظم، وتجاه هذا أصبح ليونارد خائفاً كثيراً، مع أنه لم يتكلم شيئاً يتناقض مع المنطق والحق، وخشي من أن يفقد كل الذي امتلكه، خاصة وأن ما من واحد من الآخرين سوف يتكلم لصالحه، وقد قيل بأن المبلغ الذي كان الملك

مـدان به إلى البـابا قد وصل إلى مـاتتي ألف باوند، وذلك بـالاضافـة إلى خمسين ألف باوند استيرليني كان أسقف هيرفورد قـد ألزم أساقفة انكلترا بدفعها، مع أن ذلك كان من دون علمهم.

الخصام بين أسقف باث ورئيس رهبان دير غلاستونبري

ونشب في هذا الوقت نفسه، خـلاف جاد مابين أسقف باث، ورئيس رهبـان غـلاستـونبري Glastonbury, ولذلك انطلق الأسقف ليقـوم بعبـور الألب في سبيل حسم المسـألة في رومـا، ووقف الملك إلى جـانب رئيس الرهبـان، دون أن يقيم تقـديراً للاضطرابات المضـاعفـة للأسقف والنفقـات الكثيرة التي سـوف يتحملهـا، ذلك أنه مسـايرة لبعض الالتماسات توجب عليه أن يرتحل إلى اسبانيا ثم يعود منها، لابل إلى المناطق النائية من تلك المملكة.

قائمة بأسماء الذين ماتوا في هذه الآونة

ومات في هذا العام، أو خلال مدة وجيزة منه وولتردي غري، رئيس أساقفـة يورك، وتوماس ويلشمان Welchman, أسقف القديس داود، وروبرت أسقف لنكـولن، والمعلم وليم وولـف، رئيس شمامسـة لنكولن، ووليم ملـك ألمانيـا وكـونت هولاندا، وعـدد كبير آخـر من المراتب العـاليـة والمنخفضـة، وهم الذين هلكوا بالسيف أو غـرقـاً على تخوم فـلانـدرز وبرابانت، وكـذلك مـات المعلم روبـرت أوف تورتونا Tortona, وكـان رئيس شمامسـة في بلاط رومـا، وهو الذي كـان مشغـولاً هناك بالمحـاضرة باللاهوت، وكـذلك مـات في البـلاط نفسـه جايل الاسبـاني، ووليم حفيد البابا انوسنت، وكـان الأخيران كردنالين، ووارن دي مونتشينسيل Montchensil, وآرنولد دي بوي، وكان واحداً من أعلى المسؤولين عن الغابات في انكلترا، وكان متميزاً لأخلاقه وشجـاعته في الحرب، وجـون الرومـاني، وكان كـاهناً نظامياً في يورك،

ورجلاً عجـوزاً وغنياً، وشرهاً كثيراً ومخاصماً، ومات من بين الأصـدقاء المقــربين للملك وليـم أسقف ســالسبري، الذي كـــان من بين أعمأله الدنيــوية اقتراف عمل أنزل على رأســه لعنات لانهاية لها، ووليم أوف هافـرهول Haverhulle وكـان خـازن الملك، وبطرس تششبـــور Chacepore, الذي أنهى حياته بنهـاية مجيدة، بعدمـا صنع وصية نبيلة، وروبرت باسليف Passeleve, ورتشـارد رئيس طبـاخي الملك، وهو الذي جمع مبـالغ كبيرة من المال، فقـد قيل بأنه كـان يمتلك عند موته خمسـة آلاف مارك أو أكثر، ومـات من حاشيـة الملكة الخاصة روبرت مـوسغروس Muscegros, وكان قهــرمان الملكة، وولتر دي بروديل Brudel وكـــان خـــازنها والمعلم الاسكندر، وكـــان طبيبها، ولقد كانوا ثلاثة رجال يستحقون عظيم الثناء، وكان بين هؤلاء المقدم الرئيس والزعيم هو وولتر دي غـري، رئيس أساقفة يورك، الذي كانت براعته وكان اخـلاصه أمران غير مشكوك بهما من قبل أي إنسان، ويكفي للبرهنة على ذلك ادارته للمملكـة عندمـا كـان الملك في القـارة، ومات في هذا العام أيضاً بعض النبلاء في غسكوني، الذين كانوا يقاتلون هناك من أجل الملك، وكـان من بين هؤلاء جـون الفـرنسي الذي كـان محاسباً ومستشـاراً أثيراً لدى الملك، ومضطهداً لديري القديسـة مريم في يورك وسيلبي Selby, وكان سبب وفاته اصابته بالشلل.

مختصر لأخبار العام

وكان هذا العام خلاله كله مميت جداً لكنيسة روما وللبلاط البابوي، وذلك إذا أخـذت تقوى الناس بعين التقـدير، لأن كل تلك التقوى قـد زالت، وكذلك الاخـلاص الذي شعر به بالعادة الأساقفـة والناس نحو أمنا كنيسة روما مع أبينا وراعينا الروحي البـابا، ومع أن هذا البلاط قد قـام بالغالب بقهـر المسيحيين وجعلهم يشعرون بمـرارة الروح، لكنه لم يقم قط بإحـداث مثل الذي أحـدثه من جراح أصـابت كل واحـد من

عباد المسيح، لابل أصابتهم جميعاً، فهذا ما فعله هذا البلاط في هذا العام، وفي العام الذي يليه، لأن الأبرياء قد دفعوا إلى الوثنية، حيث قاموا مثل المرتدين، بالتخلي عن الحقيقة والصدق، الذي هو الرب، وبالاضافة إلى هذا (الذي هو غير محتمل ومع ذلك عدوه محتملاً) لقد أرغموا على التخلي عن مقتنياتهم الدنيوية، ثم إن الإرباكات والازعاجات التي جلبت هذا العام إلى انكلترا، نعتقد أنها تستحق الوقفة معها لنأتي على ذكرها في هذا الكتاب، فقد جرى خرق امتيازات القديسين وغفراناتهم مما ألحق الضرر بهم، حيث لم يقدم التقدير لهم، وتبعاً لروبرت أسقف لنكولن امتلك البابا السلطة في القضايا التي تقود إلى البناء، وليس في الذي يقود إل الدمار، وفيما يتعلق بوعد العشور، تبدلت الثلاث سنوات فجأة وبصورة سرية إلى خمس سنوات، مع أن الوعد الذي أعطي لثلاث سنوات، كان حدثاً جديداً على الأرض، فقد كان من المعتاد دوماً حتى الآن أن يدفع العلمانيون العشور إلى الأساقفة، لكن الآن جرى ارغام الأساقفة على أن يدفعوا العشور إلى العلمانيين، وكان العشر يجري منحه لنجدة الأرض المقدسة، ولقد أرغمنا على تحويله لمساعدة أبوليا ضد المسيحيين، وكان العشر قد جرى منحه للحصول على التزام بالصك، الذي كان هنري، الملك المتقدم ذكره، ملزم بالاعتراف به والالتزام، ومع ذلك فإن بنوده لم يتم الالتزام بها، وكان العشر قد جرى منحه، ليتم انفاقه حصة حصة، ووفق شروط محددة، في مساعدة الملك، أثناء الذهاب إلى الحج، وليس أن نرغم على الدفع، كما يجري ارغامنا الآن بوساطة أكثر وسائل الارغام ظلماً، ولنتحمل أسوأ الأعباء، والكذب في طرق متنوعة ومضاعفة، لابل وصل الأمر إلى حد تجريد أنفسنا، الذي هو محرم بموجب الأوامر اللاهوتية في كل من العهدين، فنحن قد أرغمنا على تحديد تواريخ للدفع، وهي مواعيد لايمكننا بأي شكل من الأشكال الالتزام بها، وذلك من أجل أن نقع في شباك المرابين، الذين نعرف أنهم متحالفين

معهم ومتعاونين، فهناك أشخاص لايستحقون مطلقاً قد زودوا بالسلطة على الكنائس الفخمة، وعلى أساقفتهم الأماجد، وقد جرى بيع الأساقفة مثل الثيران والحمير، وهي حالة أسوأ أنواع العبودية، فأولئك هم الباعة الذين ينبغي طردهم من الهيكل وجلدهم، ولكن بما أنه أكثر إهانة اقتراف الأذى بعنف بدلاً من الخضوع لواحد، يمكننا أن نعتقد ببراءة بأن الشكاوي في هذه القضية سوف ترفع إلى الرب، إله الانتقام، وكان هذا العام —أقول ليس وفقاً لما نستحقه— كله خصب الانتاج للقمح والفواكه، إلى حد أن مكيال القمح نزل بسعره إلى شلنين، ووصل سعر الكمية نفسها من الشوفان إلى اثني عشر بنساً، وفي هذا العام انبعثت الكراهية المتأصلة، بوساطة ميديا الثانية تلك، أي سيئة السمعة كونتسة فلاندرز، وقد تسبب ذلك بتراكم الشرور، وسبب ذلك حدوث مذابح بشرية هائلة، وفي الحقيقة كانت أعظم مذبحة لحقت بالمسيحيين، وهي تستحق الحزن الدائم، وقد وقعت قبل وقت قصير وألمت بالفرنسيين والألمان، وقد أثارت الذين عانوا من الجراحات إلى طلب الانتقام، وفي الواقع حكم زحل وسيطر على موقع إقامته، واسم هذا الكوكب عند أوفيد «حامل المنجل» لأنه يجتث كل ماهو مزدهر، ويسبب الموت إلى كل ماهو حي، وبالنسبة إلى الأرض المقدسة تبرهن هذا العام أنه لطيف إلى حد ما، بسبب الهدنة وشروط السلم، وهي هدنة وإن كانت مشكوك بها، فقد عملت لمدة عشرة أعوام، أما بالنسبة إلى اليهود فكان عاماً مشحوناً بسفك الدماء.

كيف احتفل الملك بعيد الميلاد في وينكستر

عام ١٢٥٦ لتجسيد الرب، وهو العام الأربعين لحكم الملك هنري الثالث، وقد أمضى الملك المذكور عيد الميلاد في وينكستر، حيث زوده أخوه الأسقف المنتخب، بجميع الحاجيات الضرورية، وذلك بالاضافة إلى تقديم هدايا ثمينة له، واستضافته على مائدته، وفي أثناء المحادثات،

تكلم الملك مع أخيه لصالح الرهبان، الذين جرى طردهم من الدير، وتفرقوا، حاثاً إياه على أن لاينال وصمة نكران الجميل، بالنسبة إلى هؤلاء الذين ارتقوا به إلى منصبه الرفيع، وأن ذلك كان أيضا بناءعلى التماسه هو (الملك)، لكن الأسقف المنتخب أجابه قائلا: «ألم تعلم ببراءتك العطش المحترف الذي غالباً ماتبرهن عليه، بالنسبة للبلاط الروماني»؟ فأجابه الملك قائلاً: «أنا أعلم وأعرف أنه لن ينطفىء أبدا»، وعلى هذا عقب الأسقف المنتخب قائلاً: «كما لن يكون نبع مالي جاف أبداً، بل سوف يجري استخدامه حتى يملأ حتى التخمة أمعاء هؤلاء الرومان التي تشبه الاسفنج والأفواه الملتهمة، وسأتابع ذلك حتى يجري تحقيق رغباتي في مسألة هؤلاء الرهبان، الذين نصبوا أنفسهم للوقوف ضدي».

وفي هذا الوقت نفسه أيضاً نشب خلاف بين وكلاء الملك لجباية الجمارك وتجار الخمور من الغسكونيين، الذين عانوا بالعادة من كثير من الخسائر والأضرار، من خلال الشراة الذين يستخدمهم الملك، ورداً على متعهدي تموين الملك قال الغسكونيون: «نحن لدينا سد جديد، منه نأمل أن ننال منافع كبيرة، ونحن نعتقد أنكم سوف تغيرون أعمالكم الشريرة بالسرقة التي تسمونها جمارك، إلى أعمال صالحة، أو على الأقل معتدلة، وقانونية، فمولانا شاب، وإنه مفيد له الاستماع إلى نصائح نافعة، وأن يعاملنا في منصبه الجديد بكل لطف وعدل، لأنه مثل غرسة صغيرة السن وغضة، يمكن أن تنمو وتطور نفسها، من أجل أن تحصل على القوة، لإعطاء ثمار جيدة»، وبما أن وكلاء الملك رفضوا الإصغاء لهم، بل قاموا كما جرت العادة بالاستيلاء على خمورهم بالقوة، من دون أن يدفعوا لهم، ذهب الغسكونيون إلى مولاهم، أي إلى ادوارد، وتقدموا بشكوى ثقيلة وعرضوها عليه حول الإجراءات التي تقدم ذكرها، وأضافوا بأنهم

امتلكوا حرية كتجار بالرسوبين المسلمين، وعرض بضائعهم للبيع، التي من أجلها سوف يتسلمون أسعاراً مناسبة من دون معيقات»، وبناء عليه ذهب وكلاء الملك غاضبين قائلين: «ياصاحب الجلالة هناك ملك واحد في انكلترا يمتلك السلطة ليحكم بعدل، ذلك أن تجار الخمرة الغسكونيين قد تقدموا بالشكوى إلى واحد سواك، وذلك حول أذى قد لحق بهم، وهم قد أكدوا ذلك بشكل زائف، وهذا الإجراء هو بلا شك يسبب إلحاق الأذى بك وبالمملكة»، وبينما كان الملك شاعراً بالسخط لسماعه هذا، جاء إليه ادوارد، عارضاً شكوى ثقيلة حول الأضرار التي لحقت برعيته، معلناً أنه لن يتساهل مع مثل هذه الإجراءات والتصرفات مهما كان الأمر، ولدى سماع الملك هذا الكلام، قال له وهو يتنهد بعمق: «إن الذي هو من جسدي ودمي يهاجمني، وهاهو أيضاً أخي الايرل رتشارد قد أثير ضدي، وكذلك أول أولادي ولادة، فالآن تجدد زمان جدي هنري الثاني، الذي ثار ضده أولاده الأعزاء بوقاحة»، وتوقع كثير من الناس أنه سوف ينتج عن هذه القضية سوء كبير، وباتوا يخشون من حوادث أسوأ سوف تأتي بعد ذلك، لكن الملك أصغى إلى نصيحة حكيمة، فمر بهذه المسائل وعبر بهدوء، وأمر بإصلاح الأضرار التي وقعت، ومع ذلك زاد ادوارد من اتخاذ احتياطاته، فضاعف أعداد أتباعه المحليين، وصار يركب علناً وحوله مائتي خيال.

كسوف الشمس

أثناء متابعة الاحتفالات بعيد الميلاد، وفي اليوم السادس بعد يوم الميلاد، والثالث قبل اليوم الأول من السنة الجديدة، الذي كان عشية عيد القديس سيلفستر، تعرضت الشمس إلى كسوف جزئي، وفي طليطلة كان الكسوف كاملاً، وفي اليوم الثالث التالي، الذي كان عيد الختانة، كان القمر تبعاً للتقويم عمره يوم واحد.

خوف أساقفة إنكلترا الذين تجرأوا على التذمر ضدّ روستاند

وفي عيد القديسة هيلاري، قام أساقفة ورؤساء شمامسة انكلترا، الذين استبد بهم الأسى من كل جانب، بالاجتماع في لندن لتقديم جواب إلى المعلم روستاند، كاهن البابا والملك معاً، حيث أنه كان سفير البابا، والمحمي من قبل الملك، ولدى مثول المعلم ليونارد أمامه، وهو الذي تقدم ذكره من قبل على أنه المحامي لرجال الدين والمتحدث باسم الجماعة، قام بإلقاء كلمة لصالح الأساقفة، وكان من بين الأشياء التي قالها رداً على المعلم روستاند (الذي وقف ليعارض المعلم ليونارد، وقال بأن «جميع الكنائس عائدة للبابا»)، وقد قال باعتدال كبير: «إن ذلك صحيح، لو أنه من أجل الدفاع عنهم وحمايتهم، وليس للتمتع بثمار الآخرين أو اغتصابها، وذلك مثلما نقول: كل شيء عائد إلى الأمير، فنحن نفهم من ذلك، من أجل حمايتهم وليس من أجل تدميرهم، فهذه كانت نية المؤسسين»، وعلى هذا الكلام رد المعلم بغضب قائلاً: «ليتكلم في المستقبل كل واحد عن نفسه ولأجلها، وذلك في سبيل أن يعلم البابا وكذلك الملك، الذي قاله كل واحد حول مسألة تتعلق بهما»، وعند سماع هذا التصريح، أصيب الجميع بالدهشة، إما لأنهم لم يتجرأوا، أو لم يعرفوا كيف يعبرون عن عدم رضاهم، لأنه بات الآن واضحاً وضوح النهار، أن البابا والملك كانا متحالفين متحدين من أجل ظلم الكنيسة ورجال الدين، ولذلك استأنفوا ضد المطالب التي عملت، لأن المعلم روستاند رفض تغيير حرف واحد مما أودعه كتابة، وكانت فحوى ذلك بأن الأساقفة قد أقسموا بأنهم اقترضوا مبلغاً كبيراً من المال —كما ذكر من قبل— من تجار عبر الألب، وأن تلك الأموال جرى تحويلها من أجل استخدام كنائسهم، وكان هذا واضحاً إلى الجميع أنه كان زيفاً، وبناء عليه أكدوا —ولم يكن ذلك من دون سبب— أنه أن تموت في سبيل هذه القضية سوف يكون طريقاً أكثر استقامة إلى الشهادة، مما كان في قضية

القديس توماس الشهيد، وعندما رأى المعلم روستاند أنهم جميعاً قد استبد بهم الأسف ومرارة الروح، عاد إلى طريق المداراة والنفاق، وأصبح أكثر لطفاً، وقال بأنه يرغب بأن يعقد اجتماعاً مع البابا حول القضية، وجرى على كل حال إرسال عميد كنيسة القديس بولص في لندن مع بعض الآخرين، إلى روما، ممثلين لجماعة الكنيسة الانكليزية، وساد شعور بالخوف فوق كل شيء بأن الأساقفة سوف يذعنون وينهارون أمام نفاق وعنف مثل أولئك الخصوم الأقوياء، حسبما كان عليه حال الملك والبابا، وأن هذه العبودية المقيتة، وهذا الظلم لرجال الدين وللكنيسة سيصبح بالنتيجة عادة، مما سيسبب الأسف عبر العصور.

التدابير الاحتياطية من أجل الالتزام بصكوك الامتيازات الممنوحة، إلخ

وجرى بشكل مفيد اتخاذ تدابير احتياطية من أجل وجوب الحصول على الالتزام الدقيق بالصكوك العظيمة للملك جون، وذلك تحت طائلة عقوبة التكفير الرهيبة، وهي الصكوك التي كان برضاه وعن طواعية قد وعد بها باروناته، وهي التي قام الملك الحالي فيها بعد، مرة ثانية الآن مؤخراً، بحرية وعن طواعية بمنحها في القاعة الكبرى لويستمنستر، وأنه أيضاً بسبب طغيان الملك، الذي لم يتوقف عن ممارسته في الكنائس الشاغرة، توجب تقديم صك آخر إلى البابا من أجل فحصه، وهو صك كان الملك جون المتقدم ذكره قد منحه إلى المملكة، وبسبب المنافع التي يمكن تحصيلها من الالتزام به من دون خرق، رأينا من الموافق اقحامه في هذا المجلد.

تثبيت صك الملك جون من قبل البابا أنوسنت الثالث

«من أنوسنت الثالث، إلخ، إلى إخوانه المبجلين، وإلى أبنائه المحبوبين، وإلى جميع الأساقفة المكرسين للكنائس في جميع أنحاء

إنكلترا، تحيات ومباركات رسولية:

بحمد مناسب نحن نثني على عظمة الخالق، الذي منه بآرائه الرائعة والمهيبة قد سمح لبعض الوقت للعواصف بالهبوب على أبناء البشر، وكأنه بهذا يتبارى مع العالم أراد أن يرينا ضعفنا وعدم كفايتنا، فهو الذي بإرادته يقول للريح الشمالية «هبي» وللريح الجنوبية «لاتمنعي هبوبها»، ويأمر الرياح والبحار، ويوقف العواصف في السموات، حتى يتمكن البحارة من الوصول إلى الميناء الذي يستهدفونه ويرغبون بالوصول إليه، وبالنظر لقيام خلاف مؤسف، مصحوب بخطر عظيم وخسائر كبيرة من زمن طويل هو قائم بين الملك ورجال الدين في انكلترا حول مايتعلق بانتخاب الأساقفة، هذا وبمعونة وإلهام منه الذي لاشيء غير ممكن بالنسبة له، والذي يجعل الرياح تهب حسبما يشاء، فقد قام ولدنا المحبوب في المسيح، جون، الملك المشهور لانكلترا، بمطلق حريته الشخصية، ومسؤوليته الذاتية، وبناء على الموافقة العامة لباروناته، وفي سبيل خلاص روحه وأرواح أسلافه وخلفائه، فمنح بكرم منه، وأكد المنحة وثبتها برسائله، حيث قضى أنه من الآن فصاعداً، تكون انتخابات ذوي المناصب من رجال الدين من جميع الأنواع العالية والمنخفضة، حرة وإلى الأبد، وذلك بالنسبة إلى جميع الكنائس والديرة، والكاتدرائيات، والرهبانيات في جميع أرجاء انكلترا، وبناء عليه قبلنا بهذه المنحة وصدقنا عليها بموجب فضيلة سلطاتنا الرسولية، وها نحن نثبت المنحة التي عملت لكم ونؤكدها، ومنكم إلى كنائسكم وإلى خلفائكم، وفقاً لمحتويات الرسائل المذكورة الصادرة عن الملك كما شوهدت من قبلنا، ونحن ندعمكم بحماية رسالتنا هذه»، وفي سبيل المزيد من تأكيد هذه المنحة، ولكي نجعل ذكراها دائمة من الآن فصاعداً، أدخلنا في هذا الكتاب الرسائل المتقدم ذكرها التي تتعلق بمنحة الملك في هذه المسألة، ونصها هو التالي:

صك المنحة التي عملها الملك جون

«من جون الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وسيد ايرلاندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والإيرلات، والبارونات، والفرسان، والنواب الملكيين، وإلى جميع الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، تحيات:

بناء على ماتم بيننا وبين آبائنا المبجلين: اسطفان رئيس أساقفة كانتربري، الذي هو الأول في انكلترا كلها، وكاردينال الكنيسة المقدسة لروما، والأساقفة: وليم أسقف لندن، ويوستاس أسقف إيلاي، وجايل أسقف هيرفورد، وجوسلين، أسقف باث وغلاستونبري، وهوغ أسقف لنكولن، تم بنعمة الرب، وبالإرادة الحرة لكلا الفريقين، تأسيس السلام كاملاً حول مسألة الأضرار والخسائر التي عانوا منها، في أيام الحرمان من شراكة المؤمنين، ونحن لانرغب فقط في ارضائهم بقدر مايعيننا الرب، بل أن نعمل تدابير صحيحة ونافعة إلى كنيسة انكلترا كلها إلى الأبد، وبناء عليه، إن كل عرف مهما كان، كان حتى الآن ملتزماً به، في أيامنا وفي أيام أسلافنا في كنيسة انكلترا، وكل امتياز ادعيناه حتى الآن لأنفسنا في مسألة انتخابات أي رجل دين مهما كان، إننا نقوم بناء على التماسهم، وبناء على ارادتنا الحرة، ومن تلقاء أنفسنا، وبناء على موافقة باروناتنا، في سبيل خلاص روحنا وأرواح أسلافنا وخلفائنا في مملكة انكلترا، بناء على ذلك كله قمنا بمنح ورسم، وبوساطة الصك الحالي الصادر عنا الذي هو تأكيد للمنحة، أنه من الآن فصاعداً في كل كنيسة لابل في الكنائس جميعها، والديرة، والكاتدرائيات والرهبانيات في جميع أرجاء مملكة انكلترا، سوف يكون انتخاب أصحاب المناصب الدينة العالية والمنخفضة حراً، مبقياً لنا ولورثتنا الوصاية على الكنائس الشاغرة والديرة، عندما يكونون عائدين لنا، ونحن علاوة على ذلك نعد بأننا لن نعيق، ولن نسمح لعمالنا باعاقة الانتخابات المذكورة، كما أننا لن نعمل

على منع الناخبين في أية كنيسـة، وفي جميع الكنائس والديرة —كلما كـان المنصب اللاهوتي شاغراً— من أن يعينوا بشكل حر راعياً لأنفسهم، مهما يكن الذي سـوف ينتخبـونـه ويختـارونه، على شرط، أن يطلبـوا على كل حـال سلفـاً الاذن بعمل هذا منا ومن ورثتنا، وهذا سـوف لن نرفض منحـه، أو تأخير اعطائـه، وإذا صـدف (لاسمح الـرب) أننا رفضنا أو أخرنا منح موافقتنا، يمكن للناخبين أن لايتقيـدوا بذلك، ومن ثم متابعة أعمال الانتخـاب بشكل قانوني، وبعـد إجراء الانتخـاب، ينبغي التوجـه بطلب موافقتنا عليه، ونحن لن نرفض ذلك، مالم نقدم مستندات منطقية للرفض.

وبناء عليه تقضي إرادتنا، وأوامرنا الدقيقة، أنه بالنسبة لقضية الكنائس والديرة التي تصبـح شـاغـرة، لايجوز لأي واحـد انتهـاك منحتنا هذه، ومـرسومنا هذا بأية طريقـة من الطرق، وإذا مـا أقدم أي واحـد، في أي وقت من الأوقـات على مثل هـذا الانتهـاك سـوف ينـال لعنات الرب القدير ولعناتنا.

وشهد على ذلك: بطرس أسقف وينكستر، وو. W مارشال ايرل أوف بـامبروك، وو. W ايـرل وارني، ور. R ايـــرل شيستر، وس. S ايرل وينكستر، وغ. G دي مـانـدفيل ايرل غلوستر واسكـس، وو. W ايـرل فيرار، وو. W بـرويـــر Bruere, وو. W فتز—جيرالد، وو. W دي كانتلوب Canteloup, وهـ. H دي نيفيـل، ور. R دي فيرانـد، وو. W دي هنتنغفيلد.

ونظم في المعبد الجديد في لنـدن، وكتب بيد ر. R دي مارش، مستشارنا، في هذا اليوم الذي هو الخامس عشر من كانون الثاني، في سنة ١٢١٦ لتجسيد الرب، وهي السنة السادسة عشرة لحكمنا، ولايجوز لأي واحد مطلقاً، بناء عليه الاقدام بنفسه على تجاوزهذا المرسوم، الذي جرى

تثبيته من قبلنا، أو القيام بطيش بانتهاكه بأية طريقة من الطرق، لأن كل من يتجرأ، مهما كان فيحاول هذا الشيء، ليكن متأكداً من أنه سينال غضب الرب، ورسوليه المباركين: بطرس وبولص. صدر في اللاتيران في هذا اليوم الثالث عشر من آذار، في السنة الثامنة عشرة لحبريتنا».

تذبذب كبير في قراراتهم التقوية

مثل هذه كانت الصكوك والوثائق التي جرى إعدادها، في سبيل إرسالها إلى انكلترا، ليتم تقديرها من قبل الحبر الأعظم، لكن أي شيء جيد يمكن أن تعمل؟ ذلك أن تلك الاضافة المقيتة «دون التقيد» قد أضعفت كل شيء، لقد منع المراوغون، ومستشارو الشر، والمتملقون للرجال الكبار، كل شيء، وكل الذين تقدموا بالشكاوي، غالباً ماتلقوا من البلاط الروماني، أي من البابا ومن إخوانه رداً مثل التالي: «إننا لانرغب في هذه الأوقات أن نزعج الأمراء»، وكانوا يضيفون: «علينا أن نخفي الشيء الكثير، وأن نمر بأمور كثيرة بعين التغاضي»، (مهما كانت كمية الأذى التي يمكن أن تعمل)، وهكذا، إنه لما نأسف له، إن دقة التقيد بالعدل، عدّ بسبب خوف الناس الجبناء تذبذباً، خاصة في ذلك البلاط.

وفاة جون الروماني رئيس شمامسة ريتشموند

وفي هذا الوقت نفسه مات جون الروماني، رئيس شمامسة ريتشموند Richmond, وكان رجلاً شرهاً جداً، وقد امتلك مبلغاً كبيراً جداً من المال، فقد استخدم نفسه لحوالي الخمسين عاماً في جمع الثروة، ومع أنه كان واحداً من أعلى الكهنة النظاميين مرتبة في كنيسة يورك، لقد كان الأول، أو واحد مثل الأول، بمثابة جاسوس منحط، تولى كشف أسرار انكلترا، وأثار الرومان وحرضهم للاستحواذ بنهم أكبر من المعتاد، والاستيلاء بوسائل صحيحة أو

خاطئة، على موارد تلك البلاد، وبوفاته، ولشغور منصب رئاسة الشمامسة، استولى الملك على أوقافه، وعلى جميع ممتلكاته الأخرى ومقتنياته التي كان باستطاعته الاستيلاء عليها، ووزع كل الذي استولى عليه حسبما أراد ورغب.

وفاة وليم اليوركي أسقف سالسبري

وفي تلك الآونة نفسها من السنة مات وليم اليوركي، أسقف سالسبري، الذي كان منذ صباه من رجال البلاط، وبوساطة البلاط جرت ترقيته إلى أسقفيته، وكان من بين أعماله الدنيوية التي عملها واقترفها أنه أدخل إلى المملكة بمثابة قانون عرفاً كان سيئاً جداً، قضى أن يقوم كل مستأجر أو مكتري، مهما كانت القطعة المستأجر لها صغيرة، بتقديم خدمة للبلاط أو لرئيسه المتملك للأرض، مما سبب أذى كبيراً وإعاقة لهؤلاء المكترين، مع منفعة صغيرة، أو من دون منفعة إلى الرؤساء، وبناء عليه فإن الذين لم يعملوا قط خدمات من هذا النوع، اعترتهم الدهشة، لأنهم أرغموا الآن على القيام بذلك، وعبر هذا الأسقف من بين هذه المشاغل الدنيوية والاهتمامات في الحادي والثلاثين من كانون الثاني، ليواجه المخاوف التي يواجهها الأشخاص الدنيويين وأتباع البلاط، والتي سوف يخضعون لها، لأن أعمالهم الدنيوية سوف تلحق بهم.

كيف أرهق رئيس أساقفة كانتربري كنيسة روكستر

وفي حوالي الوقت نفسه، ضغط بونيفيس رئيس أساقفة كانتربري ضغطاً شديداً على كنيسة روكستر، وهاجم ممتلكاتها، وحصل بموجب هذا الإجراء على كثير من اللوم، وقد قيل بأن الكنيسة التي كان من المتوجب أن يكون المدافع عنها، قيل بأنها أرهقت من قبله، وتقدم أسقف روكستر بشكوى إلى الملك حول هذا الأذى العظيم، ذلك أن

الملك هو المنتقم لمثل هذه الأفاعيل، ومع ذلك نظر باستحياء وأجاب: «أنا لايمكنني إرغامه على العمل بالعدل والاعتدال، خشية أن أسبب انزعاجاً أو أذى إلى أسرته، خاصة الملكة، ولأنه من أصل رفيع ونبيل، وله مكانة سامية».

الفضيحة التي اقترفت من قبل الفرنسيسكان

وفي حوالي الوقت نفسه، كان بعض اليهود الفاسدي السمعة، الذين بلغ عددهم واحد وسبعون، قد أدينوا وحكم عليهم بالموت من قبل محلفين تألفوا من خمسة وعشرين فارساً، من أجل قتل الطفل السيء الحظ، الذي صلبوه في لنكولن، وكان هؤلاء اليهود في السجن في لندن، من أجل شنقهم، وبحكم أنهم كانوا أعداء الدولة، أرسلوا رسلاً سريين إلى الرهبان الفرنسيسكان، يرجونهم التدخل لصالحهم، حتى يمكن اطلاق سراحهم من السجن، وانقاذهم من الموت، مع أنهم كانوا يستحقون موتاً هو الأكثر مهانة، وبناء عليه قام الرهبان (بناء على تقارير عالمية، إذا أمكن في قضية كهذه من الممكن تصديق العالم) بالتدخل لصالح هؤلاء اليهود، لأنهم تأثروا برشاويهم، وأمكن بوساطة صلواتهم اطلاق سراحهم من السجن، وانقاذهم من الموت الذي استحقوه، هذا وأعتقد أن علينا أن نؤمن بأنهم تأثروا بالمقام الأول بدافع روح التقوى، لأن كل واحد يسير في طريق الحياة في هذا العالم له الحق في رعاية موقفه، ومن الممكن انقاذه، وينبغي أن يشعر بالآمال، ولكن بالنسبة للشيطان، أو الذين أدينوا وحكم عليهم بصورة واضحة، لايمكن أن يكون لدينا أمل من أجلهم، كما أنه لاتجوز الصلاة من أجلهم، لانعدام الأمل من أجلهم، فالموت والحكم المحدد قد غلّ هؤلاء اليهود من دون رجعة، وهذه المناقشة لايمكنها تسويغ عمل الفرنسيسكان، أو منع الفضيحة من تشويه سمعتهم، مع أنهم لم يكونوا مجرمين، وأوقفت الطبقات الدنيا من الناس أعمال صدقاتها، ولم يعودوا ينعمون

بالصـدقات عليهم، كما كـانوا يفعلون من قبل، وهكذا فترت عـواطف الناس من أهل لندن نحـو الفـرنسيسكان، وذلك وفق الطريقـة نفسهـا التي تناقصت فيها صدقات البـارسيين نحو الرهبان الدومينيكان، لأنهم حاولوا انتهاك الأعراف القديمة والمقررة للمجتمع.

اعتقال الشيخ الروماني وسجنه

وقام الرومان في هذا العام أيضاً باعتقال شيخهم برانكليون وسجنه، لأنه برهن عن نفسه إلى أعيان المدينة وإلى الناس أيضـاً، بأنه شديد جداً في تنفيذ العـدالة، وغير متهاون في عقوبة الأخطـاء، وإثر اعتقاله بادرت زوجتـه بالذهاب مسرعـة إلى بولونـا لإخبـار شعب تلك المدينة، الذين كـان لديهم ثلاثين من الرهـائن مقـابل سـلامتـه، ولقـد أخبرتهم بالذي حـدث إلى الشيخ الرسـولي، وبناء عليـه ضيق أهالي بـولونا على الرهائن الذين كـانوا لديهم مقـابل بـرانكليـون، ووضعـوهم في سجـن شـديد الحراسة، وتقدم أعيان الناس في رومـا بشكوى ثقيلة حول هذا الإجراء إلى البابا، وبوساطة تدخل بعض الكرادلة الذين كانوا من أصل روماني، حصلوا منه على وعـد، بأن سكان بولونـا إذا لم يسلمـوا الرهائن، الذين لديهم من أجل سلامة برانكليـون، سوف توضع مدينتهم تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وقد وضع هذا موضع التنفيذ، وتحمل سكان بولونا —على كل حـال— نتـائج هذا الحرمـان، ورفضـوا التخلي عن الرهائن للرومـان، لأنهم عـرفـوا أنهم إذا فعلوا ذلك، سـوف يجري على الفـور إعدام برانكليون.

البرلمان العام الذي جرى عقده من قبل الملك الفرنسي

في اليـوم الذي جاء بعـد يوم عيد طهـارة مريم المبـاركة، عقـد الملك الفرنسي بارلمانا عـاما، إليه أرسل ملك انكلترا رسلا خـاصين، للمطالبة —كما هو معتقـد— بحقوقـه في القارة، وفي الحقيقـة لقد ظن نفسـه أنه

مـوضع خـوف في فـرنسـا، لكن هو لم يحصـل على شيء، إلاّ الرفض الصريح، كما أنه أخبر أيضاً بوساطة رسله بأن جيـوش البابا قد تحطمت بشكل لايمكن جبره وأنها تمزقـت وتدمـرت، وأنه لايحتـاج أن يزعج نفسه، أكثر مما مضى حول صقلية وأبوليا، وعلى هذا الأساس لم يطلب رسوله —الذي كان هو جون مانسيل— الاذن من ملك فرنسا، للسماح لملك انكلترا وإلى الذين جرى تعيينهم باسمـه، بالمرور بشكل حر خلال المملكة الفرنسيـة مع جيشه وأمـواله، وذلك على طريقه إلى أبـوليا، التي أعطاه إياها البابا بكرم منه، لصالح ابنه ادموند، وبناء عليه عاد الرسول دون أن ينجز شيئاً، سوى أنه جلب معه أخبار تدمير جيش البابا.

الحرب في تورين نتيجة لسجن توماس أوف سافوي

وفي هذه الآونة قام بونيفيس، رئيس أساقفـة كانتربري، يرافقه فيليب الأسقف المنتخب لليون، وبطرس أسقف سـافوي، ومعه كتلة كبيرة من العسـاكـر، قـام بالانطلاق إلى ايطاليـا، لمحـاربة مـدينة تورين Turin, التي كـان فيهـا أخـوهما تومـاس أوف سـافـوي —الكونت الأخير لفلاندرز— موضـوعاً في السجن، فقد برهن توماس عـن نفسه أنه كان حاداً وطاغيـة بالنسبة لشعبه، حيـث مزقهم بطريقة غير صحيحـة تماماً، وبشكل معـاكس لأعرافهم المعتـادة وعـاداتهم، ونتيجة لهذا قـرر سكان تورين، وأستي، وآخرون كانـوا متحالفين معهم، أن لايتحملوا أذاه بعد ذلك الوقت، فقـاوموه بشكل معلن في وجهـه، ولم يعبأوا بأصله النبيل، الذي اعتمـد عليـه ووثق به أكثـر مما هو صحيح، ومـارس طغيـانه على الناس الأبريـاء، ولهذا —كما ذكـرنا مـن قبل— ألقـوا بـه في السجن، ولذلك جـاء السـافـونيون مسرعين وعلى حنـق لانقاذه، وقـد واجهـوا مقاومة فعالة من السكان، ولكن حشـود السافونيين الكبيرة التي جاءت ضـدهم، أرغمتهم على التراجع إلى مـدينتهم، التي وقعت تحت حصـار فعـال على الفـور، وكـان بطـرس يمتلك كميـات كبيرة من المال، كـان

الايرل رتشارد قد أقرضه إياها بناء على رهن، وكان أيضاً مع الأسقف المنتخب لليون ومع رئيس أساقفة كانتربري مبلغاً كبيراً من المال المقدس، كان عائداً إلى الكنائس النبيلة التي كان لهم الرئاسة عليها، ووزعوا من هذه المصادر مبالغ كبيرة أعطيت إلى جيشهم الكبير، ومجدداً فإن ملك انكلترا والملكة، اللذان كانا ملزمين، قاما بتحويل كميات كبيرة من المال بصورة سرية إليهم، في حين قام البابا، حتى يظهر أنه معين فعال لملك انكلترا وللملكة، ولكي لايظهر أنه محرض بلافائدة، لكنه لم يرسل إليهم لاذهب ولافضة، بل رسالة مواساة بليغة ومطمئنة، من الممكن رؤيتها في كتاب Additaments.

كيف جرى استدعاء الراهب جون أوف دارلنغتون إلى المجلس الاستشاري للملك

وفي هذه الآونة نفسها، استدعى الملك إلى مجلسه الاستشاري الخاص الراهب جون أوف دارلنغتون Darlington, وكان واحداً من الرهبان الدومينيكان، وكان متميزاً لعلمه، ولمقدرته على المحاكمة وحسن مشورته، لأن الملك قد احتاج الآن إلى نصائح حكيمة، وإلى مواساة روحية، لأنه عندما بات متأكداً من دمار البابا وجيشه، عرف بأن المملكة غدت عرضة للخطر، ولذلك كان في حالة ذهول عقلي كبيرة.

شرف الفروسية الذي أنعم به على ملك مان من قبل ملك إنكلترا

في عيد الفصح أنعم ملك انكلترا على ملك جزيرة مان Man بشرف الفروسية، وأرفق ذلك بكثير من التشريفات والمنافع بناء على مبادرته، وكان اسم ملك مان المذكور ماغنوس Magnus.

موت وليم الهولاندي ملك ألمانيا

وفي هذا العام نفسه، حدث أن وليم الهولاندي، الذي جعله البابا ملكاً، ورفعه إلى أعلى المناصب التي نالها قط بجعله ملكاً على ألمانيا، وهو الذي شعر بتوفر الوسائل والفرصة بالحصول على الامبراطورية الرومانية، حدث الآن بعد انفاق لانهاية له من مال البابا عليه، أن توفرت له فرصة صغيرة، فشرع بشن الحرب على الفريزلانديين، وهم شعب من الناس غير متحضرين وغير مدجنين، وسكن هؤلاء الفريزلانديون في المنطقة الشمالية، وكانوا بارعين في الحروب البحرية، وكانوا يقاتلون بنشاط كبير وشجاعة فوق الجليد، وحول المناطق الباردة لهؤلاء الفريزلانديين وجيرانهم السارماتنيين Sarmatians, قال جوفنال Juvenal: «الأفضل للإنسان أن يهرب من هنا إلى ماوراء السارماتنيين والمحيط المتجمد»، إلخ، وبناء عليه نصب الفريزلانديون كمائن على شاطىء البحر، بين الشعراء والنباتات هناك، وكذلك في جميع أرجاء البلاد التي كانت مستنقعية (وكان فصل الشتاء وشيك الحلول حوالي عيد طهارة العذراء المباركة)، وقد خرجوا لمطاردة وليم المذكور وقد تسلحوا بالحراب والنشاب، وهو ماأطلقوا عليه اسم Gaveloches, وكانوا بارعين في استخدام هذا السلاح، وتسلحوا أيضاً بالبلطات الدانماركية والرماح، وكانوا يرتدون ملابس كتانية، غطوها بدروع خفيفة، وعند وصولهم إلى أحد المستنقعات تقابلوا مع وليم، وكان على رأسه خوذة، ويرتدي دروعاً كاملة، ويمتطي حصان حرب كبير، أيضاً مغطى بالدروع، وأثناء سيره تكسر الجليد تحته، مع أن سماكته كانت أكثر من نصف قدم، وغرق حصانه إلى كفليه، وبات غير قادر على التحرك في طين المستنقع، وقام الراكب الغاضب بغرس مهمازيه في طرفي الدابة حتى وصلا إلى جوفه، وحاول الحصان الأصيل الملتهب النهوض، وبذل جهوده للقيام وتحرير نفسه،

لكن من دون نجاح، وكان مسحوقاً ومعقوراً، ولذلك غرق أعمق، وتمكن أخيراً بجهوده من رمي راكبه، بين قطع الجليد القاسية، والتي تسبب الانزلاق، واندفع الفريزلانديون وقتها وانقضوا على وليم، الذي لم يكن هناك أحد يعينه في مأزقه ويخرجه مما هو فيه، لأن جميع أصحابه المسلحين كانوا قد هربوا ليتجنبوا حادثاً مماثلاً، ولقد قاتلوه من جميع الجهات بحرابهم ونشابهم، وذلك على الرغم من طلبه الرحمة، وطعنوا جسده ونفذوا فيه أعمق فأعمق، وكان هذا الجسد قد تيبس بالبلل والبرد، وعرض على قتلته مبلغاً كبيراً جداً من المال، بمثابة فدية، إذا ماوفروه، وسمحوا له بالنجاة حياً، لكن هؤلاء الأشخاص اللاإنسانيين لم يظهروا نحوه الرحمة، ومزقوه إرباً إرباً، وهكذا ما أن تذوق وليم طعم الامبراطورية، وهو الذي كان زهرة الفروسية، وكان ملك ألمانيا وكونت هولاندا، كما كان صنيعة البابا وتلميذه، هوى من ذروة سمو منصبه إلى أعماق الفوضى والدمار، ولكن كما قال الفلاسفة: «أن تموت وفق إرادة الأعداء، هو أن تموت مرتين»، وعندما وصلت أخبار الذي حدث إلى البابا، أصابه الأسى، لأنه أسقط في أعماق الهاوية تلك المبالغ الضخمة من المال، التي جمعت من كافة الأطراف، وبمختلف الوسائل.

موت إتيشيا كونتسة وارني

وفي هذا العام نفسه ماتت اتيشيا Etesia كونتسة وارني، أخت الملك لأمه، ماتت وهي في زهرة شبابها وازدهارها، مما سبب الحزن الكبير للملك ولزوجها جون الايرل الشاب لوارني.

مهمة وليم أوف هورتون ووليم راهب كنيسة القديس إدوارد وأحد رهبان القديس ألبان إلى روما

وفي حوالي الوقت نفسه، قام كاهن من وراء الألب اسمه جون أوف كيمزان Camezan بإلحاق الأذى وتسبب ببعض الخسائر لكنيسة

القديس ألبان، ولذلك جرى ارسال واحد من رهبان الكنيسة نفسها إلى البلاط الروماني للحصول على العدالة ضد الكاهن المذكور، ومن ثم تمت مرافقة الراهب المذكور، الذي كان اسمه وليم دي هورتون (؟)، وكان المسؤول عن المؤونة في الكنيسة المذكورة، مرافقته بالمعلم وليم أوف سينت ادوارد، وانطلقا في أحد السعف من أجل عبور الألب، وكان حاملاً لرسالة هي الأكثر بلاغة من الملك، خاطب بها البابا، وكتب كذلك إلى الكرادلة للتدخل من أجله، وبما أن الرسالة صيغت وكتبت بأفضل أسلوب وأبلغه، قام جون هذا —لأنه كان سخيفاً— بالتأكيد بأن الرسالة مزيفة، معلناً أن شخصاً له مثل هذا المنصب الرفيع، لم يتوسط قط برسالة لدى البابا، ولدى شخصيات أخرى من أصحاب النفوذ والسلطة، ولايمكن أن يعهد برسالة خاصة جداً وودودة إلى راهب بسيط، لكن هذه التهمة رفضت فيما بعد ونقضت بشهادة الملك، وإذا ما رغب أي إنسان برؤية تلك الرسالة، يمكنه أن يجدها في كتاب Additaments.

رسالة البابا إلى رئيس رهبان دير القديس ألبان

وجرى في اليوم نفسه إرسال رسالة من قبل البابا إلى رئيس رهبان ورهبان الدير المذكور، التابع لكنيسة القديس ألبان المذكور، آمراً إياهم، أن يدفعوا خلال شهر، إلى بعض التجار، مبلغ خمسمائة مارك، كانوا مدانين بها إلى التجار أنفسهم، وجعلهم يفهمون أنهم إذا تجاوزوا موعد الوقت المحدد لدفع المال، سوف يجري تعليقهم مباشرة، فهذا كان مقصد الرسالة وغايتها، مع أنهم لم يعرفوا أنهم كانوا مرتبطين بدين إلى أي واحد، وحدث الشيء نفسه لعدد من الديرة، التي كان عليها مثل ذلك أن تتحمل مرغمة نير هؤلاء التجار المرابين، وأعلن هؤلاء المحصلون، من أجل أن يجعلوا تحصيل المال أكثر يسراً وفعالية، أن جميع المال المطلوب هو من أجل استخدام الملك، الذي كان جاهزاً للانطلاق في حجه.

إطلاق سراح السجناء اليهود

في الخامس عشر من أيار في هذا العام، تم اطلاق سراح خمسة وثلاثين من اليهود الذين اتهموا بصلب القديس هوغ، الصبي من لنكولن، والذين حبسوا في سجون في برج لندن، فلقد أخرجوا من ذلك السجن، ونالوا حريتهم، علماً بأن هؤلاء اليهود، وجدوا مجرمين لدى محاكمتهم من قبل المحلفين، وكذلك من الإفادات التي عملت من قبل اليهود، الذين شنقوا في لنكولن، في المقام الأول.

اجتماع أساقفة إنكلترا في لندن

عندما وجد أساقفة انكلترا أنفسهم قد أنهكوا بسبب مختلف المشاكل، اجتمعوا في لندن، خلال أسبوعي الفصح، لتقديم جواب محدد إلى روستاند على الطلبات التي تقدم بها، وكانوا في البداية غير متحدين وغير متفقين فيما بينهم، وكانوا على وشك التفرق ثانية، لكن بعد ذلك جرى تشجيعهم من قبل البارونات، ولذلك رفضوا الاسهام بأي شيء من بارونياتهم إلى الملك.

كيف جرى استدعاء رؤساء رهبان طائفة السسترشيان للمثول أمام روستاند في ردنغ

وفي حوالي الوقت نفسه، قام المعلم روستاند، بناء على السلطات الرسولية باستدعاء جميع رؤساء رهبان طائفة السسترشيان في انكلترا، للمثول أمامه، في يوم الأحد الرابع بعد عيد الفصح، لسماع رسالة من البابا، وعندما اجتمعوا كلهم في الوقت والمكان الذي حدده لهم روستاند في دعوته، وبعد مقدمة طويلة، طلب منهم، من أجل استخدام البابا، والملك مبلغاً كبيراً من المال، كان مقداره في الحقيقة يعادل ماتبلغه نفقات صوفهم، والعالم كله يعرف، أن جميع وسائل ربحهم، لابل حتى الذي ينفقونه على حياتهم، يعتمد على صوفهم، ولدى سماعهم هذا

الطلب، اجتمعوا للتشاور فيما بينهم، وبعدما توصلوا إلى الاجماع في قرارهم، أجابوا بثبات بأنهم لم يكن مسموحاً لهم إعطاء جواب ايجابي لمثل هذا الطلب الثقيل من دون أخذ موافقة ونصيحة الرئيس مع الهيئة الرهبانية العامة للسسترشيان، الذين كانوا بالنسبة إليهم هم الأطراف والأولاد، وهكذا عادوا إلى ديرتهم تاركين المعلم روستاند في حالة من الغضب العظيم، وتصرف ذلك الشخص مثل طفل جريح عندما يفرّ للالتجاء إلى صدر أمه، فأسرع إلى الملك يشكو إليه مما جرى، وأفاد بأن رؤساء رهبان طائفة السسترشيان كانوا متحمسين بروح مبتكرة واحدة، ولذلك أجابوا بأنهم سوف لن يساعدوه في وقت حاجته بأية طريقة من الطرق، وغضب الملك، وأقسم وهو غاضب بأنه سوف يؤذيهم ويضطهدهم افرادياً، بحكم أنه لم يستطع ارغامهم على الاذعان بالموافقة على رغباته عندما يكونوا متحدين، ولأنهم قالوا بأنه كان الأكثر لياقة بالملك سؤال صلواتهم، لاالمطالبة بأموالهم، وأقسم بأنه سوف يحصل على كل من صلواتهم، ولن يعاق عن نيل مالهم، وصدف في ذلك الوقت أن كان في البلاط رئيس رهبان بايلدواز Bildewas من طائفة السسترشيان، وأرسل الملك خلفه، ولدى وصوله قال له بلهجة ناقدة: «كيف حدث أنكم يارئيس الرهبان قد رفضتم تقديم المساعدة المالية لي، في الوقت الذي أنا بحاجة إلى ذلك، وسألتكم ذلك بتواضع؟ أولست أنا ولي نعمتكم»؟ وعلى هذا أجابه رئيس الرهبان قائلاً: «طالما أنت ولي نعمتنا، وأبانا والمدافع عنا، أوليس اللائق بك والجدير أن لاتؤذينا باستخراج مالنا منا، فلقد كان الحري بك أن تطلب العون بصلواتنا، وأن تحذو بذلك حذو ملك فرنسا التقي»، ووقتها أضاف الملك قائلاً: «إنني أطالب بكل من مالكم وصلواتكم»، وعلى هذا أجابه رئيس الرهبان قائلاً: «أعتقد أن هذا من غير الممكن، عليك أن تكون من دون المال أو الصلوات، لأنك إذا استخرجت مبالغ قوام عيشنا الصغيرة منا بالقوة، كيف يمكننا أن نصلي من أجلك بتقوى واخلاص

في القلب؟ لأن الصلاة من دون تقوى صحيحة، سوف تكون لها فائد قليلة لك، أو بلافائدة»، لكن الملك، وإن كان رئيس الرهبان قد أجابه بحكمة، وضع خطة سرية ضد جميع رؤساء رهبان السسترشيان.

كيف التمس رئيس رهبان ويردون الرحمة من الملك

وكان في ذلك الوقت هناك فارس غني اسمه وليم بيوشامب. كانت له زوجة اسمها ايدا Ida, وكانت سيدة من أسرة نبيلة. لكنها انحطت وباتت شريرة في أخلاقها، وكانت هذه المرأة مضطهدة لاتعرف التعب للرهبان من كلا الجنسين، الذين كانوا يعيشون من حولها، وقد وجدت الآن فرصة مناسبة نتيجة لغضب الملك، لإلحاق الأذى برئيس رهبان ويردون Waredon, فقد وضعت خططها بدهاء المرأة، وعملت شكوى جادة ضد رئيس الرهبان المذكور، وقدمتها إلى بلاط الملك، عارفة بأن الملك وهو في حالة غضبه سوف يدينه بعدل أو من دون عدل، وبناء على أسس تافهة، أو بالحري من دون أسس مطلقاً، وهكذا ترك رئيس الرهبان عند رحمة الملك، وبما أن الملك كان قد أوقف جميع الطرق الأخرى للحصول على الرحمة، إلاّ بوساطة التقدم بالالتماس إليه شخصياً، كان رئيس الرهبان مرغماً على التقدم بكل تواضع بالتماس الرحمة من الملك، ولدى تقدمه بذلك، رد الملك بنظرة حادة أصحبها بقسم مرعب، وأجابه قائلاً: «كيف امتلكت يارئيس الرهبان الجرأة على طلب رحمتي؟ أولست أنت مع اخوانك من رؤساء الرهبان، قد رفضتم مؤخراً تقديم الرحمة لي في وقت حاجتي»؟ ولذلك قد غرمه مبلغاً كبيراً من المال بناء على تقدير مضطهديه وإرادتهم.

ووفق الطريقة نفسها، حدث أيضاً أن جرى ارغام رئيس رهبان روفور Rufore, وكان من طائفة السسترشيان، على دفع مبلغ كبير من المال، مع أن ذلك كان من دون عدل، وبحجة لاأساس لها،

اصلت وتطورت من قبل شخصين منحطين يدعيان «الغلامين»، ومثل ذلك حدث ارغام رؤساء رهبان آخرين من طائفة السسترشيان على المعاناة من خسائر مضاعفة وأضرار كبيرة.

رسالة البابا لصالح طائفة السسترشيان

نتيجة لهذه الإجراءات، جرى ارسال بعض الرجال الحكماء من طائفة السسترشيان إلى بلاط روما، للحصول على فرج وخلاص من هذا النوع من الظلم، وفي الوقت نفسه أرسل الملك وليم بونكوك Boncopue, وكان فارساً بارعاً في القانون، إلى البلاط نفسه، ممثلاً له وليعمل لصالحه في الوقوف ضدهم، ولقضاء بعض الأعمال الأخرى، وفيما يلي الرسالة التي حصل عليها السسترشيان:

«من الاسكندر، الأسقف وعبد عبيد الرب، إلى جميع أبنائه المحبوبين من رؤساء طائفة رهبان السسترشيان ورهبان طائفة السسترشيان في مملكة انكلترا وفي الأماكن الخاضعة لحكم المملكة المذكورة، تحيات مع مباركات رسولية:

كلما ارتفعت مكانة الدين —الذي تحتل فيه طائفتكم بنعمة الرب، المقام الأعلى، الذي حصلت عليه بفضل سلوكها وقداستها— كلما تعاظمت نحوها عواطف أمها، أي الكرسي الرسولي، الذي يرفع دائماً من منافعها وفوائدها وازدهارها، ويقويها بالنعم الروحية، ونحن بناء عليه، الذين نرعى مشاعر عواطف عظيمة نحو الطائفة نفسها، قد أخذنا بعين التقدير بأن ديرة الطائفة المذكورة، كانت في مملكة فرنسا معفية من دفع العشور إلى الموارد اللاهوتية، وهي العشور التي منحت من قبل من قبل سلفنا البابا أنوسنت صاحب الذكرى السعيدة، إلى لدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع للفرنسيين، من أجل

نجـدة الأرض المقـدسـة، لأن ذلك الملك عـدّ بأن الصلوات الخالصـة لتلك الطائفـة سوف تكون أكثـر منفعة من المسـاعدة الدنيـوية، ونحن بناء عليه نرغب بتـزويدكم بمواساة وتهدئة، وذلك بقـدر مانستطيع في تأدية واجبنا باستمـرار نحـو الرب، وأن نصنع لكم معـروفـاً خاصـاً، وبفضل هذه العـروض، نحن نمنحكم إعفـاءً بعـدم الـدفع إلى ولدنا المحبـــوب كثيراً في المسيح، الملك اللامـع لانكلترا، أو إلى أي شخص آخـر، ونعفيكم مـن الارغـام على أن تدفعـوا له العشر مـن مـواردكم ودخولكم، استناداً لحجة المنحـة التي أعطيت إليه منذ ذلك الوقت من قبل الكرسي الرســولي، من عشــور الموارد اللاهوتيـة في مملكتـــه وفي الأمـاكن الخاضعة لسلطـانه، من أجل نجدة الأرض المقـدسـة، ونحن على الرغم من ذلك نرسم بأنكم سوف تكونون أحـراراً تماماً، ومعفين تماماً من دفع هذه العشـور، ومن أي فروض أو مكوس على مقتنياتهم أو ممتلكاتهم، ونحن نلغي كليـاً ونزيـل جميع الاعفـاءات، والرسـائل، والإجـراءات مهما كان نوعهـا، والمقررة لكم ولديرتكم، والتي جـرى منحهـا من قبل الكرسي المذكـــور في هذه القضيـة، ونحن عـلاوة على ذلك نرسم بأن جميع الغفـرانات والرسـائل التي سـوف تمنح من الآن فصـاعـداً، مهما كـانت مقـاصـدها ومحتـوياتها، سـوف تكون بلاسلطة ضدكم، وضد ديرتكم، مالم يعملوا ذكراً خـاصاً كاملاً، كلمة كلمة إلى هذا الغفـران، وبناء عليـه لايجوز لأي واحـد، مهما كـانت الأسبـاب، التجرؤ على التجـاوز، أو العمل بشكل مضاد لهذه الوثيقـة، الحاوية لما ألغيناه ولمرسـومنا، وإذا مـــا تجرأ أي واحـد على فعل ذلك، ليكن على يقين بأنه سينال غضب الـرب القـدير، والرسـولين المبـاركين: بطرس، وبولص. صـــدر في نابلس، في الخامس والعشرين مـن أيار، في السنة الأولى لحبريتنا.

إغلاق الموانىء

وفي حوالي يـوم عيد القديـس دنستان Dunstan, أغلق الملك الموانىء، ونحن لانعـرف سبب ذلـك، وذلك في سبيل منع أي أسقف، أو فارس، أو كاهن من عبور البحر، مع أن أسقفي باث ورروكستر، كانا قد فعلا ذلك، وفرغا منه.

حول المبارزة التي عقدت في بلايث

وفي حـوالي أحد الشعـانين عقدت مبـارزة عامـة في بلايث Blithe, وذلك وفقـاً لقـوانين ومبـادىء الفـروسيـة، وقـد حضرها ادوارد الابن الأكبر للملك، وهو يرتدي ثياباً كتانية، وواضعاً دروعاً خفيفة، في سبيل التـدرب على قـوانين الفـروسية، وقـد حـاول كثير من النبـلاء وسعـوا للحصول على شهـرة الفروسية ونيلهـا هناك، لكنهم ضربوا، وألقي بهم من على خيولهم، وسحقـوا، وديس عليهم بالأقدام، وكـان واحداً منهم هو وليم صـاحب السيف الطويل، لم يتعـاف بعـد ذلـك أبداً من آثار جراحاته.

رسائل وساطة لصالح طائفة السسترشيان

وفي حوالي الوقت نفسه، أرسل البابا رسالة التماس إلى الملك، لصالح طائفـة السسترشيـان، وبالاضـافـة إلى هذا، كتب الكـاردينال وايت White رسالة مخلصـة كثيراً إلى الملك لصالح طائفـة السسترشيان، ورجـاه من أجل خـاطر الرب، أن لاينهك تلك الطائفـة المقدسـة بمثل تلك الاستخـراجـات،وهكذا تمكن السسترشيـان لبعض الـوقت من التنفس بحريـة، وتمتعوا بنوع من الهدوء والسكينة، فـذلك ما كـان عليه الحال.

اعتدال البابا في مطالبه

حصل الأشخاص الذين جرى إرسالهم إلى البلاط الروماني لصالح طائفة الأساقفة على تعديل للمطالب التي عملت من قبل البابا، وعلى شيء من التفريج من شدتها التي لاتحتمل وكذلك من مظالمها الأخيرة، فهذا ماتظهره الرسالة التالية:

من الاسكندر، إلخ، إلى الأساقفة إلخ: يتوجب على المساعدة التي جرى تقديمها بوساطة بصيرتنا أنكم إذا لم تحصلوا على فائدة منها، أن لاتشعروا إلاّ بقليل من الضرر، وبما أن أخانا المحترم أسقف هيرفورد قد قام باذن منا، قد منح إليه برسائلنا، بالاقتراض من ابننا المحبوب بشكل خاص أوليفر روزا Rosa ومن رفاقه مواطني وتجار فلورنسا، مبلغ خمسمائة مارك استيرليني، من أجل تسوية أعمال ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، ومع أنه جرى الايضاح في هذه الرسائل، وفي الوثائق العامة، التي أعدت من أجل هذا القرض، وأودع في المحتويات، وتم تبيان أن قرض المال هذا، لم يكن من أجل المسائل المتعلقة بكم وبديركم، وهو القرض الذي قام الأسقف المذكور برهنكم مع الدير المذكور وممتلكاته إلى التجار المذكورين، نحن نرغب في ترتيب هذه القضية بشكل لاتتعرضون أنتم فيه ولاالدير المذكور لأي أذى من هذا الإجراء، ولذلك نحن نمنحكم بموجب سلطات هذه العروض إذناً مفتوحاً، أنه إذا ماعجز الملك المذكور عن دفع المال المذكور، وكان من المتوجب عليكم ارضاء التجار المتقدم ذكرهم من أجل القرض، أن تحتفظوا بين أيديكم بممتلكاتكم بشكل مطلق، وأن تحذفوا من عشور مواردكم اللاهوتية القدر نفسه من المال الذي دفع إلى الملك من أجل نجدة الأرض المقدسة، وذلك حتى يصل إلى مثل المبلغ الذي سوف تدفعونه إلى التجار المذكورين، مع الخسائر والنفقات التي سوف تتحملونها بسبب هذه القضية، دون التقيد بأية رسائل إما جرى

الحصول عليها أو سوف يتم الحصول عليها من الكرسي الرسولي، فيما يتعلق بجمع العشور المتقدم ذكرها، مهما كانت الجهة التي وجهت إليها، أو مهما يكن القضاة أو الوكلاء الذين يمكن أن يكونوا وجهوا إليهم، وعلاوة على ذلك، إنه إذا ماحدث بسبب الاحتفاظ بالعشور المذكورة وصدرت أية قرارات بالتعليق، أو بالحرمان الكنسي، أو بالحرمان من شراكة المؤمنين،وجرى إعلانه ضدكم، أو ضد أي واحد منكم، من قبل أية فئة مهما كانت، إننا نرسم بموجب قوة هذه العروض، ونقضي بأن يكونوا لاغين وفارغين، وأنكم غير ملزمين بالأخذ بهم وتطبيقهم».

الفتور العام في مشاعر الإخلاص نحو البابا

وفي حوالي الوقت نفسه سيطر فتور على مشاعر الاخلاص التي كنا نشعر بها نحو والدنا البابا، وأمنا الكنيسة الرومانية، لأنه منذ اللحظة الأولى لتعيينه، عندما طلب من المسيحيين تقديم صلواتهم له، نظر كثيرون إلى ذلك على أنه عمل نفاق لتغطية إجراءاته الدنيوية، لكن شكوكهم أخذت تميل إلى الهدوء لدى تذكرهم نصيحة القديس، حيث قال: «عندما تبدأ بأي عمل صالح، توجه بالدعاء باخلاص إلى الرب ليكمله هو نفسه» إلخ، ولكن بما أن هذا الاخلاص قد تبعته أعمال ذات طبيعة مضادة، بدأت تقارير غريبة تنتشر حوله، والآمال التي عقدت من قبل على قدسية البابا، قد خمدت وانطفأت، فقد جرى التهامس في آذان الكثيرين، وتبين أن ذلك وقع حقيقة، بأن البابا قد خدع، وأن كثيراً من أعمال الزيف والخداع المضاعفة قد اقترفت بوسائل الختم العظيم، وهذه الأسباب، وإن كانت منطقية، لاتشفع للبابا ولاتسوغ عمله، ولاتعطيه العذر.

انتخاب جايل لأسقفية سالسبري

وحوالي الوقت نفسه قام الكهنة النظاميون في سالسبري، بانتخاب

المعلم جـايل أوف بـريديلفـورد Bredelford أسقفـاً لهم وراعيـــــاً لنفـوسهم، ولدى عـرضـه على الملك، جـرى قبـوله منه، لأنه لم يجد أية أرضية فيه لرفضه.

انتخاب رالف أوف نورويك لرئاسة أساقفة دبلن

وجـرى انتخـــاب المعلم رالف أوف نورويك، وكــان رجـــلاً مثقفـاً وفصيحاً، وقد تعلم منذ سني حيـاته المبكرة في بلاط الملك، أكثر منه في مـدارس العلوم العقليـة، ليكون رئيســاً لأســاقفـة دبلن، ولكن بسبب معارضة هذا الانتخـاب من قبل بعض الفئات، جرى تأخير تثبيته، وفي الحقيقـة جرى توجيـه اللوم إلى الناخبين لقيـامهم باختيار رجل دنيـوي تماماً، وكـان مايزال في خـدمة الملك، وتحت حكمـه، حيث كان المتسلم لجمارك ايرلاندا، وهكذا جرى إلغاء الانتخاب.

سفر رئيس رهبان ويستمنستر وروستاند

قـام رئيس رهبان ويستمنستر، والمعلم روستـاند، والأسقف المنتخب لســالسبري، بالسفـر بحـــراً، بناء على طلب مـن الملك، لترتيب بعض الأعمال له، التي لانعرف طبيعتها، لكن القـائمة على خطط سرية، وكان من المؤمل أن تكـون خططاً جيـــدة، كما أن أسقفي باث وروكستر قـــد سافرا مسرعين بصورة سرية، للقيام برحلة عبر الألب، لإبادة الكثير من البذور المضـاعفة لعدم الاتفاق التي انتعشت الآن، وقـام رئيس الرهبان ورفاقه بالمغادرة في بداية شهر حزيران.

المرسوم الجديد للملك حول تقليد الفرسان

وصدر في هذا العـام مرسوم ملكي، وجرى الإعـلان في جميع أرجاء انكلترا، بأن كل واحـد يمتلك خمســة عشر امتيازاً من الأرض أو أكثـر، ينبغي عليهم الشروع بـالتـــدرب على استخـــدام الســـلاح، وأن الذين لايرغبون بحمل شرف مرتبة الفروسية، ولايمكنهم تحمل ذلك، عليهم

شراء اعفاءهم، وعمل هذا في سبيل تقوية فروسية انكلترا، كما هو الحال بين الايطاليين.

إقامة السلام بين الفلمنكيين والألمان والفرنسيين

أعيد إقامة السلام بين الفرنسيين، والألمان والفلمنكيين، لكن ظل ينظر إلى ذلك بريبة، لأن كثيرين جداً من على الطرفين، لابل في الحقيقة من جميع الأطراف، قد عانوا من الأذى والخسارة، حيث أن أكوام الرماد المتكاثرة لايمكن أن تصبح باردة، بل لابد من بقاء بعض شرر الغضب، وعقد السلام بين الشعوب المتقدمة الذكر في يوم عيد القديس سيرياك Cyriac وأمه.

عاصفة ثقيلة

وفي اليوم الثالث بعد ذلك، هبت عاصفة غير اعتيادية، أو بالحري عواصف متوالية من الريح والمطر، ترافقت مع البرد، والرعد والبرق، فأرعبت قلوب الناس، وسببت تدميراً كبيراً، وكان بإمكان الإنسان أن يشاهد دواليب الطواحين وقد انتزعت من محاورها، ونقلت بوساطة عنف الريح إلى مسافات بعيدة، ودمرت في طريقها البيوت المجاورة، والذي فعلته المياه إلى الطواحين المائية، لم تعجز الريح عن فعله للطواحين الهوائية، وتغطت دعائم الجسور بالحشائش وحملت أكواخ الصيادين مع شباكهم وأعمدتهم، لابل حتى الأطفال وهم في مهودهم، وقذفوا بعيداً فجأة، وهكذا بدا بأن طوفان Deucalion قد تجدد، ودون أن نذكر جميع المناطق، نشير إلى أن بدفورد التي تسقى بنهر أوسي Ouse قد عانت منه من دمار لايمكن تقديره، مثلما كان قد فعل قبل سنوات قليلة مضت، وحدث في الحقيقة أنه في أحد الأماكن جمعت على الفور ستة بيوت مع بعضها بعضاً وحملت بعيداً بوساطة التيار السريع، وواجه سكانهم مصاعب جمة في انقاذ أنفسهم، وتعرضت أماكن أخرى مجاورة للنهر إلى مخاطر مماثلة.

حول المرسوم الذي عمل في كنيسة القديس ألبان في ذكرى الملك أوفا

في هذا العام، في ذكرى يوم اعدام القديس ألبان، مقدم الشهداء في انكلترا، وهو اليوم الذي اعتاد فيه جميع رؤساء رهبان الديرة المتعلقة بدير القديس ألبان، على ممارسة الاجتماع في ذلك المكان، ويومها رسم في الهيئة الرهبانية التي اجتمعت هناك، بحضور رؤساء الرهبان وحشد جميع الرهبان مع جميع رؤساء الرهبانيات، وتقرر بموافقة الجميع، أنه في نهاية كل ساعة نظامية في جوقة المرتلين، وبعد تقديم صلاة الشكر أثناء الغداء، وبعد الصلوات، وصلوات الأسرة ومزاميرها، وفي المصح، وكذلك في غرفة رئيس الرهبان، ينبغي تلاوة الكلمات التالية: «علّ روح الملك أوفا ترقد بسلام»، وينبغي أن يجري ترداد ذلك بصوت واحد مرتفع، وأن هذا ينبغي الالتزام به من دون توقف أو انتهاك إلى الأبد.

وما من أحد يتذكر بأن هذا قد عمل من قبل، وكان اهماله غير معذور مهما كان الأمر، وبذلك لم يعد بالامكان الاستمرار بتوجيه النقد إلى الدير بالعقوق، وصحيح أن هذا المرسوم جاء متأخراً، لكنه عمل الآن، لأن ذلك الملك النبيل، الذي كان ملك الميرشيان Mercians, هو المؤسس الكريم لذلك الدير، والمعبد التقي للدين، فهو وإن كان متواضعاً جداً، ومنصرفاً إلى التدين، كان قوياً جداً وشجاعاً في الحرب، وكان مثل شارلمان في فرنسا، الذي كان معاصراً لأوفا وصديقاً كبيراً له، وهو الذي أخضع جميع الذين ثاروا ضده، ولقد تمكن أوفا العظيم من قهر جميع الأمراء الصغار واخراجهم من انكلترا، وهم الذين كانوا فيما مضى يصبون جام غضبهم وازعاجهم هناك، لذلك كان هو وحده الذي استحوذ على جميع المملكة تقريباً، أي المملكة الانكليزية، لأنه تملك بالقوة وحافظ على تملك خمس وعشرين منطقة، دعيت من قبل الانكليز باسم Shires, وأعتقد أنه لن يكون بعيداً عن موضوعنا إذا ماقمت بايراد ذكرهم في هذا الكتاب، حتى يمكن البرهنة على قدرته

وعلى اتساع حكمه، وعلى قداسته ببنائه الدير الفخم للقديس ألبان.

المقاطعات التي كانت تحت حكم الملك أوفا

هيرفورد وووركستر ١-٢

غلوستر وووارويك ٣-٤

تشيستر وستافورد ٥-٦

شروبري وديربي ٧-٨

ليستر ولنكولن ٩-١٠

نورثأمبتون واكستير ١١-١٢

بكنغهام وبدفورد ١٣-١٤

هنتنغدون وكيمبردج ١٥-١٦

هارتفورد واسكس ١٧-١٨

ميدلسكس ونورفولك ١٩-٢٠

ساوثأمبتون وروتلاند ٢١-٢٢

أونوتنغهام

ملحق الملك أوفا بدير القديس ألبان

وعلاوة على ذلك، أسس هذا الملك أوفا لدير القديس الحرية في المسائل الدنيوية، وبقدر مايستطيع أي ملك أن يفعل بالنسبة لهذا الدير كان هو المؤسس النبيل له، وفي سبيل أن يجعله أيضاً حراً في المسائل الروحية، ذهب شخصياً إلى روما، وأسس هناك مدرسة من أجل الانكليز، وذلك بالاضافة لإعطاء كثير من المنافع عندما كان مسافراً، وبعدل وعن جدارة، استحق على هذا، هذا الملك الذكرى السرمدية، وحصل على المنفعة الروحية للصلوات من أجل الغفران لروحه، التي جري التفوه بها إلى الأبد في الدير وفي كل مكان آخر، حسبما ذكرنا أعلاه، وذلك عند نهاية كل ساعة ترتيل نظامية، وبعد صلاة الشكر عند الغداء.

الاضطرابات التي وقعت في روما بسبب اعتقال الشيخ

وتفجرت في حوالي الوقت نفسه اضطرابات في مدينة روما بين النبلاء والشعب في أعقاب اعتقال وسجن شيخهم برانكليون بسبب الاستقامة والتشدد في إدارته للعدالة (لأنه تسبب بشنق جميع الذين أدينوا بالقتل، والسرقة، وجرائم أخرى، وبالتشويه وبعقوبات مضاعفة بطرق متنوعة)، وقامت زوجة الشيخ (التي يقال لها الشيخة) بالفرار بشكل سري، ومضت بكل سرعة إلى بولونا، حيث كان يوجد ثلاثين شاباً من أعلى الطبقات في المدينة محبوسين هناك بمثابة رهائن من أجل سلامة برانكليون، وأخبرت سكان تلك المدينة بالذي اقترف، وبناء عليه احتفظوا بالرهائن تحت حراسة مشددة، وأثار بعض الكرادلة الذين كانوا من أهل روما، ومنحدرين من أسر نبيلة، غضب البابا ضد سكان بولونا، وبذلك ازدادت الاضطرابات.

المعركة التي وقعت عند سوق بوتولف

ونشب في هذا العام أيضاً خلاف عند سوق بوتولف Botulph, وقد بدأ ذلك بخلاف وانتهى بمعركة بين الناس من أتباع بطرس أوف سافوي، وأتباع روبرت تيتشيل Tateshale الذين شاركوا في استلام بعض الأجور التي كانت تستخرج من ذلك السوق، وبما أن أعداد المتصارعين قد ازداد كثيراً، وهدّد بمزيد من سفك الدماء، تدخل أتباع الايرل رتشارد بحكمة وأوقفوا الهياج، وينبغي أن يكون معلوماً أن بطرس عندما كان على وشك مغادرة انكلترا، تمكن بقوة الالتماسات والهدايا، من اقناع الايرل رتشارد لأن يصبح الحامي لمقتنياته، وهكذا كان بطرس مستفيداً أكثر بكونه غائباً من لو أنه كان حاضراً، لأن الناس قالوا بأنه كان من العيب إلحاق الأذى برجل أثناء غيابه، خاصة عندما ألهموا بتأثير العاطفة، وبالروح الكريمة، في أنه كان يقاتل لإنقاذ أخيه، وهكذا توقف الخصام لبعض الوقت.

كيف كتب البابا إلى ملك إنكلترا وملكتها

وقام بالوقت نفسه بطرس أوف سافوي مع نبلاء أسرته: رئيس أساقفة كانتربري، والأسقف المنتخب لليون وسافونيين آخرين بحصار مدينة تورين بنشاط كبير، وهكذا أخذت المؤن تتناقص في المدينة، وبدا هناك أنه لاتوجد فرصة بوصول نجدة إليهم عن طريق نهر البو Po, وطرد السكان من المكان جميع الذين كانوا غير قادرين على حمل السلاح، وكانوا كلما ازداد عليهم الحصار شدة وضيقاً كلما زادوا من التضييق على الكونت توماس في سجنه، من أجل أنهم (سكان المدينة) إذا ماتعرضوا للأسر والعقوبة، تتوجب معاقبة ذلك الكونت في المقام الأول، لأنه كان السبب في مشاكلهم من الأول إلى الآخر، وقام البابا لكي يبدو أنه كان راغباً في فعل شيء جيد إلى ملك انكلترا وملكتها، في ظل تلك الظروف، فكتب رسالة لهما على شكل مواساة وتهدئة، وقد جاء نصها كما يلي:

«من الاسكندر، أسقف، إلخ، إلى ابنته المحبوبة كثيراً في المسيح، الملكة اللامعة لانكلترا، تحيات ومباركات رسولية:

مسؤلة حقاً ومحزنة الأضرار التي أنزلت على الأبناء المخلصين للكنيسة، وقلبنا منزعج كثيراً نحو الاعتداءات التي اقترفت ضد العبيد المخلصين للكرسي الرسولي، ونحن نحزن أكثر تجاه اضطرابات أولئك الذين أشع اخلاصهم وتقواهم نحو الكرسي الرسولي، بشكل واضح أكثر، لأنهم نالوا فوق الآخرين لقب الطهارة، فاستحقوا الحظوة الأعظم والتشريف الأكبر من الكرسي المذكور، لأننا نشعر بأن المظالم التي وقعت على هؤلاء الأشخاص قد وقعت علينا أنفسنا، وعندما يصابون نحن نتذوق مرارة جراحاتهم، ولقد علمنا بمرارة في القلب وانزعاج في الروح، أنه عندما ذهب سكان آستي Asti لتدمير قلعة مونتكاليير Montcallier, في وقت مضى، قام ولدنا

المحبوب كثيراً، النبيل الكـونت توماس أوف سافـوي، الذي هو عمك، وكـان وقتها يعيـش في تلك القلعة، بالفـرار من هناك، وحمل نفسـه إلى مدينة تورين، آملاً أنه بمساعدة سكان ذلك المكان، الذي هم أتباعه، أن يتمكن من استرداد تملكه للقلعة المتقـدمة الذكـر، التي من المعروف أنها عائدة له، لكن سكان تورين المتقدم ذكرهم، قـاموا بعدما استخفوا بكل الغضب من الرب، ومن الاهتمام بسمعتهم، فـاندفعوا بطيش، وخـرقوا اليمين التي كـانوا مـربوطين بها نحو ذلك الكونـت، وأقدمـوا بناء على إثارة سكان آستي ومسـاعدتهم باعتقـاله وجعله سجيناً، وبذلك جلبـوا على أنفسهم وصمة الخيانة، وجرحت هذه الأخبار المزعجة قلوبنا بحزن عميق، وهي أكثر إيلامـاً إلى عيوننا لأن السجين نفسه عـزيز جداً علينا، ولذلك حزنّـا —وليس ذلك لسبب غير صحيح— من أجل أن ولدنا، الذي نحبـه بشكـل خـاص من بين جميع الآخـرين، بات الآن سجيناً، ونحن نشعـر بالأسى —ولاعجـب في ذلك— لأن مثل ذلك الشخص النبيل الرفيع، الذي يمكن الاعتماد عليه في تأدية الواجبات المخلصة، قد سقط في أيدي خونة، وهو موجود في سجن مشـدد عليه، لأنه غدا أكثر قوة، نتيجـة اخلاصـه المستمر، وعمله المتـواصل من دون ملل في سبيل رفعة شـأن الكرسي الرسولي، وبما أننا نرعي مشـاعر طيبـة خاصـة نحو الايرل المتقدم ذكره، ونحـو أسرته، ولأننا شعرنا دوماً بعـواطف خاصة نحـو بيتــه بسبب اخـلاصــه الخاص نحـونا، لهذا إننا نشعـــر على هذا الأساس بالألم بحـدة أكبر بسبب معاناته، ونتذوق مـرارة مايعانيـه بقوة أعظم، وعلاوة على ذلك إن آلامه تثيرنا وتؤلمنا عن قرب، لأننا نتعاطف مع آلامـه التي يعـاني منها، وبالطريقـة نفسهـا نحن لايمكن أن نضرب بجلدات العـدوان من دون أن نكون ذاتيـاً قـد ضربنا على الفـور مثلما ضرب هو، وفي الحقيقة، هـو لديه مشاعر ممـاثلة نحونا، وحـوّل أحزانه إلينا بنوع من أنواع التحويل المريرة، وعلى هذا رأينا أنه أمر صحيح، أن نلتمس برجـاء وأن نحث جلالتكم المخلصـة بالقيام بإلقـاء القبض على

الأشخاص والممتلكات العائدة للمواطنين من تورين وآستي، الذين من الممكن وجودهم يعيشـون في بلادكم وخاضعين لحكمكم، وأن تحتفظوا بهم سجناء، إلى حين تتم إعادة الكونت المتقدم ذكره إلى وضعه السالف من الحرية»، وقد جرى ارسال رسالة مماثلة إلى الملك.

كيف سأل رهبان دير أبنغدون الإذن من الملك القيام بانتخاب رئيس للرهبان عوضاً عن الحالي الذي كان يموت

أصيب في هـذا العـام رئيس رهبـان أبنغـدون Abingdon بالشلل، وأثناء تمدده بلا حراك، متوقعـاً الموت، ذهب رهبان ذلك الدير إلى الملك وسألوه بتـواضع، بما أن رئيسهم كـان يحتضر، وبات غير نافع للآخرين، أن يستحوذوا سلميـاً على ديرهم، وأن يضعوه بين أيديهم، في سبيل عمل ترتيبـات نافعـة لتلبيـة حـاجـاتهم والتـزود بها، وفي سبيل الحصول على حظوة مـوافقته دفعوا خمسمائة مارك، من أمـوالهم الوافرة، إلى الملك، وبعـد عـودتهم إلى موطنهم بخمسـة عشر يومـاً مـات رئيس الرهبـان المشلول، وقـام الرهبـان على الفـور بعمل الترتيبـات اللازمـة وجهـزوا أنفسهم لانتخاب رئيس رهبـان آخر، لأنه كـان مسموحـاً لهم بفعل ذلك، بموجب صك حصلوا عليه مـؤخراً من الملك، وكان الملك قـد اعتقـد بأن حيـاة رئيس الرهبـان سـوف تطول لبعض الوقت، لأن الأشخـاص المشلـولين يعيشـون بالعـادة لوقت طويل، وعنـدمـا أخبر بوفـاته، دهش كثيراً، وعقب على ذلك بحـزن قائـلاً: «بحق رأس الرب (لنستخـدم كلماته المعتـادة) كم أنا خـدعت وغششـت! فلقـد تسلمت خمسمائة مـارك فقط، من ذلك الدير الغني، الذي بات شـاغراً بمثل هذه السرعـة، في حين لو أنني احتفظت به بين يـدي لأيام قليلة فقط، لكنت قـد حصلت من غاباته فقط، مـن دون تعويضـات أخرى، مـا كان قـد أضاف إلى خـزانتي مبلغ ألف مـارك أو أكثر»، وبناء عليه بـات واضحاً وضـوح النهار، لكل واحـد بأن تعطش الملك ونهمـه قـد ازداد كل يوم

أكثر فأكثر، وكان هذا حتى بعدما أقسم على المحافظة على امتياز الكنيسة وراحتها وسكونها.

كيف قدم جون دي ديا إلى انكلترا بموجب أوامر البابا

وفي حوالي هذا الوقت نفسه، قام الراهب جون دي ديفا Diva أو ديا Dia, وهو شخص جدير بالثناء، من طائفة الفرنسيسكان، بالقدوم إلى انكلترا، مع تفويض من البابا لتنفيذ جميع الاصلاحات المطلوبة.

تأكيد اقحام رئيس رهبان وينكستر

وجرى الآن بالنسبة لأندرو، رئيس رهبانْ وينكستر، الذي أقحم في ذلك المنصب من قبل الأسقف المنتخب، تثبيته في منصبه، على الرغم من معارضة الرأي العام للجميع (مما يبرهن على القوة العظيمة للرشوة في روما)، أما مايتعلق برئيس الرهبان القديم، الذي قد أنفق أموالاً كثيرة للحصول على حقوقه، فقد عاد الآن إلى انكلترا معاقاً غير محقق لهدفه، مع أنه كان يشعر بالأمل، من خلال بعض الوعود التي كان قد تلقاها، ليس من دون الوعد بتقديم مكافأة كبيرة مقابل ذلك، أي مقابل أن يعاد إلى وضعه رئيساً للرهبان في ديره، وذلك بمثابة طلب عادل، وجرى على كل حال تعيين بعض العزب العائدة للدير ومنحها له، حتى تتوفر له وسائط الانفاق والعيش طوال حياته، مع أن بقية حياته عبرت باضطراب وإهانة، وبرهنت هذه الواقعة عن مدى التأثير الكبير للرشوات في بلاط روما، وجرى الآن استدعاء الرهبان المتفرقين وإعادتهم، وهم قد تجللوا بالعار والشنار.

حول المكوس الجديدة التي فرضت على مواطني لندن

أرغم سكان لندن، الآن مرة جديدة على دفع مكس وصل إلى

خمسمائــــة مــــارك، وفي سبيل اعطاء بعـض اللون لأسبـــاب هذه الاستخــراجــات، ذكــروا في بعض الأحيـــان أنها جـاءت من أجل استخـدامـات الملك، وذكـروا مـرة ثانيـة أنها لصـالح الملكة، وهـم الآن يتوقعـون أن تفرض عليهم ضرائب لصالح ادوارد، ولذلك كـانوا تماماً تحت رحمة الملك، من دون التقيـد بأي امتياز، وقـد تحولوا إلى حـالة هي أسوأ أنواع العبودية.

حول الاستيلاء على ممتلكات روبرت دي روس

وجرى الآن أيضاً الاستيـلاء بشكل غير إنساني على ممتلكات روبرت دي روس، التي تكونـت من الثيران، والأغنام، والقطعـــان من مختلف الأنواع، وعلى جميع مـاامتلكه في مملكة انكلترا، حيث جـرى بيع الجميع بشروط جيدة، وفقـاً لرغبات المشترين، وهو لم يحصل على أية فـائدة من اللهجة المتواضعـة، وعرضه تقديم التعـويض، كما أنه لم ينتفع من طاعته للأوامـر التي حصل عليهـا من الملك، بعـدم السماح لملك سكوتلندا وملكتهـا بالنوم معـاً، بسبب صغـر سنهما، حتى حلول وقت محدد، قـد تبرهن أنه لم يحل بعد، ثم ثابر روبرت على طلب العفو من الملك، وكان كله أمل بالحصـول عليه، ولكن بما أنه لم يحصل بعد على هـدفه، تهامس الناس، وتردد بين صفوفهم، بأن هذا الحرمـان من الحظوة الملكية، مرده إلى الكراهيـة الشـديدة التي شعـر بها الملك نحـو شعب الشمال، الذي حـاول من قبل خلع أبيـه من العـرش، وأنه اضطهـد أناسـاً آخـرين في الشمال، مثلما فعل مع روبرت نفسـه، بسبب تلك الكراهية نفسهـا، لأن الملك قـد قـام حتى الآن، باستثناء روبـرت هذا وجـون بالأويل (الذي كـان الآن يبـذل غاية جهـوده حتى لايسقط)، قـام الملك بتجـريد جميع نبلاء الشمال من ثـرواتهم الماضية، وحوّل ممتلكاتهم إلى أجـانـب، آه منك أيها الملك المدهش، الذي لايتـذكـر الخدمات و الواجبـات التي قـدمت إليـه، بل تعبر من ذاكرته مثل عبـور غيوم الصبـاح، لكن صدره يختـزن

الإســاءات طويلاً، فما الذي عمله روبرت حتى استحق الملامــة، آخــذين بعين التقدير جــوابه، عندما عرض الدفاع عن نفســه بجسده، غير أنه لم يستطع تبرئــة نفســه من التهم التي وضعــت ضــده، لذلك خضع لحكم أعــدائه، أو بالحري أصــدقــاء المناخ الطيب، الذين عندمــا يأخذ إنســان بالسقوط يعجلون بسقوطه، لكن كانوا يساندونه في أوقات ازدهاره.

تأسيس السلام بين رئيس رهبان القديس ألبان وويستمنستر

في هذا العــام أيضاً، تــم بعد تقلبــات كثيرة، إقــامة ســلام بين رئيس رهبــان دير القــديس ألبـــان، ورئيس رهبــان دير ويستمنستر، في قضيــة الخلاف المتعلقة بـ ألدينهام Aldenham, ومن الممكن الوقوف على شروط السلام في كتاب Additaments.

تكريس سيوول رئيساً لأساقفة يورك

جرى تكريــس المعلم سيوول Sewal رئيساً لأســـاقفة يورك، وذلك بعــدما أخــذ من وسط تلك الكنيسة حيث كــان عميدها، وكــان القــديس ادموند، رئيس أســاقفــة كانتربري، الذي كــان سيوول تلميــذه ورفيقه قد توقع كثيراً من الخير منه.

السلام الذي أقيم بين و. أسقف
إيلاي وهـ . رئيس رهبان رامسي

وفي حــوالي الوقت نفســه أقيم ســلام بين و. W أسقف إيلاي، وهوغ رئيس رهبــان رامسي حــول قضيــة السبــاخ، وقــد وقعت واقعــة مــدهشة، فــوق هذه السباخ في أيامنا، وكــان ذلك في أماكن كــانت منذ زمن سحيق من دن ممرات، ولايمكــن الوصــول إليهــا، حيث لم تتــوفــر وســائل للسفــر للناس أو للمـــواشي، كما لم يكن هناك سكان، بل مجرد نبــاتــات وأعشــاب، ووحل عميق، وأمــاكن مستنقعيـــة، مسكونة فقط

بالطيور، دون أن نذكر الأرواح الشريرة (التي عنها قرأنا في سيرة حيا القديس غوثليس Guthlace الذي اتخذ مسكنه هناك، بناء على إرادته، لأنه مكان رعب وعزلة واسعة)، وأقول لقد تحولت هذه الأماكن الآن إلى مروج واسعة، لابل حتى إلى أرض صالحة للزراعة. وهذه الأماكن نفسها التي كانت لاتنتج قمحاً أو تبناً، تنتج كميات وافرة من الأعشاب السيفية، والحلفاء، مع مواد أخرى للحرق. لاستخدامات السكان ومنفعتهم، ولذلك نشب خلاف بين الذين سكنوا السباخ منذ البداية، تتعلق بحدود هذه الأماكن، وأقسام الأرض وحصصها، وقادت هذه الخلافات إلى نزاعات ومعارك.

الفضيحة التي تأصلت في دير الثالوث المقدس في لندن

في يوم عيد القديس بطرس في الأغلال، نشب نزاع في دير الثالوث المقدس في لندن، بين اثنين من الكهنة النظاميين في ذلك الدير، اختلفا دوماً حول لاشيء تجاوز صوف الماعز، وصدر عن هذا النزاع كراهية شديدة، وهي كراهية سعت إلى القيام بالانتقام عن طريق سفك الدماء، لابل والقتل أيضاً، حيث شجع الشيطان على ذلك، ذلك أنه يزيد من الغضب ومن الكراهية الموجودة، ويوقدها بنفسه غير التقي، وقام الأول من الاثنين فاغتنم فرصة مناسبة لمحاولة اقتراف جريمة كبرى، حيث أقدم على قتل الآخر، وفي سبيل أن يظهر نفسه —القاتل— بأنه أثير ودفع على اقتراف جريمته، أقدم على جرح نفسه بشكل مرعب كما أنه شوّه نفسه، وارتفع آنذاك صراخ وولاويل، وجرى اعتقال مقترف الجريمة، وعوقب وفقاً للأحكام الدقيقة للعدالة، وبوساطة الشيطان، الذي خطط لجميع هذه الإجراءات، وهكذا فإن الجماعة الرهبانية، التي اهتم بشكل رئيسي بتشويه سمعتها، والاساءة إليها، حصلت —لأسفنا— على الفضيحة، وعلى العار، والاضطراب، فماالذي يمكن لهذين الكاهنين

النظامين المتمردين، اللذان حصلا على خطر ورعب اللعنة والادانة، أن يقولا أمام محكمة القاضي الأعلى، وإلى المتهم للجنس البشري؟ الويل لهما، اللذانَ من خلال فضيحتهما قامت الاساءة إلى سمعة الرهبان بشكل عام، ويتوجب على الرهبان الذين ينصب لهم الشيطان بشكل خاص أحابيله وشباكه، أن يكونوا واعين وحذرين، وأن يلجموا غضبهم وكراهيتهم عندما تنشب النزاعات وأعمال اللوم، لأن «الغضب ينتج الصراع، ويسبب الصراع الحروب، وتسبب الحروب الموت»، ومثل هذا الموت، كما حصل للأول، جلب الموت للثاني، وكان موتاً أبدياً.

كيف جرى الاعتراف بمانفرد ابناً شرعياً للإمبراطور فردريك

وتبين في هذه الآونة، أن مانفرد الذي ساد الاعتقاد لوقت طويل أنه كان ابناً طبيعياً لفردريك، بعد البحث عن الحقيقة في القضية، أنه لم يكن مجرد ابناً طبيعياً (أي غير شرعي)، بل ابناً شرعياً لذلك الملك، وبناء عليه نال على الفور محبة وتشريف الصقليين والأبوليين، الذين شرعوا الآن بالوقوف إلى جانب قضيته، فلقد حدث قبل عشرين سنة مضت أن أم مانفرد هذا، وقعت مريضة بشكل شديد، فقامت بمراسلة الامبراطور راجية إياه من أجل خاطر الرب أن يزورها، ويشفق عليها، لأنها اعتقدت أنها كانت على حافة الموت، واستجاب لطلبها، وعند ذهابه إلى المرأة خاطبته، ويديها مطبقتين والدموع نافرةمن عينيها وقالت له: «أشفق عليّ يامولاي، وساعدني بما أنني على وشك الموت، ذلك أنني سوف أكون في خوف عظيم من المخاطر على جسدي، لابل إن خوفي هو أعظم حول مايتعلق بروحي الذي هو خطر قريب ووشيك، فأنت لك ولد طبيعي مني اسمه مانفرد، كنت قد حملت به منك، فهل يرضيك أن تقترن بي، في سبيل أن يكون شرعياً، ومن أجل أن تتحرر روحي من الخوف»، واستجاب إلى التماساتها، وتزوج الامبراطور منها، لكن الواقعة بقيت

سرية لسنوات كثيرة، وفي هذا العام تبرهنت —على كل حال— حقيقتها إلى الصقليين والأبوليين، ولذلك وقفوا منذ ذلك الحين بثبات إلى جانبه، وانحازوا إليه ضد البابا، وضد جميع الـذين عارضوه، وشرع مانفرد أيضاً يزدهر في حياته، ويحقق الانتصارات على جميع أعدائه، وكان الرب تجاه ذلك راضياً ومسروراً، وبما أنـه أخذ يحصل على النتائـج الطيبة في الحرب ضد البـابا، بدأ هذا الأخير يسعى من أجل السلام، لأن مـانفرد كـان قد استولى على نابلس وبارليتا Barletta, وعلى مدن ساحلية أخرى، وعلى كابوا Capua, وعلى كثير آخـر من المدن والبلدات، والذي كان أكثر فائـدة له هو أنه تصالح مع النبلاء والناس وكسب قلوبهم إليه، ويالالأسف، ووأسفاه، لم يكن هناك أي أسقف من أساقفـة الكنيسة، كان يمكنه أن يواسي البابا ويتعاون معـه، وهذا أمر لايمكنني أن أتفوه به، أو أدونه كتابـة من دون فيض من الدموع، فلقـد تصرف البابا بطريقـة نحو الأتباع المؤمنين للمسيح، الذيـن توجب عليه أن يرعاهم بعـواطف أبوية، ويضمهم إلى صـدر إحسـانه، نعم تصرف بطريقـة جعلت مـا من واحـد يتعاطف معه في أزماته، لابل أكثر من ذلك وعوضاً عنه، إنه إذا ماقام أي واحـد باغضـابه والاضرار به، مع أنه قـد يكون رجـلاً شريراً ومعتـدياً، ومقترفاً آثماً، ترى كل واحد مسروراً تجاه نجاح المضطهد.

إطلاق سراح برانكليون من السجن

أما بالنسبة لبرانكليون، الشيخ الروماني، الذي انتشرت سمعته الطيبة في الخارج، والذي عـانى من اضطهـاد كبير من نبـلاء رومـا لتمسكه بالتنفيذ الدقيق للعـدل، فقد جرى اطلاق سراحـه من السجن، بوساطة تدخل الناس، وهو السجن الذي كان قد رمي به فيه.

كيف قدم ملك سكوتلندا وملكتها إلى إنكلترا

في بداية شهـــر آب، وبناء على مـــايشبـــه رســالـة من ملك انكلترا

وملكتهـا، قدم ملـك سكوتلندا وملكتها إلى انكلترا، يحيط بهما مرافقـة كبيرة ومشرفـة (من المعتقـد أن بين عـددهم كـان هناك حـوالي ثلاثمائـة فـارس) وقـد جـاءا لزيـارة ملك وملكة تلك البـلاد، وأرادت ملكة سكوتلندا أن تشـاهد أبيها وأمهـا، ملك انكلترا وملكتهـا، ورغب ملك سكوتلندا في رؤية ملك انكلترا الذي أحبـه، وكـان قـد تبناه، كـابن له، وأراد رؤية الملكة أيضـاً، لأنهما كـانـا متشـوقين كثيراً لرؤية ملك انكلترا وملكتهـا، وكـذلك المملكة نفسهـا، وكنـائسهـا، ومـدنها، وقـلاعهـا، وأنهارها، ومـروجهـا، وغـاباتها، وحقـولها، وفي الحقيقـة مشـاهدة جميع المشاهد الجميلة التي تبرهن وجودها في تلك المملكة فوق سواها.

كيف ذهب ملك إنكلترا لاستقبال ملك سكوتلندا وملكتها

عندمـا علم ملك انكلترا بوصـولهما، خرج بسرور عظيم لاستقبـالهما على الطريق، وبعـدما عانقهما دخـل معهما في أحاديث ودية، وصـديقة، وبناء على أمر الملك، اجتمع عدد كبير من النبلاء في القصر، لاستقبالهما، وعندمـا اكتمل اجتماع الجميع، كـان مـن الممكن تعـداد عـدة آلاف من الخيـول، وكتلة عــددها أكبر من الرجـال، ولم يكن بإمكـان أية مـدينة، ولاحتى العزبة الملكية لوودستوك Woodstock, حيث اجتمعوا مع بعضهم، كــان يمكنهـا أن تستــوعبهم جميعـاً، وأقـام الفـرســان، وعسكروا في سرادقـات نصبت في الغـابـات والحقـول لهذه الغـاية، وامتلأت مـدينة اكسفورد أيضـاً مع جميع القرى المحيطة بها بـالضيوف، ومن اكسفورد انطلقوا نحو لندن عبر طرق متنوعة، حتى لايكون هناك نقص بالمؤن، بسبب وجود ذلك الحشـد العظيم، وكان الملك قـد أصدر أوامـر بتزيين مـدينة لندن، بالأعلام، والأكـاليل، وبوسائل زينة أخـرى مضاعفة، في سبيل أن تظهر المدينة وكذلك ويستمنستر، متميزة بالبهجة، وجرى تنفيـذ هذا تمامـاً، وبعد الاحتفـال بعيد صعـود العذراء المبـاركة بفخـامة كبيرة في وودستـوك Woodstock, في كل من الكنيســة

والقصر الملكي، انطلق ملك سكوتلندا وملكتها، وملك انكلترا وملكتها نحو لندن، كما ذكرنا من قبل، عبر طرق مختلفة، وذلك بسبب الأعداد الكبيرة للذين كانوا مسافرين معهم.

كيف عمل ملك إنكلترا تقديات ثمينة في كنيسة القديس ألبان

وقام الملك، وهو على طريقه إلى لندن بالذهاب إلى كنيسة القديس ألبان، وكانت زياته لذلك المكان غير معروفة في اليوم الذي تقدم على تاريخ وصوله، وحسبما كانت عادته، صلى هناك باخلاص وتقوى للقديس ألبان، الذي هو رئيس الشهداء الانكليز، وعمل منحة للكنيسة مؤلفة من أربعة طيلسانات، واحد منها أعطاه إلى مذبح القديس ألبان، ليجري تعليقه على الجدار كزينة، وأعطى آخر، للغاية نفسها، ليجري وضعه عند مذبح القديس أمفيبالوس، وثالث لمذبح القديس وولستان Wulstan, والرابع إلى مذبح القديسة مريم، حتى يجري تعليقه حيث يتم يومياً انشاد القداس.

كيف خرج إدوارد لاستقبال الملك لدى وصوله إلى لندن

وعند اقتراب الملك من لندن، خرج ابنه الأسن ادوارد مع كثير من النبلاء الآخرين لاستقباله، وكانت المدينة مزينة تكريماً للوصول المتوقع لتلك الشخصيات الكبيرة، لأنه كان هناك: ملك انكلترا وملكتها، وملك سكوتلندا وملكتها، وادوارد، وعدد كبير من النبلاء والأساقفة، وفي يوم عيد القديس أوغسطين «الأستاذ»، طلب جون مانسيل الاذن بالقيام بتضييف جميع النبلاء الضيوف في اليوم التالي، وجرت الاستجابة لهذا الطلب، وبناء عليه وجّه الدعوة لحضور وليمة غداء فخمة، إلى ملكي انكلترا وسكوتلندا، وجميع الايرلات، والبارونات، والفرسان الانكليز وكذلك السكوتلنديين، وكذلك أسقف لندن، مع عدد كبير من المواطنين، وكان عدد الضيوف في الحقيقة كبيراً جداً إلى حد أن بيته في

توثول Tothall لم يكن قادراً على استيعابهم جميعاً، لذلك أمر بنصب بعض السرادقات الملكية لاستقبال الضيوف، وكان الذين شاركوا في هذا الاحتفال كبيراً جداً، إلى حد أن سبعمائة صحن كانت بالكاد كافية لتخديم الحلقة الأولى من الحفل، ولم يكن معلوماً قط في أي وقت من الأوقات أن أي صاحب منصب ديني كان قادراً على تجهيز مثل ذلك الحفل الثري والوافر، لأنهم جميعاً جرى تزويدهم بكميات وافرة من كل نوع من أنواع المباهج.

وصول أخو ملك إسبانيا إلى إنكلترا الذي كان منفياً من بلاده

ووصل في الوقت نفسه بارون صاحب مرتبة عالية في اسبانيا، كان هو أخو ملك تلك البلاد، الذي قضي عليه بالنفي من بلاده، لأنه نال عن استحقاق غضب الملك، وقد أراد الآن الحصول على عون ملك انكلترا، وجاء يلهث وراء أموال الآخرين، ذلك أنه كان قد أزعج كثيراً ملك اسبانيا، وقد هرب الآن ليلتجىء إلى ملك انكلترا وإلى ادوارد، راجياً اياهما للتوسط من أجله، في سبيل أن يستعيد شروط صداقته الماضية مع أخيه الملك، ذلك أنه —أي المذنب— كان على استعداد، ولديه رغبة، في التكفير عن الأخطاء التي اقترفها، وبناء عليه قام ملك انكلترا، حسبما اعتاد أن يتصرف نحو الأجانب جميعاً، بفتح صدر المواساة له، وأمر بتزويده بكميات وافرة من الحاجيات الضرورية، كما أنه عهد بالوصاية به وبالاسبان الذين وصلوا معه وبصحبته إلى وليم بونكوك Boncoque, وكان فارساً يعرف الاسبان، وأخلاقهم وعاداتهم، لأنه قام بنقل عدة رسائل شفوية من ملك انكلترا إلى ملك اسبانيا.

منح هنتنغدون إلى ملك السكوتلنديين

وفي اليوم التالي لعيد القديس جايل، عمل ملك انكلترا منحة فأعطى هنتنغدون Huntingdon إلى ملك سكوتلندا، وأكد هذه المنحة

وثبتها بوساطة صك، معطياً السلطة للملك لتملك البلدة والاستحواذ عليها، مع التشريفات العائدة لها، والمتعلقة بها، حسبما كان بعض أسلافه قد فعلوا، وهكذا زاد الملك يومياً من ممتلكاته وافقار نفسه.

الهدايا التي عملها رئيس رهبان وينكستر المخلوع إلى مائدة البابا

قام هذا العام رئيس رهبان وينكستر المخلوع بكرم عظيم منه بزيادة نفقات مائدة البابا بمارك فضي واحد في كل يوم من أيام السنة إلى الأبد، وابتلع البابا هذه الأعطية بفكين مفتوحين، فلقد كان هناك ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً في السنة، ونتيجة لذلك اقتضى هذا استخراج مورد وصل بالماركات إلى العدد نفسه، ومع ذلك غادر هذا الرئيس للرهبان البلاط الروماني وسط الضحك والاستهزاء، دون إكمال عمله، وهو محبط تماماً في نواياه، لأن أعطيات خصمه، الأسقف المنتخب لوينكستر، قد قيل تفوقت على أعطياته بالكم وبالقيمة.

الجريمة الرهيبة التي اقترفت من قبل عمدة نورثأمبتون

كان هناك في هذا الوقت، واحد من الفرسان، كان غنياً، قد امتلك كثيراً من الممتلكات بالأراضي، قيل كانت تجلب إليه مورداً مقداره مائة وخمسين باونداً، ومع أن هذا الفارس كان غنياً، لقد رغب في أن يكون أغنى، وفي سبيل ذلك اشترى تعيين نفسه عمدة لنورثأمبتون، بعد الحلول محل العمدة المنصرف، وما أن حصل على منصبه، حتى استخرج المال من كل جهة من الجهات باللجوء إلى بعض الحجج التافهة حول أخطاء أو أمور أخرى، وكان هذا الرجل (الذي كان اسمه ولمي دي لآيل Lisle) مسافراً في أحد الأيام خلال الريف، وصدف أن وصل إلى مرج جميل كانت فيه بعض المواشي السمينة والجميلة ترعى، ولدى رؤيته لهم استبدت به مشاعر الحسد والشره، فاخترع سبباً للنزاع والخصام، حيث قال للراعي: «أنت خادم من؟»، وعلى هذا رد عليه

الرجل قائلاً: «أنا خادم صديقك» وقدم اسم سيده، «وهذه المواشي له»، وكان العمدة قد كره هذا الرجل منذ وقت طويل، وفكر الآن بعمق أكبر ودرس كيف يمكن أن يصطاده، حتى يتمكن من الاستحواذ على مقتنياته، سواء بوسائل طيبة أو قذرة، لأنه كان رجلاً له مكانته في المنطقة، محترماً، وحكيماً، وغنياً، ونظر العمدة بحدة إلى الراعي ثم قال له: «أنت لص، وخادم لص، وإلاّ كيف كان بإمكانه الاستحواذ على مثل هذا العدد الكبير من المواشي الجميلة؟ إنك لص مواشي تسرق في الليل، وهو بلاشك المتسلم لهم بعد سرقتهم»، وأنكر الراعي هذا، وأعلن أنه هو وسيده كانا رجلين شريفين، وهنا تابع العمدة كلامه وأجابه قائلاً: «أنت تكذب، لأنك أنت لص صغير، وخادم لص، وإنني معتقلك، ومستولياً على المواشي، التي هي مسروقة قد تسلمها سيدك، لأنه يتسلم الأشياء المسروقة، وهو يسمنها ليبيعها»، وقام عند ذلك العمدة الغاضب، من دون أي سبب عادل، بالاستيلاء على الثيران، أو عهد بالمسؤولية عنها إلى أحد الأشخاص، وسجن الراعي، وحمله معه إلى بيته مبعداً إياه عن مكانه، وأكد بيمين رهيبة بأنه سوف (لنستخدم عبارته العامية والدارجة) يجعله يغني، وأثناء غنائه عن نفسه وعن سيده، سوف يجعله يعترف بالحقيقة، فيما يتعلق بالسرقات التي اقترفت، ثم إنه سجن الراعي، وعذبه بشدة وبكثير من الطرائق غير المعروفة للتعذيب، حتى أنه وصل إلى حافة الموت، وأخيراً وفي سبيل أن يوقف المعذب أعمال تعذيبه غير الرحيمة، التي ترافقت مع انذارات بالاعتراف قائلاً له: «اعترف، اعترف بأنك لص، فاعترف الرجل التعيس الذي كان شبه ميت بأنه كان لصاً، مع أنه لم يكن كذلك، ثم أمر العمدة بمثول الرجل أمامه، وخاطبه على الوجه التالي: «والآن وقد اعترفت بشكل مكشوف بأنك لص وخادم لص، وجاء ذلك مترافقاً مع سماع بعض الذين هم قادرين وراغبين بتقديم الشهادة ضدك، ولذلك سوف تدان ويحكم عليك بالشنق، فالمشنقة هي الشيء الوحيد الذي بقي لك، وأنا على كل

حال لدي السلطة في أن أشنقك وفي أن أطلق سراحك وأمنحك الحرية، ولسوف تكون حراً، إذا مااتهمت سيدك باللصوصية وأكدت ذلك بدون تردد أمام رجال العدالة، وقلت بأنك لص وخادم لص، وأنك أنت كنت الوكيل، وكان هو المحرض والمتسلم، وقام الخادم المرتجف، وكله خشية من أنه سوف يلقى به ثانية في المكان، الذي عانى فيه من العذاب، بالموافقة على هذا كله، وبناء عليه أمر العمدة بالاحتفاظ به في السجن لكن مع مزيد من الحرية أكثر من ذي قبل، وذلك حتى وصول رجال العدالة، وكانوا سيصلون خلال وقت قصير، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى سيد الراعي، الذي كان آنذاك يعاني من حمى، أرسل بعض الرسل الجيدين، وبتواضع توجه بطلب الرحمة من العمدة، لأنه كان في وضع حرج جداً، لأنه كان معرضاً للضغط حتى مواجهة الموت بنوعين من الاضطرابات، وأخيراً، وبعد بعض المتاعب، واستخدام وسائل كثير من الرشوة، حصل الرجل المريض على فرصة تأجيل، حتى زوال أزمته الخطيرة وتكون اضطراباته قد عبرت، ويكون هو قد استرد صحته بعض الشيء وتخلص من مرضه، وعندما أصبح ناقهاً، تشاور بنشاط ومتابعة مع محامين قادرين، حول سبل النجاة من الكمين الذي نصب له، وقد تلقى تعليمات كاملة منهم، واستراح واسترد صحته، وفي الوقت نفسه تابع العمدة تعذيبه للرجل البريء، وأصر على الاستمرار في نواياه الشريرة التي أبدعها، مع أنه التمس مه بوسائل لطيفة وودودة، وجرى حثه بوساطة هدايا ثمينة، على الاقلاع عن نواياه ومقاصده، وذلك في سبيل تهدئة الفضيحة التي ثارت.

وبعدما وصل رجال العدالة، وضع العمدة الراعي أمامهم، معتقداً بأنه كان مستعداً لاتهام سيده باللصوصية، وعندما كان الجميع هناك ضائعين في لجة الدهشة تجاه تلك الاجراءات بين مثل تلك الشخصيات المشهورة، جرى الاعلان عن الالتزام بالصمت، من أجل الاستماع إلى

الراعي وهو يقدم بينتـه، وقد فعل ذلك وفق الطريقة التاليـة حيث قال: «سادتي رجال العـدالة، أنا في الحقيقة لست لصاً، كما أنني لست رفيق او خـادم لص، لكن هذا العمـدة في سبيل التمكن من إمـاتة سيـدي، قـام بتعريضي يومياً إلى عذاب لا يحتمل، حتى أن صراخي أزعج الجوار كله، وقـد أرغمت علىّ الاعتراف بالذي رغب مني أنَ أعترف به، لا بل حتى بعـدمـا اعترفت بأنني لص(مع أنني لست كـذلك) قـال لي:« أمـا وقـد اعترفت بأنك لص، إن المشنقـة هي كل الذي بقي لك، غير أنني سـوف أطلق سراحك، إذا ما أبدلت البينة الملكية، واتهمت سيـدك باللصوصية، وإن جميع الذي وعدت به بعـد ذلك، وعدت به وأنا فاقد لمشـاعري من خـلال أعمال تعـذيبـه، وإنني الآن أحتج، وأعلـن، وأؤكـد بأنني خـادم مخلص لسيـدي، وأن الأوضاع الحقيقيـة للقضية وتفـاصيلها مـوضوعـة أمــامكم، وإذا مــا قــام أي انســان بمعـــارضتي، واتهمني أو اتهمــه باللصوصية، أو بأي جريمـة أخرى، فإننا سوف ندافع عن أنفسنا بشكل موائم، يتوافق مع قوانين وأعـراف المملكة»، وكان مولى الراعي حاضراً، وقـام بشكل مكشوف وصريـح بانكار الجريمة التي عـزيت إليـه، ودفع رجال العدالة انتباها دقيقاً وتقديراً وافياً لرواية الراعي، ذلك أنها حولت العمدة إلى مـوضع ريبة، وكـانت المنطقة كلها، لا بـل حتى بعض رجال العدالة عرفـوا بأن العمدة مشاكس، وشره، ومرتزق، وقـام مولى الراعي أيضـاً مـراراً في اجتماع عـام للمنطقـة بمعـارضـة الأحكام غير العـادلة، والقرارات القاسية التي أصـدرها العمدة، وفعل ذلك بحكم كونه رجلاً مستقيماً وحكيماً، وعلاوة على ذلك كان الراعي نفسـه وكذلك مولاه لهما سمعة جيدة غير ملوثة، ولم يتهما قط باللصوصيـة أو بأية جريمة أخرى، وكـان لجميع هذه الحقـائق وزنها لدى رجـال العـدالة، وكـانت أيضـاً منطقية، لكن بما أن العمدة كـان رجلاً في السلطة، وكان من أصل نبيل، وكان نائباً أعلى للملك، لم يختاروا اصدار قرار بعقوبة الاعدام ضده، مع أنه استحق ذلك، لأسباب كثيرة مضـاعفة، ووصلت صرخات الشكوى

من هذه القضيـة إلى مسـامع الملك ومسـامع بلاطه، وقـد أصيبوا جميعـاً بالدهشة تجاه ضخامة الجريمة، ووفقاً لما كان قد كتب:« أنا سوف أذهب نحـو الأسفل وأرى فيما إذا كان الصراخ مسـوغاً بالاجـراءات»، فأرسل الملك بعض الرجـال العقلاء والماهرين، كما كـانوا من ذوي المراتب، ممن لا يمكن ان يفسدوا لا من خـلال الخوف، أو الالتماسات، أو الرشاوي، وكلفهم بالقيـام بعملية بحث في هذه القضيـة، في سبيل أنه عندمـا يتم اكتشاف الحق، ينبغي أن يواجـه المجرم العقوبـة المستحقة، وبذلك يمكن انذار الآخـرين بذلك، فيخافـون من العمل وفق الطريقـة نفسها، وكـان الفـريق الذي أرسل لأداء هذه المهمـة هم: ايرل غلوستر، وايرل ليستر، وهـ .H وروبرت ويلران Walerann, وفـرسـان، وكـانوا جميعاً على معـرفة جيدة بقـوانين المملكة، وبعدما عمل هذا الفـريق بحثاً دقيقاً وشـاملاً تماماً، بوساطة فـرسان المنطقة، وجدوا آثامـاً أعظم جاهزة لتوجيه الاتهام بها إلى العمدة، وقد أخبروا الملك بها، وقد اعترته الدهشة تجاه الحقيقة، مثله في ذلك مثل الذين سمعـوا بالاجراءات التعسفية، وبما أن مـوتاً مهيناً على المشنقـة بات محيقـاً بالعمدة، بادرت زوجتـه مسرعـة كثيراً، وهي قلقــة للغـايـة، إلى ملك السكوتلنديين وملكتهم، وبدمــوع ونحيب التمست منهما التوسط لدى ملك انكلترا، لمنع ذلك الشر الكبير من اللحـاق بزوجهـا، وعــلاوة على ذلك، أشفق جـون مــانسيل على تعـاستهـا الكبيرة، فتكلـم لصـالح المرأة الشقيـة، وبما أن ملك سكوتلندا وملكتها قـد توسطا من أجل العمدة، ومع أنه كان مجرمـاً بكل وضوح، اختـار الملك عدم اغضـاب المتـوسطين، الذين كـانوا من ذوي المناصب والمراتب العاليـة، فمنح المحافظة على حياة العمـدة وعلى أطرافه، مع أن ذلك جاء ضد ارادته، وفعل ذلك وكأنه كـان مرغماً، لأنه كان قد انزعج كثيراً، ورغب في تحقيق العـدل، وهكذا حسبما قـال الرسـول:« بوسـاطة زوجة مخلصـة تم انقاذ زوج غير مخلص»، ولقد رأينا أنه كان أمـراً مفيداً اقحــام رواية كـاملـة حـول هذه القضيــة في هذا الكتــاب، حتى يعلم

القـاريء، كم هو مغضب للرب ممارسـة الطغيـان الشرير، والقيـام بالأفـاعيل الشريرة المؤذية للآخـرين، لأنه كما قـال الشـاعـر:« إنه يكفي بفعلك الشر أن تكون قادراً على فعل ذلك»، و«ولا تفعل شيئا لا ترغب فيها بعـد أن تكون لم تفعله، بـل دع عقلك يفكر بحـذر بالعمـل قبل اقدامك على عمله».

أصل الفريضة المقيتة التي فرضت على الأساقفة

في سبيل أن يعلم كل واحـد من قـرائنا ويفهم بوضـوح، عليـه آن يعـرف بأن هذه الفـرّيضـة المقيتـة التي صـدرت عن آسقف هيرفـورد، تأصلت في المقـام الأول لدى البـابا، وأن الختم العظيـم لم يكن زائفـا، ولقد رأينا من المفيـد، ادخال الرسـالة التالية في هذا الكتـاب، لنعيد إلى الذاكـرة حـالة العبـودية التي خضعـت إليهـا الكنيسـة مع الأسـاقفـة الحديثين.

الرسالة الشائنة للبابا

«من الاسكندر، إلخ، إلى ولده المحبـوب كثيراً، المعلم روستاند، إلخ:
بما أننا كنا قـد أمـرنا من قبـل بوجـوب دفع ألفـي أونصـة Ounces ذهب إلى بيرثولد Berthold, مـركيـز كمبردج، الذي هو وكيلنا من أجل إدارة شـؤون مملكة صقلية، وذلـك بوساطة أولادنا المحبـوبين كثيرا: رينـالـد، وريمير Reimer, وبيرفيـس Pervis, وسكوت Scott, وكرستوفر كولون Christopher Colon, ورفـاقهم تجار ومواطني سيينا، وبما أنه بمـوجب أوامـرنا أيضا، كـانت بعض ديرة مملكة انكلترا ملزمـة بأن تدفع إلى التجـار أنفسهم مبلغ ألفي مارك استيرليني جديد، وبما أن المركيز المتقدم الذكر واخوانه، لم يتذكروا المنافع الكثيرة التي تلقوها منا ومن كنيسة روما، فاقترفوا خيانة مكشوفة ضـدنا وضـد الكنيسـة نفسهـا، وضـد ولدنا المحبـوب كثيرا في المسيح،

الملك اللامع لانكلترا، وذلك في مملكة صقليـة،، ولاقترافهم لهذه الخيانة يستحقـون عـدلا أن يجردوا من جميع المنافع والانعـامـات التي أضفيت عليهم من قبلنا، وبما أنه لم يدفع من هذا المال سوى ثلاثمائـة أونصة من قبل التجار المذكـورين إلى المركيز واخوانه المتقدم ذكـرهم، نحن نأمركم بهذه الوسائـل الرسولية، وبمـوجب فضيلة طاعتكم، أن تقـوموا بجمع المال، أو أن تتـــدبـروا الجمع بوســاطـة أي واحـــد آخـــر، مـن الديرة والكنائس، وليكن هذا بوساطـة ابننا المحبوب كثيراً، المعلم برنارد أوف سيينا، الذي هو قسيسنا وسفيرنا، أو بوساطة شخص آخر، يكون زميلاً له، أي جمع الألفي مارك المتقدم ذكـرهم الذين جرى تعيينهم إلى التجار المتقدم ذكـرهم، وأن يحذف من التجـار المتقدم ذكـرهم ماقيمتـه تساوي الثلاثمائة مارك المتقـدم ذكرهم، وأن تتدبر تأمين تزويدك بالبقية من قبل المحتجزين للمال، ونحن علاوة على ذلك نـأمركم بردع جميع المعارضين والحاجـــزين لهذا المال بوســاطـة الروادع اللاهوتيـة، وأن تؤجلوا جميع الاستئنافـات، وبعدم التقيـد بأية رسـائل رسـوليـة، أو غفرانات جـرى الحصول عليها، أو سوف يجري الحصـول عليها من الآن فصاعداً، مهما كـان محتـــواها، حيث من الممكن أن يعـــاق بها دفع هذا المال، أو يجري تأخيره، ولاتعبأ مطلقاً بأن يكون الكـرسي الرسولي، قد قـام بوساطة أية رسائـل رسولية، بمنح اعفـاء أو غفران إلى أي واحـد، واستثناء من أن يجري تعليقه أو حـرمانه كنسيـاً، أو أن يوضع تحت الحرمان مـن شراكة المؤمنين، وبعـدمـا تكون قـد جمعـت أو تسلمت المال المتقـدم ذكـره من الحابسين، مهما كانوا، عليك القيام بمـوجب السلطات الرسولية بتحليل هذه الديرة والكنائس المتقدمة الذكر من الالتـزامات التي كانوا مرتبطين بمـوجبها بدفع المال المتقـدم ذكره إلى التجـار المتقدم ذكـرهم، ثم عليك عمل إعلان بأن الرسـائل والوثائق العامـة التي صدرت حـول مايتعلق بهذا الالتـزام سوف تكون غير نافـذة بالنسبة للمستقبل، وعليك أيضـاً، تقديرا منك لحظوتنا ودعوتنا أن ترسل أية مبالغ من المال قد تسلمتها

من الديرة والكنائس، ومن المعلم برنارد، ومن التجار المتقدم ذكرهم، ومن المحتجزين الآخرين، مهما كانوا، إلى ولدينا المحبوبين كاربوكو Carbuco وجيمس دي لاست Last, أو أي واحد منهما، ومن ثم إلى ج. J ريمير Remeir, وغيلبيرت أوف كريمونا، وإلى التجار الفلورنسيين، الذين أقرضونا بكرم مبلغ ألفي مارك استيرليني في سبيل تحصين المدن والقلاع، والأماكن الأخرى في مملكة صقلية، ومن أجل سداد بعض المدفوعات التي نحن وكنيسة روما ملزمين أنفسنا بها، ولاتتقيد أيضاً، بالرسائل الأخرى التي كنا قد أرسلناها لكم والمتعلقة بدفع مبالغ محددة من المال، وكذلك هذه المبالغ المذكورة، واسهامات أخرى سوف تعمل بشكل عام، وعليك أن تخبرنا برسائلك الموثقة عن مبالغ المال التي رأيت من الموائم تعيينها إليهم، وعندما يكون هذا المبلغ من المال قد دفع باسمنا، وباسم كنيسة روما، إلى كاربوكو المذكور وجيمس، أو إلى واحد منهما، نحن وقتها سوف نعتقد بأن ترضية كاملة قد أعطيت إلينا، وإلى الكنيسة المتقدمة الذكر، وعليك علاوة على هذا أن تسعى إلى تنفيذ أمرنا، أي أن كاربوكو المذكور وجيمس، سوف لن يكونا مرغمين على اللجوء إلينا ثانية، وعليك أيضاً أن تخبر الملك بأن هذا كله قد صدر عن نوايانا الطيبة نحوه، أما بالنسبة لرؤساء الرهبان، ورؤساء الرهبانيات، ورهبان الديرة والكنائس التي وضعت تحت الالتزام في هذه القضية جعلنا معلوماً لديهم في هذه العروض كمية المال، المتوجب على كل واحد من هذه الديرة، وعلى كل واحدة من هذه الكنائس، دفعه بموجب هذا الالزام، والمفروض على رئيس رهبان درم والدير فيها دفع خمسمائة مارك، وذلك بموجب سلطات الكرسي الرسولي، أما المفروض على باث فهو أربعمائة مارك، وعلى رئيس رهبان ورهبان دير ثورني مبلغ أربعمائة مارك، وعلى رئيس رهبان ورهبان دير كرويلاند Croyland أربعمائة مارك، وعلى رئيس رهبان ورهبان دير غيسبورن Gisburne من طائفة

القـديس أوغسطين ثلاثمائة مـارك. صـدر في أغنانو Agnano في الثاني والعشرين من حزيران، في السنة الثانية لحبريتنا».

حول رفض رئيسي رهبان ورهبان ديري درم وغيسبورن الخضوع إلى الإلزام المتقدم ذكره

وعندما سمع أساقفة انكلترا بأن البابا والملك، كانا متحالفين، حسبما ذكـرنا أعـلاه، من أجل اخضـاع الكنيسـة الانكليـزية، الأمـر الذي من الممكن فهمـه من الرسـالة المذكـورة أعـلاه، باتوا في حـالة من الحيرة، وظهـر وا وكأنهم قد سحقـوا بين حجري رحـا، وأصبحوا مثل رجـال عميان لايعرفون الذي عليهم عمله، وعلى كل حال رفض رئيس رهبان درم والتجمع الرهبـاني لدرم، ورئيس رهبـان غيسبورن ورهبـان الدير، اعطاء الموافقـة، ولابأي شكل من الأشكال، ورفضوا اخضـاع كنائسهم لمثل هـذا النوع من العبـــودية، وجـــاء ذلـك على الرغم مـن أن جميع الآخرين تقريباً قد انحنوا أمام بعل، وجثوا على ركبهم أمامه، وقد بقيوا على كل حـال واقفين بثبـات، يقـاتلون في سبيل حـرية كنيستهم، وعلى استعـداد بشجـاعـة لتحمل تعليق طويـل مع تنكيل البـلاط الرومـاني، وكـذلك الاهانات، والملامـات، والتهديدات الصـادرة عن التجـار، أو بالحري المرابين، هذا ولم يكـن لهم أي صـديق في ذلـك الصراع، وقـد حزنوا لذلك، وخاف البابا وحزبه من أن يقـوم آخرون بتقديم المساعدة إليهم في وضعهم المضطرب، وذلك صـدوراً عن الشفقـة، وأن يقومـوا بروح عدوانية مماثلة بالتعاون مع إخوانهم، لكن هؤلاء خافوا وارتعبوا، وحنوا رقـابهم إلى النير، وديس عليهم بأقـدام أعـدائهم، وهكذا لم يكن هناك من واسـاهم، أو قدم النجـدة إليهم، بل انقسموا، وتأرجحـوا إلى هنا وهناك وكأن الريح كـانت تحركهم، وفقدوا الإحسـان، فدافعت كل فئة عن الذي كان عائد إليها، وسقطوا في دفاعهم، وكان هذا سبب رفع جباه أعدائهم وشموخهم.

كيف هدّد ملك قشتالة بغزو غسكوني

وفي هذه الآونة، أخذ الملك الذي كان من دون مال، وبحاجة إلى المال، في جشعه إلى المال، بالاستيلاء على خمور الغسكونيين، دون أن يدفع إليهم أي مال، ولذلك عاد تجار الخمرة مع آخرين إلى ملك قشتالة، الذي كان وسيطاً وصانعاً للسلام بينهم وبين ملك انكلترا، وهو الذي أمر بتدوين بنود السلام وكتابتهم في صك، من الممكن الوقوف عليه في كتاب Additaments, عند علامة السيفين المتصالبين (؟)، وعندما سمع ملك قشتالة بهذه الإجراءات غضب غضباً شديدا، وأثير، لذلك انفجر في التوبيخ وقال: «أنا آسف لأنني دخلت بتحالف مع ملك انكلترا، الذي لايحافظ على عهده، ولاعلى صكوكه من دون خرق، والذي لايخجل من الحنث بيمينه، كما أنه لايخاف من الحصول على حكم قانوني بالحرمان الكنسي يجري إعلانه، وعلى كل حال، أنا مسموح لي، وموائم بالنسبة لي عدم الالتزام بالشروط (التي أبرمتها أنا مع واحد لايحافظ شخصياً على عهده)، ومع قسم رهيب هدّد بالقيام بغزو غسكوني، لوضعها تحت حكمه، وعلاوة على ذلك أعلن ملك فرنسا، لأن الهدنة قد انتهت، عن نية لم تكن أقل خطراً، وارتعب ملك انكلترا تجاه هذه الشرور التي أحاقت به، ولم يكن هذا أمراً ليس مسوغا، فأرسل جون غيتدين Gatesden الذي كان فارسا مع بعض الآخرين، رسلاً خاصين إلى ملك قشتالة، لإطفاء غضب ذلك الملك، وكان بين العبارات البليغة والمعتدلة، التي تفوه بها السفير الحكيم والمتعلم، حسبما روي هي الكلمات التالية: «مولاي الكريم، هل هناك كرم أعظم، أو لطف أكبر مما أظهره الرب القدير لبني البشر، من أنه قدم ابنه لتخليص وانقاذ كل واحد»؟، وعلى هذا أجابه الملك قائلا: «أنا لاأعرف، أنه يوجد، لأن ذلك هو الأعظم بين جميع المنافع»، ثم أضاف جون: «إن هذا مافعله ملك انكلترا نحوك، لأنه أعطاك ابنه الأكبر، وهو شاب وسيم في

شكله وشخصه، وهو الوريث لجميع الممتلكات، لذلك ينبغي أن لاتكون ياصاحب الجلالة غاضبا من مثل هذا الصديق، الذي يقدرك تقديره لأخ له»، وبذلك انطفأ غضب ذلك الملك، لكن غاستون وبعض الخونة الآخرين للملك انكلترا، قاموا معتمدين على حماية ملك قشتالة، برفع رؤوسهم، وحافظوا على مواقفهم الرافضة التي كانوا متورطين فيها.

احتلال مخادع لعمادة يورك

وفي حوالي الوقت نفسه، قدم أشخاص غير معروفين إلى كنيسة يورك، ودخلوا إليها بشكل سري، عندما كان الناس جالسين إلى المائدة منشغلين بتناول طعامهم، وسألوا واحداً كان يصلي هناك، عن المقعد الذي كان العميد يجلس عليه، وبعدما تلقوا الجواب، وأرشدوا إلى مقعد العميد، اقتاد اثنان منهم رجلاً ثالثاً إلى ذلك المقعد، وقالا له: «أيها الأخ، إننا بموجب سلطان البابا نتولى تنصيبك»، وعندما بلغ هذا إلى مسامع رئيس الأساقفة المعين حديثا، أي سيوول، الذي كان من قبل عميداً لتلك الكنيسة، قهره الحزن، تجاه اقتراف مثل هذا العمل المخادع، واستخدم كل الوسائل التي توفرت إليه وكانت بقدرته للحيلولة دون هذا التنصيب، لكن وكلاء هذا الإجراء ومقترفوه، ذهبوا إلى بلاط روما، حيث عادوا من هناك، وقد تمكنوا من تدبير المسائل، حتى أنهم تمكنوا من وضع هذا الرجل الصالح واللطيف تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، وجعلوه يتحمل خسائر كبيرة ونفقات، وقد تحمل رجل الدين هذا كله بصبر، في سبيل أن يظهر وهو يعاني، وهي المعاناة التي كان معلمه وصديقه، ورفيقه القديم، القديس ادموند، قد أخبره مسبقاً بأنها سوف تقع له، وأدهشت عملية الوقاحة هذه باقتراف الخديعة جميع الكهنة النظاميين، إلى حد أنهم جميعاً لم يعرفوا الذي عليهم القيام به، لأنه بدا لهم أمراً متناقضاً، وبعيداً عن المنطق، لابل في الحقيقة، أمراً مقيتاً السماح لمثل ذلك المنصب الكنسي النبيل، الذي هو منصب له أهميته

القصـــوى، بأن ينعم به على شخص مخادع وغير معـــروف، الذي أقحم نفسه ونصبهـا بطريقة عـدوانية، ومن ثم السماح بأن يستحـوذ على ذلك المقام في تلك الكنيسـة الفخمة، وهو المقـام الذي يعد الثـاني بعد رئـاسة الأساقفـة، غير أنهم كانوا في رعب عظيم وويل من طغيـان سلطة البابا، التي إليها أذعن الملك، أو بالحري إذا أردنا قول الحقيقة: جثا على ركبتيه.

كيف جرى ارغام الرهبان السسترشيان على دفع ضريبة

أصدر الملك أوامر بوجوب عـدم ابداء المراعاة نحو السسترشيان، بل يتوجب على عمد المناطق وبقيـة الوكلاء الملكيين إنهاكهم، وفقط العدالة ينبغي اظهارها نحوهـم، ولأنه كـان غاضباً تجاههم بسبب حصولهم على وسيط لصـالحهم، أعطى إذنه بوجـوب فـرض ضريبـة الجمارك عليهم، وهي الضريبة التي تعرف عـادة باسم ضريبة المرور، وأن تستخرج منهم لدى عودتهم من الاجتماع العام لهيئتهم الكهنوتية، وكان هذا إجراء جاء مضاداً بشكل مبـاشر لامتيازاتهم، ولأعرافهـم القديمة المصـادق عليها، ونتيجـة لهذا فإن كثيرين منهم الذين لم ينذروا من قبل أرغمـوا على بيع قلانسهم وثيابهم، ومعاطفهم.

موت بعض الأساقفة

في هذا المعـام نفسـه، وقع رئيس أسـاقفة بوردو، الذي كـان عجـوزاً وضعيفاً، مريضـاً مرضاً مميتاً وعندما خيل للنـاس أنه مات، مع أنه كان مايـزال شبه حي، حصل أسقف هيرفـورد (الذي كان متشـوقاً كثيراً إلى رئاسة الأساقفة تلك) على رسـالة من الملك، الذي وافقه على مشاريعه، لأنه كان جابي ضرائبـه [وانطلق من أجل الحصول على رئاسـة الأساقفة تلك]، ولكن عندما تبرهنت حقيقة أن رئيس الأساقفة مايزال حياً، فقد جهـده وأمـواله، وخضع بالاضـافـة إلى ذلك للسخـرية، وقـد قيل بأن القضيـة نفسها قـد وقعت مع المعلم لامبين Lambin, الذي نظم

بحقـه بيتان من الشعـر، وهما وإن كـانا بعيـدين قليلاً عـن موضـوعي، سوف أدخلهما هنا: «بوساطة دفع مبلغ كبير من المال، تطلع لامبين نحو الأسقفية، مع أن الراعي لم يكن قد دفن بعـد»، وفي حوالي الوقت نفسه مـات أسقف للانداف Llandaff, وجـرى تعيين آخــر محله، وفي بداية شهـر تشرين الأول من العـام نفسه، أخـذ المعلم تومـاس، أسقف كارلآيل، الذي كـان مثل أسقف آيل قد شغل أسقفيته لعـام واحد، من بيننا، وبمــوته ظهـر واضحــاً كيفيــة الانتقــال من الأمجاد المتأرجحــة للمناصب الدنيــوية، وأذعن وليـم أسقف إيلاي لمنيتــه في بلد أجنبي، حيث كـان مسافـراً في طريقه إلى اسبـانيـا، وفي الوقت الذي كان يقـوم بتنفيـذ إرادة ملكه الأرضي، وقــد سحب للمثـول أمــام محكمـة الملك الأعظم، وقد جلب قلبـه إلى كنيسة إيلاي ليـدفن هناك بكل مهابة، وفي يوم عيد جميع القديسين، حدث أيضاً أن تخلى المعلم روجر دي ويستهام Westham, أسقف شيستر عن أسقفيتــه، طواعيــة وبخيــاره الشخصي، ومات في الوقـت نفسه أيضاً جـون الكاهن النظامي، ورئيس رهبان دير نيـوبري Newbury, الذي كـان مثلما كان عليــه وليم أسقف إيلاي، الذي تحدثنا عنه أعلاه، صـديقاً مقرباً، ومستشاراً خـاصاً للملك.

الطلب الذي عمله الملك عندما كان النبلاء جالسين في بيت المال

في اليـوم الرابع الذي حلّ قبل عيـد القديس ادوارد في هذا العـام، ذهب الملك إلى بيت المال، عنـدمـا كــان البـارونات جــالسين هناك، وأعلن بفمـه بأن كل عمـدة سـوف لايظهـر في ثمانيـة عيـد القـديس ميكائيل من كـل عـام وفي كل عـام، ويقــدم للملك المال المجبي من الضمانات، والغـرامات، ومن المصـادر الأخرى، ينبغي تغـريمه لعـدم ظهوره، في اليـوم الأول خمسة مـاركات، وفي اليـوم الثاني عشرة، وفي اليوم الثالث خمسة عشر، وإذا ماغاب في اليوم الرابع، ينبغي أن يفدي

نفسه، وعُمل إعلان مماثل من قبل الملك ضد المدن التي تقدم حسابا إلى بيت المال بوساطة وكلائهن الملكيين، وقضى هذا الاعلان أنهن سوف يفقدن امتيازاتهن في اليوم الرابع، وفق الطريقة نفسها، التي يتوجب فيها على العمد الظهور، وينبغي أن يكون معلوما أيضا، أنه جرى في اليوم نفسه تغريم جميع عمد انكلترا، كل واحد منهم بمبلغ خمسة ماركات، لأنهم لم يقوموا بإرغام كل رجل في مناطقهم، بين يديه عشرة امتيازات من الأرض، لأن يصبح فارسا، أو يسأل التأجيل من الملك، بحكم أنه فرض عليهم ذلك برسائله الملكية التي وجهها إلى العمد.

انتخاب نائب رئيس رهبان إيلاي للأسقفية

ورغب الملك في رفع شأن هنري أوف وينغهام Wengham وتأييد قضيته، وهو الذي كان الحافظ لختمه، ولذلك أرسل رسلا خاصين، ورسائل التماس إلى رهبان دير إيلاي، يرجوهم بحرارة لانتخاب هنري المذكور ليكون أسقفا لهم، وراعيا لنفوسهم، لكن الرهبان أخذوا بعين التقدير معرفتهم بنائب رئيس الرهبان لديهم، وتوافقا مع المبدأ الكافر: «لاتفضل شخصا غير معروف لديك، على الذين معروفين لديك»، فانتخبوا نائب رئيس الرهبان المذكور هوغ دي بيليسيل Belesale, أسقفا لهم، رغضب الملك لرفض طلبه، ولذلك رفض قبول الأسقف المنتخب، وجاء رفضه اعتمادا على حجج تافهة، وقام إما بإصدار الأمر، أو رضي وتغاضى عن الذي عمله جون ويلران، الذي عهد إليه بالوصاية على تلك الأسقفية، فأسقط الأشجار، واستباح جميع المقتنيات، ونهب كل ماهو عائد لها، وجرى تنفيذ هذا بصورة فعالة أكثر مما أذن —أو سمح— وبلغ ذلك حدا أنه أبكى حتى أعداء تلك الأسقفية، وأثار القديس ايثيلرد Ethelred ودفعه إلى الانتقام.

كيف وضعت كنيسة القديس ألبان تحت الحرمان من شراكة المؤمنين

وفي حوالي يوم عيد القديسين سمعان وجود في هذا العام، وبسبب قسوة الاستخراجات البابوية، وضعت كنيسة القديس ألبان تحت الحرمان من شراكة المؤمنين لمدة خمسة عشر يوماً، ولم يكن ذلك لأنها جردت من امتيازاتها الشرفية، بل بسبب تلك العبارة المقيتة المضافة «دون التقيد»، فهي قد أضعفت المنح التقوية، وألغت سلطات الآباء المقدسين، واختارت الجماعة الرهبانية —بناء عليه— تنفيذ هذا الحكم غير العادل والعنيف، بكل احترام موائم، وآثرت ذلك على عدم الاقدام بطيش على رفضه، وذلك خشية من أن يجلب عمل التحدي، الاضطراب إليهم، ولذلك توقفوا عن قرع الأجراس، وعن إقامة القداسات اللاهوتية، وقاموا أثناء أيام الحرمان بتنفيذ قداسات الساعات النظامية والساعات المسائية، بصوت منخفض، وكانوا قد تلقوا التشجيع —على كل حال— من قبل جون دي ديا، الذي كان مكلفاً آنذاك بأعمال النائب البابوي في انكلترا، ثم إنهم أقاموا القداسات اللاهوتية بالطريقة المعتادة.

الفضيحة التي انبعثت في دير غلاستونبري

ونشبت في هذا العام بعض الخلافات بين أسقف باث وبين راهب من دير غلاستونبري، وهو شخص كان قد أقحم بالقوة بموجب سلطات الملك، وضد إرادة الأسقف، في ذلك الدير، وقد بدأ على الفور بطيش ووقاحة بترتيب كل شيء حسب رغباته، وعمل ختماً مزيفاً لنفسه، وفي الوقت الذي ذهب فيه الأسقف إلى روما، لملاحقة شؤونه وليحصل على امتيازاته، حدث نهب عام لممتلكات الدير، وقام هذا الشخص المقحم، في سبيل تقوية حزبه ضد الأسقف، فحشد جميع العاطلين والرعاع وجاء

بكل الذين تمكن من جمعهم، وقـام من أجل الأذى بـالشرف الديري، فـرسم ثمانية عشر واحـداً منهم، كـانوا بالفعل غير مناسبين، وفي اليـوم الثالث بعـد ذلك، جعلهم يصبحـون رهبـانـاً محترفين، ولم يظهـر أدنى خـوف، أو بالحري أية خشيـة من اقتراف الاثـم، أمـام الرب إلهنا، الذي قـال: «الـويل للرجل الذي منه تنبعث الفضـائح»، وأصيبت كنيسـة وينكستر، وتعرضت للاهانة من انقسام ممـاثل، ومثل الأدعياء الذين كان الأسقف المنتخب لوينكستر قـد جمعهم وعملهـم رهبـاناً، على الرغم من عـدم موافقـة رئيس الرهبـان، واستخفافـاً به، كـان الآن أن قام الرهبـان المكرسين بالمغادرة، وما من شيء آخر كان يؤمل منهم.

تثبيت رئيسي أساقفة دبلن ويورك في رئاسة أساقفيتهما

وفي حوالي هذا الـوقت، وبعون الرب، وبعـد كثير من المضار الكبيرة التي ألمت بأبرشيتيهما، جرى تثبيت المعلم فـولك باسيت، رئيس أساقفة دبلن، والمعلم سيـوول رئيس أسـاقفة يورك، بقـوة، كل واحـد منهما في منصبه، وهكذا تناقصت سلطة الملك —بسبب أخطائه— يومياً، ومعها أيضاً كرامة المملكة.

جباية العشور من قبل أسقف هيرفورد

ولم يقم أسقف هيرفورد أية تقـدير لمنفعة المملكة وصالحهـا، بل ركز اهتمامه فقط على الذين يمكن أن يقـود إلى منفعته، ولذلك جبى العشور لنفسـه في ايرلاندا، وفي المناطق المجـاورة، وكـان ذلك بوسـاطة اذن من البابا والملك، وقد تجمع ذلك في مبلغ كبير، وهو قـد أقام التقدير واهتم بالمكافأة على أعماله، وبالجائـزة على خيـانتـه، ولذلك جبى هذه العشـور بشـدة، الخجل يمنعنا مـن ذكـر طرائق الجبـاية التـي مـورست، وبما أن الغش نادراً مـاجرت ممارسته مـن دون خوف، فقد تجول وهو خـائف، وقد أحاط نفسه بمرافقة مسلحة.

كيف جرى تثبيت أندرو رئيس الرهبان المقحم في وينكستر في منصبه

جـرى في هذا العـام تثبيت أندرو المقحم في منصب رئيس رهبـان وينكستر، وذلك بفضل التـوزيع السخي للهدايا في بلاط رومـا من قبل الأسقف المنتخب لذلـك المكان، وكـذلك بفضل الجوائـز والأعطيـات السيمـونيـة والالتماسات التي قـام بها رئيس الرهبـان المقحم شخصيـاً، الذي دان بتنصيبـه إلى الأسقف المنتخب، أمـا بـالنسبـة لرئيس الرهبـان الماضي، فإنه بعدما تحمل كثيراً من المتاعب في رحلته عبر الألب، وبعدما أنفق كثيراً من المال، وشاهد الضرر الكبير الذي ألم برئاسة رهبانيته، بعد هذا كله جـرى تزويده ببعض العـزب لينفق على نفسه ويعيـش، أمـا بالنسبة لرهبان الدير الذين كـانوا قد تفرقوا، فقد جـرت دعوتهم بأوامر سلطوية لـلاجتماع ثانيـة، وصـدرت الأوامـر عـن الأسقف المنتخب، وترافقت مع التهديد بعقوبـة التكفير، وهكذا فإن مثل هذه الانشقاقات المخـزية ألمت يومياً بالكنائس الـديرية الفخمة في انكلترا، وقـدمت هذه الانشقاقات التي نشبت بسبب الخلافات ومطامح المجموعات المتنافسة، الطعام إلى البلاط الـروماني، فبهذا الخلاف وحده، جاءت إضـافة دخل سنوي، وربح مقداره مارك فضي واحد يومياً لتزويد مائدة البابا.

عودة رئيس أساقفة كانتربري إلى إنكلترا من إيطاليا

في حوالي أيام عيد القديسة كاترين، وصل رئيس أساقفة كانتربري من إيطاليـا، بعـد كثير من الانفـاق للمال الانكليزي مـن دون فائـدة، وبعـد متـاعب بلاثمار، وبعـد كثير من الاضطرابات، وقـد حصل على قليل من المنفعة في الحرب ضـد مدينة تورين، كما أن أخاه تومـاس، الذي كان من قبل كـونت فـلاندرز، لم يطلق سراحـه، ولم يخرج من السجن في تلك المدينة، مع أن السافـونيين بذلوا كل جهودهم لإطـلاق سراحه، ولم يكن

مفيداً أيضاً أن البابا استخدم كل جهوده في سبيل اطلاق سراحه، وكتب إلى ملكة انكلترا ضد سكان تورين، وضد مصالحهم ولأذاهم، ولقد قيل بأن توماس المذكور، ألحق بظلمه، كثيراً من الأضرار بالسكان المذكورين.

كيف سعى الويلزيون وقد وجدوا أنفسهم مظلومين إلى استرداد حرية بلادهم

وفي حوالي يوم عيد جميع القديسين، قام الويلزيون، وقد ظلموا بطرق كثيرة مضاعفة، وغالباً ما جرى بيعهم إلى الذي كان يدفع أكثر، قاموا وقد ظلموا إلى أبعد الحدود بطغيان وكيل الملك الفارس غيوفري لانغلي Langley, وثاروا بأنفسهم من أجل الدفاع عن بلادهم، وفي سبيل الالتزام بقوانينهم، وبعدما أقاموا تحالفات، قاموا بغزو مقاطعات انكلترا المجاورة وهاجموا رعية مولاهم ادوارد، الذي لم يكونوا آنذاك قد اعترفوا به على أنه سيدهم، وحققوا نجاحاً كبيراً في حملتهم الحربية، إلى حد أنه قيل بأنهم استقبلوا برضا السكان المجاورين، وعندما سمع ادوارد بهذا، طار ملتجئاً إلى عمه رتشارد، وذلك بحكم أن الملك بات بلا جد وفقير، فاقترض أربعة آلاف مارك منه، وقد عزم على ضبط طيش ووقاحة الويلزيين، وأن يعاقبهم على جرأتهم، وأراد شن الحرب ضدهم إلى حد افنائهم، لكن شتاء ذلك العام كله كان ممطرا وكثير العواصف، وبما أن بلاد ويلز كلها كانت من دون طرق، وذات طبيعة مستنقعية، كانت منيعة ويتعذر الوصول إليها من قبل الانكليز، وهكذا جاءت جهود ادوارد التي بذلها، والأموال التي أنفقها من دون نهار وبلا محصلات، ثم إن غيوفري المتقدم ذكره ندم —ولكن جاء ذلك متأخرا كثيرا— لأنه أثار الحرب، ولوحشيته في نهب الويلزيين، مثلما كان قد فعل قبل عدة سنوات مضت للشعب في شمالي انكلترا، ولقد كان هناك بعض الذين قالوا بأن غيوفري، أقدم برضاه أو بغير رضاه، على التسبب بخسارة ادوارد بقدر ما كان بإمكانه أن يفعل.

أعمال العنف التي اقترفت من قبل أتباع ادوارد

أحدث خدم ادوارد وأتباعه اضطراباً وازعاجاً لسكان المنطقة التي مروا بها، وذلك بالقيام بنهب ممتلكاتهم، وبإهانة أشخاصهم، وإنه بسماحه بمثل هذه الدرجة من العنف وإلحاق الأذى جعل الناس يقارنون مافعله بالذي اقترف من قبل والده الملك، فوجدوها أقسى بكثير، لأن الوحوش وقطاع الطرق الذين احتفظ بهم في بلاطه، نشروا أنفسهم بالطول وبالعرض، واستولوا بالقوة وصادروا الخيول وعربات التجار، ومؤن السكان، ونظرا لبشاعة أفاعيل الظلم التي اقترفت من قبل وكلائه، رأيت من المناسب والمفيد ذكر تفاصيل واحد منها إلى القراء، فعندما ذهب ادوارد المذكور، كما روينا من قبل، إلى الايرل رنشارد، وجده في وولنغفورد Wallingtord, حيث استقبل هناك بلطف، وعومل بمثابة ضيف في القلعة، وشق أتباعه بالوقت نفسه طريقهم إلى داخل رئاسة الرهبانية، ولم يطلبوا الضيافة، حسبما جرت عليه العادة، بل دفعوا من دون احترام الرهبان جانباً، واستولوا على ما كان ضروريا لتزويد مائدتهم، وعلى الوقود، وعلى الأعلاف لخيولهم، وكسروا الأبواب، والنوافذ والمقاعد، وأهانوا خدم الرهبان، وشتموهم وضربوهم، وكأنهم كانوا عبيدا، أو اقترفوا أعمال سرقة، وطردوهم من أماكنهم، وبصعوبة بالغة سمحوا للرهبان أنفسهم باستخدام قاعة الطعام، لأن قاعة الاستقبال كانت مملوءة بالذين كانوا يأكلون، ومهجع النوم كان مشغولا من قبل الشاربين، وحين رغب أصدقاء ادوارد باقتراف هذه الآثام، عزوها ليس إلى سوء الأخلاق، بل إلى طيش الشباب، غير مقدرين ماتكهن به لوكان وقاله: «إن عمر طاغية النيل موضع شك كبير، لأنه حتى يكون الإيمان الجيد ثابتاً، يتطلب ذلك نضوجا بالسنين».

ولم يعبأ الويلزيون في الوقت نفسه، ولم يخافوا من طغيان ادوارد

وأتبـاعه، ولذلـك شقوا طريقهم بعيـداً حتى شيستر، وتغلبـوا على جميع العوائق، ونهبوا كل شيء رأوه على طريقهم، ولم يكن قطاع الطرق هؤلاء مساوين أبداً، حتى للذين جلبهم لويس مرة وأدخلهم إلى انكلترا معه.

المرسوم الجديد للملك

وفي حوالي الوقت نفسه أيضاً أعطى الملك أمراً دقيقاً، أنه لايجوز مطلقاً ختم أية مـذكرة بالختم الملكـي، واصدارها من بلاط المستشـار، يمكن أن تكون مسببـة للأذى أو الخسـارة إلى أخيـه رتشـارد، وإلى رتشـارد ايرل غلوستر، وإلى بطرس أوف سـافوي، أو إلى أي واحـد من إخوته، وكـان من الواضح أن هذا المرسوم معارض لجميع الحقوق، وإلى سلام المملكة.

البحث الدقيق حول المكاييل

أمـر الملك رجالاته في هذه الآونـة القيام ببحث دقيق وتفتيش حـول مكاييل الخمـرة والبيرة التي نسميهـا Flagons أو Gallons, وحـول مكاييل القمح التي نسميهـا Bushels, وحـــول أوزان الميازين وهكذا وجه ضرباته إلى هنا وهناك، حتى يفرض الغرامات على البريء وعلى المذنب سـواء، وبذلك يضيف مـالاً إلى خـزانتـه، حتى بوساطة معـاقبة المذنبين أكثر مما يستحقون، وهكذا جـرى اختراع أعذار مخادعــة يوميــاً من أجل استخــراج المال، وقـد حـدث في كل مكان الاستيـلاء على المقتنيات الصغيرة للبـاعة، ولم تقـدم أية تعويضـات على الذي جرى الاستيلاء عليه، لابل كانت الفئة المسروقة حتى مسرورة إذا ماتدبرت النجـاة من دون إهانات ولكمات، وهكذا مثلما حدث مـؤخراً في قضيـة الفـريضـة الإلـزاميـة التي تعـرف بشكل عـام باسـم قضيـة السيرجاندية، نبعت الأسبـاب لاستخراج المال، الآن كثيراً من خـدمات البـلاط، من ذلك الارغام بأن يصبح بعضهم فـرساناً، والتفتيش حـول المكاييل وحول قضـايا أخرى كثيرة مخترعـة، كان دافعها شراهيـة ذئبية،

وتزايدت أعمال السلب والنهب والاغتصـــاب هذه، مـدمـرة للمملكة، ومستعبـدة للكنيسـة، وقد توفـر الآن في انكلترا عـدد كبير من الطغـاة، وكأن العصور القـديمة قـد تجددت، فهذا ماظهـر عندما قـام عدد كبير جداً من الملوك الصغار بفرض إرادتهم هناك.

ازدياد المظالم اليومية ومضاعفتها ضد الكنيسة

وأصغى الملك في حوالي الوقت نفسه إلى أسـوأ النصائح، فقبل قرضاً بمبلغ كبير جـداً من وكلاء البـابا، من أجل ترقيـة ابنه ادمـوند إلى ملك مملكة صقلية، وبـذلك تقيد بقيود أعظـم حالات الفقر الكاملـة، والبابا الذي ينبغي أن لايغش وأن لايُغش، قد آمن بتأكيـدات الملك وصدقها، مع أنه كـان بـإمكانه أن يراها —لو أراد ذلك واختـاره— بأنها كـانت كلها خداع وزيف، لأن الملك، أعطى البابا في رسائله إليه الانطباع، بأن انكلترا منجماً للثروة، لايمكن لأحد أن يستخرج كل مـافيه، وأيضاً بأنه لم يكن هناك قط من قبل قـد وجد ملك في انكلترا كان محبـوباً مثله، أو غنيـاً مثلما هو، مع أنه كـان بإمكان البابا أن يعـرف العكس من خـلال عدد من أصدقائه المقربين الذين كانوا آنذاك موجودين في روما، وكانت الفـائدة المقـررة على هذا المال، والعقوبات التي جناها الملك من خـلال ذلك، قد وصلت إلى مبلغ مقداره أكثر من مـائة باوند يومياً، وعلى هذا أحاق الدمار ومعه العزلة عن قرب برجال الدين والناس في انكلترا.

خلع ستيفن رئيس رهبان أوف كليرفو

وجرى في هذا العام، أن تعرض ستيفن، الباني لدير تشاردني Char-denay الفـاخر في باريس للعـزل بعـدما سـار خطوة خطوة على طريق سلفه القـديس برنارد، وجاء خلعـه في المؤتمر الأخير العام للهيئة الرهبانية لطائفة السسترشيان، لكنه كان مثل يوسف، تحمل بصبر حسد أخوته وتعـذيبهم له، لأن الكراهية تهاجم بالعـادة الرجال ذوي المكانة،

وقد اتهم بأنه حصل من البابا على امتياز بعـدم جواز حرمانه من مكانته ورتبته، بل ينبغي أن يستمر إلى الأبد رئيسا لرهبان كليرفو، وهو ما كان مضاداً لمبـادىء السسترشيان، لكن هذا الاتهام كـان زائفا، حسبما تبرهن ذلك بوضـوح فيما بعد، وعندما جـرى اخبار البـابا بحقيقة القضيـة أمر بإعـادته إلى منصبه، وعـاقب في الوقت نفسـه بشدة الذين اتهمـوه، هذا ورأى ملك فـرنسـا، وإن كـان صـديقـا متحمسـا وحـاميا لطـائفـة السسترشيـان، أنـه ستكون هناك فضيحـة كبيرة سـوف تلحق بتلك الطائفة، إذا مـاجرى إلغاء قرار مثل أولئك الأشخـاص المتنفذين، ومن ثم إعادة أي واحد خلعوه في المؤتمر العـام لهيئتهم الرهبانية، وكتب بهذا الرأي إلى البـابـا، وحصل على الذي طلبـه، وقـام ستيفن أيضـا برفض إعادة التنصيب، في سبيـل أن لايتعرض نفوذ طائفتـه للأذى، وأعلن أنه تحرر من العبء، ولم يتعرض للاهانة، وأنه الآن أكثر حرية مما كان عليه عندما كـان رئيسا على جماعتـه، حسبما كان من قبل، وأن هذا كـان أكثر لصالحه ومنفعته، وهكذا فإنه مع أنـه كان عظيماً من قبل، صار الآن عن حق أكثر عظمة.

حول رفض الويلزيين الإقلاع عن الإجراءات الحربية

ومع أن الملك نفسـه، وكذلك الايرل رتشـارد، حاولا منع أية إعـاقة لمحـاولة تسـوية قضايـا المصاعب، ورجـوا بتـواضع الويلزيين للاقـلاع —ولو على الأقل— لبعض الوقت، عن أعمالهم العـدوانيـة والحربيـة، رفضـوا البقـاء بهدوء وسـلام، لأنهم رأوا أن فصل الشتـاء الممطر كـان لصـالحهم، وأن مواضع مكامنهم هـي سهلة الوصول إليهـا من قبلهم، لكنها كانت صعبة كثيرا ولايمكن النفاذ إليها من قبل الانكليز، ولذلك تابعـوا الأعمال العسكرية، وهاجموا غـريفين دي برونيت Griffin de Brunet لأنه طلب حماية الملك، وعندمـا هرب للالتحاق بالملك، طاردوه عن قـرب، وبما أنهم لم يتمكنوا من اعتقـاله، اجتـاحوا أراضيـه

بالنار والسيف، وكـذلك أيضـاً أراضي بعض البـارونات من جيرانه، وكان هناك من هؤلاء الويلزيين عشرة آلاف خيّال مسلح، وعـدد كبير جداً من العساكر الرجالة، الذين دخلوا في حلف، وأقسمـوا بجـرأة واخلاص على الأناجيل بأن يقاتلوا حتى الموت في سبيل حرية بلادهم وقوانين أجدادهم، وأعلنوا أنهم يؤثرون الموت بشرف على العيش حياة غير سعيدة في ظل المهانة، وهذا الموقف الرجولي والشجاع، يحق له أن يلحق العار بالانكليز بشكل محق، الانكليـز الذين بكسل وخنوع حنوا رقابهم إلى الأجـانب، وإلى كل واحـد داس عليهم، وكأنهم رعـاع شريرون، وحشاله الجنس البشري.

وقاحة إدوارد وأتباعه

ولم يشعر ادوارد ولابقليل من الخجل أو الأذى، من ثورة الويلزيين، وكـذلك من شجـاعتهم، وذلك بسبب أنـه كـان يـدعى باسم مـولى الويلزيين، ومع هذا لم يستطع ضبط إجراءاتهم الثورية، وبناء عليه ذهب الابن مرة ثانية إلى أبيه وأمـه، وكذلك إلى عمـه، وتقدم بالرجـاء إليهم ليمنحوه مساعدة فعالة، لكن الملك كـان مثقلاً بالديون، في مقـاطعات مـاوراء الألب، وقـد أقـرضـه الايرل كثيراً مـن المال، حيث عجل له فأسلفه مبلغ أربعة آلاف مارك، وكانت الملكة قد بددت أموالها بلافائدة وأنفقتها على الحرب ضد تورين، وعلى هذا كـانت موجوداتهم من المال قد تلاشت إلى حد أنه لم يعد بإمكـانهم مساعدة ادوارد بأية طـريقة من الطرق، ولأن أبناء الملك —حسبما عمت الأخبـار بين النـاس في كل مكان— كان يسعى لسحق الانكليـز، قـام سكان التخـوم سريّاً بإبداء العاطفة نحو الويلزيين وتشـاوروا معهم، وكان من الأسبـاب الرئيسية وراء ذلك ان ادوارد احتفظ بخدمته برجـال ألحقـوا الأذى بالكنيسـة والمملكة، وبات اكيـداً وحقيقيـاً أنه لم يكن بين أتبـاع لويس الذي غـزا انكلترا بجـرأة ووقـاحـة قطاع الطرق، مثـل الذين احتفظ بهم ادوارد

المذكـور في خـدمتـه وأبقـاهم في بلاطه، ونظراً لأعمالهم الشريرة الكثيرة وأفاعيلهم، أعتقد أنه من المفيد أن نـذكر في هذا الكتاب خبراً من أخبار طغيان ادوارد (وذلك بالاضافة إلى الخبر الذي سلف أن ذكرته من قبل) من أجل أن يرى قـراؤنا في أية متاهة من اليأس غـرقت انكلترا، فعندما كان عـابراً في منطقة آمنة من البلاد، في أيام السلام، قابله شـاب، فأمر ادوارد، من دون امتلاك أية حجة للقتل أو التشويه أعطاه إياها الشاب، بقطع احدى أذنيه، وباقتلاع احدى عينيه، الأمر الذي جرى تنفيذه، مع أن ذلك كـان مضاداً لكل أحكام العـدالة، وعندما شـاهد كثيرون هذا، لابل عندمـا استعادوا إلى ذاكـرتهم الأذى الهائل والدموي الذي اقترفـه بحق أحد النبلاء، عندما كان أصغر سناً مما هو عليه الآن، وقتها شرعوا بمقته، وعلقوا على ذلك متسائلين: «إذا كان هذا قد وقع عندما الشجرة خضراء، مـاالذي يمكن أن نرجـوه عنـدمـا تصبح عجـوزاً وجـافـة»؟، وعلاوة على ذلك استولى أتباعـه على كل شيء كان معروضاً للبيع، دون أن يدفعـوا شيئاً، واستـولوا بالقـوة على الخيـول، وعلى العـربات، وعلى سـائقيهم، وظلمـوا السكان من دون رحمة، وهكـذا تكدست الشرور يومياً فوق الشرور، والخسائر فوق الخسائر.

كيف جرى إرسال وفد من جامعة باريس إلى روما

تزايدت الفضـائح والبغضاء يوميـاً بين المعلمين الباريسيين والرهبـان الدومينيكان، وبعـد كثير من المداولات الكبيرة، اختاروا بعضاً مـن أكثر الأسـاتذة المحاضرين شهـرة، وكان هؤلاء: المعلم وليم دي سينت أمـور Amour, والمعلم أودو أوف دويـا Douai, اللذان كـانـا عضوين في مجلس الجامعة في الآداب، وفي صيـاغة المراسيم البابوية، وفي اللاهوت أخيراً، والمعلم كـرستيـان، وكـان كـاهناً نظاميـاً من بيـوفيـا Beauvais, الذي عدّ عن جـدارة رئيساً للفـلاسفة، وذلك بعـدما كان عضـواً في مجلس الجامعة في الآداب، ومحاضراً في اللاهوت، والمعلم

نيقولا أوف بـار— سور— أوبي Bar- Sur- Aube, الذي كان عضواً في مجلس الجامعـة في الآداب، والقوانين، والمراسيم، وكـان يستعد ليكون محاضراً في اللاهوت، والمعلم جـون دي غيكتافيل Gectaville, وهو انكليزي، كان يدرس علم البـلاغة في الجامعة، والمعلم جون بيلين، وهو فرنسي، وكـان فيلسوفـاً، صاحب سمعـة عاليـة، وعضواً في مجلس الجامعة في الآداب، ولقد جرى اختيـار جميع هؤلاء الرجال، الذين كانوا من أسر مشهـورة، بعد مـداولات عميقة، ومشـاورات كبيرة (لأن الثقة كانت قـد زالت) اختيارهم للذهاب إلى روما، وللتشاور مع البـابا حول الوسائل التي يمكن بها الحفـاظ على سلام جامعـة باريس والهدوء فيها، وحـول كيفية استعـادة الثقة، ولاسيما وأن هذا الشر قـد هدّد بأن يتطور فيصبح أكبر، وقـد جرى جمع المال لتغطيـة نفقات رحلتهم من الجامعـة، وكان الرهبـان الدومينيكان —كما ذكرنا من قبل— يـدرسون، ويعظون، ويعلمون بعض العقائد الجديدة والمتناقضة، كـانوا قد أخذوها من كتاب رئيس الرهبـان واكيم Joachim, الذي كـانت كتاباته قـــد أدينت من قبل البابا غـريغوري، كما أنهم صنفوا أيضاً كتابـاً، قرروا أن يمنحوه العنوان التـالي: «هنا يبدأ الانجيل السرمـدي»، وكان يحتـوي على عقائـد أخرى ليس من اللائق القيام بذكرها، وأرسل الرهبان الدومينيكان أيضاً رسلاً إلى روما بسرعة كبيرة للمرافعة والدفاع عن قضيتهم ضد الجامعة، وللوقـوف في وجه وفـد المعلمين ومعـارضتهم وجـاهياً، وسخـر الناس منهم، وأوقفــوا دفع صـدقــاتهم المعتـادة إليهم، وأطلقــوا عليهم اسم منافقين، وخلفاء المسيح الدجال، ومبشرين زائفين، ومرائين، ومستشاري سـوء للملوك والأمـراء، وخلفـاء مقيتين للمبشرين العـاديين، ومتطفلين مفضوحين على غـرف نوم الملوك، ومتلقين مراوغين للاعترافـات، وهم رجـال تراهـم متشردين في المناطق حيث كـانـوا غير معـروفين، وحيث كانوا يقدمون التشجيع والجرأة للمـذنبين، وبعدما سمع البابا الشكايات من على الجانبين، أمـر بالكتـاب الـذي سمـوه «الانجيل السرمـدي» بأن يحرق بشكل سري، وإذا أمكن من دون إثارة فضيحة وإلحاقها بالرهبان،

وأمر بالشيء نفسه بالنسبة للكتابات الأخرى، التي قيل بأنها صدرت عن نبع واكيم الفاسد، وتمّ تنفيذ هذا بحذر وهدوء وسرية، بفضل حرص ومتابعة الكاردينال هوغ، مع أسقف ميسينا، اللذان انتميا إلى طائفة الدومينيكان، وبذلك هدأ الاضطراب لبعض الوقت.

انفجار مفاجيء من تحت الأرض

وفي حوالي الوقت نفسه، بينما كان بعض العمال يحفرون في أسفل قناة لجر المياه لتنظيفها من الوحول (لأن الماء كان قد توقف عن الجريان) حدث انفجار مفاجيء صدر من تحت الأرض، وقد ترافق مع لهب مشابه لنار الجحيم، تمكن خلال طرفة عين من خنق عدد من العمال، وقتل واحدا منهم على الفور، وأحرق، وشوه وعطل أعضاء آخرين، أصبحوا عاجزين تماما ومن دون فائدة لأنفسهم بعد ذلك أبدا، وقد كان هنالك بعض الذين قالوا بأن هذا الانفجار قد حدث بوساطة معجزة، بسبب أن هؤلاء العمال انشغلوا في عمل ممنوع في ساعة غير موائمة من المساء.

مختصر أخبار العام

وعلى هذا انتهى هذا العام، الذي كان خصبا إلى حد ما في الفواكه والقمح، أما بالنسبة إلى الكنيسة والأساقفة فقد جلب أسوأ أنواع العبودية وأكثرها شرورا، وإلى الفرنسيين الحسد نتيجة لترقية الايرل رتشارد، وكان عام نهب بالنسبة لانكلترا، وقحطا أو باطريا مؤذيا أكثر مما ينبغي للأرض المقدسة، وقد جلب الحرب إلى ويلز، والاضطراب وانعدام الهدوء إلى سكوتلندا، وكان العام ممطرا وعاصفا فوق الحدود، إلى حد بدا فيه وكأن أيام الطوفان قد تجددت، فمن يوم عيد صعود العذراء المباركة، إلى يوم عيد طهارتها، لم يتوقف المطر عن الهطول بشكل غزير يوميا، مما حوّل الطرقات وجعلها غير قابلة للعبور، وجعل الحقول قاحلة، ولذلك اهترأ القمح وهو في السنابل عند نهاية الخريف.

عام ألف ومائتين وسبع وخمسين

كيف جرى انتخاب الإيرل رتشارد ملكاً لألمانيا

عـام ألف ومـائتين وسبع وخمسين لتجسيـد الرب، الذي هو العـام الحادي والأربعين لحكم الملك هنري الثالـث، وكان الملك في لندن أيام عيـد الميلاد، وهناك كـان قـد احتشد الايـرل رتشارد مع عـدد كبير من النبلاء، حيث كان قدم إليه عدد من مقدمي الناس في ألمانيا، وقد أعلنوا بحضـورجميع المحتشدين، بأنهم قـاموا بمـوافقة عـامة بانتخـاب الايرل رتشـارد، انتخابـاً صحيحاً، ملكاً على ألمانيـا، وهم الآن يطلبـونه ليكون ملكهم ومولاهم، إذا ماوافق على رغباتهم، وكان رئيس أساقفة كولون، والمستشـار الأعلى للامبراطورية المقـدسة، وبعض النبـلاء الآخـرين من ألمانيا، قـد بعثوا بوسـاطة هؤلاء الرسل الخاصين، رسائل مـوثقة، تحمل بينات حول الاجماع في الانتخاب، وتؤكد ذلك وتثبته، وتعلن أن ما من أحـد جرى قط انتخـابه إلى ذلك المنصب، بعفـوية وبالاجماع مثله الآن، وذلك أمام القليل من العوائق، وعندما كان الجميع في حالة تردد وشك حـول مـاينبغـي عمله بالنسبـة لهذه القضيـة، لأن وجـود الايرل كـان ضرورياً بالنسبـة لمملكة انكلترا، خـاطب الملك الجميع وقـال: «إنني أنصحكم وأرجوكم أن لاتدعوا الجبن يظهـر، بالرفض وبعدم قبول هذا التشريف الـذي منح إليكم وقـدّم من قبـل السماء، وبني البشر»، وفي الوقت الذي عبر فيـه بعضهم عن خوفهم، على أسـاس أنه خلال مـدة عـدة سنوات قلائل، جـرى انتخاب شخصين، ومن ثم جـرت ترقيتهما إلى حكم ألمانيـا، ثم وصلا إلى نهايتهما بوسـائل بشعـة، خاطب آخـرون الايرل بكلمات مطمئنة، حيث قالوا: «أيها الايرل الأكثـر عقلاً وحكمة، لماذا أنت متردد، وكأنك مرعوب من سـوء حظ اللاندغريف هنري، أو من الموت البشـع للكونت وليم الهولنـدي؟ إنه ليس البـابا هـو الذي يقحمك في هذا المنصب بالقـوة، بوعدك بما هو ضروري من منهـوبات

الكنيسة، ومن سلب الذين حملوا الصليب، الأمر الذي لن يكون مفيدا لك، لأن هذه الأموال التي حصل عليها البابا بشكل غير صحيح، قد أثارت مشاعر الناس، ليس لتقديم الرحمة، بل للغضب، فهناك مبلغ من المال، قد جمع من مملكة ألمانيا، هو محفوظ باخلاص لصالحك ولاستخدامك، كما أن لديك كميات وافرة من المال خاصة بك، وكأنك أوكتافيان آخر، كما أنك مدعوم بأصدقاء ألمان وكذلك انكليز، كما أنك محاط بأقرباء وكأنك محاط بسور، فلاتدع بلادة الرفض أو الجبن تتغلب عليك، وتجعلك كسولاً ومتراخيا، بل تشجع وتمتن لخدمة الرب، ولاتكن مثل روبرت كورتهوز Curthose دوق نورماندي الذي تهيأت له الظروف مرة، عندما كان يقاتل في سبيل الرب في الأرض المقدسة، حيث عرض عليه بشكل عفوي وبإلهام من السماء لأن يكون ملكاً على مملكة القدس، حتى يتمكن من الحكم على ميراث المسيح، وقد رفض هذا العرض بعناد، فأحس بعد ذلك بغضب الرب الحاد، بسبب هذا الرفض، ولم يواجه قط بعد ذلك أي سعادة أو ازدهار، وقام الملك أيضاً ومعه اخوته، وبشكل خاص الأسقف المنتخب لوينكستر فأعطوه تشجيعاً حيويا لقبول هذا العرض، وأعلن بأن هذا التشريف سوف يرفع من شأن الدولة الانكليزية إلى الأبد، وعند الفراغ من هذا الإعلان، تشجع الايرل وصار رجلا، ولأنه حمل أمالاً عظيمة، قال بصوت متشوق: «وأنا واثق برحمة الرب، ومع أنني ضعيف وغير جدير، أنا على استعداد لأن أتولى بنفسي حمل هذا العبء، وهذا التشريف الذي منح إليّ، وكذلك أنا آمل، بحق السماء، أن لايقال عني متخاذلا وجبانا»، وأضاف بعدما أدار وجهه نحو الأساقفة الذين كان واحد منهم رتشارد بانغور Bangor (الذي روى هذه الحقائق إلى كاتب هذا الكتاب): «وبالنسبة لي، انني قبل أن أغادر هذه البيعة، لعلني أتعرض للحرق بنار أبدية، وأن أموت موتا مفاجئا، اذا كنت سأفعل هذا صدورا عن المطمح أو الشره، أو لأي سبب آخر غير تحسين

أوضاع تلك المملكة، الأمر الذي أرجو أن يعطيني الرب القدرة على فعله، وأن أحكم بكل عدل، واعتدال، وشرف، هؤلاء الذين قاموا بشكل عفوي باختياري لأكون سيدهم»، وأعطى هذا الخطاب الذي جعل كثيرين يبكون، أعطى السرور الأعظم للرسل الألمان، الذين كانوا حتى الآن شاكين حول قبوله، ولقد تأكدوا الآن من قبوله، ومن نواياه الطيبة نحوهم، ولذلك انطلقوا عائدين مبتهجين، وأخذوا طريقهم نحو الوطن، لايصال الخبر حول ذلك إلى النبلاء الذين أرسلوهم، وقد تمكنوا من الوصول خلال عشرين يوماً بعد يوم عيد الميلاد.

السبب الذي دعا نبلاء ألمانيا إلى انتخاب الإيرل رتشارد

كره النبلاء الألمان (الأعظم بينهم هم الذين جرى ذكرهم في المقطع التالي) تجبر الفرنسيين، وقد أغضب أحدهم الآخر، وهكذا لم يقع اختيارهم على أي رجل فرنسي، أو أي واحد من ذلك الجنس، لأن يحكمهم، كما أنهم لم يرغبوا في اختيار أي واحد من بينهم أنفسهم، بسبب خلافاتهم الداخلية، لأن الألمان عنيفين وحادين، و«كل رجل متفاخر سوف يكون عديم الصبر في القاعة»، كما أنهم لم يختاروا ايطالي أو روماني، مبتعدين عن أصدقاء البابا بسبب نهمهم الذي لاحدود له، وبناء عليه قاموا بعد تداول دقيق وتشاور، فانتخبوا الايرل رتشارد، وأيضاً بحكم تكلمه اللغة الانكليزية، التي مشابهة بالصوت للألمانية، لأنهم يمتلكون أصلا واحداً قديماً وحديثاً، فالأصل القديم يمكن اكتشافه من التواريخ، أما الحديث فيمكن تتبع أثره في أيامنا من أصل دوق برنويك Brunswick, ودوق سكسوني، ومن نسب الامبراطور أوتو، الذي كان ابن امرأة انكليزية، أي ابنة هنري، ملك انكلترا، وأنا أقول: إنهم اختاروا الايرل رتشارد، على أساس اخلاصه، وثباته، وحكمته، وكذلك أيضا على أساس ثروته، ولذلك قال أحد الشعراء الهجائين «المال يصرخ ويقول من أجل خاطره، تزوج كورنوول Cornwall من روما».

قائمة بأسماء مقدمي ألمانيا

فيما يلي أسماء مقدمي ألمانيا الذين عليهم يعتمد انتخاب ملك تلك المملكة، التي هي كما هو معروف خاضعة للامبراطورية الرومانية: رئيس أساقفة كولون، الذي لقبه هو المستشار العالي للامبراطورية الرومانية المقدسة»، ولكن هذا اللقب هو أدنى مكانة من لقب رئيس الأساقفة، ورئيس أساقفة مينس Mayence ورئيس أساقفة تريفي Treves, وملك بوهيميا، والكونت الملكي للراين، ودوق النمسا، ودوق سوابيا، وكونت بافاريا، ودوق بولاندا، ومركيز مايخ Miche, ومركيز براندنبيرغ Brandenburg, ودوق سكسوني، ودوق برونويك، ودوق كارينثايا Carinthia, ودوق ميلاي Melaye ودوق برابانت ولوفين Louvaine, ولاندغريف ثورونجيا، ومركيز مايس Mise, وبين جميع هؤلاء النبلاء، الأكثر تميزاً والأعلى مكانة هو رئيس أساقفة كولون، الذي كان مكلفاً بموجب عرف قديم مقرر، أن يتولى تتويج ملك ألمانيا في اكس لى شابيل.

كيف أرسل الإيرل رتشارد بعض الأشخاص الموثوقين إلى ألمانيا ليتعرفوا على نزعات النبلاء

وكان ايرل غلوستر وجون مانسيل رجلين حكيمين ولهما نفوذهما، ذلك أرسلا مسبقاً باسم الايرل، إلى ألمانيا، ليكتشفا الرغبات الصافية وغير المشوبة للنبلاء حول القضية المذكورة أعلاه، وقد وجد هذان المندوبان أن كل شيء كان مناسباً، وأن قلوب مقدمي تلك البلاد، وكذلك نزعاتهم واخلاصهم هي للايرل، حتى أنهم أقسموا على الفور بتقديم الولاء والاخلاص له، وجرى تسليم مفاتيح بعض المدن والقلاع إلى هذين الرسولين.

كيف وضع الفرنسيون الذين كرهوا الألمان خططاً لاعتقال الرسل

وعندما علم الفرنسيون بهذه الحقائق بدأوا يشعرون بخوف كبير، من أنه إذا مانجح الايرل رتشارد في الحصول على عرش ألمانيا، حسبما كان الطريق آنذاك مفتوحاً له، سوف يلحق الأذى بمملكتهم، وذلك بالمطالبة ومن ثم استرداد حقوق ملك انكلترا، ولذلك وضعوا خططاً للايقاع بالايرل رتشارد وبرسله واعتقالهم، وسعوا إلى اضعاف عزيمة وقرار بعض نبلاء ألمانيا، بالخضوع إلى الايرل المذكور، وبذلك خيل إليهم أنهم سوف يعيقون جزئياً أو كلياً ترقيته إل ذلك المنصب السامي، ولكن بفضل الرب، وقف الألمان بثبات أعظم إلى جانب الايرل في تلك المسألة، وذلك بسبب الكراهية التي كانت قائمة بين الفرنسيين والألمان، ولأنها كانت متجذرة، كان الذي لايرضي الفئة الأولى، كان يعتقد أنه مفيد للفئة الثانية، وعندما اكتشف الفرنسيون نتيجة محاولتهم، أخذوا وهم حزينون يواسي أحدهم الآخر.

كيف واسى الفرنسيون أحدهم الآخر

كان الامبراطور أوتو رجلاً عظيم الشجاعة في الحرب، وغنياً بوساطة أموال ملك انكلترا، وهو قد جاء من أصل مختلط انكليزي— ألماني، وعندما ارتقى إلى تسلم الامبراطورية الألمانية هدّد نبلاء مملكة فرنسا، وبسبب ذلك أحيطت باريس بسور، ولذلك هو لم ينجح، ومجدداً قام فردريك الذي كان أغنى أباطرة الرومان وأكثرهم قوة، والذي كان أيضاً أكثر ملوك الأرض دهاء، بالدخول في تحالف مع ملك انكلترا، حيث أنه تزوج من أخته، وأنفق أمواله في سبيل تدمير المملكة الفرنسية، لكنه لم ينجح في محاولاته التي وعد فيها بتقديم العون لملك انكلترا، هذا ولقد كانت قدرة الايرل رتشارد أدنى كثيراً وأقل إخافة بالنسبة لنا، لأنه كان

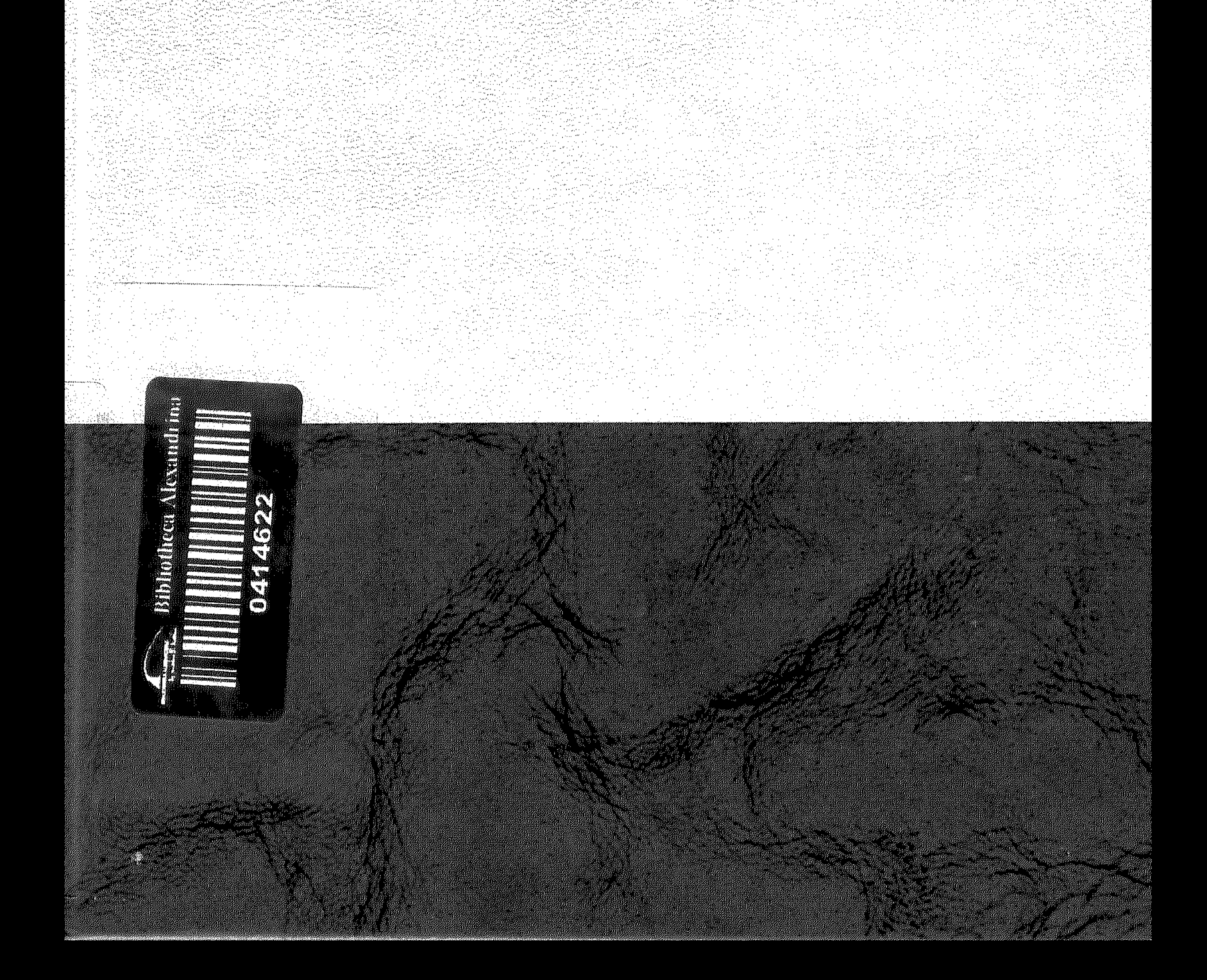
جبانا وبليهاً، وعديم الخبرة في شؤون الحرب، وحتى الآن قدم الرب العون إلينا، وبفضل وساطة وعون القديسين العائدين لهذه المملكة نحن دوما منتعشين تحت حماية جناحيه، وإذا كنا في الأرض المقدسة، حيث قاتلنا مؤخراً في سبيل الرب وفي خدمة الكنيسة، قد عانينا من الكوارث المضاعفة بسبب ذنوبنا، فإنه مع ذلك وهو في غضبه سوف يتذكرنا برحمته.

كيف قام الملك الفرنسي بجولة في نورماندي وفي المقاطعات الحدودية

اتخذ الملك الفرنسي —على كل حال— احتياطات من أجل المستقبل، وقام بجولة في نورماندي في حدود مملكته، لتشجيع قلوب الذين كانوا يرتجفون ولتقوية دفاعات المدن والبلدات وترميمها، وقد طمأن نبلاءه وشجعهم، وخاصة الذين ندعوهم النظراء الاثني عشر لفرنسا، ومثلما قدمنا أعلاه قائمة بأسماء مقدمي الناس في ألمانيا، الذين عليهم يعتمد انتخاب الملك، أعتقد أنه لن يكون غريبا على موضوع هذا الكتاب تقديم قائمة بأسماء النبلاء الفرنسيين، خاصة أولئك الذين تتعلق بهم إدارة الأمور الصعبة، المتعلقة بالمملكة الفرنسية.

النظراء اللاهوتيون لفرنسا

رئيس أساقفة الرايم، وهو الذي يتولى مسح الملك الفرنسي بالميرون المقدس (ولهذا السبب يعد الملك الفرنسي هو الأكثر عظمة بين جميع الملوك)، ولذلك هو المقدم، والأكثر تميزا بين جميع نظراء فرنسا، وأسقف نويون Noyon, الذي هو كونت ملكي، وأسقف بوفيا Beauvais, الذي هو أيضا كونت ملكي، وأسقف تشالون Chalons, وأسقف لانغري Langres, الذي وإن كان فقيراً يحتل مرتبة عالية، وأسقف ليون، الذي هو دوق وكونت بفضل القديس ريمي، لأن إليه نزل الميراث الشهير.


Bibliotheca Alexandrina
0414622